تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر

(١٧٨٩ - ١٩١٤)

دكتور
صلاح هريدى



تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ / ٠٣ الإسكندرية

تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر

تاريخ أوربا الحديث والمعاصر

د. صلاح أحمد هريدى على

كمبيوتر: (دار الوفاء)

طباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة - بلوك رقم٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيـــداع: ٢٠٠٢/٤٦٤٢

الترقيم الدولى:977-327-236-2

تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر

(١٧٨٩ - ١٩١٤)

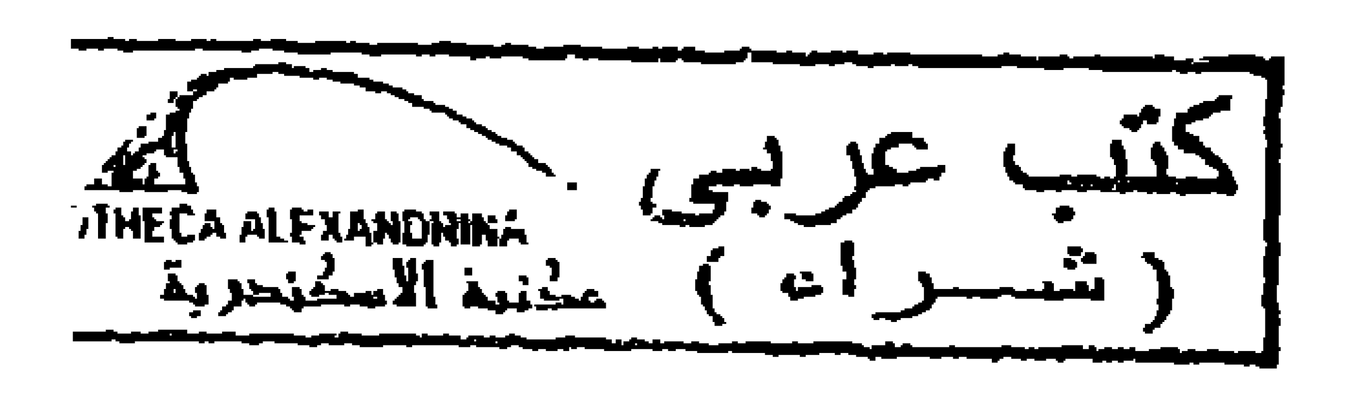
دكتور

صلاح أحمد هريدى على

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية

٢٠٠١ - ٢٠٠٢



الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

رقم التسجيل

مقدمة

يتناول هذا الكتاب تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر في الفترة من عام ١٧٨٩م حتى عام ١٩١٤م وهي فترة قيام الحرب العالمية الأولى وعلى هذا فقد تناول الفصل الأول الثورة الفرنسية، حيث تحدث عن فرنسا قبل الثورة، والأسباب المتعددة التي من أجلها قامت الثورة فكان منها أسباب فكرية، حيث ساهمت مؤلفات المؤلفين مثل فولتير [١٦٩٤م - ١٧٧٨م]، وآراؤه، ومونتسكيو [١٦٨٩م - ١٧٥٥م]، وجان جاك روسو [١٧١٢م - ١٧٧٨م] في إذكاء روح الثورة. كما أسهمت دائرة المعارف الكبرى أيضا في ذلك، أما الأسباب الأخرى فتتمثل في الأسباب السياسية مثل انهيار النظام الحكومي وضعف السلطة السياسية الملكية الممثلة في أسرة البربون، والكنيسة، والقضاء وإسراف الملكة ماري أنطوانيت، ولا يخفى علينا العوامل والأسباب الاجتماعية، حيث شملت نظام الطبقات والذي تمثل في الأشراف ورجال الدين والطبقات الدنيا، وغير ذلك، ثم تعرضنا بعد ذلك للأزمة المالية والاقتصادية، ومحاولة خبراء الاقتصاد الفرنسيين إصلاح المالية الفرنسية مثل تورجو [١٧٧٤م - ١٧٧٦م] ونكر [١٧٧٦م - ١٧٨١م] وكالون [١٧٨٧م - ١٧٨٨م]. والمحاولات التي قاموا بها من أجل إصلاح الاقتصاد الفرنسي، ولكن دون جدوى، وما شهدته فرنسا من أحداث أدت في النهاية إلى قيام الثورة.

أما الفصل الثاني، فقد تناول أحداث الثورة الفرنسية في مراحلها المختلفة وشملت الفترة من [١٧٨٩م - ١٧٩٩م] حيث تناولت الأحداث

السياسية وموقف الجمعية الوطنية الفرنسية وما اتخذته من قرارات، وموقف الملك لويس السادس عشر من ذلك، حتى أدت تلك الأحداث إلى سقوط الباستيل، ونتائج ذلك والحوادث التى شهدتها فرنسا وموقف الثورة من الملكية والكنيسة ومواجهة الأزمة الاقتصادية، وما شهدته فرنسا من أحداث، وأثر ذلك على الدول الأوروبية الأخرى، الأمر الذى جعلهم - أى أوروبا - يتحدون ضد رجال الثورة مما أدى إلى قيام حروب ضد فرنسا وخاصة بعد إعدام الملك والملكة، وقيام حكومة الإدارة، وإصدار دستور ١٧٩٥م وما يتضمنه من مواد، الأمر الذى أدى إلى استعانة رجال حكومة الإدارة بنابليون بونابرت وما حققه من انتصارات فى الأراضى الإيطالية، والحملة الفرنسية على مصر وظهور نجمه فى السياسة الفرنسية وانتهى به الأمر باستدعائه لفرنسا وتقلده الأمور هناك.

أما عهدى القنصلية والإمبراطورية، فكان عنوان الفصل الثالث، حيث تم تشكيل حكومة القنصلية، وبينت موقف نابليون من الكنيسة الفرنسية، وعقد اتفاق الكونكوردات معها، وإصدار دستور القنصلية وأهم ما يتضمنه من مواد، وإصلاحات نابليون فى المجالات المختلفة مثل المحاكم، والتعليم بمراحله المختلفة والتنظيم الإدارى والإصلاحات العامة. وإدخال تعديل سياسى على الدستور الفرنسى، ثم اتجه نابليون بعد ذلك للسياسة الخارجية لفرنسا، ومحاربة التحالفات الأوربية التى تكونت ضد فرنسا، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى نظام الإمبراطورية، والأسباب التى أدت إلى ذلك، وأثر ذلك على حالة فرنسا، نتيجة لاتباع مثل هذه السياسة، الأمر الذى أدى إلى تكتل الدول الأوروبية ضد نابليون، وانتهى الأمر بسقوطه، وتعرضنا للعوامل التى أدت إلى سقوط

نابليون، مما أدى إلى عقد معاهدة باريس الأولى، والدعوة إلى عقد مؤتمر يبحث فيه دراسة الأوضاع التى خلفتها حروب نابليون وأدى ذلك إلى عقد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م.

أما بالنسبة لمؤتمر فيينا [١٨١٤م - ١٨١٥م] ونظام المؤتمرات، فهو عنوان الفصل الرابع، حيث تم التعرض لعقد هذا المؤتمر، والأسباب التى من أجله تم عقده، ويرجع ذلك إلى إعادة الأوضاع إلى أوروبا مرة أخرى، نتيجة لحروب نابليون وإعادة رسم خريطة أوروبا من جديد، وأدى ذلك إلى ظهور مبدأ جديد فى العلاقات الدولية وهو أن اللجوء إلى نظام المؤتمرات يؤدى إلى حل المشاكل السياسية بدلاً من اللجوء إلى الحرب، وعقد المؤتمر بالفعل من الدول الأربع الكبار إنجلترا - النمسا - الروسيا- بروسيا، ثم نجحت مساعى تاليران وزير خارجية فرنسا إلى ضم فرنسا، فأصبح المؤتمر لجنة خماسية، وانضم العديد من الدول الذين وصل عددهم إلى نحو مائة دولة، ولكن القرارات واللجان والتوصيات كانت تصدر عن طريق اللجان المشكلة من الدول الخمس الكبرى وقامت بعد ذلك التحالفات مثل التحالف المقدس، والتحالف الرباعى، ولجوء أوروبا بعد ذلك إلى عقد المؤتمرات لحل بعض المشاكل التى ظهرت فى أوروبا مثل مؤتمر إكس لاشابيل عام ١٨١٨م، بخصوص بحث مسألة جلاء الجيوش الأجنبية من فرنسا، ومؤتمر كارلسباد عام ١٨١٩م لبحث مسألة الأراضى الألمانية ومؤتمر تروباو سنة ١٨٢٠م وهو خاص بمسألة الأراضى الإيطالية ومؤتمر ليباخ سنة ١٨٢١م، لبحث الثورة التى قامت فى نابلى وموقف الدول الأوروبية من ذلك، ومؤتمر فيرونا ١٨٢٢م، الذى عقد أساساً لبحث الثورة اليونانية ضد الحكومة العثمانية، ثم فوجىء المؤتمر

بقيام الثورة في أسبانيا، وأدى ذلك إلى بحث الثورة الأسبانية بدلاً من الثورة اليونانية، وموقف الدول الأوروبية من ذلك، وختم هذا الفصل بظهور مبدأ مونرو الأمريكي ١٨٢٣م والخاص بالثورات التي قامت في أمريكا اللاتينية ضد الحكم الأسباني .

أما الثورة التي قامت في فرنسا عام ١٨٣٠م والأسباب التي أدت إلى قيامها ونتائجها ، فكان عنوان الفصل الخامس وتناولنا فيه، عودة أسرة البربون إلى حكم فرنسا [١٨١٥م - ١٨٣٠م] بعد سقوط نابليون، بادئاً بلويس الثامن عشر [١٨١٤م - ١٨٢٤م] والأوضاع السياسة التي شهدتها فرنسا وموقف الشعب الفرنسي بفئاته المختلفة، وما تلا ذلك من اعتلاء ملوك آخرين مثل شارل العاشر وغيره. وبالنسبة لنتائج الثورة الفرنسية، فكانت ممثلة في ثورة بلجيكا عام ١٨٣٠م ضد الهولنديين، وموقف الدول الأوروبية من هذه الثورة وخاصة إنجلترا وفرنسا، وانتهى الأمر بحصول بلجيكا على استقلالها بمقتضى معاهدة ١٩٣٩م. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الثورة في بولندا تحت الحكم الروسي عام ١٨٣٠م ونتائج ذلك على الوضع في بولندا، والثورات في إيطاليا وموقف الدول الأوروبية، وأثر هذه الأوضاع على أوروبا.

أما الفصل السادس فهو بعنوان "المسألة الشرقية وحرب القرم [١٨٥٣م - ١٨٥٦م] فقد تحدثنا فيه عن الأسباب التي أدت إلى قيام حرب القرم مثل: الأسباب الدينية وهي خاصة بالأراضي المقدسة والأسباب السياسية وكانت نتيجة لظهور الحركات القومية في أوروبا وموقف الدول الكبرى من هذه المسألة مثل النمسا، وروسيا القيصرية، وإنجلترا، وفرنسا وقيام الحرب، وانتهائها بعقد مؤتمر باريس ونتائجه.

أما الوحدة الإيطالية وخطواتها، فهو عنوان الفصل السابع، حيث تعرضنا لحالة الأراضي الإيطالية السياسية، ودور كل من كافور وماتزيني، وأيقن كافور أن الوحدة لن تتم إلا بمساعدة قوى خارجية، ووجد ضالته في فرنسا حيث ساعدته ممثلة في شخص الإمبراطور نابليون الثالث، وأدى ذلك إلى عقد اجتماعات مثل اجتماع بومبير، وقيام الحرب بين مملكة بيدمنت ومعها فرنسا ضد النمسا، وانتهى ذلك بانتصار بيدمنت، واتخذت بعد ذلك خطوات انتهت في المرحلة الأخيرة بتحقيق الوحدة وتم لها ما أرادت.

وبالنسبة للفصل الثامن فهو خاص بالوحدة الألمانية، وجهود بسمارك في ذلك، واتباعه سياسة تجاه القوى الأوروبية وخاصة في حل بعض المشاكل مثل شلزويج وهولشتين ضد الدانمارك فاتحد مع النمسا في هذه المسألة، ثم استطاع أن يحيد فرنسا في حربه ضد النمسا وهي الحرب المعروفة بالحرب البروسية النمساوية، وأيقن بعد ذلك أن الوحدة لن تتم إلا بمحاربة فرنسا، وتم له ما أراد، وحقق انتصاراته عليها في معارك منها سيدان، وفرض على فرنسا شروطاً قاسية، وحقق الوحدة الألمانية محققاً انتصاراً هائلاً على فرنسا، مستقطعاً جزءً من أراضيها فارضاً غرامة حربية ضخمة، تاركاً جيوشاً ألمانية محتلة بعض أراضي فرنسا، لحين سداد الغرامة الحربية، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحين الفرنسيين الفرصة للانتقام بعد هزيمة عام ١٨٧٠م في سيدان. وهذا في حد ذاته من ضمن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى.

أما الفصل التاسع وهو بعنوان المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، ويتناول هذا الفصل طبيعة المشكلة الشرقية وظهورها، وكان ذلك نتيجة لضعف الدولة العثمانية، وأطماع الروسيا فيها وترتب على ذلك قيام

الحرب الروسية العثمانية، حيث انتصرت الروسيا وفرضت معاهدة سان استيفانو على الدولة العثمانية وموقف القوى العظمى من ذلك مما دعا بسمارك إلى الدعوة لعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م ونوقشت فيه الأوضاع فى أوروبا، والأوضاع داخل الدولة العثمانية والنتائج التى ترتبت على ذلك.

وتناول الفصل العاشر التحالفات الأوروبية التى قامت بعد عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، حيث تم التعرض إلى العلاقات بين القوى العظمى، وخاصة سياسة الروسيا تجاه بريطانيا العظمى، وسياسة بسمارك تجاه كل من الروسيا والنمسا وبريطانيا، مما أدى إلى قيام تحالفات ظهرت واضحة فى التحالف الإنجليزى اليابانى والوفاق الفرنسي البريطانى [١٨٩٥م - ١٩٠٥م] وأثر ذلك على الأوضاع فى أوروبا وما ترتب عنها من نتائج.

أما الأزمات السياسية فى أوروبا قبل قيام الحرب العالمية الأولى ١٩٠٥م - ١٩١٣م، فهو عنوان الفصل الحادى عشر، حيث تناول هذا الفصل، الأزمات التى سبقت الحرب العالمية الأولى مثل أزمة مراكش الأولى، مما أدى إلى عقد مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦م، وأزمة البوسنة سنة ١٩٠٨م، والسباق البحرى بين القوى العظمى، ثم حادثة أغادير سنة ١٩١١م، ومسألة ألبانيا، والحرب البلقانية [١٩١٢م - ١٩١٣م] وسياسة ألمانيا الحربية، مما أدى إلى قيام الحرب العالمية الأولى، وانقسام الدول المتحاربة إلى كتلتين، والأسباب التى من أجلها دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب وما ترتب على ذلك.

وهذا ما تم التعرض له فى هذا الكتاب الذى شمل تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر فى الفترة من عام ١٧٨٩م وهو عام قيام الثورة الفرنسية حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م.

وعلى الله قصد السبيل،

الإسكندرية فى ٢٠٠٢/١/٣٠

د. صلاح أحمد هريدى

الفصل الأول

الثـــورة الفرنســـية

فرنسا قبيل الثورة

لم تكن الثورة الفرنسية حدثا هاما فى تاريخ فرنسا فقط وإنما هى أحد أبرز أحداث القارة الأوروبية والعالم المتمدين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ذلك أنها بالفعل نقطة تحول أساسية فى تطور النظم السياسية والاجتماعية فى أوربا. فقد وضعت حدا للنظام الملكى القديم القائم على الاستبداد والمستند للحق الإلهى فى الحكم وفتحت الباب أمام نظم جديدة – ملكية كانت أو جمهورية تقوم على حرية الشعوب والمساواة بين أفرادها وتستمد سلطانها من إرادة المواطنين وتعمل تحت رقابتهم بشكل أو بآخر.

فأوروبا كانت كلها تشكو مما شكت منه فرنسا: الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم، والطبقات الممتازة تهيمن على خيرات البلاد فى كل مكان، والكنيسة باسم الدين. تتمتع بامتيازات لا حد لها وبإعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة، والحريات العامة لا وجود لها إلا فى ضمائر الأحرار ومخيلاتهم، والشعوب لا سيطرة ولا سلطان لها على مقدارتها ومصائرها. فالثورة الفرنسية جاءت لتعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلولا تصلح لفرنسا كما تصلح لغير فرنسا فى حالات كثيرة. وقد جاءت أحداث القرن التاسع عشر تثبت كيف أن الثورة أصبحت، بالنسبة لشعوب أوروبا المظلومة المسلوبة الحقوق، مدرسة ورائدة فى مجال التحرير والإنعتاق فتأثرت بها واستنارت بكثير من مبادئها وقيمها الجديدة لمعالجة المفاسد من أوضاعها السياسية والاجتماعية[1].

---

[1] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة، بيروت ١٩٧٣، ص ١٩، ٢٠.

إن العوامل والأسباب الأساسية لانـدلاع هـذه الثـورة كثيرة ومتشابكة حتـى ليصعب تعدادها وحصرها، ثم إن أكثرها يعود فـي جذوره الأصلية ما قبل الثـورة بكثير وربما عاد بعضها إلى أيام لويس الرابع عشر حين بدت فرنسا في أحسن حالاتها وفي أوج قوتها وسؤودها. ولعل بالإمكان أن هذه الأسباب بما يلي:

أولا: الأسـباب الفكـرية:

وقد يكون أن المصادفـات الغريبـة أن القرن الثـامن عشر فـي أوربا قـد تميز بتيار جارف من الأفكار والمنقدات التي لم تسبق في أوروبا، وليس غريبا بعد ذلك أن يجرى وصفه على السنة المؤرخين والمفكرين وفيما خلفوا من تراث أن يوصف بعهد الاستنارة Age of Enlightment، ففيه انقشع الظلام وبـدأ الفكـر الحـر يفيـق مـن ثباته لينطلق في سائر أنحاء الحياة. لم يكـن هـذا اللـون مـن ألـوان الاستنارة قـاصرا على فرنسا وحدها بل هو قد عم كثيرا من بلاد أوروبا. علـى سبيل المثـال ألمانيا، وفيما ظهر فريـق مـن أئمة الأدب والفلسفة، مثل جوته Goethe وشيلر Schiller وهردر Herder وفيلاند Wieland.

وظهر أمثـال هـؤلاء فـي إنجلترا مثل الفيلسوف "ديفيـد هيـوم" David Hume (١٧١١-١٧٧٦). وجون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) وهـو صـاحب رسالة فـي طبيعة التفاهم البشري وهـو أول مـن نـادى بـالفكرة المنطقيـة فـي طبيعة الحكم ونظامه، وآيايتها ألا تقدم حكومـة مدنيـة إلا إذا رضيها المحكومين، كمـا كـان مؤمنا بالتسامح الديني. وعن مذهبه الفكرى ومذهـب معـاصره (اسـحق نيوتـن) بوجـه خاص تسربت إلى فرنسا طائفة من التيارات الفكرية[٢].

---

[٢] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشـر، دار الفـكر العربـي، القـاهرة ١٩٧٦، ص٢٥،٢٦.

وتقول زينب راشد ومع ذلك كله فلا ينبغي أن يفوتنا أن المفكرين في فرنسا في هذا العهد كانوا أئمة وقوادا لهذه التيارات الفكرية التي تهتف بالدفاع عن حقوق الأفراد وحرياتهم الدينية والمدنية. فكان فولتير رائد الدعاة وقائد المبشرين بالمذاهب الإنجليزية الجديدة في فرنسا، وكان من أنشط كتاب زمانه، وأخلدهم ذكرا، وأطولهم عمرا، وألمعهم شخصية، وأعمقهم أثرا، كما كان روسو ومنتسكيو من أشهر كتاب فرنسا يومئذ.

ومن الواضح أن أبرز ما امتازت به الحركة الفكرية في فرنسا هو الاهتمام الشديد بتغير حال المجتمع، فكان لفلسفة "لوك" أثرها في الاتجاه نحو تطبيق الفكر الإنساني مع التحرر من القيود الدينية للتخلص من أضغاث العصور الوسطى وإصلاح حالة الفرد. ومن ثم شغلت الأذهان في فرنسا بالمشاكل المختلفة من اجتماعية وسياسية ودينية. ولم تعد قاصرة على رجال الأدب والطبقة. الأرستقراطية، بل تعدتها إلى أفراد الطبقة الوسطى والمتعلمين من شباب الجيل، وذلك أمر ميزها عن حركة النهضة. وازدهرت في فرنسا تبعا لذلك طائفة من ألوان الأدب الفلسفي والإنساني من الرسائل والبحوث التاريخية والفلسفية والتربوية والتمثيليات بأنواعها. ونشأت بعض الكليات في الأقاليم، وأنشئت الجمعيات الأدبية والمكتبات وقاعات المطالعة، كما ظهرت الصحف المحلية[٣].

والواقع أن هذه الحركة قد انفردت بين سائر الحركات التقدمية بأنها حركة إنسانية كاملة، فهي قد نادت بإيقاف التعصب الديني ومنح الفرد حرية العبادة بالمعنى الصحيح. وأرادت للناس بحق أن يكونوا كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا. كما كان أثرها فعالا في النفوس عامة، فلم يقتصر على فرنسا وحدها بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوروبية، فأدت بذلك ما ينبغي للثورة الحقة من خدمات للحياة البشرية،

---

[٣] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٥، ٢٦.

فهى قد صفتها من شوائب العنف والاعتقاد فى الخرافة، وحرصت فى دعوتها أشد الحرص على اقتلاع جذور الحسد والخلافات بين الطبقات. فلا فضل لأحد على أحد إلا باستقامة الضمير وسلوك الصراط السوى. ولم تكن السبل سهلة ميسرة أمام أولئك الفلاسفة والمفكرين، منهم قد نعتوا بالكفر والإلحاد وفى مقدمتهم فولتير وروسو.

على أن القدر التاريخى فى حياة البشر قد مهد لانتشار مذهب تلك الطائفة من الفلاسفة والمفكرين، فهى كتبت باللغة الفرنسية التى أصبحت لغة الثقافة فى أوروبا، فاستقبلها الناس وأحلوها محل اللغة اللاتينية فى سهولة ويسر، مما أسرع ما وصلت تلك الأفكار الجديدة إلى بلاط الملوك والأمراء فى برلين وفيينا وسان بطرسبورج ومدريد. وكانوا يومئذ أصحاب القوة والبأس الشديد، إلا أن ذلك لم يخل نفوسهم من نزعة الأبوة والرغبة الشديدة، فى إصلاح المجتمعات الإنسانية ودفعها إلى التقدم عن طريق الثقافة الرشيدة.

ويرجع الفضل فى انتشار تلك الحركات الإصلاحية لم يكن مبعثه رغبة المفكرين فى إقرار ما يسمونه الحكم الديمقراطى، وإنما كانت الرغبة الحقة هى إبراز الحرية وتحصينها من كل عدوان، وآية ذلك أن انتشار أراء المفكرين من فلاسفة فرنسا وإعطاءها لواء الزعامة يومئذ لم يكن مبعثه مظاهر الحكم الديمقراطى، ففولتير مثلا لم يكن ديمقراطى النزعة، ولم يكن يهمه أو يهم المفكرين من أمثاله تقرير أداة الحكم وضبطها، وإنما كانوا يرمون إلى تحقيق الحرية فى أوسع معانيها حرية الفكر، وحرية القول، وحرية النشر، وحرية الفعل. فالحرية كانت فى رأيهم كانت هى الدواء من سائر أدواء الفساد فى سائر طبقات المجتمع الأوروبى.

ويمكن إضافة اتجاهات القدر فى تاريخ البشر يومئذ أن موجة عاتية من الكره قد طغت على الكنيسة واتباعها، فكانت سلاحا من أسلحة الإصلاح التى أعانت

الفلاسفة الفرنسيين في نشر مذاهبهم وهدم آثار الماضي بكنيسته التي كانت تقف حائلا دون كل إصلاح وتقدم. ومن حق التاريخ أن يقرر في صدق وإخلاص أن حملات فولتير وغيره من المفكرين في فرنسا على الفساد المتأصل في حياة الكنيسة قد أفادت المسيحية في فرنسا وليس من شك في أن فلاسفة العصر كانوا على حق عندما هاجموا الكنيسة[٤].

ليس من شك أن في الدور الذى قام به رجال الفكر الذين سبق الحديث عنهم قد كانوا بمثابة نفخة الصور في قيام الثورة ولكن البواعث المادية كانت أصيلة كذلك، فالجوع والظلم الاجتماعي وسوء نظام الحكم وفساد الكنيسة وتدهور أحوال البلاد الاقتصادية، كل أولئك قد فتحت العقول والقلوب والأسماع والأبصار لاستقبال نداءات الثورة كما أججت وقود نارها حتى بلغت منتهاها[٥].

كان فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) أشهر كتاب القرن الثامن عشر وأقواهم أثراً. وقد كان لكتبه رواج عظيم. وأنه يبدأ بلحظات العداء للاكليروس في أوديب (١٧١٨). وهو تأثير فعال اليوم على نطاق عالمي تقريباً وقد كان هذا التأثير يحرك الملوك: فردريك الثاني، وكاترين الثاني وجوزويف الثاني. وجوستاف الثالث وبدرجة أقل شارل الثالث ملك أسبانيا من خلال ايرلندا. وجوزيف الثاني ملك البرتغال من خلال بومبال. ولم يعدله في العالم الفكرى في المائتي السنة الأخيرة غير تأثير روسو وداروين[٦].

---

[٤] زينب عصمت راشد. تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٧.

[٥] نفسه ، ص٢٨.

[٦] ول ديورانت، قصة الحضارة ، روسو والثورة، المجلد الثاني والعشرون، الجزء ٤٢، ترجمة فؤاد اندراوس، القاهرة ٢٠٠١، ص٣٦٠.

وقد شارك فولتير في إنجاب الثورة الفرنسية باضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الأرستقراطية بحقوقها الإقطاعية. ولكن كان تأثير فولتير السياسي بعد عام ١٧٨٩ طغى عليه تأثير روســـو. فقد بدأ فولتـير شديد المحافظة، شديد الازدراء لجماهير الشعب، شديد الإتسام بطابع السادة الاقطاعيين، وقد رفضه روبسبير، وظل "العقد الاجتماعي" سنين إنجيلا للثور ة. أما بونابرت فأحس التأثيرين في تعاقبهما العادي. قال تذكرا تلك الحقبة. كنت حتى عامي السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعا عن روسو، أما اليوم فقد انعكس موقفي.فكلما أمعنت في قراءة فولتير ازددت شغفا به. فهو رجل معقول دائما لا بالمهرج ولا بالمتعصب، أبدا. وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازي ضد النبلاء و الأكليروس المنبعثين من جديد. وقد صدرت بين عامي ١٨١٧، ١٨٢٩ اثنتا عشر طبعة من مجموعة أعماله. في تلك السنوات الاثنتا عشر بيع من كتب فولتير نيف وثلاثين مجلد[٣].

وكان أعمق تأثير فولتير وإبقاء على الزمن تأثيره على الإيمان الدينيّ. فبفضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الديني البروتستنتي، وانتقلت رأسا من النهضة إلى التنوير، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التي رافق التغيير، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستنتية وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير في جملتها كانت إصلاحا أعمق من ذلك الذي أحدثه لوثر وكلفن، لأنها لم تكتف بتحدي مغالاة الكهانة والخرافة فقط، بل تحدت صميم أسس المسيحية، لا بل كل العقائد فوق الطبيعة. وقد جمع فولتير في صوت واحد كل

---

[٣] ول ديورانت، قصته الحضارة، المجلدات الثاني والعشرون، جـ ٤٢، ص ٣٦١.

ضروب الفكر المناهض للكاثوليكية، وأضفى عليها مزيدا من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفه الروح، حتى لقد بدأ حينا كأنه قد هدم الهيكل الذى ربى فيه[٨].

لم يكن لفولتير اهتمام واضح بالسياسة فى الحق أنه كان يكره التعسف والظلم فى حكم الشعوب لأنه كان إنسانا يهتم بالمبادىء والشعارات، وإنما كان يوجعه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولا أدل على ذلك فى اهتمامه بالحياة السياسية من أنه كان يؤيد الحكم الملكى المطلق فكان صديقا حميما لفردريك الثانى ويعتبر استبداده أحسن مثل يمكن أن يحتذى به فى سائر أنحاء أوروبا.

نادى فواتير بإصلاح القضاء عن طريق توحيد القانون فى سائر أنحاء فرنسا وتطبيقه بطريقة عادلة وجعله واضحا للجميع، وتعديل قوانين العقوبة ولاسيما الخاصة منها بالتعذيب. طالب كذلك بإصلاح نظام الضرائب وإلغاء المحلية لأنها تتسبب فى تعويق توفير الضروريات الحيوية. والعالم كله لا يجهل فضل "فولتير" الذى سجلته كتبه العظيمة بأسلوبه اللاذع الرائع فى آن واحد[٩]. وتأثير جيل جوته من الشباب بفولتير تأثرا عميقا وذهب جوته إلى أن فولتير سيعد دائما أعظم رجل فى أدب العصور الجديد بل ربما جميع العصور. وفى إنجلترا أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير — جودوين، وبين، ومارى، ودلستونكرافت، وبنتام، دبايرون، وشلى، ولكن يمكن القول عموما أن الربوبية الإنجليزية سبقته فقللت من حد تأثيره، ثم أن السادة الإنجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين يهب مثل هذا العذاء المهدىء، للطبقات الأضعف والجنس الأضعف أما فى أمريكا فإن الآباء

---

[٨] دل ديورانت قصته الحضارة المجلد الثانى والعشرون، جـ ٤٢، ص ٣٦٢.

[٩] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٩،٢٨.

أما أمريكا فإن الآباء المؤسسين كانوا كلهم تلاميذ لفولتير.

المؤسسين كانوا كلهم تلاميذ لفولتير وهناك وفي إنجلترا غطى تأثير داروين والبيولوجيا الحديثة على تأثير فولتير في إضعاف الإيمان الديني[10].

ويجيء دور مونتسكيو Montesquien (١٦٨٩ – ١٧٥٥م) وكان باحثا متعمقا في المسائل الدستورية ومحافظاً بطبعه. وكتابه "روح القوانين" Esprmit des lois إنما هو بحث عام في أشكال الحكومة. وقد صار هذا الكتاب المعين الذي يتزود منه بالأفكار أولئك الذين انصرفوا إلى مهمة البناء السياسي لبلادهم وهي مهمة ستصبح شائعة في السنوات التالية. وقد تأثر به دستور الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد بعيد. على أن الكتاب نفسه متأثر إلى حد بعيد بالدستور الإنجليزي. الأمر الذي يعترف به عن طيب خاطر مونتسكيو نفسه الذي كان معجبا بهذا الدستور الأخير أيما إعجاب شأن الكثيرين من الفرنسيين في زمنه. فمونتسكيو يشيد بالحكومة المقيدة التي تخضع في تصرفاتها لمجموعة من الضوابط والمراجع ويعجب في النظام الإنجليزي بوجه خاص بما أسماه "فصل السلطات" أي استقلال فروع الدولة الثلاثة – التشريعية والتنفيذية القضائية عن بعضها البعض. وإن كان قد أخطأ في ظنه أن السلطتين التنفيذية والتشريعية في إنجلترا منفصلتان إحداهما عن الأخرى[11] وأظهر مونتسكيو مساوىء الحكم المطلق، وطعن، في الحكم الاستبدادي[12].

أما جان جاك روسو Jean Jack Rosseau (١٧١٢ – ١٧٧٨) لم يكن فرنسي الأصل وإنما يرجع أصله، إلى جنيف. وبقيت آراؤه وكتاباته تؤثر في الفرنسيين من جيل إلى جيل حيث دعا إلى الرجوع إلى الطبيعة للتخلص من قيود

---

[10] دل ديورانت قصته الحضارة المجلد الثاني والعشرون، جـ ٤٢، ص ٣٦٢.

[11] أ. ج. جرانت، هارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩ – ١٩٥٠، ترجمة بهاء فتحي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٥٠، ط، ص٥٤.

الحضارة [١٣] وقد كان شديد الميل إلى الدين بطبعه ولكنه لم يكن كاثوليكيا ولا مسيحيا. كان يحس بشرور عصره وألام الناس ولكنه لم يمنح رضاءه لأى من الحلول المقترحة[١٤] ولهذا الغرض كتب كتابه العقد الاجتماعى Contrat Society الذى نشر عام، ١٧٦٢ يلخص آرائه فى الحكم ولكنه يفعل ذلك على نحو جعل الناس يختلفون على حقيقة مواده حتى يومنا هذا وهو يبدأ باحتجاج صارخ على طغيان عصره "ولد الإنسان حرا فما باله مكبلا بالأغلال فى كل مكان" ثم يؤكد أن الدولة مدينة بوجودها للشعب وأنها نمت إليه وحده دون سواه وأن من حقه دائما، وعلى الرغم من جميع المعاهدات أو الدساتير – أن يعدل أو يلغى أشكالها. ومع ذلك فهو لا يرى أن الديمقراطية ممكنة إلاً فى الدول الصغيرة الحجم ويؤمن بأن اللجوء إلى ديكتاتور قد يصبح لازماً، ويختم بتأكيد ضرورة الدين فى أى دولة داعياً إلى فرض صورة مدنية بسيطة منه على الجميع، بل ومعاقبة الخارجين بالإعدام إذا اقتضى الأمر. وقد امتد تأثير آراء روسو وعباراته إلى أبعد من دائرة دارسى مؤلفاته بكثير والثورة الفرنسية تحمل من أولها إلى آخرها أثار تفكيره[١٥].

دائرة المعارف الكبرى

وقد توجت حركة ازدهار الآداب والفلسفة والبحوث التاريخية وغيرها فى فرنسا يومئذ بظهور دائرة المعارف الكبرى فى أربعة وثلاثين مجلدا بين عامى ١٧٥١، ١٧٧٢ ،وقد أثرت هذه الدائرة تأثيرا عميقا فى فرنسا، بل وتعدتها إلى سائر الأقطار الأوربية. ويساهم فى تأليفها كل من "ديدرو" Diderot (١٧١٣ – ١٧٨٤) والمير

---

[١٢] زينب راشد، أوروبا فى القرن التاسع عشر ص٣٠.

[١٣] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر،دراسة فى التاريخ والفلسفة، الرباط ١٩٨٥، ص١٠.

[١٤] أ. ج. جرانت هارولد تمبرلى، أوروبا فى القرنين ط، ٥٤.

[١٥] أ. ج. جرانت هارولد تمبرلى، أوروبا فى القرنين ط، ص ٥٥.

Almbert (١٧١٧ – ١٧٨٣). وكانت تتضمن ملخصا للمعرفة الإنسانية، ولذلك لم يقابلها رجال الدين بالرضى بل تقدموا بشكوى إلى البرلمان ضد هذه الدائرة. إدعاء بأنها تهدد الدين. وقد ذهبت سائر للجهودات التي بذلت لإبادة دائرة المعارف هباء. ولا عجب أن تكون موضع مقاومة الفئات الرجعية فقد أشارت إلى الظلم السياسي والاجتماعي السائدين في ذلك العهد وإلى عدم التساوي في تأدية الضرائب، وإلى فساد نظام القضاء، وتفاهة الحروب وما إلى ذلك من العيوب[١٦].

حقا أنه ما من كتاب فرنسيين من كُتّاب ذلك العصر خطوا من الأجيال التالية بمثل هذا الاهتمام الذي ناله هؤلاء الثلاثة فولتير ومونتسكيو وروسو، ولكن ثمة جماعة أخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها وكانت لها صلة هامة بأعمال الثورة، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين Economists أو الطبيعيين Physiocrats. وقد تأثر هؤلاء إلى حد بعيد بكتابات الاقتصادي الإنجليزي آدم سميث. وممثلو هذه الجماعة الرئيسيون في فرنسا هم ميرابو أبو السياسة الذي ذاع صيته في الثورة، وصاري، وقبل هؤلاء جميعا كويزناي المفكر الحقيقي في هذه الحركة الذي وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد "الجدول الاقتصادي" Tableau Economiaque" بأنه الدواء الناجع لمتاعب فرنسا.وكتاب هذه الجماعة لم يحفلوا كثيرا بتأملات العصر النظرية المجردة ولم ينالوا استحسان فولتير ومنتسكيو. وتتضمن كتاباتهم الضخمة المبادىء التالية باعتبارها تعاليم أساسية:

استخدام العمل في الأرض هو مصدر كل ثروة العمال هم في الحقيقة أكثر الطبقات إنتاجا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة. تدخل الحكومة يجب أن يقل إلى أدنى حد: الإصلاحيان الأساسيان اللذان يلزم تنفيذهما فورا هما إطلاق الحرية الكاملة للتجارة وإنشاء نظام عام للتعليم: جميع الضرائب يجب أن تلغى

---

[١٦] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٣١، ٣٢.

وتتركز فى ضريبة واحدة، هى ضريبة الأرض. فميرابو يرى أن هذه المبادىء كفيلة "بإصلاح كل ما فسد وإعادة عصر سليمان" وقد بذل تيرجو الذى كان تلميذا حصيفا من تلامذة هذه المدرسة جهودا واضحة. لتطبيق تعاليم كويرتاى كمفتش فى الأقاليم (intendant) ثم كوزير للمالية: وقد كان لهؤلاء الاقتصاديين أثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكن أهميتهم لا تقرب مطلقا من أهمية اتباع روسو وفولتير(١٧)

أثر نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية:

لم يكن ما ذكر من جهود المفكرين من رجال الإصلاح وحده سببا فى إشعال نار الثورة، بل أضافت الأقدار إلى ذلك نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية فى عام ١٧٨٣، كان لهذه الثورة أثرها العميق فى فرنسا؛ فهى أثرت فى سياسة فرنسا الخارجية عندما وافقت فرنسا على دخول الحرب بجانب الثوار ضد إنجلترا . على أن آثارها الأدبية كانت أكثر وقعا وأبلغ أثرا، إذ أخذ الرأى العام الفرنسى يتابع باهتمام بالغ أحداثها وقد ازداد تحمسه للفكرة لا تقديم المساعدة للثوار بينما كان لويس السادس عشر غير متحمس للفكرة، ويرى الاكتفاء بالمؤازرة الأدبية للثوار، ولكن لم يلبث أن انتصر الرأى العام الفرنسى وتغلب على الحكومة، فسافر لافاييت يرافقه عدد من الضباط الفرنسيين. ولافاييت "من أعرق الأسر الفرنسية وأقدمها محتدا". ولم تلبث حكومة فرنسا أن تعاهدت مع الثوار، ودخلت الحرب فعلا مع الثوار ضد إنجلترا، أثرت تلك الحركة تأثيرا بالغا فى نفوس الفرنسيين بفضل ما قام به رجال الأدب والمفكرون من تصوير لمجهودات الثوار وحماستهم وجرأتهم وخاصة الدور الذى أداه "بنيامين فرانكلين" Benjamin FranKlin فى هذا المضمار، وهو من أبناء بوستن" اشتغل بالطباعة واهتم بعلم الأخلاق، وكان عالماً ومخترعاً

---

(١٧) جرانت، تمبرلى، تاريخ أوربا فى القرنين ١٩، ٢٠، ص ٥٦.

وسياسيا بارعا. نجح في الظهور بمظهر البطل أمام الرأى العام الفرنسي بل العالمي لنا اتصف به من خلق رفيع، وذكاء نادر، وسياسة حكيمة، فهو لم يكون يشبه فولتير "ولاروسو" من حيث المناداة ببعض المبادىء التي لم يكونا يتبعان الكثير منها. ففولتير رغم ما اتصف به من الحكمة والنزاهة لم يكن مستقيما وكثيرا ما أثار الرأى العام بحوادث منازعاته وبؤسه ومصائبه. كما إن روسو الذي أحبه الناس لاهتمامه بالفرد ولم يكن مصيبا في كل آرائه، كما كان يعيش عيشة غريبة غير مستقرة، بينما كان فرانكلين فيلسوفا حقا، فهو قد اتصف بالاستقامة والحكمة في بساطة وصدق مما حببه إلى النفوس. كان يتعلق بالمثل العليا، مؤمنا ولكن في غيرة وتعصب وكانت تتسلط عليه فكرة واحدة وهي الدفاع عن قضية ذلك الشعب الذي كان ينتمي إليه، والذي كان يعمل على الحصول على حريته.

عند زيارة فرانكلين لباريس للمرة الأولى عام ١٧٦٧ ترك ذاكره ماثلة للأذهان، لذلك استقبلته الصحف الفرنسية بكل حماس في زيارته التالية لباريس عام ١٧٧٦. رحبت به الطوائف المختلفة من شعراء وكتاب وسياسيين وقد أصبح الشخصية البارزة والمثل الذي يحتذى به في باريس بين عامين ١٧٧٦، ١٧٨٤.

وقد كللت جهود فرانكلين بالنجاح عندما أعلن استقلال المستعمرات الأمريكية، إذ كان في هذا الإعلان اعتراف صريح بالثورة، وبإنشاء مجتمع جديد على أسس وقواعد سليمة لا تقوم على الامتيازات والتقاليد بل تقوم على احترام حرية الفرد والاهتمام به. وقد شعرت الحكومة الفرنسية بما في هذا الإعلان من تحد غير مقصود لها وانتقاد لنظمها العتيقة، لذلك رفعت في سبيل إعلانه، ولكنه مع ذلك أخذ في الانتشار سرا. فنشر منه بالفرنسية ثلاث طبعات بين عامي ١٧٧٨، ١٧٨٣ [١٨].

---

[١٨] زينب عصمت راشد تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٣٤، ٣٥.

ثانيا : الأسباب السياسية:-

وتتلخص في انهيار النظام الحكومي.

ترى ماذا كان خطب الحكومة؟ إنهاء لم تبلغ في استبدادها ما بلغته حكومة بروسيا، ولا في فسادها ما بلغته حكومة إنجلترا وكان جهازها البيروقراطي وإداراتها الإقليمية بضمان نفرا من الرجال الأفاضل وكثيرا من الرجال الأكفاء. ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون في أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادي والفكري. ونشبت الثورة في فرنسا بأسرع مما نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأوا من الذكاء أبعد مما بلغته في أي أمة معاصرة أخرى. وفرض فكر مواطنيها اليقظ المتنبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أي حكومة في ذلك العصر أن تلبيه.

وكان فردريك الثاني وجوزيف الثاني. وكلاهما بضمير متحمس الفلسفة والملكية المطلقة. قد أدخلا في الإدارة السياسية لبروسيا والنمسا قدرا من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافرا في بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتينيين. "واستشرى الاضطراب والفوضى في كل مكان، ففي فرساي تنازع مجلس الملك في اختصاصه مع الوزراء، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توافق بين سياساتهم. وانقسمت الأمة إلى دوائر Baillages أو Scnechaussees في مجال القضاء؛ وفي أخرى إلى أقسام مالية (gean ralites) في المالية وفي ناحية ثالثة إلى إدارات (gouvernements) في الجيش وفي رابعة إلى ابرشيات Paroisses وأقاليم Provinces في الكنيسة. وفي كل قسم مالي كان الناظر الملكي يصطدم بالحاكم والبرلمان الإقليمي. وفي أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع الفقراء، والنبلاء

مع البورجوازيين والبرلمانات مع الملك، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة آمرة، ولم تتوفر القضية إلا في عام ١٧٩٢، ولا الإرادة في ١٧٩٩.

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ومع ذلك كان القضاة من أفضلها. واتبع جنوب فرنسا القانون الروماني، وشمالها القانون العام والإقطاعي. وكما يقول البعض "إن العدالة كانت معقدة مكلفة بطيئة" رغم أن هذه شكوى عامة في جميع البلاد. وكانت السجون قذرة والعقوبات وحشية والتعذيب القضائي ظل مسموحا به في عام ١٧٧٤. وكان القضاة غير قابلين للعزل، منصفين غير قابلين للرشوة عادة. وقد ذهب السير هنري مين إلى أن الرجال القضاء في فرنسا" من حيث جميع الصفات المطلوبة في المحامي، والقاضي، والمشرع، يبزون كثيرا نظراءهم في طول أوروبا وعرضها" وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء.ووجدوا أكفأهم طريقة إلى البرلمانات الإقليمية، واختير أغناهم وأعظمهم نفوذا أعضاء في برلمان باريس، وما وافي عام ١٧٧٤ حتى كانت طبقة نبلاء الرداء القضائي" أي القضاء الوارثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلا لطبقة "نبلاء السيف" في الكرامة والاستحقاق ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا من ولدوا في إحدى الطبقتين الأرستقراطيتين[١٩].

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة. فالملك وفقا للتقليد البوربوني هو المشرع الوحيد، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية، وهو المحكمة العليا. في استطاعته أن يأمر بالقبض على أي شخص في فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة هذه. وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة، تعد نفسها لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها. ففي عام ١٧٧٤ كان

---

[١٩] ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني والعشرون، جزء ٢ ٤ص٣٠٩،٣١١.

بلاط فرساى يضم الأسر المالكة و٨٨٦ نبيلا. هم ونساؤهم وأبناؤهم يضاف إليهم ٢٩ طاهيا و٥٦ صيادا و٤٧ موسيقيا وثمانية معماريين، وأشتات من السكرتيريين وكهنة القصر، والأطباء والسعاة والحراس.... يبلغون في مجموعهم ستة آلاف شخصا. مع عشرة آلاف جنديا يرابطون عن كثب. وكان لكل عضو في الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص. وكذلك لبعض النبلاء الممتازين - أمثال أمير كونديه وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بربون. واحتفظ الملك بعدة قصور. فى فرساى - ومارلى - ولا مويت، ومودون، وشوازى، وسان - أويبر، وسان جرمان، وفونتنبلوه، وكومبيين، ورامبوييه. وكان عن المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام، وفى سنة ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ فرنكا[٢٠].

وكانت رواتب موظفى البلاط معتدلة. ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطة؛ من ذلك أن المسيو أوجار - وكان سكرتيرا فى إحدى الوزارات - لم يجاوز راتبه تسعمائه جنيه فى العام. ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة، وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرءوسوهم. مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع باسمه مرتين فى السنة. وأجريت عشرات المعاشات التى بلغت جملتها ٢٨.٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسيبهم وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه أن يعين الأسر النبيلة القديمة التى أعسرت، وأن يقدم المهر لبنات النبلاء عند زواجهن. وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر والأحياء يتلقى ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ جنيه فى العام. وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠ جنيه فى

---

[٢٠] ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثانى والعشرون، الجزء ٤٢، ص ٣١١.

العام إذ كان المفروض فيه أن نفتح باب الضيافة على مصراعيه. كل هذه السنة في الإنفاق، وكل هذه المعاشات، والهبات، والرواتب، والمناصب الشرفية، كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية. وقد كلف البلاط فرنسا مبلغا جملته خمسون مليونا جنيها في العام – وهو عشر مجموع إيراد الحكومة[٢١].

الملكة ماري أنطونيت:

وكانت ماري أنطونيت أكثر أعضاء البلاط إسرافا. ذلك أنها وقد ارتبطت بزواج عليل، وحرمت الرومانس ولم تشغلها علاقات غرامية، راحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالي من الثياب، والجواهر والقصور، والأوبرات، والمسرحيات والمراقص. وكانت تخسر الثروات في القمار ونهب الثروات للمحاسيب في كرم متهور. وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠جنيه على ثيابها في عام واحد (١٧٨٣)، وأتاها مصممو الأزياء بالغريب الطريف من الأبواب المسماة "المباهج الطائشة" أو "العلامات المكبوتة" أو الرغبات المقنعة". وكانت مصففات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدون شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقنها فيها وقد توسط قامتها، وقد قررت هذه التسريحة العالية، كما قررت معظم الأشياء التي ابتدعها زي نبيلات البلاط، فزي باريس، فزي عواصم الأقاليم.

أما شغفها بالحلي والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوسا، ففي عام ١٧٧٤ ابتاعت من بومر – وهو الجواهرجي الرسمي للتاج – أحجارا كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠جنيه. وأهداها لويس السادس عشر طقما من العقيق، والماس والأساور ثمنه ٢٠٠,٠٠٠جنيها وفي عام ١٧٧٦ كتب مرسى دار جتنو إلى ماريا تريزا يقول، مع أن الملك أعطى الملكة في شتى المناسبات ما يساوى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ (ايكو) من الماس، ومع أن جلالتها تملك الآن مجموعة هائلة، إلا أنها مصممة على شراء حلق

---

[٢١] ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني والعشرون، الجزء٤٢، ص٣١١،٣١٢ .

على شكل الثريا من بومر. ولم أخف عن جلالتها أنه كان أحكم في الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها وإن أجرت الصفقة في حذر مخفية أمرها عن الملك.

وبعثت ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم، واكتفت الملكة بالتزين بحليها في المناسبات الرسمية فقط، ولكن الشعب لم يغتفر لها هذا التبذير المفرط في ضرائبه. وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة[٢٢] واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التي وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨: "إذا لم يكن لديهم خبزا فليأكلوا كعكا" ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية، فهي على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص في التخفيف عن الشعب[٢٣].

ثالثا: الأحوال الاجتماعية وأثرها في إثارة الشعب الفرنسي:-

نظام الطبقات:

ولعل أكثر ما كان يسيء لفرنسا أنها كانت لا تزال تحتفظ بنظام الطبقات البغيض وما يرافقه من امتيازات لفئة قليلة من الناس على حساب عامة المواطنين. فالفرنسيين كانوا مقسمين إلى طبقات ثلاث تفصل بينها حدود وفواصل يصعب تخطيها:-

أ- الأشراف:

ويقف هؤلاء في أعلى مراتب المجتمع الفرنسي يحيطون بالملك ويعيشون إلى جانبه يؤيدونه ويدافعون عن نظامه وبالمقابل يعيشون في ظل حمايته ويتمتعون بامتيازات كثيرة بعضها في أصوله إلى عصر الإقطاع. فللأشراف أراضي واسعة جدا

---

[٢٢] ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني والعشرون، الجزء٤٢، ص٣١٣ .

[٢٣] نفسه ، ص٣١٧.

فى الأرياف يستغلونها بواسطة الفلاحين. والاقنان. وقدرت مساحة هذه الأراضى قبل الثورة الفرنسية بقليل بخمس الأرض الفرنسية الصالحة للزراعة. وللأشراف وحدهم حق شغل المناصب العليا فى الجيش والإدارة والقضاء والدبلوماسية. ولهم أيضا على الفلاحين العاملين فى أراضيهم حقوق كثيرة منها حق فرض ضرائب معينة، ولهم أن يجبروا الفلاح على طحن غلاله فى مطحنة الشريف صاحب الأرض وأن يعصر زيته وخمره فى معصرته. ولهم أيضا حقوق للصيد فى أراضيهم. وللأشراف فوق ذلك إعفاءات كثيرة فى مجالات الضرائب والالتزامات المالية تجاه الدولة. هذه الحقوق والامتيازات كان النبلاء يتوارثونها أبا عن جد منذ العصور الوسطى. إلا أنها فى القرن عشر، ومع تغير الأوضاع الاقتصادية وبداية التصنيع وانتشار الأفكار الحرة الجديدة باتت تشكل عبئا ثقيلا على عاتق الفرنسيين[٢٤].

ب- رجال الدين:-

وكان هؤلاء أيضا يشكلون طبقة ممتازة إلى جانب الأشراف، لهم نفوذ قوى طاغ تدعمه، من جهة، وامتيازات تقليدية قديمة حصلوا عليها فى العصور الوسطى، ووضع مالى ممتاز. فالأديرة والرهبانيات الكثيرة المنتشرة فى جميع أنحاء فرنسا كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية تبلغ تقريبا خمس مساحة فرنسا، يعمل فيها ألوف من الفلاحين فى ظروف قاسية شديدة. وكان للكنيسة مورد هام هو ضريبة العشور تجمعها سنويا من الفرنسيين بلغت حصيلتها فى أواخر القرن الثامن عشر مائتى مليون فرنك ذهب. وفوق هذه الامتيازات فإن الكنيسة كانت معفاة من أكثر الضرائب الحكومية. ومما كان يثير حفيظة الفرنسيين أن الكنيسة لم تكن دائما تصرف هذه الأموال فى الطريق المخصص لها من أجل صالح الجماعة المسيحية[٢٥].

---

[٢٤] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٣.

[٢٥] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٤.

الطبقة الثـــالثة:

أما عامة المواطنون فكانوا ينتظمـون فـى طبقة واحـدة هـى طبقـة العامـة أو الطبقة الثالثة. وهؤلاء تحملوا أعباء الدولة كلها، ودفـع الضرائب المتزايدة، وتقديم الجنود للحروب الكثيرة، وخدمـة الكنيسـة والأشراف. وبعبـارة موجـزة فـإن الطبقـة الثالثة كانت تلتزم بأعباء ضخمة. تجاه الدولة والبلاد لا يقابلها إلا حقوق ضئيلة. فهى محرومة من أبسط حقوق الإنسان الطبيعية كحق الحرية والمساواة أمام القانون وحـق اختيار النظام السياسى أو الاقتصادى الذى يوافق رغباته ومصالحه[٣٦].

وقد تفـردت فئـة قليلـة مـن أبنـاء الطبقـة الثالثة يوضـع مـالى ممتاز جعـل لهـا مكانـة خاصـة ودوراً رئيسـياً فـى إدارة شـئون البـلاد الاقتصاديـة أطلـق عليـها اسـم "البورجوازية" وتعدد هذه الفئة إلى الفترة الأخيرة من عصـور الإقطـاع حـين بـدأت أقلية مـن الأقنـان تتحـرر تدريجيا مـن نفـوذ السـادة وتملـك أرضا تستغلها لصالحـها أو تمارس عملاً تجارياً أو صناعياً. ومما سهل مهمـة هـؤلاء وجعلهم مـع الوقـت يسيطرون على الصناعة والتجارة ترفع طبقة الأشراف والنبلاء عـن ممارسة مثل هـذه الأعمـال. ثم أن اكتشاف أمريكا، وما تدفق على أثر ذلك من أموال وذهب إلى أوروبا، واتسـاع آفاق التجارة داخل أوروبا وخارجها، سـهل علـى هـؤلاء سبل الغنـى والثروة وظهرت بين أبنائهم وأحفادهم فئة من المثقفين المتعلمين ، برعوا فى فنون الطب والهندسـة والقانون والفلسفة ولم يمـض وقـت حتـى غـدت هـذه الفئـة المثقفة الناشـطة مزاحمـة جديدة لأبناء الأشـراف علـى المراكـز الكبرى فـى الدولـة والإدارة خاصة تلـك التـى تحتـاج إلى العلـم والاختصـاص وهـى أمـور لم تكـن لتتوفر كثيرا لدى أبنـاء النبـلاء.

---

[٣٦] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٤.

وكان منهم فى القرن الثامن عشر بصورة خاصة كتاب وعلماء وفلاسفة ساهموا فى تنوير الجماهير وجعلها تدرك ما هى فيه من ظلامة ومالها من حقوق مهضومة[٢٧].

ولعل مما ساعد هؤلاء المثقفين فى مهمتهم كون برامج التعليم كانت أدبية محضة، فكانت تعتبر الأدب القديم وبصورة خاصة أدب اليونان كمعين لا ينضب للثروة الأدبية والفلسفية. والأدب اليونانى ، بما فيه من حرية وفردية إذ لم يكن اليونان القدماء موحدين أو خاضعين لسلطة مركزية قوية، نفخ فى الفرنسيين روح الثورة على الظلم. ومن هذه الزاوية كانت برامج التعليم تساعد على الثورة وبصورة خاصة ضد طبقة النبلاء والأشراف الذين ظلوا يحتفظون بامتيازاتهم فى المجالات السياسية والعسكرية، بينما كان أبناء البورجوازية يشعرون بأنهم فى وضع شاذ. إذ كانوا يرون عندهم العلم والخبرة والمال، ومع هذا فالسلطان والنفوذ للأشراف الميالين إلى المبادىء المحافظة والرجعية.لذا فإن الثورة ستكون فى بدايتها على الأقل على امتيازات الأشراف ورجال الدين أكثر مما هى على النظام الملكى نظرا للدور الأساسى الذى ستلعبه فئة المثقفين البورجوازيين فى خلق الثورة وتوجيه إحداثها[٢٨].

ولعل أسوأ ما كان فى وضع فرنسا هو أن الجميع كانوا يعرفون أن هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها والإعفاءات الضرائبية كلها أمور بغيضة على قلوب الجماهير ثقيلة الوطأة يتمنى الجميع القضاء عليها وحتى الوزراء ومختلف أجهزة الحكم كانت تعرف ذلك. بل أن أكثر من وزير حاول إصلاح الوضع ولكن دون نتيجة. حتى أن الملكية بدت بسبب عجزها عن القضاء على هذه الامتيازات وكأنها فقدت مرونتها وقدرتها على التكيف مع ضروريات الزمن، بحيث بات عليها أن تقف

---

[٢٧] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٤.

[٢٨] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٤،٢٥.

منتظرة ما سيفرضه القدر من حلول لمشاكل عجزت هي عن اتخاذ أية مبادرة لمعالجتها. ولم تعجز الملكية بمن حل مشكلة الامتيازات فقط بل عجزت أيضا عن حل المشكلة المالية المزمنة التي كانت تعاني منها فرنسا[٢٩].

طبقة الفلاحـــين:

وتتكون منها غالبية السكان، فلا يجب أن يغيب عن أذهاننا حقيقة هامة وهي أن فرنسا ظلت دولة زراعية، وإذا استبعد سكان المدن ورجال الدين والنبلاء يبقى أربع أخماس السكان من الفلاحين. ولم يكن بين هذه الطبقة من يرقى إلى الطبقة الوسطى غير قلة ضئيلة. في أقاليم "نورمانديا" Normandy وديبكاكارديا Picardy وارتوا. Artois أما في سائر أنحاء فرنسا فكان أغلب المزارعين ينتمون إلى طبقة الفلاحين. وهكذا كانت طبقة الفلاحين تفوق ما عدا من الطبقات في العدد[٣٠].

وكانت حال الفلاحين التعسة من الأسباب الجوهرية في وقوع الثورة. وعلى الرغم من أن لويس السادس عشر قد حرر ما كان باقيا من عبيد الأرض، إلا أن ذلك لم يغير من شعورهم لأن تلك الفئة كانت أقلية. كان الفلاح لا يزال يرزح تحت أعباء السخرة، فكان ملزما بالعمل في جزء من أرض سيده دون أجر، وكذلك كان ملزماً بطحن غلاله في طاحون السيد، وعصر عنبه في معصرة السيد، وخبز دقيقه في فرن السيد. كان مضطر إلى دفع بعض الضرائب غير العادلة، كما كان لا يملك حق عرض محصوله في السوق، كان ملزما أن يدفع ضريبة إذا مر بطريق أو استخدام نهرا، يؤديها للسيد تارة أو للمدينة أو للملك نفسه تارة أخرى.

---

[٢٩] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٥.

[٣٠] زينب عصمت، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٤٢، ٤٣.

ولم تكن الطبقة الوسطى تثق في هذه الطبقة الدنيا، كما كانت تكره النبلاء. ولكنها رأت في شتاء عام ١٧٨٩ ضرورة التقرب من طبقة الفلاحين حتى تحقق ما أرادت من سياسة، فأخذت تحرض هذه الطبقة مثيرة في نفوسها كل ما يدفعها إلى الثورة والتعبير عن ضروريتها. كان استياء هذه الطبقة واضحا؛ فأرادت أن تتخلص من الالتزامات الإقطاعية ومن الضرائب الثقيلة. وهكذا كانت هذه الطبقة هي السلاح الذى استخدمته الطبقة الوسطى لتحقيق أغراضها. فكان لها ما أرادت عندما تمت الانتخابات لمجلس طبقات الأمة. وعندما استخدمت هذه الطبقة لتقضى على معالم الظلم والاستبداد فكانت الوسيلة في إسقاط حصن الباستيل[٣١].

رابعاً: الأزمة المالية والاقتصادية:-

كانت فرنسا تشكو فراغا مزمنا في خزينتها ربما عادت جذوره إلى أيام لويس الرابع عشر وما خاضته فرنسا من حروب في زمنه. ولم يبادر أحد منذ ذلك الوقت لعلاج الوضع بصورة جذرية. وقدبرزت هذه الأزمة بصورة جادة عقب حرب الاستقلال الأمريكية وما تكبدته فرنسا من مصاريف باهظة لمساعدة الأمريكيين في صراعهم ضد الاستعمار البريطاني . ولعل الغريب في الموضوع هو أن هذه الأزمة لم تكبر في أساسها بسبب ضعف موارد الأمة الفرنسية، بل على العكس، ففرنسا كانت تملك زراعة مزدهرة وصناعة على درجة كبيرة من التطور وتجارة خارجية نشطة للغاية. إنما الأزمة كانت ناشئة عن عجز الدولة عن موازنة مداخيلها ومصاريفها. وذلك بالدرجة الأولى لكون الفئات القادرة على دفع الضرائب كانت لا نفعل ذلك بسبب الامتيازات القديمة. فالخلل إذا كان في موازنه الدولة وليس في موارد الأمة ومصاريفها.

---

[٣١] زينب عصمت، تاريخ أوروبا في لقرن التاسع عشر، ص ٤٢، ٤٣.

ولكى ندرك حقيقة الوضع المالى لفرنسا يكفى أن ننظر إلى حسابات الخزينة للعام ١٧٨٨ وهو العام السابق للثورة.

مصاريف الدولة لهذا العام كانت ٦٢٩ مليون فرنك بينما لم تكن الواردات تزيد عن ٥٠٣ ملاين أى بعجز ١٣٦ مليون فرنك وهو ما يعادل ٢٠٪ من الميزانية العامة للدولة[٣٢].

ولعل أسوأ ما فى هذه الموازنة هو طريقة توزيع المصاريف فيها. فأكثر من نصفها أى ٣١٨ مليون فرنك يذهب إلى جيوب المرابين لتسديد ديون السنوات السابقة ٢٦٢٪ من الموازنة أى ١٦٥ مليون فرنك تذهب للجيش والبحرية يأخذ ١٢ ألف ضابط جلهم من أبناء النبلاء والأشراف ٤٦ مليونا منها بصورة مرتبات ومصاريف. وتبلغ مصاريف القصر الملكى والحاشية ٦٪ من الموازنة، بينما تقل مجموع الاعتمادات المخصصة للتعليم والجامعات والخدمات العامة عن ٢٪ من مجموع الموازنة.

لقد جرت عدة محاولات زمن لويس السادس عشر لإصلاح الوضع المالى فى البلاد كان أبرزها المحاولات التى قام بها ترجو Turgot ونيكر Necker إلا أن هذه المحاولات فشلت أمام استحالة إجبار النبلاء والأكليروس على التنازل عن بعض امتيازاتهم، وعلى دفع الضرائب التى تترتب عليهم بالنسبة لثرواتهم وقدراتهم على الدفع. والواقع أن وضع الميزانية الفرنسية لم يكن ميؤوسا منه كما قد توحى الأرقام. فالبلاد الفرنسية غنية جدا. ولو وزعت الضرائب فيها بشكل عادل لأمكن بسهولة موازنة مداخيل الدولة ومصاريفها[٣٣].

---

[٣٢] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٥،٢٦.

[٣٣] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٦،٢٧.

وسنعرض محاولات الإصلاح المالي في فرنسا على النحو التالي:-

تورجو (١٧٧٤ - ١٧٧٦م)

كان أول هم لويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التي استشرت في الإدارة والمالية. وكان الشعب يطالب بإلحاح بعودة البرلمانات التي أقصيت، فأعادها، وأقال موبيو الذي حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى. وكان تورجو رجلا فرنسيا من معدن شبيه بالذي وجده لويس الرابع عشر في كولبير كرس نفسه لخدمة وطنه، واتسم ببعد النظر والعكوف على العمل بغير ملل. ونقاء البدر طهارتها[٣٤].

وقد آمن مع الفزيوقراطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومي أو النقابي، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هي أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة، وبأنه ينبغي إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة. ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الديني وتسامحهم، وثقتهم في العقل والتقدم وأملهم في إصلاح الأمور عن طريق ملك متنور. فإذا الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة، يقبل الفلسفة مرشدا وهاديا له. كأن هذا ثورة سليمة تفضل كثيرا الثورة العنيفة الفوضوية التي لا تكتفي بالقضاء على المفاسد بل تطيح بالنظام الاجتماعي ذاته. فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير "النظرية الملكية" هذه موضع الاختيار. ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزيوقراطيين ابتهاجهم بتقلد تورجو زمام الأمر[٣٥].

وبعد أن تبين تورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠.٠٠٠ فرنك أمر بشتى ضروب الوفر - وأصدر تعليمات بالا

---

[٣٤] ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني والعشرون، جـ ، ٢ ٤ص، ٣٢٤، ٣٢٥.

[٣٥] نفسه ، ص ٣٢٥.

يصرف مبلغ مـن الخزانـة لأى غـرض دون علمـه أو موافقتـه، وكـان هدفـه تنشيط الاقتصاد بإرسـاء دعـائم حرية المشروعات، والإنتاج، والتجـارة،خطـوة خطـوة. وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة. وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فـى الغلال تجنبا لتذمر أهل المدن فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة، ومـن تاجر الجملة لتاجر التجزئة، وحددت سعر الخبز، ولكن انخفاض الأسعار التى دفعت للفلاح ثبطت همتـه عن زرع المزيد من الغلال، وثنت غيره عن الاشتغال بالزراعة، فظلـت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة دون زرع، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند بيعها. وبدا إصلاح الزراعة فى نظر تورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا. ذلك أن إطلاق يـد المزارع فـى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتمـاعى، ويزيد قوته الشـرائية، وينهض بـه من الحيـاة البدائيـة الوحشية التى وصفها مـن قبـل لابروييد فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى[٣٦].

ومن ثم ففى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر تورجو من المجلس الملكى مرسـوماً أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعـل المدينـة سيكون محرجاً فحـين ارتفـع سعر الخبـز فـى ربيـع ١٧٧٥ اندلعـت حـوادث الشغب فـى عدة مدن. ففى الأقاليم المحيطة بباريس. والتى تتحكم فى انسياب الغلال إلى العاصمة. راح بعض الرجـال ينتقلـون بـين المـدن ويحرضـون النـاس علـى التمـرد. ممـا اضطـر الملك إلى خفض سعر الخبز[٣٧] ثم ألغـاه مـرة أخـرى واصـدر تورجـو أوامـر للتوفـر فـى مصروفات الدولة. ولتحصيل الضرائب تحصيلا أكثر كفاءة وللأشراف إشرافا أدق علـى الملتزمين العموميين ثـم ينقل الاحتكـارات الأهليـة فـى المركبـات العامـة. ومركبـات البريد، وصنع البارود، إلى الدولة. ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء "بنك الخصم" وهـو

---

[٣٦] ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلد الثانى والعشرون، جـ٤٢، ص٣٢٦.

[٣٧] نفسه، ص٣٢٧،٣٢٨.

مصرف لخصم الأوراق أن التجارية وتلقى الودائع وإعطاء القروض وإصدار البنكوت الذى تدفع قيمته عند إبرازه. وفى نهاية ١٧٧٥ خفض المصروفات ٧٠٠,٠٠٠ وأنقص الفائدة على الدين الأهلى من ٨,٧,٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠,٠٠٠ جنيها واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠جنيها من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة في المائة، ويسدد بهذه الطريقة ديونا كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتى عشر في المائة، وأوشك أن يوازن الميزانية، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل الحد من الفساد والإسراف وعدم الكفاءة وكثرة الفاقد[٣٨].

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ تورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال بباريس، والغى العدد الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه، والغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم، فأغتبط الفلاحون، والغى الرابع السخرة وهى أيام إثنا عشر أو خمسة عشر يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين كل عام لصيانة الكبارى والقنوات، والطرق؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجرا عن هذا العمل من حصيلة ضريبية تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية، وأغتبط الفلاحون. وشكا النبلاء، وأثار تورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التى وضعها فى فم الملك [٣٩].

أما آخر المراسيم الستة فقد الغى الطوائف الحـ فية. وكانت قد أصبحت أرستقراطية عمالة، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريبا، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمى

---

[٣٨] ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلد الثانى والعشرون، جـ٤٢، ص٣٢٩.

[٣٩] نفسه، ص٣٣٠.

الحرف. وقد عطلت الاختراع، وعرقلت التجارة بالمكوس إذ يحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة – وهم رجال يوفرون المبادأة، ورأس المال، والتنظيم، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل. سواء للمنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم – هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها احتكارات تقيد التجارة. أما تورجو التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع، والمشروعات والتجارة، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية[٤٠].

وكانت عراسيم تورجو – وديباجاتها – قد ألهبت غضب جميع الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة الذين زكوا فى ظل الحرية الجديدة. والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية ومع ذلك عارضه بعض التجار سرا لأنه تدخل فى احتكاراتهم. وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء. وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قرارات نقصه. ولم يثق به رجال الدين زاعمينه كافرا يندر أن يختلف إلى القداس، ويدافع عن الحرية الدينية. وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة. وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪. وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم، ومعاشاتهم ووظائفهم الفخرية. أما موريبا، وهو الأعلى منه منصبا فى

---

[٤٠] ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلد الثانى والعشرون، جـ ٤٢، ص ٣٣٠، ٣٣١.

الوزارة، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام المالية واستقلاله المتزايدين. وكتب السفير السويدى يقول "إن تورجو يجد نفسه الهدف لحلف رهيب جدا"[41].

أما مارى أنطونيت فقد رضيت عن تورجو أول الأمر،وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته. ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧) إسرافها فى الثياب والعطايا ولم يخف تورجو فزعه من مطالبها من الخزانة، وكانت الملكة لإرضاء لأن بولنياك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت دجين سفيرا لفرنسا فى لندن. وهنالك دخل فى معاملات مالية مشبوهة. وانضم تورجو إلى فرجين فى الإشارة على الملك باستدعائه؛ وأقسمت الملكة لتنتقمن منه.

وكان لويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة فى الوزير الثورى. ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة. وطبقة النبلاء، وحتى البرلمانات. وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد وتقدست بمرور الزمن فإتلافها معناه خلخلة ركائز الدولة. ولكن تورجو قد أقصاها كلها[42]. وفى ١٢ مايو سنة ١٧٧٦ أرسل إلى تورجو أمراً بأن يستقيل فاستقال وعاش بعد إقالته عيشة هادئة فى باريس، يدرس الرياضة، والفيزياء، والكيمياء، والتشريح[43].

نكـر Necker (١٧٧٦-١٧٨١):

خلف ترجو فى رقابة المالية كلونى دنوى، الذى رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية، ولم ينفذ مراسيم الغلال... والغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليونا من الجنيهات بسعر٤٪، ولم يكتشف الوزير

---

[41] ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلد الثانى والعشرون، جـ٢ ٤، ص٣٣٢، ٣٣٤.

[42] نفسه، ص ٣٣٣، ٣٣٤.

[43] نفسه، ص ٣٣٥.

الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيرا من إنشاء يانصيب قومي (٣٠ يونيو ١٧٧٦). فلما مات كلوني (أكتوبر) اقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذي كان أكفأ نقاد تورجو[٤٤].

كان جاك نكر بروتستنتانيا من جنيف. وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكر "مديرا" للخزانة الملكية "بناء على تزكية موربيا. وكان تعيته يشوبه الاعتذار. فقد أصبح بعض الأساقفة على السماح لبروستنتي سويسرى بأن يتحكم في مال الأمة، فأجاب موربيا، "في وسع رجال الدين أن يشاركوا في اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة". وسترا لهذا الواقع عين كاثوليكي فرنسي يدعى تابورو دريو مراقبا عاما للمالية له الرئاسة الإسمية على نكر. وتضاءلت معارضة الاكليروس حين جعل نكر تدينه واضحا جليا. وفي ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو، وعين نكر مديرا عاما للمالية وقد رفض أن يتقاضى راتبا، بل أقرض الخزانة مليوني جنيه من ماله الخاص. لكنه ظل محروما من لقب الوزير، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكي[٤٥].

وقد وفق في حدود خلقه وسلطته. ذلك أنه درب على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة. وكان في قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال. وقد أرسى في الإدارة المالية نظاما وحسابات ووفرا أفضل، وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة. وإذ كان حائزا على ثقة المجتمع المالي، فقد استطاع طرح اسهم بقروض أكسبت الخزانة ١٤٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيها خلال عام واحد. ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة، فخفف من المظالم في فرض الضرائب، وحسن المستشفيات، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء بفائدة منخفضة، وواصل جهود تورجو للحد من نفقات البلاط. والبيت الملكي والملكة ورد إلى

---

[٤٤] ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلد الثاني والعشرون، جـ٤٢، ص٣٣٦.

[٤٥] نفسه، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

الملتزمين العموميين جميع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق. وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية في بري، وجرينويل،ومونتويان، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلي الطبقة الثالثة (التي تنظم الطبقتين الوسطى والدنيا) في هذه المجالس مساوين لممثلي النبلاء الاكليروس مجتمعين.على أن الملك يختار أعضاء هذه المجالس، ولم يسمح لهم بأي سلطة تشريعية ... وقد ظفر نكر بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقي من الاقنان على الأراضي الملكية، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه.فلما رفضوا أشار نكر عليه بإلغاء القنية كلها في فرنسا، مع دفع التعويضات للسادة، ولكن الملك الذي كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغا يعسر معه إلغاؤه بمرسوم. وفي سنة ١٧٨٠، وتحت إلحاح نكر أيضا أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائي، وإلغاء السجون السفلية، وفصل السجناء الذين جرمّوا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد. وفضل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين[٤٦].

كالـون Calonne:

وكانت المحاولة الإصلاحية الأخيرة التي قام بها الوزير كالون Calonn (١٧٨٣- ١٧٨٧م). وقد هدف كالون من برنامجه الإصلاحي لجعل الفرنسيين يتساوون كلهم في تحمل مصاريف الدولة بغض النظر عن مراتبهم الاجتماعية وعمل أيضا لهدم الحواجز والحدود الجمركية بين الأقاليم الفرنسية لتنشيط التجارة الداخلية وتسهيل انتقال البضائع والسلع داخل فرنسا. ولإقناع رجال الدين والأكليروس بتعدل إصلاحاته باعتبارها ضرورية لابد منها لسلامة النظام والبلاد دعى مجلس الأعيان – وهو مجلس يمثل طبقتي الاكليروس والأشراف نادراً ما كان

---

[٤٦] ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني والعشرون، جـ٤٢، ص٣٣٨.

يدعى للاجتماع – فى سنة ١٧٨٧ وشرح أمامه أوضاع فرنسا المتردية واقتراحاته الإصلاحية محملا أعضاء المجلس المذكور مسؤولية الوقوف فى وجه الإصلاح، وبالرغم من فشل هذه المحاولات كانت نتائجها مذهلة باعتبارها أن التقرير الذى تلاه أمام المجلس المذكور قد نشر على الفرنسيين بحيث عرفوا للمرة الأولى وعلى لسان وزير مسؤول مدى تردى الأوضاع المالية وأسباب ذلك. وقد أوجز فى التقرير المذكور وضع فرنسا بما يلى "أن فرنسا تتكون من ولايات وأقطار منفصلة إدارات مختلطة متنوعة، لا تعرف مقاطعاتها شيئا عن بعضها بعضاً، وحيث لا تحمل بعض جهاتها عبئاً ما بينما العبء كله يقع على الجهات الأخرى، وحيث أكثر الطبقات فيها ثراء يفرض عليها أخف الضرائب، وحيث الامتيازات تحول دون كل توازن، وحيث يتعذر إقامة حكم ثابت دائم، ووجود إدارة مشتركة فلا عجب إذا هى غضت بالعيوب، وحفلت بالمساوىء، ومن المتعذر فى حالتها الراهنة أن تحكم حكما صالحا"[٤٧].

وكان يرافق تدهور الوضع المالى نقص متزايد فى موارد الطبقات العاملة وذات الدخل المحدود بحيث يصعب الاعتماد عليها فى أية محاولة لإصلاح أوضاع الخزينة. فخلال النصف القرن السابق للثورة كان الأسعار قد ارتفعت بنسبة ٦٥٪ بينما لم ترفع الأجور فى نفس الفترة الزمنية بأكثر من ٢٢٪[٤٨].

وقد زاد فى تردى الأوضاع العامة والمالية والأزمة الاقتصادية الدورية التى حدثت سنة ١٧٨٨ والتى أصابت الطبقة البرجوازية فى مداخيلها بشكل عنيف. وكذلك المواسم وخاصة موسم القمح كانت عاطلة فى السنة المذكورة: فعم القحط

---

[٤٧] هربرت فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ٨، عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٧.

[٤٨] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص ٢٨.

أنحاء البلاد وانخفض إنتاج الحنطة في الموسم المذكور إلى أدنى مستوى عرفته فرنسا. ولم يكد يأتي ربيع سنة ١٧٨٩ حتى عز الخبز وارتفع سعره ولم يعد بمتناول القسم الأكبر من الفلاحين والعمال في المدن. وكانت المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا قد زادت في حدة الأزمة بما أتاحته للتجار من تصدير القمح للإنجليز سعيا وراء الربح رغم حاجة الفرنسيين لقمحهم. وعبثا طلب الرأي العام بإلغاء المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا والتي تتيح تصدير القمح إليها. فانتشرت المجاعة وعم الاستياء المدن والأرياف وأخذ الفلاحون يطوفون مستجدين تارة ومحرقين المنازل طورا. وتلبد الجو الفرنسي بغيوم الثورة[٤٩].

وخلف كالون "دي بريين de Brienne" (١٧٨٧ – ١٧٨٨) وهو رئيس أساقفة "تولوز" وكان آخر من تمتعوا بنفوذ سياسي من رجال الدين. وفي عهده وافق مجلس الأعيان على غالبية مقترحات "كالون" ولكنه رفض فرض ضريبة عامة على الأرض. فاستخدم الملك حقه في فرض الضرائب. وهنا رفض البرلمان فرض الضريبة العامة على الأرض، وقد أدى ذلك إلى اعتزال "دي بيريين" الحكم في ١٧٨٨.

على أن البرلمان كان قد وافق قبل اعتزاله منصبه. عام ١٧٨٧ على مرسوم حرية التجارة الداخلية وإنشاء المجالس الإقليمية، وإلغاء السخرة.

وفي عام ١٧٨٨ تولى نيكر الوزارة ليعد العدة لدعوة مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد في فرساي في ٥ مايو من العام التالي فأخذت الأنظار تتجه نحو نيكر. وتعلقت الآمال بشخصه لحل الموقف.

وقبل التحدث عن الأحداث، لابد من إلقاء نظرة على كل من برلمان باريس الذي أصر على رفض تسجيل مشروع القانون الذي اقترحه الملك لفرض

---

[٤٩] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٢٨.

ضريبة عامة على الأرض. وعلى مجلس طبقات الأمة الذى اتجهت نحـو الأنظـار كوسيلة أخيرة لمعالجة الأزمة المالية[50].

مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية

دعوة الملك مجلس طبقات الأمة

وقد جربت بلا جدوى جميع ضروب العلاج، ما عدا علاجا واحدا ألح كل جانب على الحكومة بتجربته. ففى الثامن من أغسطس سنة ١٧٨٨ فى جو مملوء بالمخاوف والشكوك والآمال، دعا الملك أخيرا مجلس طبقات الأمة للانعقاد فى العالم التالى، وأرجع نكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذى يهيمن منه على مالية فرنسا.

ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذى أهملت دعوته للاجتماع طويلا، والذى كان يجتمع فيه رجال الدين والأشراف وممثلو الطبقة الثالثة "طبقة العامة"، ويتداولون ويقترعون كل على حده. وكان كل ما أمله نكر من دعوته إياه الآن أن يقر المال اللازم لمعادلة الميزانية، فيسد بذلك الهوة العميقة التى فغرت فاها بعجز الميزانية. ولم تضع الحكومة قبل انعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستورى، أو تعد أى إرشادات لهدى مجلس قليل الخبرة، كهذا المجلس المؤلف من ألف ومائتى عضو، خلال عمله، ومع أنه تم الاتفاق فى ٢٤ يناير ١٧٨٩ على أن يكون عدد ممثلى الطبقة الثالثة معادلا لعدد أعضاء طبقتى الأشراف ورجال الدين معا، فإن الحكومة لم تقرر شيئا، بل أنها لم تقرر حتى هذا الأمر الخطير وهو: هل يجمع جميع أعضاء الطبقات الثلاث معا، أو يجتمع ممثلو كل طبقة على حده؛ والحق أن لويس لم يكن ينتظر، أو يدرك الحركة الهائلة التى ترتبت على دعوة

---

[50] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٤٩.

مجلس طبقات الأمة في فرساي، والتي خلقت رأيا عاما سياسيا قوى الإرادة شديدة الهياج[٥١].

ومع ذلك فإنك لتجد المطالبة بالإصلاح الدستوري في هذا الشكل أو ذاك ظاهرة في جلاء، في العرائض Cahiers التي رفعتها كل هيئة وناحية في فرنسا إلى الحكومة، أو نشرها كبار القوم خلال تلك الحقبة الدقيقة. ولم يكن ذهن فرنسا يجنح إلى الجمهورية. بل كان يطالب فقط بأن الضرائب يجب ألا تفرض من غير موافقة الشعب، وأن تلغى ضريبة البيوت والعقار الثابت Taille وهما أمنيتان أجمع الناس، برغم تضارب المصالح، على المطالبة بتحقيقها. وثمة عريضة وزعت على نطاق واسع كتبها قس شاب ممتاز الذكاء، ورسم فيها نظام مملكة دستورية تشبه كثيرا تلك التي أقيمت في فرنسا عقب سقوط نابليون. وكان ذلك القس هو تاليران Talleyrand أسقف أوتان الذي أثبتت الأيام أنه كان أحكم من الكثير من أبناء وطنه. فقد قدر له سنة ١٨١٤ ،بعد أن أشرفت حروب الثورة على الانتهاء،أن يدير دفة الأمور في فرنسا على النمط الذي سعى عبثا أيام شبابه أن يخطه لها[٥٢].

ولكن لما التأم عقد المجلس في فرساي في مايو ١٧٨٩، وقع ممثلو طبقة العامة تحت تأثير عقلية السوقة فقد اجتمعوا في وقت هياج شديد وآمال عريضة، وعقدوا من بادىء الأمر النية على أن يمنحوا فرنسا نظماً وهيئات تكون موضع حسد العالم لها، وأنموذجاً لسائر البلدان. وبدا كل شيء سهلا ميسورا لجيل رأى في تحليق البالون الأول فاتحة لتذليل الهواء، وفي التنويم المغناطيسي قوة جديدة غامضة تسيطر على أعمال العقل البشري. فلم يكن ممثلو تلك الطبقة، وقد تشربت نفوسهم بهذه الروح يميلون إلى أن يحتملوا معارضة من جانب الطبقات الممتازة.

---

[٥١] هـ. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١٠.

[٥٢] هـ. فشر تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١٠.

فأعلنوا فى ١٧ يونيو أنهم يكونون "الجمعية الوطنية" وفى اجتماع شهير عقد فى ٢٠ يونيه فى ملعب التنس بجوار قصر فرساى، أقسموا بألا ينفضوا حتى يضعوا لفرنسا دستوراً.

وكان العمل الذى فرضوه على أنفسهم ضخماً جباراً، فإن الدستور الأمريكى سنة ١٧٨٩ وصنعته وصقلته لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاية ممتازة كانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مقفلة فى مدينة فيلادلفيا الهادئة المتدينة. أما الجمعية الوطنية الأكثر عددا المنعقدة فى فرساى، فقد جرت مداولاتها فى مملكة تجيش بالفوضى، وتحت غوغاء باريس وصخبهم ووعيدهم. وكان إصلاح نظام الملكية الفرنسية القديمة العهد إصلاحاً حكيماً عملاً شاقاً على أى حال، ولكنه بات مائة ضعف، اشق مما يجب بتحمل الجمعية تبعة حكم فرنسا، الأمر الذى أقحمته عليها الحوادث[٥٣].

وكان هنالك طفحة من البطانة الملكية نمقت منح الشعب أى شىء وتتوق إلى استخدام القوة فى كبح جماح الجمعية، والقضاء على اضطرابات العاصمة التى ازدادت استفحالا. فأذعن لويس بعض الإذعان لهذه الطفحة فأقال فى ١١ يوليو نكر المبغض – أقاله لأمور ثلاثة لأنه بروتستانتي، ولأنه حديث نعمة، ولأنه مصلح. وأمر بإقامة معسكر قرب فرساى لجند نظاميين ووضعوا تحت أمره برجلى، وهو قائد قديم مجرب ذائع الصيت. واستهوت الآن لويس سياسة القوة والبطش، وهو الذى كان ينادى من قبل بوجوب الإصلاح[٥٤].

فكان رد ديمقراطية باريس على تهديد الرجعية هذا، هو الرد التاريخى الذى مازالت فرنسا تحتفل به عيدا قوميا فى ١٤ يوليو من كل عام: حين استسلم فى

---

[٥٣] هـ. أ. فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١١.

[٥٤] نفسه، ص ١١،١٢.

ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ حصن الباستيل إلى غوغاء كانوا قد سلحوا أنفسهم بما غنموه من من الأنقاليد. ومن المرجح أنهم كانوا يموّلون من بعض أرباب الأموال الذين رأوا في نكر الأمل الوحيد للإصلاح المالي.

ولم يكن هنالك فخر كبير في هجوم على حصن كانت مدافعه مهجورة عديمة الاستعمال. ولكنه كان نظرا للظروف التي سبقت وتبعت استسلامه. مصدر عار وخجل شديدين: تلك الظروف التي ترى في الذعر الشديد الذي حَل إذ ذاك بسكان العاصمة، أو في مشاهد التدمير والنهب، أو في تمرد بعض الجند وشغب البعض الآخر، أو في ذبح حامية الباستيل ذبحا دل على النذالة والقسوة. بيد أن الاستيلاء – بالرغم تدنسه بالجريمة – على ذلك السجن القديم الذي في أطراف باريس وهدمه كان عملا سياسيا فذاً رائعاً. ففي طول أوروبا وعرضها هلل الناس وكبروا مرحبين بسقوط الباستيل كخاتمة للطغيان المستتر، والسجن الظالم المستبد، وكبشير ببزوغ فجر الحرية[٥٥].

---

[٥٥] هـ. أ. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١٢.

الفصل الثاني

الثورة الفرنسية فى مراحلها المختلفة

من ١٧٨٩ - ١٧٩٩

الجمعيــة الوطنيــــة:

في صيف سنة ١٧٨٨ اشتدت الأزمة الاقتصادية في فرنسا لدرجة كبيرة، وانتشر الجوع في بعض الأرياف وفي الأحياء التي يقطنها العمال والفقراء في المدن الكبرى. وعجز نيكر المعروف بحنكته وحسن تدبيره، والذي كان قد استدعى مجددا في سنة ١٧٨٨ لاستلام وزارة المال، عن ضبط الأمور وتأمين القوت للجائعين، خاصة وأن خزينة الدولة بدت في ذلك الوقت وكأنها على شفير الإفلاس. بل كانت فعلا مفلسة إذ ورد في التقرير الذي سبق أن قدمه الوزير كالون إلى مجلس الأعيان في سنة ١٧٨٧ أن ديون الخزينة الفرنسية تبلغ أربع مليارات فرنك مضافا إليها الديون الكبيرة التي ترتبت على البلاد بسبب المشاركة في حرب الاستقلال الأمريكية.

وأما خطورة الوضع الاقتصادي والمالي اقترح الوزير على لويس السادس عشر طرح المشكلة بكاملها على الأمة الفرنسية عن طريق دعوة مجلس الطبقات الذي تتمثل فيه جميع فئات الشعب، والذي لم يكن قد دعي للاجتماع منذ ١٧٥ عاما. وقد وافق الملك على هذه الخطوة رغم ما كان يرافق ذلك من مخاوف ومحاذير وشكوك. فالعرش يحتاج للمال وهذا لم يعد من الممكن تأمينه إلا بموافقة وقبول جميع ممثلي الشعب. ووضع نيكر، بتكليف من الملك، نظاماً انتخابياً جرت الانتخابات العامة على أساسه في جميع أنحاء المملكة. وقد رحبت الطبقات الشعبية بهذا التدبير راجية أن تحصل بواسطته وعن طريق المجلس الجديد على الخبز وكذلك وافقت البرجوازية على هذه الخطوة آملة أن تحصل عن طريق مجلس الطبقات على قسط من الحريات الديمقراطية وعلى حقها في المشاركة في شؤون

الحكم والسلطان. وهكذا التقت مختلف فئات الفرنسيين كل لأسباب خاصة به على الترحيب بالتدبير الذى كان الخطوة الأولى فى طريق الثورة[1].

تألف المجلس الجديد من ١٢٠٠ عضو نصفهم يمثل طبقة العامة والنصف الآخر يمثل بالتساوى طبقتى الأشراف والأكليروس. وكانت التقاليد القديمة تقضى بأن تجتمع كل طبقة لوحدها وأن يجرى التصويت على أساس الطبقة وليس على أساس أصوات جميع الممثلين.

وقد حرر الناخبون فى جميع أنحاء فرنسا عرائض حملها أعضاء المجلس الجديد (كما تنص على ذلك التقاليد الدستورية القديمة فى فرنسا) تفيض بالشكوى وتحد د المطالب الأساسية التى يريد الفرنسيون تحقيقها وأهمها:-

١- صيانة الحريات العامة ومنع التعدى عليها إلا بموجب القانون.

٢- إلغاء الامتيازات القديمة ومساواة الجميع أمام القانون.

٣- عدم فرض الضرائب إلا بموافقة الشعب ممثلا بمندوبيه فى مجلس الطبقات.

٤- توزيع الأعباء الضرائبية على الجميع بالتساوى بغض النظر عن الانتماء الطبقى للمكلفين.

والواضح من هذه المطالب أنها على درجة كبيرة من الاعتدال ولا تحمل فى طياتها أى عداء للنظام الملكى أو رغبة فى إحداث تغيير جذرى فى النظام السياسى والاقتصادى فى فرنسا. وابرز ما فيها أنها من وضع مواطنين لا يزالون على ولائهم للملكية وعلى حبهم للملك، يدفعهم مثل أعلى هو العمل على تحويل فرنسا إلى ملكية برلمانية دستورية[2].

---

[1] عبد العزيز نوار، عبد لمجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ٢٩، ٣٠.

[2] نفسه، ٣٠، ٣١.

في الاجتماع الأول الذى عقده مجلس الطبقات، في اليوم الخامس من شهر مايو، ألقى الوزير المالي نيكر خطابا أوجز فيه التدابير التى يقترحها لإصلاح شؤون بيت المال ولم يشر من قريب أو بعيد إلى موقف الدولة من المطالب التى يود الفرنسيون تحقيقها وقد ظهر منذ البداية أن الحكومة لم تكن لديها خطة واضحة للإصلاح ولم يكن لديها أي جواب على المطالب الكثيرة والمتنوعة التى جاء بها ممثلو الأمة. حتى أنه لم يكن للحكومة موقف واضح من بعض القضايا الشكلية المتعلقة بالنظام الداخلي للمجلس. في نفس الجلسة طرح زعماء الطبقة الثالثة مشكلة التصويت في المجلس الجديد وأصروا على أن يجرى بالاقتراع الفردى وليس على أساس الطبقات. وكان هدف هؤلاء من ذلك الحصول على أغلبية في المجلس لأخذ المبادرة عند طرح الاقتراحات والقوانين على التصويت.ونظرا لكون عدد مندوبي الطبقة الثالثة يتساوى مع عدد مندوبي الأكليروس والأشراف ولكون الكثيرين من مندوبي هؤلاء ميالين للتعاون مع الطبقة الثالثة فإن أي اقتراح بالأسماء سيجعل الأغلبية بجانب الطبقة الثالثة. ولم تقدم الحكومة أى رد منطقي ومقبول على هذا الاقتراح كما لم تتقدم باقتراح بديل يأخذ بعين الاعتبار مطالب الشعب بل اكتفى الملك برفض الاقتراح والتمسك بالأسلوب القديم الذى كان يعمل به منذ أكثر من قرنين من الزمن. وبذا يكون الملك قد ارتكب حماقة كبيرة أبعدت ممثلي الطبقة الثالثة عن العرش مع كونهم كانوا لا يرغبون في ذلك، ودفعتهم في سلوك طريق مستقل[٣].

طال النقاش كثيرا حول هذا الموضوع وتمسك الملك ومن ورائه ممثلو الأشراف والنبلاء بطريقة الاقتراع التقليدية مما جعل ممثلي الطبقى الثالثة الذين

---

[٣] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٣١.

علقوا الآمال الواسعة علـى المجلس الجديـد يميلـون لأخـذ زمـام المبـادرة مـن الحكومة والعرش والانفراد في العمـل لتحقيق الإصلاح الدستوري الشامل. وقد تم التحول الأساسي حين وافق ممثلوا الطبقة الثالثة ومن يقف موقفهم من الأكليروس والأشراف على اقتراح تقدم به سيبياس وهو راهب متنور من أنصار المبـادىء الحرة يدعو لاجتماع هـؤلاء فـي مجلس تشريعي يمثل البلاد ويطلق عليه اسم "الجمعيـة الوطنية" وكان ذلك في ١٧ يونيو سنة ١٧٨٩. وفي اجتماع ثان عقد في ٢٠يونيو في ملعب للتنس يقع على مقربة من قصر فرساي، أقسم هؤلاء على أن يوالوا اجتماعاتهم مهما كانت الظروف والاعتبارات إلى أن يضعوا لفرنسـا دسـتوراً جديـداً يصـون حقـوق المواطنين ويضمن حرياتهم. وبذا تحول مجلس الطبقات عن الهدف الأسـاس الـذي دعـي من أجله وهـو فرض ضرائـب جديـدة، واصبح جمعيـة تشـريعية تعمـل لوضـع دستور يلبي حاجات المواطنين.

ولما لم يكـن الملك راضيا عـن الخطـوات المتخـذة فقد دعـا فـي الثـالث والعشرين من الشهر المذكور مجلس الطبقات إلى الاجتماع وأبلـغ أعضـاءه رغبـة العرش فـي أن يظل الفصل بين الطبقات قائما، وأعلـن إلغـاء القـرار الـذي اتخـذ بتحويل المجلس إلى جمعية وطنية. رفعت الجلسة على أن تستأنف في اليوم التـالي كل طبقة علـى حـدة دراسـة مشروع لإصلاح الإدارة وتقويـم أوضـاع بيـت المـال، وانسـحب الملـك وتبعـه الأشـراف والأكلـيروس. إلا أن مندوبـي الطبقـة الثالثـة ومناصريهم من الأشراف والأكليروس بقوا في أماكنهم مما جعل أحد موظفـي البـلاط يذكرهم بضرورة إخلاء القاعة[٤].

وهنا فرزت الثورة، أحد أبرز زعمائها وأوائل روادها ميـرابو الـذي رد بعبارتـه الشهيرة: "نحن هنا بإرادة الشعب ولـن نخرج إلا علـى رؤوس الحـراب". كـان ميـرابو

---

[٤] عبد العزيز نوار، عبد لمجيد نعنعي، التاريخ المعاصر،ص٣١،٣٢.

يمثل هوية الثورة في عهدها الأول. إذ كان يريد تحقيق الإصلاح مع الإبقاء على العرش والملك. فقد كان يريد تحقيق نوع من المشاركة في السيادة والسلطان بين الشعب والعرش والقضاء على الاستبداد والفردية. إنما من المؤكد أنه كان ملكيا دستوريا وظل كذلك حتى الرمق الأخير من حياته.

ولم يلبث الشعب أن سجل بعد أيام قليلة أولى انتصاراته حين التحق ممثلو الأكليروس والأشراف بناء لأوامر الملك بالجمعية الوطنية. إلا أن ذلك لم يوقف مسيرة الأحداث. وشعر الملك وحكومته بأن الوضع في العاصمة بدأ يأخذ شكلاً خطيراً وأن رياح التمرد والثورة أخذت تنتشر من باريس في كل الاتجاهات. لذا استدعيت بعض فرق الجيش، على سبيل الاحتراز إلى فرساي واتخذت تدابير أمن مشددة وأقيل نيكر ربما بسبب أفكاره الإصلاحية واستبدل بأحد أعوان الملك وكان ذلك في الثاني عشر من شهر يوليو[٥].

سقـــوط الباســـتيل:

هذه التدابير خلفت عند الفرنسيين أثراً سيئاً نظرا لعلاقة الوزير الجديد بالملكة والبطانة الملكية. ولما رافقها من إشاعات عن رغبة ملكية بحل الجمعية الوطنية.

ولم تلبث أن عمت العاصمة الفرنسية مظاهرات صاخبة لعب فيها بعض الخطباء المتطرفين من أمثال ما را وديملون دورا فعالا. وسيطر المتظاهرون على دار البلدية في باريس (الكومون) وجعلوها مركزا لمقاومة السلطة ونظموا حرسا أهليًا أعطوا قياته للمركيز دى لافاييت بطل حرب الاستقلال الأمريكية في الظاهر للمساندة على حفظ النظام وصيانة الأموال والأرواح، وعمليا كان الهدف من ذلك مقاومة الجيوش التى أخذ يجمعها الملك عند فرساى.

---

[٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر،ص٣٣.

ومن أجل الحصول على السلاح هاجم المتظاهرون مخازن الانفاليد ونهبوها ثم اندفعوا بقوة نحو سجن الباستيل الذى طالما كان فى نظر الفرنسيين رمز طغيان الملكية وظلمها، فحطموا أسواره وذبحوا حاميته وأطلقوا سراح من كان فيه من مسجونين. وكان عدد هؤلاء قليلا، على كل حال، لأن الدولة كانت قد أقلعت منذ مدة طويلة عن استعماله كسجن[1].

أن الظاهرة الأساسية فى ما حدث يوم ١٤ يوليو وهو اليوم الذى يسميه الفرنسيون "يوم الحرية" والذى لا يزالون يحتفلون به حتى الآن، هو انتشار البطش والعنف وهى أمور ما كان دعاة الثورة من البورجوازيين وأنصار الاعتدال وهم الأغلبية الساحقة فى الجمعية الوطنية، يريدونها أو يتمنون حدوثها. وقد بدا منذ ذلك اليوم أن الثورة قد أفرزت قوى متطرفة فى أهدافها وأساليبها وأن هذه القوى بدأت تأخذ طريقها إلى مراكز القيادة والتوجيه بين الجماهير الفرنسية وهو الأمر الذى أثار الخوف والحذر فى أوساط الجمعية الوطنية وبين الفئات المعتدلة.

كان لسقوط الباستيل أثر هام فى توجيه أحداث الثورة ففى باريس تمركزت السلطة الفعلية فى يد أعضاء بلديتها يحميها ويدافع عنها الحرس الأهلى الذى كان بمثابة نواة جيش الثورة. وفى خارج باريس اعتبر الناس الحدث بمثابة إشعار ببداية مرحلة التحرر ورفع نير المظالم القديمة. فهاجم الفقراء والفلاحون فى الأقاليم الأديرة وقصور الأشراف وأحرقوا بعضها. وقد صبوا غضبهم بصورة خاصة على كل ماله من علاقة بالضرائب والامتيازات القديمة. فهاجموا مكاتب الضرائب وأحرقوا السجلات الرسمية، ولاحقوا الجباة الماليين، وأتلفوا كل ما يثبت امتيازات الكنيسة وحقوق الأكليروس. وقد ساعد على انتشار العنف والإرهاب أن رجال الحكومة فى الأقاليم وقفوا موقف المتفرج من الأحداث مخافة أن يحل بهم ما حاق

---

[1] عبد العزيز نوار، عبد لمجيد نعنعى، التاريخ المعاصر،ص٣٣،٣٤.

بحراس الباستيل. وأمام عجز السلطة اضطر المواطنون فى المقاطعات لأن يسلكوا مسلك أهالى باريس ويأخذوا زمام الأمر بأيديهم ويؤلفوا لجانا للإشراف على أعمال الحكومة والمحافظة على الأمن والنظام.

أمام هذه الأحداث شعرت الملكية بخطورة الموقف وبأن المبادرة بانت بيد الجماهير الفرنسية فاضطرت لإظهار بعض التنازلات. ابعد الملك بعض وزرائه وأعاد نيكر لوزارة المال، وقبل علم الثورة المثلث الألوان[٧].

قرارات ٤ أغسطس:

هذا الموقف المعتدل والمستسلم بعض الشيء من جانب الملكية لم يكن كافيا لامتصاص نقمة الجماهير وهياجها بل أن الجميع كانوا يشعرون بأنه لابد من القيام بأعمال أكثر جدية لتهدئة الأحوال فى المقاطعات وإرضاء الفلاحين الثائرين، مساء ٤ أغسطس اجتمعت الجمعية الوطنية فى جلسة خاصة للبحث عن الوسائل الكفيلة يوقف تيار الاضطراب الجارف. فى بدء اقتراح الفيكونت دى نواى وهو من زعماء الأشراف إلغاء الحقوق الإقطاعية للنبلاء. وفى جو حماس عارم اقترعت الجمعية الوطنية بالموافقة على سلسلة من القرارات تهدف لإلغاء هذه الامتيازات أهمها:[٨]

١- إلغاء جميع حقوق الأشراف الإقطاعية وما يتبعها من حقوق قضائية.

٢- إلغاء أعمال السخرة والضرائب المفروضة على المطاحن والأفران.

٣- إلغاء امتيازات جمعيات الأقاليم والمقاطعات.

٤- إلغاء ضريبة العشر التى كانت تدفع للكنيسة.

---

[٧] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر،ص٣٤.

[٨] نفسه،ص٣٥.

٥- إعلان المساواة التامة بين جميع المواطنين في الحصول على الوظائف العامة

٦- إصلاح القضاء بحيث يتساوى الجميع أمامه في الحقوق والواجبات.

وقد لاقت هذه المقررات استحسانا كبيرا لدى جماهير الفرنسيين وبصورة خاصة لدى الفلاحين في الأرياف باعتبار أنها أزالت نهائيا وبصورة قانونية هذه المرة كل ما كان قد بقي في فرنسا من آثار النظام الإقطاعي. إلا أنها من ناحية ثانية أعطت في المدى القصير نتائج سيئة للغاية على الصعيد المالي، إذ ألغت دون دراسة وروية سلسلة من الضرائب كانت تشكل نصف مداخيل الخزانة. ومع أن ميرابو استدرك هذا الأمر بناء على إشارة وزير المال نيكر وجعل الجمعية الوطنية تقر ضريبة تبلغ ربع المداخيل التي تزيد على أربعمائة فرنك. فإن ذلك لم يعوض ما فقدته الخزينة من موارد وعلى كل هذه هي المرة الأولى في تاريخ فرنسا الحديث تفرض فيها ضريبة تصيب الأغنياء بأكثر مما تصيب الفقراء ولعلها أولى ثمار الثورة الفرنسية[9] .

نتائج سقوط الباستيل:

ومن ذلك الحين بدأت تسير باريس في طليعة التاريخ فقد صار مجلس بلديتها ذات حول وطول، وحرسها الأهلي الذي ضم إلى صفوفه كثيرا من المجرمين نواه لجيش شعبي، وقسوة رعاعها مصدراً لإلقاء الهلع والرعب في النفوس في الأيام السود القادمة.

وكان سقوط الباستيل إعلانا مدويا بأن باريس لا تنوى أن يفلت الدستور من بين يديها. وأن ما تريده باريس يجب أن تقبله فرنسا. أما لويس فما كان منه عند

---

[9] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر،ص٣٥،٣٦.

وصول الخبر إلى سمعه، إلا أن قال: أنها فتنة كبيرة، فأجابه الدوق دى ليانكور: "كلا يا مولاى، أنها ثورة عظيمة"[10].

واصبح الآن خسوف الملكية كاملا، فقد باتت عاجزة عن أن تحمى أصدقاءها أو تقضى على أعدائها. وأرغم الملك التعس على تجرع كل هوان وذلة، فالزم أن ينقض أوامره للجنود، وأن يعزل وزراءه، ويستدعى نكر، وأن يبارك علانية استيلاء الرعاع على الباستيل، وأن يقبل على ملأ من الناس، بحكم الأمة بعد تحررها، الشارة المثلثة والألوان الجديدة التى ابتكرها لافاييت محرر أمريكا والقائد المنتخب للحرس الأهلى[11].

ومع ذلك فلم تكن باريس بواثقة من فريستها. فقد تراءى لها أن الملك طالما كان حرا طليقا، فإنه يصبح مصدر خطر عليها، فقد يستأنف الاعيبه الرجعية القديمة، فيجمع جندا حوله، أو لا يصدق على المراسيم التى تقررها الجمعية الوطنية، أو يدبر الفرار. وقوى الشعور بأن خطره يقل لو أنه قام فى باريس حيث يمكن للكومون Commune- وهو مجلس بلدى باريس – أن يراقبه، وللحرس الوطنى أن يحيطه بالحراس. وكانت صاحبة هذا الرأى والداعية له عند لفيف من أصدقائها للمتحمسين. سيدة فى مقتبل العمل بارعة الجمال فصيحة اللسان، هى مدام رولان، قرينة مفتش مناجم رزين وقور.

وفى خلال هذه الفترة أدركت العاصمة طرق التهجيج، واستوعبت أساليب الثورة،فكان تحت تصرفها أموال ومنظمون، وغلاة ومتطرفون، ومورد غزير من الأوباش تعهد إليهم بأعمال الشغب والعنف وفى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٧٨٩ ظهر عذر يسوغ أحداث انقلاب، فقد كان الملك دعا فرقة الفلاندر إلى

---

(١٠) هـ. أ. فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٢.

(١١) نفسه، ص ١٣.

فرساى. برفض التصديق على قانون اجازته الجمعية الوطنية، وأشيع أنه يفكر فى الفرار، وأن الحرس الملكى داس بأقدامه الشارة المثلثة الألوان. فكأن شبح الرجعية الذى توارى فى يوليو قد أخذ يرفع رأسه الشرير من جديد[12].

وكانت هذه الظنون- مضافا إليها شح الخبز حينذاك فى باريس -كافية لأن تحرك ذلك الزحف الشهير إلى فرساى فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩: ذلك الزحف الذى بدأ يتجمع حفنة من النساء الجائعات يولولن فى طلب الخبز، ولكن جاء على أثره الحرس الوطنى بقيادة لافاييت، فاحضروا معهم الأسرة الملكية إلى باريس، وإلى قصر التويلرى الكئيب القارس البرد الذى أصبح أشبه بالسجن للملك والملكة[13].

وعقب سقوط الباستيل، حينما كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وبيوت النبلاء تلتهمها النيران، جاء تاليران خفية إلى الكونت دارتوا D' Artois أصغر أخوى الملك، جاء يحضه على أن يحمل الملك على حل الجمعية الوطنية، وإعادة النظام إلى نصابه بالقوة. ولكن الملك أبى ذلك عطفا منه وشفقة وإذا لم يضمن دارتوا لنفسه الحماية الكافية، فرَّ عبر الحدود، بادئا بذلك أولى موجات الفرار المتعاقبة التى جلبت هذا الشر المستطير على فرنسا وأوروبا.

وصعب أن نغلو فى تعداد الشرور والنتائج السيئة الناجمة عن وجود شراذم من الأشراف الحانقين النشطين الفارغى العقول وراء الحدود، يتحالفون مع أعداء بلادهم ويتآمرون عليها، أما عن طريق حرب أجنبية، أوبث روح الفتنة والنضال الداخلى، كى يستأصلوا نظمها وهيئاتها الجديدة. فإن جميع ا كوارث الكبرى التى انتابت فرنسا إبان الثورة. كإعدام الملك الملكة وجنون الشك والريبة والإرهاب، والفظائع التى ارتكبت، وقمع الآراء المعتدلة الإنسانية - إن هذه الكوارث لتتصل

---

[12] هـ. أ. فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص١٣

[13] نفسه، ص١٤

من قريب أو بعيد بالمخاوف التى أثارها حقد المهاجرين الدفين، وقوة حلفائهم المسلحة سواء فى الداخل أو الخارج، فإن أكثر ما قضى مضاجع الثوار هو ارتيابهم فى وجود أنصار مستترين للملكية فى جميع أرجاء فرنسا[١٤].

ولكن الجمعية فى نفس الوقت وجهت جهودها لوضع دستور لفرنسا، يغمرها روح التفاؤل والثقة كأن مصادر الوحى المعروفة للفلسفة ستحييها عن كل لغز من الغاز الحياة. وكان من حسن الطالع أن بسَّط عملها تبسيطاً مدهشا من هذه الناحية، وذلك أنها لم تجد نفسها مجبرة على أن تهدم شيئا. وتنازل الأشراف ورجال الدين وأعضاء مجالس القطاعات والبلديات والشركات والنقابات، فى موجة من موجات الفزع والكرب، عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية. وأنهار بذلك النظام القديم عند ارتطامه بالعواطف الثورية: تلك العواطف التى كانت الجمعية تساهم فيها إلى درجة كبيرة، ولكنها لم تفعل شيئا لخلقها أو توجيهها. ولم يحدث قط من قبل أن مجتمعا شهيرا نبذ بعنف وشدة ماضيه التاريخى، كما فعل المجتمع الفرنسى. ولو أن الملكية كانت قد نزلت بها الهزيمة والعار فى حرب طاحنة مدمرة، لما كان انحدارها وإذلالها بأعظم مما حل بها فى ذلك الوقت.

فإنه عقب سقوط الباستيل سادت الفوضى كل شىء: ساءت الإدارة والجيش – وما هو أدهى وأخطر على مستقبل فرنسا فى البحار – ساءت الأسطول الذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى أثناء حرب الاستقلال الأمريكية. وأشعل الفلاحون النار فى قلاع أسيادهم وقصورهم، ولم يوجد فى طول البلاد وعرضها من يطيع القانون، أو يدفع الضرائب. وألفت كل ناحية من نواحى فرنسا حرسا أهليا: تلك القوة العسكرية الهائلة العظيمة الشديدة الولاء للثورة، لترد عنها كيد الخصوم[١٥].

---

[١٤] هـ . فشر، تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ١٤.

[١٥] نفسه، ص ١٤، ١٥.

إعلان حقـوق الإنســـان:-

وفى ٢٦ أغسطس أعلنت الجمعية الوطنية وثيقة حقـوق الإنسان أبرزت فيـها بصورة واضحة الحقوق الأساسية التى للمواطن على الدولة، وابرز هذه المبادىء:-

-الناس يولدون ويظنون أحرارا متساويين فى الحقوق.

-الغرض من الحكومات ضمان وحماية الحقوق الطبيعية للإنسان.

-الحرية، الملكية، حماية الأرواح، وحق دفع المظالم.

-لا يسجن أحد أو يوقف إلا فى الحالات التى يحددها القانون.

-لكل أمة الحق في مشاركة حكومتها فى وضع القوانين وتقرير الضرائب.

ويلاحظ أن فـى هذا الإعـلان الكثـير من مبادىء روسـو ومـن روحـه التواقة للحرية. كما أن أثر وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكـى بين واضـح فـى نصـوص الإعلان الفرنسي. ولعل مرد هذا الإعجـاب والتقدير الـذى كـان يشعر بـه كـل فرنسـى مثقف للديمقراطية ولما للفرد فى ظلها من حقوق وحماية.

وقد نشر هذا الإعلان بحيث يأتي كمقدمة لدستور سنة ١٧٩١[١٦].

حـوادث أكتــوبر:

كانت مقررات ٤، ٢٦ أغسطس تنتظـر لتصبح نافذة المفعـول موافقـة الملـك عليها. ولم يكن من المنتظر أن يوافق عليها بسهولة لأنها تعتـبر بمثابـة تجريـد للعـرش من أكثر سلطاته، وجعل الشعب المصـدر الأساسـي للسلطات. وبـالفعل رفـض الملـك التوقيع على تلك القرارات مما جعل الوضع يتأزم فى باريس وجماعات المتطرفـين، والمشـاغبين تنشـط كثيرا. وفـى نفس الوقـت اسـتدعى فرقـه الفلانـدرز إلى فرسـاى للمساهمة فى حمايته، كمـا أن شـائعات سـرت فـى بـاريس تقـول بـأن علـم الثـورة قـد

---

[١٦] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٣٦.

أهين في إحدى الاحتفالات في فرساى. صادف كل ذلك فقدان الخبز من أسواق باريس في مطلع أكتوبر بسبب قلة التنظيم وخوف التجار من أعمال السلب والنهب وليس بسبب فقدان الحبوب. هذه الاعتبارات كلها جعلت الناس يطالبون بانتقال الملك إلى عاصمته. وفي ٥ أكتوبر خرجت من باريس مظاهرة ضخمة تتقدمها النساء باتجاه فرساى للعودة بالملك اعتقادا منهن بأن بعودته يكثر القمح في الأسواق. وقد أدرك المعتدلون من رجالات الثورة ما قد ترتكبه من حماقات الجماهير الزاحفة فتبعها لافاييت قائد الحرس الوطني على رأس رجاله. وفي فرساى طلب من الملك باسم بلدية باريس العودة للعاصمة وفي السادس من الشهر المذكور وصل الملك وعائلته، في حماية الحرس الوطني، إلى باريس وعلى صدره شارة الثورة. وفي نفس الوقت صادق عل مقررات الرابع والسادس والعشرين من أغسطس.

ولقد حل الملك وعائلته في قصر التويلرى تحت حماية الحرس الوطني وبات بذلك تحت نفوذ الثورة أن نقل أسيرها ورهينا[١٧].

عقب مغادرة الملك لفرساى انتقلت الجمعية الوطنية أيضا إلى العاصمة لتتفرغ للمهمة التي ندبت نفسها من أجلها وهي صياغة الدستور الجديد. إلا أنها في باريس باتت تحت رحمة العناصر الثورية وبصورة الخاصة الفئات المتطرفة منها مما سيؤثر إلى حد كبير في وضع نصوص الدستور وينفح فيه الكثير من روح التطرف والعنف[١٨].

المهاجـــرون:

في صيف سنة ١٧٨٩ ومع احتراق قصور ومزارع الكثير من الأشراف، ومع صدور قانون إلغاء الامتيازات القديمة، أدرك الكثير من النبلاء والأكليروس استحالة

---

[١٧] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٣٦، ٣٧.

[١٨] نفسه، ص ٣٧.

التفاهم مع أعضاء الجمعية ا لوطنية واقتنعوا بخطورة البقاء فى فرنسا منتظرين ما ستحمله لهم الأيام. فأخذوا يغادرون فرنسا جماعات وأفرادا. فمنهم من هاجر ليجمع السلاح ويحرض الأجانب ليستعين بهم على محاربة الثورة، ومنهم من رحل خائفاً على حياته وعائلته، ومنهم من أبتغى من هجرته مأمنا ينتظر فيه زوال الغمة وعودة الأوضاع فى فرنسا إلى سابق عهدها.

ذلك أن قلّة من هؤلاء فهمت حقيقة ما يجرى فى فرنسا، واستحالة إعادة عربة التاريخ إلى الوراء.اتخذت المهاجرون أماكن لإقامتهم فى بلجيكا، وعلى ضفاف الراين، إنما دوما على مقربة من حدود بلادهم، وجعلوا من كوبلنز مقرا للعناصر الناشطة منهم، ومركزا لتآمرهم ضد بلادهم وثورتها. والواقع أن الكثير من البلايا والنوازل أصابت فرنسا بسبب تآمر هؤلاء مع الأجنبى واستعداء دول أوربا على فرنسا وتحريض عناصر كثيرة داخل فرنسا على مناوأة سادة البلاد الجدد. وكانت فى مقدمة العناصر المهاجرة الكونت دارتوا شقيق الملك الذى أساء كثيرا بطيشه وتآمره الأجنبى لبلده وعرضه ولشقيقه بالذات[١٩].

روح الحركة الجديدة:

وكانت ثمة فكرة واحدة انتشرت فى كل صقع وناء وطربت لوقعها الشجى النفوس، واهتزت الأفئدة هى أن الشعب هو صاحب السيادة، ومصدر كل سلطة وبدت ملكية النظام القديم للناس خدعة كبرى وترحيلا واسع النطاق، وأن الفرنسيين لم يعودوا بعد بالأمة المستضعفة، بل أنهم لم يكونوا يوما من الأيام تلك الأمة، فقد صاروا مواطنين : أعضاء أخوة متضافرة حرية متساوية، تملك حق إعلان الصلح والحرب، وإبرام المعاهدات، ومباشرة القضاء، وتنظيم الكنيسة، والإشراف على الجيش والأسطول، وسن القوانين وفرض الضرائب، وتراءى لهم أن ليس ثمة

---

[١٩] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص ٣٧، ٣٨.

قوة فى العالم تستطيع أن تسيطر أو تقف فى وجهه إرادة الشعب التى تعبر عنها الجمعية الوطنية الممثلة الشرعية لها، وأن روح الاتحاد والتضافر التى تؤلف بين أعضاء الجماعة الواحدة، سواء أكانت هذه الجماعة مجلس مقاطعة، أم مجلسا بلديا،أم طبقة من طبقات المجتمع، أم شركة، أم نقابة عمل، يجب أن تذعن لأوامر فرنسا التى لا تتجزأ، وقد هبَّ من رقاده الوقاد أمام سنديانه، والفلاح وراء محراثه، والصانع فى مصنعه، فرأوا أنفسهم جزءا من فرنسا ذات السيادة والسلطان، لهم من الحقوق والاعتبار ما لأسيادهم ومنحوا حقوقا طبيعية ليس فى مقدور أحد أن يحرمهم منها: فقد وهبوا حق الحرية وحق الملكية، وحق الكلام والخطابة، وحق مقاومة الظلم والتعسف[٢٠].

كان هذا هو المنطق، وتلك العواطف التى استهوت فرنسا، واستحوذت على عقول أبنائها فى صيف ١٧٨٩. وكان هذا هو نداء الديمقراطية الجديدة الذى وجهته شعوب أوروبا الممتهنة الجانب.

وقد ذاعت تلك الفلسفة التى انطوى عليها إعلان حقوق الإنسان، بعباراته الخلابة، ومبادئه التى لم توضع موضع التجربة: هذا الإعلان الذى بدىء به دستور سنة ١٧٩١، فأثارت عباراته العزة فى النفوس، وأيقظت الأمانى والآمال فى بيوت لا تحصى. ولم تثمر إلا قليلا نصائح العقل والحكمة ونداءات الاعتدال، إزاء القوة المضللة الساحرة لهذا المنطق. وكان الاعتقاد بصلاح الطبيعة البشرية الأصلية الذى تنطوى ملكية هذه النظريات مصدر معظم المحن القاسية والنكبات المريعة التى حلت بفرنسا فى تعاقب سريع. فقد غاب عن الفرنسيين أنهم أمة لا تتألف من ساسة ملائكة، بل من شعب يحتاج – ربما أكثر من أى شىء آخر – إلى سلطة حازمة ويد قوية لترقية مواهبه وصفاته العظيمة ترقية كاملة[٢١].

---

[٢٠] هـ. أ. فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٥،١٦.

[٢١] نفسه، ص ١٦.

دستور ١٧٩١:

الطبقات العاملة والأندية

وتحت الطبقة البرجوازية (الطبقة الوسطى)، كانت هنالك طبقات العمال الجائعة جسما وعقلا. المتحجرة القلب من جراء إهمال أمرها، وتنفيذ القوانين المجحفة غير العادلة فيها: طبقات حفلت بالمجرمين والمهربين وقطاع الطرق وسفاكي الدماء. فإنه في ليلة اقتحام الباستيل أخذت النسوة والأطفال ترقص على ضوء المشاعل حول رءوس مقطوعة لثلاثة من الأسياد الفرنسيين قضوا حياتهم بلا دنس أو عيب.

ومع ذلك فلم يأبه لذلك الإنذار البشع. وامتنع الملك ووزراءه من توجيه خطى الجمعية وهدايتها، ورفضت الجمعية بدورها أن تحكم فرنسا، أو تحفظ الأمن في باريس.

ولما انتقل الملك والجمعية إلى العاصمة انتقل مركز السيادة في فرنسا إلى الأندية السياسية التي كان أهمها نادي اليعاقبة. ذلك النادي الذي صار في وقت وحيز قطب الرحى في اتحاد واسع النطاق، وحاكم فرنسا الحقيقي. ولم تحاول قط الحكومة أن تضرب على أيدي الهيئات الثورية، أو تقاوم أفعالها التي أوصلت الرعب في قلوب أعضاء الجمعية الوطنية، وبذرت بذور الفتنة والتمرد.

وسيهتم التاريخ على الدوام بأمر ميرابو Mirabeau ذلك المغامر والسياسي والخطيب الشعبي والمشرع، على أنه الرجل الذي أجتهد عبثا في وقف تيار الفوضى الجارف وإنقاذ تاج فرنسا. فقد وضح له كل الوضوح، كما وضح لمونييه Mouni وأشخاص حكماء آخرين، الا سبيل إلى إنقاذ فرنسا من التردي في هوة السقوط، إلا بقيام حكومة قوية شديدة البطش. ولكن أنى لهم أن يجدوا القوة

والحزم؟ أنهم لم يجدوهما فى الملك، أو فى أخيه الأصغر الكونت دى بروفانس، ولا فى لافاييت المختال المذهو بنفسه، والقائد غير الكفء لحرس باريس الأهلى[٢٢].

وحبطت جميع الدسائس لتأليف وزارة ملكية قوية، وتحطمت على صخور المبادىء الديمقراطية جميع المقترحات التى يحتمل أن تقوى مركز السلطة التنفيذية فى الدستور الجديد: كإنشاء مجلس تشريعى ثان ومنح الملك الحق المطلق فى رفض التصديق على أى مشروع قانون، وتخويل الوزراء حق الجلوس فى السلطة التشريعية. ولم يستطع ميرابو نفسه أن يعتمد حتى على تأييد الأعضاء الملكيين فى الجمعية الوطنية، لأن كثيرين منهم كانوا هدامين يميلون بجوارحهم إلى جعل الدستور أسوأ ما يمكن، بغية الحط من فوائد الديمقراطية ولما انتهى رأى ميرابو إلى تعذر الاتفاق على شىء مع الجمعية، اقترح سرا على البلاط أن يرحل علنا من باريس إلى روان وربما كان اقتراحه هذا من بين جميع خططه العديدة، أقلها تهوراً وقنوطاً ولكنه جاء بعد فوات الأوان، وذلك أن فرنسا صارت – ولما تدر جمهورية قلباً وقالباً[٢٣].

وقد ابقى الدستور الذى خرج فى النهاية من مرجل المناقشات، على الفوضى الناجمة عن تشتت السلطات: هذا التشتت الذى وجدته الجمعية الوطنية قائما ولم تفعل شيئا لتقويمه. وقد عمَّرت الملكية، ولكن كظل فقط، لأن السلطة الحقيقية صارت فى يد أربعين ألف مجلس، تدفع من الضرائب ما راق لها أن تفرض على نفسها، ولها وحدها حق استدعائها حرسها الأهلى الخاص بها واستخدامه. فكان الخوف القاتل من سلطان الحكومة – ذلك الخوف البادى فى اعتقاد صلف لا يقبل

---

(٢٢) هـ. فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٦، ١٧.

(٢٣) نفسه، ص ١٧، ١٨.

مناقشة – بفائدة الانتخابات والهيئات الشعبية كان ذلك الخوف عيبا من أكبر عيوب المحاولة الأولى للثورة وتنظيم فرنسا.(٢٤)

الثـــورة والكنيســـــة:-

وعيب آخر نتج من منطق الثورة الديمقراطى بعينه، هو إخضاع رجال الدين لدستور مدنى، فقد كان مبدأ أساسيا من مبادىء الثورة أن الهيئات المشتركة خطرة على المجتمع. لما لم تكن ثمة هيئة مشتركة بتضامنه فى مثل ثروة ونفوذ الكنيسة، وذات سجل طويل حافل بالتعصب كسجلها، فقد كانت محط بعض خاص من مجلس تشريعى معاد لهيئة رجال الدين.فأخذت الجمعية تكيل لهم الضربة تلو الضربة، فألغت أولا العشور الكنيسة Tithes، دون دفع تعويض، ثم ثنت ذلك بمصادرة جميع أملاك الكنيسة. وحل طوائف الرهبنة الدينية وتحرير الرهبان والراهبات من نذور بتولتهم. وأردفت هاتين الضربيتين بتخفيض عدد الهيئات والأشخاص الكهنوتين تخفيضا عظيما. ولكن لما كانت الجمعية قد تركت العقائد والعبادة من غير أن تمس، فإن هذه الإجراءات برغم تعسفها وشدتها لم تكن لتقدم حائلا يتعذر التغلب عليه.(٢٥)

فإن الكنيسة قد تمتعض جد الامتعاض من سلبها ضياعها الواسعة وأوقافها الغنية، ومن الإجراء الذى صير رجال الدين ذوى مرتبات خاضعين لحكومة ديمقراطية . ولكن الكنيسة فى فرنسا خضعت أمدا طويلا للدولة، فلا يستطيع مسيحى أن يستنكر إجراء كهذا حرم كبار رجال الدين من إيراداتهم الضخمة، كى يرفع قليلا من الرواتب الزهيدة لصغار القساوسة. بيد أن أعظم إثم احفظ قلوب رجال الدين،

---

(٢٤) هـ. فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٨.

(٢٥) نفسه، ص ١٨،١٩.

على الجمعية، وجعل النزاع بينهم وبينها مما يتعذر رتقه وإصلاحه، هو قرار الدستور الذى بمقتضاه يختار الأساقفة بواسطة ناخبى المديريات، والقسس بواسطة مجالس المراكز المحلية. فإن ذلك كان ينطوى على جواز انتخاب رجال الدين بواسطة مجالس المراكز المحلية. فإن ذلك كان ينطوى على جواز انتخاب رجال الدين بواسطة أشخاص علمانيين قد يكونون بروتستانت، أو حتى ملحدين.

ومن المعقول أن يخشى على الكنيسة تحكم ويعين رجالها على هذا النحو، أن يجرفها التيار بعيدا عن مرساها القديم، لا سيما عند خطر على المواطنين الفرنسيين أن يعترفوا بسلطة أى أسقف أو رئيس أساقفة تقع أبر وشيته خارج فرنسا وكان لا مفر من أن يستنكر البابا هذا الدستور المدنى الذى لم يؤخذ رأيه فى أية مرحلة من مراحله، والذى جرح ضمير العالم الكاثوليكى.

والحق أنه لم يمكن ثمة خطأ ارتكبته الجمعية التأسيسية أبعد أثرا فى نتائجه كتلك الإهانة غير المسوغة أو الضرورية التى وجهتها إلى عقائد الشعب الدينية. فقد انحاز فى بدء الثورة قساوسة القرى إلى قضية الشعب. فكان تأييدهم إياها جليل القيمة عظيم القدر. أما الآن فقد انقسم رجال الدين فريقين فريقاً مسايراً حلف اليمين بطاعة الدستور، واحتفظ بذلك بكورته، وأخذ يقبض مرتبه، وفريقا شجاعا عصى وتمرد، وبدلا من أن يقبل البقاء فى أحضان كنيسة منشقة عن البابا، هام على وجهه مهدداً بالجوع والسجن والموت ولكنه حمل معه ولاء رعيته أمينة ومؤمنين أوفياء[٣٦].

فصار القسس الذين لم يحلفوا يمين الولاء للدستور Preresinermente's من بادىء الأمر، مركزاً منيعاً لمقاومة حكومة الثورة. وكانوا فى مقاطعتى فاندى وبريتانى، وفى كل مكان خفقت الشارة البيضاء مناضلة

---

[٣٦] هـ. فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٩.

العلم المثلث الألوان. وفي هزيمتهم واضطهادهم توجت هاماتهم بأكاليل النصر والفخار. فمن كفارة إلامهم وقربان أوجاعهم خرجت الكنيسة فى فرنسا مطهرة من الأرجاس، مجددة حياتها الروحية.

ولم يكن في جميع تصرفات الجمعية شيء يشم منه رائحة الاشتراكية فقد هاجمت الثورة الفرنسية الملكية، إذ كان أعضاء الجمعية التأسيسية راسخى الإيمان بحرية الفرد. فناهضوا حتى تلك الألوان من الاتحاد الاقتصادى كنقابات العمال التى وجد فيما بعد أنها ضرورية لحماية الضعفاء من عسف الأقوياء وبات الفلاح قادرا على أن يزرع ما يشاء ويبيع أين يشاء وألغى نظام استرقاق الأرض أينما كان قائما، ونبذ نظام الرسوم الإقطاعية على صغار الملاك وخفف من وطأة قوانين الصيد، وحرم مالك الأرض من حقوقه فوق أتباعه من العامة.

ولكن مع تغير نظام الأرض فى مظاهرة الخارجية بقى أساسه كما كان بلا تغيير. وظلت الأرض يفلحها صغار الملاك أو المستأجرين من الفلاحين. أو تزرع حسب نظام الإيجار المشترك Metayer الذى بموجبه يساهم كل من صاحب الأرض والمستأجر فى تكاليف الزراعة، ويقتسمان الأرباح. ولكن مشروعا لإنشاء نظام شيوعى زراعى أو مشروعا بمقتضاه تملك الدولة الأرض، لم يعرض قط على بساط البحث، أو يقترح اقتراحا. وقد نشأت لحاجات الدولة نفسها، رابطة مادية متينة العرى وثقت أواصر ارتباط طبقة الفلاحين بالثورة، وضمنت – جزئيا على الأقل – عدم قلب عمل الجمعية التأسيسية فى هذه الناحية[٣٧].

التضخم المالى:

واحتاجت الجمعية فى أثناء حكمها فرنسا إلى المال. فسعت إلى الحصول على «طلبها منه بإصدار أوراق مالية Assignats، ضمنت أولا بأملاك الكنيسة، ثم

---

[٣٧] هـ. فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٩، ٢٠.

بعد ذلك بأملاك العرش والمهاجرين. وأصدرت فى بادىء الأمر (ديسمبر سنة ١٧٨٩) أوراقا بأربعمائة مليون فرنك اعتبرتها كسلفة تسدد مما ينتج من بيع أملاك الكنيسة ولكنها ما لبثت طويلا حتى وجدت هذا المبلغ غير كاف. فأخذت تسدد ثمن حاجاتها الجديدة بإصدار أوراق جديدة. فما عتم أن حل التضخم المالى، مصحوبا بنتائجه المحتومة. ومن انحطاط قيمة تلك الأوراق، وبيع الأرض بأثمان تثير السخرية.

وبسبب تدهور قيمة النقد تدهورا سريعا فى دولة ما إفلاس الكثيرين وخرابهم، على حين يعود بالربح على فريق آخر. ولقد أفضى انحطاط قيمة الأوراق المالية الفرنسية إلى فقر خزينة الحكومة وأصحاب العقارات الثابتة وسكان المدن وساعد على استمرار الهياج الثورى فى باريس بخلق جو مفعم بالمضاربة والفزع. ولكن الفلاح الذى اشترى الأرض بأبخس الأثمان ظفر من جراء ذلك بمكاسب طيبة. ولهذا السبب، عن بين أسباب أخرى، كان يحق له مع كثير من المضاربين فى الأرض من سكان المدن أن يبارك الثورة، وأن يخشى نقض عملها[٢٨].

ونظر سجينا التويلرى بروح الاشمئزاز والسخط، المقرونة بالعجز وقلة الحيلة، إلى تضخم تيار الثورة المتزايد، وعنف نادى اليعاقبة، وتحريضات الصحف المتعطشة لسفك الدماء، واستسلام الجمعية الذى لا يقف عند حد لأوامر الغوغاء ونزواتهم. ولكن حيث كانت الأشياء كلها ممقوتة آثمة، بدا للملك أن الدستور المدنى لرجال الدين. اشدها إثما وفقا. فقد شعر أنه لن يستطيع التوفيق بين هذا القانون وبين ضميره. أو يطيق تناول العشاء الربانى من يد كاهن دستورى.

وحدث حادث ظهر له منه أنه حتى دوافع الضمير لن تكون موضع احترام الثوار. ففى ذلك اليوم قصد الملك والملكة إلى سان كلو لتناول العشاء الربانى فى

---

[٢٨] هـ. فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ٢٠، ٢١.

وحدث حادث ظهر له منه أنه حتى دوافع الضمير لـن تكـون موضـع احـترام الثوار. ففي ذلك اليوم قصد الملك والملكة إلى سان كلو لتنـاول العشاء الربانى فـى كنيستها، ولكن الغوغـاء ردوهمـا خـائبين. فكـانت هـذه الإهانـة حاسمـة. إذ عقـدت الأسرة المالكة العزم على الفرار إلى الحدود، حيث بوبييه Bouille علـى رأس قـوة ملكية مواليه يمكنه بها أن يبسط لها يد الحماية والعون. قبـل أن يـبرح الملـك باريس كتب منشورا يعلن فيه بطلان الأوامر الدستورية التى أرغم علـى توقيعـها وطـالب بتعديلها.

ولكـن كشـف أمـر الهـاربين فـى فـارن "Varennes" (٢٢ يونيـو ١٧٩١). وأعيدوا إلى باريس. ومن تلـك اللحظة قضى علـى الملكية بالهلاك. إذ ظهر الملـك كالخصم العلنى للدستور، وكمهاجر فى قرارة نفسه، وكتغـير الكهان الذيـن لم يقسـموا اليمين بطاعة الدستور، وكمحـرض علـى الحـرب الأهليـة، وكحليـف للـدول الأجنبية المعادية للثورة، فأوقف عشرة أسابيع عـن العمـل. وقـامت حكومـة جمهورية فـى كـل شيء، ما خلا الاسم، عملـت علـى تلطيـف المخـاوف التـى ساورت النفـوس بـانحلال فرنسا فيما إذا ألغيت الملكية[٣٩].

حـل الجمعيـــة الوطنيـــة:

وعندما أكمل وضع الدستور حلـت الجمعيـة الوطنيـة، نفسـها (١٤ سـبتمبر ١٧٩١). وكانت قد أجازت من قبل قانونا دل على روح إيثار من جانبها، ولكنـه لم يفد فرنسا إلا قليلا. ذلك أنه قضى بتحريم انتخاب أعضائها فـى الجمعيـة التشـريعية الجديدة. ففـى خفة وقلة اكتراث ضحـى واضعـوا الدسـتور الفرنسـى الأول بالخـبرة التى جمعوها خلال عامين حافلين بالعمل السياسـى الجم النشـاط، وقبلـوا أن يكلـوا أمر تنفيذ الدستور إلى رجال غير مجربين. وبذا قضت المقادير بـأن الجمعيـة الوطنيـة

---

[٣٩] هــ فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ٢٢.

ديمقراطية فى فرنسا يعيدنها سلم شامل ديمقراطى - قضت المقادير بأن عهد الجمعية السبيل إلى قيام حكومة استبدادية حربية، وبذر بذور حرية عامة[٣٠].

فـــرار المـــلك:

على الرغم عن أ ن الملكية قد تبنت الكثير من مقررات الثورة وأظهرت فى كثير من المناسبات. طائعة أو مختارة، رضاها عن بعض الزعماء الثوريين فإن الملك والملكة ظلا يضمران الكره والعداء للنظام. فكانا على اتصال سرى دائم بملوك أوروبا يحثانهم على نجدة العرش الفرنسى، وبالمهاجرين يتآمران معهم على الثورة. ولم يفقدا الأمل فى أية لحظة من قيام أوضاع أفضل تساعد على استعادة حقوق الملكية المسلوبة والقضاء على الحركة الثورية فى فرنسا. إلا أن ضغط المهاجرين على الملك وتزايد سيطرة العناصر المتطرفة على الثورة كانا يجعلان صبر الملك ينفذ تدريجيا. وجاء أخيرا الدستور المدنى للأكليروس فاستنفذ آخر ما تبقى لدى الملك الفرنسى من صبر وقدرة على الاحتمال. فالقانون المذكور وقرار الحرم الصادر عن قداسة البابا جعلاه فى موقف المتمرد الخارج على تعاليم الكنيسة، إذا ما أستمر فى صمته وقبوله، بالتنظيم الكنيسى الجديد، وهو المسيحى المؤمن المتدين.

والواقع أنه ليس الملك وحده هو الذى ضاق صدره ذراعا بتزايد الاتجاهات المتطرفة فى الثورة، بل أن بعض زعمائها وروادها الأوائل شعروا بذلك وأخذوا يحاولون وقف تيار التطرف مثل ميرابو الذى ظل دوما كما عرفنا فى السابق يؤمن بملكية دستورية تكفل للمواطنين الحريات الأساسية.

وقد حاول ميرابو أكثر من مرة متعاونا مع بعض العناصر المعتدلة، إقامة حكومة قوية نافذة قادرة على وقف تيار التطرف والقضاء على عناصر الشغب

---

(٣٠) هـ. فشر، أوروبا فى العصر الحديث، ص ٢٢.

والإرهاب التى بات ضغطها على الجمعية الوطنية قويا. بحيث يجعلها ضعيفة مشلولة[٣١].

وفى سبيل هذا الهدف بالذات عرض على الملك أن يتعاونا سوية للتغلب على الجمعية الوطنية ولإعادة سيادة القانون والنظام فى فرنسا. إلا أن وفاة ميرابو المفاجئة فى أبريل ١٧٩١ أفقدت الملكية الدستورية سندا قويا ربما كان بإمكانها مساعدتها على البقاء والاستمرار.

ولجأ أخيرا اتجه الملك نحو المهاجرين الذى كانوا على اتصال مستمر بالملكة عن طريق الوزير السويدى فرسن de Fersen ليساعدوه على الخروج من البلاء اعتقادا منه أنه فى الخارج سيصبح أقدر على إنقاذ فرنسا والعرش. وقد تولى الوزير السويدى تنظيم هرب العائلة المالكية من باريس إلى خارج الحدود. خرج الملك وعائلته سرا فى عربة مقفلة من العاصمة باتجاه الحدود الشمالية الشرقية ووصل فى ليل ٢١ يونيو إلى فارين وهى مدينة صغيرة قرب الحدود. إلا أن أمرهم كشف هناك وأجبروا على العودة فى صباح اليوم التالى تحت حراسة مشددة إلى باريس[٣٢].

الواقع أن هرب الملك قد هدم كل الجسور التى كانت العناصر الثورية المعتدلة تحرص منذ البداية على استمرارها بين العرش والثورة. بل أكثر من ذلك فإن هذا الحدث قد قضى على كل أمل بإقامة ملكية دستورية فى فرنسا وأطلق للعناصر المتطرفة وللجمهوريين عامة حرية العمل والدعوة لأفكارهم بعد أن ظهر الملك علانية بمظهر الخائن المتعاون مع المهاجرين أعداء الثورة ومع دول أجنبية تضمر الكره والبغضاء لفرنسا ولثورتها. ولعل مما زاد فى حراجة موقف الملكيين

---

[٣١] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٤٠.

[٣٢] نفسه، ص٤١.

الملك علانية بمظهر الخائن المتعاون مع المهاجرين أعداء الثـورة ومع دول أجنبيـة تضمر الكره والبغضاء لفرنسا ولثورتها. ولعل مما زاد فـى حراجة موقـف الملكيين والمعتدلين إجمالا لا كون الملك كان قد صرح قبل هربه بأن كل ما وافـق عليـه بعد جلسة الثالث والعشرين من يونيو يعتبر باطلاً، وأنه قد حصل بالرغم من إرادته. وهذا يعنى صراحة بأن الملك يرفض كل مـا حققته الثـورة حتى ذلك الوقت من أعمـال ومنجزات.

ومنذ عودة الملك إلى باريس صار مصير العرش وسيده موضع بحث ومناقشة صارت الفئات المتطرفة المتزايدة القوة والنفوذ تنادى علنا بضرورة قيام الجمهوريـة. إلا أن عناصر الاعتدال تخوفت كثـيرا من مغبة خلـو العرش أو زوال الملكية وما قـد يحدث بعد ذلك من فراغ فجزمت أمرها واعتمدت على قوتها العدديـة فـى الجمعيـة الوطنية واقترحت إعادة الملـك إلى عرشـه مع تقييد سلطانه لحـد كبـير. وبـالفعل أصدرت الجمعية الوطنية قـرارا بهذا المعنـى عللتـه أمـام جماهير بـاريس الثـائرة المتطرفة، والتى باتت جمهورية فى القلب والقالب، بأن الملك نقل مـن قصره عنـوة وهو بالتالى لا يعتبر مسؤولا عن عملية الهرب.

إلا أن العنـاصر الجمهوريـة والمتطرفـة طعنـت بهذا القرار ونظمـت تظـاهره ضخمة فى السابع عشـر مـن يوليـو قصـدت منها إرهـاب الجمعية الوطنيـة وأخـذ زمام المبـادرة مـن أيدى العنـاصر المعتدلـة فيها. غير أن الحـرس الوطنـى تدخـل بسـرعة، لكبح جماح عناصر التطرف والإرهاب، وللبقاء طالما أمكن ذلك، ضمن إطار الشرعية القانونية وفى خط الاعتدال، فشتت المتظاهرين وفرق جموعهم وحافظ علـى سلامة الجمعية الوطنية وسيادتها. واتخذت الجمعية الوطنية تدبيراً سريعاً قصدت منـه إرضـاء جماهير بـاريس الغاضبة، فـأمرت بوقف الملـك عن ممارسة سلطاته، دون أن تمس

حقه بالعرش إلى حين الانتهاء من وضع دستور جديد للبلاد يقسم له يمين الولاء والاحترام[٣٣].

إعـــلان بلنتـــيز Pillinitz:

حتى صيف سنة ١٧٩١ كانت جميع الجهود التى بذلها المهاجرون لجر الدول الأوربية لحرب مع فرنسا بقصد حماية عرشها والقضاء على ثورتها قد فشلت. وكذلك فشلت جهود الملك لدى قريبه إمبراطور النمسا، والوعود المغرية للإنجليز بإعطائهم بعض المستعمرات الفرنسية. فإمبراطور النمسا كانت تشغله أمور بلاده الداخلية عن الاهتمام لشئون فرنسا يضاف إلى ذلك أنه كان بطبعه كثير الكلام مترددا غير مقدام. أما الإنجليز فكانت تشغلهم عن إحداث فرنسا أمور تجارتهم الخارجية وأساطيلهم البحرية وصناعتهم الناشئة المتطورة بسرعة مذهلة[٣٤]

غير أن قرار الجمعية الوطنية بتجريد الملك من سلطاته، عقب محاولته الفرار، والذى اتخذ يقصد استرضاء عناصر التطرف فى باريس، فقد أثار انتباه ملوك أوروبا، بشكل سريع وغير منتظر وجعلهم يشاركون بصورة أكثر جدية بالاهتمام بالشؤون الفرنسية. وفى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩١ اجتمع فى بلنتيز إمبراطور النمسا وملك بروسيا للتداول فى أمر التطورات الجارية فى فرنسا ثم اصدر فى نهاية مؤتمرهم بيانا مشتركا أعلنا فيه: أن من واجب جميع الملوك أن يعملوا على حماية العرش الفرنسي وتعزيز سلطان صاحبه. كما أعلنا عن استعدادهما للتدخل ومساعده الملك الفرنسى إذا استجاب ملوك أوروبا لهذه الدعوة. ويفهم من هذا أنهما لا يتدخلان إلا إذا قبل جميع ملوك أوروبا وهو أمر لم يكن متوقعا أو ممكنا آنذاك. كما هو واضح فقد صيغ البلاغ المذكور بلغة دبلوماسية ملتوية لم يألفها رجال الثورة فى فرنسا وجماهير باريس – فاسىء فهمها لدرجة أنهم اعتقدوا جميعا أن النمسا وبروسيا

---

[٣٣] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، لتاريخ المعاصر، ص٤٢.

[٣٤] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، لتاريخ المعاصر، ص٤٢،٤٣.

على أهمية التدخل وإعلان الحرب، مما زاد فى موقف الملك حراجة وضعفا أظهره بمظهر المتعاون والمتضامن مع قوى أجنبية، وهذا أعطى المتطرفين وأعداء الملكية مزيدا من القوة المعنوية والسيطرة على مقدرات الثورة[٣٥].

حـــروب الثــورة الفرنســية:

- الحرب ضد النمسـا وبروســيا ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢.

فى ٢٠ أبريل عام ١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا، ودخلت جيوشها بلجيكا إلا أن هذا الهجوم انقلب وبالا على الفرنسيين أمام تقدم الجيوش النمساوية التى وصلت الحدود الفرنسية بعد أن دفعتهم داخل أراضيهم. ثم أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا وتشكلت قيادة نمساوية بروسية مشتركة. وفى ١٩ أغسطس اجتازت الجيوش المتحالفة الحدود الفرنسية، وحوصرت فى فردون مفتاح باريس الشمالى، فانتفض الشعب الفرنسى بكل حماسة لمواجهة العدوان الزاحف نحو عاصمته، كما رفع شعار تصفية أعداء الثورة ليلقى القبض على الآلاف وليعدم الكثيرون. ومع سقوط فردون بأيدى النمساويين والبروس تصاعدت عمليات الانخراط فى صفوف الجيش واندفع المتطوعون صوب الشمال لمشاركة الجيش فى معركة المصير. وفى ممر فالمى صمد الفرنسيون بقيادة ديمورييه وأوقفوا زحف الجيوش المتقدمة بعد أن ظن الحلفاء أن الفرنسيين سيفرون من أول طلقة فدفع كما حدث فى الأراضى المنخفضة. واضطر الجيش الزاحف إلى وقف هجومه بعد اندحاره فى معركة فالمى التى أعادت الثقة إلى نفوس الفرنسيين. أما عن الجمعية التشريعية فإنها أنهت أشغالها فى ٢٠ سبتمبر بعد وصول أنباء النصر ليحل محلها المجلس الوطنى الذى كانت انتخاباته فقد بدأت فى الثانى من الشهر نفسه[٣٦].

---

[٣٥] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٤٣.

[٣٦] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٤.

وكان المؤتمر الوطنى (١٧٩٢) بصفته الجمعية التأسيسية الجديدة المنتخبة بالتصويت العام، يمثل وحدة الأمة، ويتمتع وحده بكل السلطات فلم يكن فى مقدور كومون باريس وهى البلدية الثائرة إلا أن تختفى أمام التمثيل القومى. وفهمت ذلك فاعتدلت وذهبت إلى حد التنصل من لجنة مراقبتها. فانقطاع صراع الأحزاب يرجع إلى الجيروند وحدها لأنها تسود المؤتمر. فالجبليون فى الواقع ضاعفوا مسايرتهم فى الأيام الأولى لأنهم أحسوا بضعفهم[٣٧].

لقد اجتمع المؤتمر الوطنى على إلغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢. بدأت بعد ذلك محاكمة لويس السادس عشر أمام المؤتمر حيث وجهت إليه تهمة التآمر على سلامة الأمة والتواطىء مع الدول الأجنبية المعادية لفرنسا والعمل على قلب الدستور الفرنسى. لقد عارض الجيرونديون محاكمة لويس السادس عشر خوفا من استثارة الدول الكبرى، لكن ذلك لم يكن مجديا فقد صدر الحكم عليه بالإعدام بالمقصلة ونفذ ذلك فى ٢١ يناير ١٧٩٣، وكان وراء ذلك اليعاقبة الذين وجدوا أن التعجيل بإعدام لويس السادس عشر سيكون وسيلة لإرهاب أنصاره الذين بدأوا ينشطون بشكل ظاهر ضد الثورة التى تصاعدت حماسة جماهيرها عندما بدأت الجيوش الفرنسية تحقق الانتصارات بعد معركة فالمى حيث احتل الفرنسيون بلجيكا وولايات الراين ونيس وسافوى وأعلن المؤتمر أنه استعداد لمساعدة كل أمة تطالب بحريتها وتريد التخلص من حكامها، فأصبحت فرنسا ينظر الحكام الأوربيين دولة غزو وتوسع، فى الوقت الذى أعلنت فرنسا تبنيتها لنظرية الحدود الطبيعية التى تقول أن الراين هو الحد الطبيعى والجغرافى لفرنسا[٣٨].

---

[٣٧] البير سوبول. تاريخ الثورة الفرنسية، ترجمة جورج كورس، بيروت، باريس – دار منشورات عويدات، الطبعةالرابعة ١٩٨٩، ص ٢٥٧.

[٣٨] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٤.

الحرب والتحالف الأوربى الأول سبتمبر ١٧٩٢ – مارس ١٧٩٣

بعد فالمي ببضعة أسابيع، حمل النصر جيوش الجمهورية إلى الألب والراين. وإذا ذاك طرحت معضلة مصير البلدان المحتلة: فهل تحررت؟ هل أصبحت بلاد مفتوحة، وسرعان ما حولت ضروريات السياسة ومنطق الحرب التحرر إلى فتح وكانت الدعاية الثورية والفتوحات الفرنسية تهدد مصالح دول الحكم الملكى فجاء الرد على ذلك بعقد تحالف عام ضد الأمة الثائرة وأول وقيعة وقعت مع إنجلترا. فبعد احتلال بلجيكا بدأت الحكومة الإنجليزية بقيادة بت Pitt تتحول تدريجيا عن سياسة الحياد وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٢ أعلن المجلس الفرنسى التنفيذى حرية مداخل الآيسكوت دون الاهتمام بمعاهدة مونستر التى أغلقتها. وهى حجة جديدة لأنصار الحرب فى إنجلترا. واكمل القرار، الذى يعد بمساعدة الشعوب الثائرة، إغضاب القادة الإنجليز. فضاعف بت الإجراءات العدائية. فأعلن بلاط لندن الحداد لدى علمه بخبر إعدام لويس السادس عشر وتلقى السفير شوولان بمغادرة البلاد وأعلن المؤتمر الحرب على إنجلترا وهو لندة. ثم أعلن الحرب مع أسبانيا فى جو من الحماسة والهتاف وتبعت ذلك القطيعة مع أسياد إيطاليا: مع البابا بعد أن ذبح باسفيل وهو موظف ودبلوماسى فرنسى، تم مع نابلى وتوسكانيا وأخيرا البندقية. ولذلك وجدت فرنسا نفسها فى حرب مع أوربا كلها[٣٩].

ومع أن أكثر الدول الأوروبية فى حالة حرب مع فرنسا فإنها لم تكن متحدة، وقد أقامت إنجلترا التحالف بارتباطها على التعالى مع جميع المحاربين بواسطة سلسلة من المعاهدات من مارس إلى سبتمبر ١٧٩٣. وهكذا نشأ بالتدريج التحالف الأول الذى كانت إنجلترا روحه.

---

[٣٩] البيرسوبول، تاريخ الثورة الفرنسية، ٢٦٤، ٢٦٥.

ولم يكن فى استطاعة الثورة أن تعتمد إلا على ذاتها. على أن الجيروند لم تعد للحرب. فقررت انتصارات الحلفاء مصيرها[٤٠].

وقد تمكن هذا التحالف من إلحاق الهزائم بالجيوش الفرنسية، فانكفأت داخل حدودها، وقد صاحب ذلك حركات عصيان وتمرد حيث بدأ الملكيون يستولون بالقوة على العديد من الأقاليم الفرنسية الغربية بمساعدة قوى شعبية أضناها الجوع والتشرد. وعندما استفحل العصيان اتخذت الثورة موقفا صعبا لإنهاء الثورة المضادة، وظهر ما أطلق عليه العهد الإرهابى بقيادة اليعاقبة، والذى تميز بالسعى لتصفية أعداء الثورة فى الداخل، ووقف الحرب الأهلية ثم التصدى بعد ذلك للزحف الأجنبى، ولتحقيق ذلك أنشأت محكمة الثورة للنظر فى كل قضية، ولجنة الأمن العام لمراقبة الجهاز الإدارى ودفعة إلى الأمام، وتنظيم الدفاع عن الوطن والقضاء على أعداء الثورة فى الداخل. ولكن سياسة الشدة تحولت فيما بعد إلى حملة إرهابية دموية بقيادة اليعاقبة أفزعت فرنسا وأرعبها، وقادت إلى تصفية رجال الثورة بعضهم لبعض، حيث تمت تصفية الجيروندويين على يد اليعاقبة بقيادة روبسبير ورغم سوء سياسة الإرهاب على الناس فإنها ساعدت من ناحية أخرى على قمع العصيان وإنهاء حركة التمرد فى الداخل، كما تمكن الفرنسيون من استرداد ميناء طولون الذى كان الإنجليز سيطروا عليه، وقد قاد الهجوم الناجح لتحرير طولون فى ديسمبر ١٧٩٣ أيضا الضابط نابليون بونابرت. كما أحرز الفرنسيون سلسلة انتصرات أعادتهم إلى هولندا، فدخلوا امستردام واستولوا على الأسطول الهولندى بسهولة، أما الدول الأوروبية فلم يبق تحالفها كما هو، بل خرجت بروسيا وهولندا وأسبانيا من الحرب ولم تبق سوى النمسا وبريطانيا فى الميدان. فى الوقت نفسه انتهت العهد الإرهابى بالقضاء على روبسبير وأنصاره[٤١].

---

[٤٠] البيرسوبول، تاريخ الثورة الفرنسية، ص ١٢٦٥.

[٤١] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ١٥.

دستور ١٧٩٥ أو دستور حكومة الإدارة:

اصبح من واجب المؤتمر أن يضع دستورا جديدا لفرنسا من شأنه أن يخلق توازنا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ثم يضمن فى الوقت نفسه المحافظة على سيطرة العنصر الثورى المعتدل الذى انتصر فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤. وتم للمؤتمر وضع دستور العام الثالث (١٧٩٥). وقد استمر هذا الدستور قائما مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه حتى قضى عليه نابليون فى انقلاب برومير Brumaire عام ١٧٩٩.

واهم مميزات الدستور، أن حق الانتخاب أصبح مشروطا - كما كان فى الماضى فى الدستور الأول للثورة – بالنصاب الذى يدفعه المنتخب من الضرائب، ومعنى ذلك أن الملكية كانت شرطا من شروط المساهمة فى الحكم والعمل السياسى. كما كانت الهيئة التشريعية، تتكون من مجلسين،مجلس الخمسمائة ولا يقل سن العضو فيه على ثلاثين عاما، ثم مجلس الشيوخ وكان يمثل الوقار والتروى فى إصدار آرائه، ولا يقل سن العضو من أعضائه عن أربعين عاما. وكان من حق هذا المجلس أن يرفض ما يراه مجلس الخمسمائة فيعطله لمدة عام. وللمجلسين حق عقد جلساتهما فى أى مكان فى فرنسا فيما عدا باريس، وقد اتخذ هذا الاحتياط لمنع وصول تأثير الشعب الباريسى الخطير على قرارتهما. ويعاد انتخاب ثلث أعضاء المجلسين سنويا[٤٢].

أما السلطة التنفيذية فوضعت فى يد لجنة عدد أعضائها خمسة مديرين لذلك أطلق على حكومة هذا العهد اسم حكومة الإدارة Directore وكانت الهيئة التشريعية هى التى تنتخب أولئك المديرين الخمسة، لمدة خمس سنوات، وآية ذلك أن يختار مجلس الخمسمائة خمسين اسما يعرضون على مجلس الشيوخ، فيختار

---

[٤٢] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٦٩.

منهم خمسة ويسقط منهم واحد سنويا بالاقتراع. وأغفل الدستور حق أولئك المديرين الخمس فى تعيين الموظفين فكان ذلك يؤدى إلى شيء من الفوضى يتأرجح الأمر فيها إلى فرض حقهم فى سلطة التعيين أو إغفال هذا الحق. ولم يكن من حق هؤلاء المديرين التدخل فى تنظيم الشئون المالية، وإنما كان يعهد بذلك إلى طائفة من الموظفين ينتخبهم أعضاء الهيئة التشريعية، وكان ذلك من معوقات السلطة التنفيذية[٤٣] ولكن يضمن المؤتمر استقرار الجمهورية فقد اشترط أن يكون ثلثا أعضاء مجلس الخمسمائة من أعضاء المؤتمر الوطنى. ونص نظام انتخاب أعضاء مجلس الخمسمائة على امتلاك الناخب قدرا معينا من العقار مما أدى إلى حرمان حوالي ثلاثين ملايين مواطن فرنسي من الانتخاب. وكان فى هذا تثبيت لسيادة ونفوذ الطبقة البرجوازية التى قضت على اليسار المتطرف والإرهاب الدموى[٤٤].

وكان أعضاء حكومة الإدارة الجديدة هيئة مختلطة، يربطهم بعضهم ببعض تضامنهم المشترك فى الائتمار على قتل الملك. ولكنهم فيما عدا ذلك اختيروا عمدا من فرق مختلفة من معسكر الثورة.فهنالك روبيل Rewbel، وهو محام يعقوبى صلب الرأى قدم من الألزاس وكارنو وليتورنيه Letourneur وهما مهندسان وليبيه Lepeux وهو جيرنادى خيالى وبارا وهو أقل الخمسة احتراما. وكان وحده من بينهم مهيأ بالفطرة للعمل السياسى. ففى نقطتين دقيقتين من نقط التحول التاريخية، دل هذا الرجل السوقى المرائى المختلس المستبيح على أنه رجل الساعة. ففى حادث ترميدور كان هو الذى اسقط روبسبير. فى حادث فندميير vendemiair (أكتوبر سنة ١٧٩٥) اكتشف نابليون.

---

[٤٣] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٧٠.

[٤٤] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، س ١٦.

فقد اتفق أن هذا القائد الشاب الذى كان من قواد المدفعية والذى ميز نفسه فى خريف عام ١٧٩٣ فى حصار طولون، كان فى باريس خلوا من العمل فى تلك الأيام المقلقة من شهر أكتوبر ١٧٩٥ – تلك الأيام التى أخذ الناس يسمعون فى أثنائها من جديد فى شوارع باريس وفى قبول وترحيب، هتافات يحيا الملك والتى فيها أخذ آخر المجالس التشريعية للثورة ينتقض فرقا من همهمة عاصفة رجعية. فتعرف فى أثنائها بيارا أقوى أعضاء حكومة الإدارة الذى حذر جداراته ومواهبه. فعهد إليه بالدفاع عن دار المؤتمر الوطنى المهددة. وقد دلت خطط الجنرال بونابرت الحربية على أنه أستاذ فى فنه. فقد انفذ ميرا Murat أحد ضباطه يطوى الأرض بجواده للحصول على البنادق اللازمة، وبذلك ظفر بميزة عاجلة حاسمة على قوة كثيرة الضجيج والصخب، ولكنها قوة عزلاء من المدفعية[٤٥]. فكفت طلقات قليلة محكمة التصويب لإخلاء الشوارع من المتظاهرين وإنقاذ الحكومة. وأتاحت هذه الفرصة لهذا المنقذ دعوى لا ترد لترقيته العسكرية. فجعل على الفور قائدا للقوات الداخلية. وفى العام التالى حظى بوساطة بارا مرة ثانية بيد جوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais، وقيادة الحملة الإيطالية ذات الأهمية البالغة والأثر البعيد[٤٦].

كان على حكومة الإدارة أن تعالج الحالة الاقتصادية والمالية. المتدهورة للبلاد وأن تحصل على النصر النهائى فى حروبها الخارجية وقد عهد إلى الجانب العسكرى إلى أحد أعضاء حكومة الإدارة من الذين اشتهروا بالقدرة والكفاءة فى إعداد الجيوش، كان على فرنسا أن تهاجم النمسا فاختارت نابليون بونابرت لقيادة أحد جيوشها الثلاث هناك بعد أن قررت مهاجمة النمسا فى ألمانيا وفينا وإيطاليا

---

[٤٥] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص٤٣.

[٤٦] نفسه، ص ٤٤.

وليدمر جيش سردينا[٤٧] وأرغمها على توقيع هدنة شيراسكو Cherasco، ثم إلى إبرام صلح معه لم تبلغ تلك المملكة في يوم من الأيام من القوة بحيث تحاول جديا نقضه.

ثم وجه نابليون حملته إلى لودى Lodi ملكه ولاية ميلان وتنج عن انتصاره في ريفولى Rivoli تسليم ماتنوا Mantua، وعقد معاهدة ليوبن سنة ١٧٩٨. وهزم الجيش البابوى في انكونا Ancona، ونتج عن ذلك ابتزاز المال والاسلاب من الفاتيكان وإجبار البابا على النزول عن أفنيون Avigations والفينسيان Venaissin The في فرنسا وبعض الولايات البابوبة The Legations. وحولت لمباديا Lambardy إلى جمهورية الألب الشمالية وجنوة إلى جمهورية ليجورية Liguria، ومنح لكل منها دستور على غرار الدستور الفرنسى، وحصنتا كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية[٤٨].

ويجدر بنا أن نترك الآن حروب نابليون لنعود إلى بحث متاعب فرنسا الداخلية، إن تاريخ فرنسا يفقد في ا لفترة ما بين سنة ١٧٩٥ إلى ١٧٩٩ تلك الأهمية التى كانت له حتى يوم حركة فندمير، فإن الصراع الذى دار بين زعمائها في تلك الفترة كان في معظمه صراعا فرديا أنانيا. وقد بدأ الجيش يتدخل من حين لآخر فيما ينشأ من صراع وأخذ الحكم العسكرى يقترب بوضوح[٤٩].

في تلك الأثناء كان الموقف الداخلى في فرنسا يهيىء لظهور الملكية. فقد أتت انتخابات الهيئة التشريعية المؤلفة من مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ، وهى التى فرضتها دستور ١٧٩٥، الذى قضى بتغيير ثلث أعضاء الهيئة التشريعية كل عام

---

[٤٧] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا في القرن التاسع عشر، ص١٨.

[٤٨] فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث، ٤٩.

[٤٩] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠ص ١٥١.

بأعضاء يمنيين يمثلون مصالح الطبقة البرجوازية والمهاجرين الملكين الذين يريدون إنهاء الحرب وعقد السلام السريع. وقد تألف من هؤلاء البورجوازيين والملكيين والكاثوليكيين المنضمين إليهم اتحاد أو حزب يطلق عليهم اسم "حزب اللكيشيان" نسبة إلى شارع كليش الذى كان مقرهم، أخذ يسعى بموافقة دوق دى بروفنس والملك لويس الثامن عشر فى ١٠ مارس ١٧٩٧ للحصول على الأغلبية فى الهيئة التشريعية(٥٠).

وبالفعل نجح هؤلاء نجاحا ساحقا فى انتخابات المجلس الابتدائية فى ٢١ مارس ١٧٩٧ والمجالس الانتخابية فى ٩ أبريل بتأمين كل من النمسا وإنجلترا، وانتخب "بيشيجرو" رئيسا لمجلس الخمسمائة. و فى الوقت نفسه سعى هؤلاء للحصول على الأغلبية فى حكومة الإدارة باستقلال دستور ١٧٩٥ الذى يقضى بسقوط عضو واحد من الهيئة التنفيذية كل عام، ولكن الجمهوريين فى حكومة الإدارة تمكنوا من الاحتفاظ بالأغلبية، وكونوا ما عرف باسم الثلاثية الدكتاتورية "المؤلفة من بارا Baras ولاريفيبيه ليو La Revilliere Lépeaux وروبل Reubell فى مواجهة كارنو وبارتليمى الملكيين. وبذلك نشأ تناقض بين المجلسين المكونين من اليمينيين الملكيين، وحكومة الإدارة المكونة غالبيتها من الجمهوريين، وقد حاول المجلسان التخلص من الثلاثية الدكتاتورية عن طريق توجيه الاتهام ضد الثلاثة، ولكنهم تمكنوا من احتلال مكان المجلسين والقبض على بارتليمى فى حين هرب كارنو، واستصدروا من المجلسين قرارا بإلغاء انتخاب ١٤٥ نائبا، ونفى ٥٣ نائبا أخرين منهم كارنو وبارتليمى وبيشيجرو، ووضع الجيش تحت سلطان وإشراف بونابرت وأوجيرو Augereau قائد بونابرت وغيرهم من أصدقاء بارا Baras.

---

(٥٠) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٨.

عرف هذا الانقلاب الذى قضى على حزب اللكيشيان والملكيين باسم انقلاب فركتيدور Fructidor ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧. وثبت وضع نابليون بعد إعلان تأييده لثلاثية الدكتاتورية، ووصل إلى حد أبداء استعداده لعبور الألب والعودة إلى باريس لحماية الجمهورية، وإيفاد أحد قواده وهو أوجيرو فى ٨ أغسطس ١٧٩٧ لقيادة الجنود بها[٥١].

وكان نتيجة الانتصارات التى حققها نابليون فى الأراضى الإيطالية، طلبت النمسا توقيع معاهدة كامبو فورميو (١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨) فحصلت النمسا بذلك على ممر إلى الأدرياتيك وظل مصير ضفة الراين اليسرى محفوظا ولو تنازلت عن بلجيكا. وسوف يكون موضوع نقاش فى مؤتمر مخصص لعقد الصلح أيام الإمبراطورية[٥٢].

لقد جرى توقيع معاهدة كامبو فورميو فى ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧ وفى الواقع فى باستاريانو مقر إقامة بونابرت. رغم تعليمات حكومة الإدارة بالتنازل عن ضفة الراين اليسرى، وإعادة جمهورية البندقية، فقد تنازل بونابرت للنمسا عن اليستريا ودولماتيا ومداخل كاتارو وعن البندقية والأرض الصلبة حتى الاذيج. واحتفظت فرنسا من أراضى البندقية القديمة، بالجزر الايونية (كورفو، وزانت وسيفالونيا) واعترفت النمسا بجمهورية غربى الألب "دولة مستقلة" وتنازلت عن بلجيكا. أما الضفة اليسرى فقد وافقت النمسا بموجب بنود سرية على ضمها جتى رافد نيت. والتزمت لدى انعقاد المؤتمر المتوقع فى راستات بين فرنسا والإمبراطورية "باستخدام إمكاناتها لتحصل الجمهورية الفرنسية على هذه الحدود بنفسها" وصدقت حكومة المؤتمر المعاهدة رغم عدم رضاها عنها. كيف تستطيع المقاومة؟

---

(٥١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم، ص ٤٠٩.

(٥٢) البيرسوبول، تاريخ الثورة الفرنسية،ص ٤٨٨.

فانفجر الفرح لدى إعلان الصلح في بلاد متعبة. ولم يكن في استطاعة حكومة الإدارة إلا الرضوخ[52].

لقد أصبحت الأمة الثورية "تاجرة شعوب" بعد أن تنكرت لمبادئها. لقد تركت فرنسا تحالفها مع بروسيا في سبيل اتفاق مع النمسا: وهذه لم تفقد شيئا لا في ألمانيا ولا في إيطاليا مع أنها مغلوبة، لأنها بادلت ممتلكاتها في البندقية مقابل لمبارديا. لقد انتصر "مذهب بونابرت الإيطالي" مع غرابته على تقاليد الأمة وإدارتها، على "مذهب حكومة الإدارة الريثي" لقد اندفع بونابرت إثر المشاريع الجديدة. فهو يعلن خلال مفاوضات كامبو فورميو لكوبنزل النمساوي المطلق الصلاحية: "إن الجمهورية الفرنسية تعتبر المتوسط بحرها، وتريد أن تسيطر عليه" ودفع حكومة الإدارة في الوقت نفسه إلى الاستيلاء على مالطة: "هذه الجزيرة الصغيرة لا تقدر بثمن بالنسبة إلينا".

لقد كانت الحرب في مرحلة البذار في السياسة الإيطالية وفي مشاريع بونابرت المتوسطية. وقد زاد اللجوء إلى الجيش في ١٨ فركتيدور من دوره في الجمهورية. ووجدت سياسة حكومة الإدارة نفسها أسيرة مشريع الجنرالات أكثر فأكثر[53].

وشعرت الحكومة البريطانية بالخطر حين شعرت بأنها تقف بمفردها في وجه فرنسا التي اتسعت حدودها والتي سيطرت على هولندا، وتحالفت مع أسبانيا. ولكن الأمر لم يكن يهددها بكثير في المحيط الأطلسي إلا في حالة قيام أسطول طولون بالتحرك وبالانضمام إلى الأسطول الأسباني، والوصول إلى تدعيم أسطول برست. وكان التوسع الفرنسي قد أثر على حجم الصادرات، وأثر بالتالي على الأرباح التي

---

(52) البيرسول تاريخ الثورة الفرنسية، ص٤٨٩.

(53) نفسه، ص٤٩٠.

كانت لازمة لتمويل القروض. فكان على إنجلترا أن تعمل على عودة التكتل من جديد. ولكن كانت النمسا منهوكة القوى، وكانت بروسيا تتطلع إلى الحصول على تعويضات في ألمانيا، فلم تظهر أية استجابة حتى وقت الحملة الفرنسية على مصر، أما بول الأول فإنه احتفظ بموقف المتفرج، رغم عدائه للثورة الفرنسية. وظلت إنجلترا خلال عام كامل، عاجزة عن الاعتماد إلا على نفسها فكان عليها إذن أن تضاعف من مجهوداتها[٥٤].

وقبلت النمسا الصلح الذى أملى عليها إملاء، ولكن بريطانيا ظلت منتصرة منيعة في البحر، فراحت حكومة الإدارة تبحث جاهدة عن نقطة ضعف عزيمتها وبدأ في بعض الأوقات أنها قد عثرت على مرادها، كانت إنجلترا تعلم وهى تقاوم فرنسا، بضرورة إشعال نار الحرب على القارة من جديد حتى تتمكن من التغلب على منافستها. ولكن الألمان لم يكونوا مستعدين للمشاركة في العملية، ومع ذلك فإن إرسال الحملة لمصر، وإنشاء الجمهورية في روما، ساعدتا على إعادة تشكيل هذا التكتل. ووصل بول الأول الذى أصبح حليفا للدولة العثمانية إلى البحر المتوسط، وأصبح حاميا لجماعة فرسان مالطة وحاميا لبلاط نابولي. وتشجع هذا البلاط الأخير نتيجة لوجود نلسون، وبدء العمليات الحربية، الأمر الذى غيَّر من الأوضاع الموجودة في إيطاليا، ودفع توجوت إلى قبول مساعدة روسيا[٥٥].

فقد كان بول الأول، مثله في ذلك مثل والدته يكره الثورة الفرنسية. وأخذ ينفق، بعد كامبوفورميو على جيش كونديه، وسمح للويس الثامن عشر بالإقامة في ميتاو. وبلغة أن بعض رجال بولندا المعروفين كانوا موجودين في جيش بونابرت، وأن سفير فرنسا في فيينا كان يرحب بهم. وزاد التقارب بينه وبين الجزويت الذين

---

(٥٤) جورج ليفيير، عصر الثورة الفرنسية، تعريب جلال يحيى، القاهرة ١٩٧٩م، ص٤٧.

(٥٥) نفسه، ص ٤٨٦.

كانوا يأملون في تحويله إلى المذهب الكاثوليكي، ووضع فرسان مالطة تحت حمايته في سنة ١٧٩٧. وزاد حنقه نتيجة لسقوط الجزيرة في أيدى الفرنسيين، وأخذ في تسليح قواته، وانتخبه الفرسان في أكتوبر سنة ١٧٩٨ سيدا أعظم لجماعتهم، وعرض مساعدته على ملك نابولي حيث علم أنه كان في موقف صعب[٥٦].

ولم يكن هذا الاتجاه يدل على مجرد ميل شخصي؛ فمنذ أن كانت كاترين قد وصلت إلى البحر الأسود، اتجهت أنظار الروس صوب البحر المتوسط، وفتح بول موانى القرم أمام التجارة الأجنبية؛ وأخذت السفن اليونانية تصل إليها، ولكنه كان يرغب أكثر من ذلك في التوصل إلى فتح المضايق. وكانت هذه السياسة تتمشى مع عملية التوغل في الإمبراطورية العثمانية، والتي كانت معاهدة كوتشك قينارجى قد بدأتها، بإعطائها قيصرة روسيا حقاً غير واضح للتدخل في صالح العناصر المسيحية. وكان تفكك الإمبراطورية العثمانية يعطى فرصا جديدة للقيصر. وكان سليم الثالث قد حاول منذ سنة ١٧٩٣، إنشاء جيش حديث، لكن سلطته كان اسمية في عدد كبير من الولايات. وقامت حركات انفصالية، أو على الأقل استقلالية في ألبانيا وسوريا وجزيرة العرب، وفي بلاد اليونان وبلاد الصرب[٥٧].

وساعدت الحملة الفرنسية على مصر على زيادة حركة التوسع الروسى فبعد إعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، وجدوا من الأفضل أن يوافقوا على عقد التحالف الذى عرضه بول الأول عليهم. وفتحت معاهدة ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ المضايق والموانى العثمانية فى وجه الروس التى تدخل إلى البحر المتوسط بغزو الجزر الأيونية، وكانت كورفو آخر جزيرة سقطت، فمن ٣ مارس سنة ١٧٩٩ وأصبح لروسيا مركزا متفوقا في الدولة العثمانية، خاصة وأنها كانت مجاورة لها؛ وكان في

---

[٥٦] جورج ليفيبر، عصر الثورة الفرنسية، ص ٤٨٦.

[٥٧] نفسه، ص٤٨٧.

وسع مالطة ونابولى إن أمكن علاوة على أى ملوك وأمراء فى إيطاليا أن تعطيها قواعد تمنحها السيطرة على البحر المتوسط.

وفى اثناء ذلك كانت مارى كارولين قد اقتنعت بتأكيدات نلسون وأصدرت أوامرها بغزو جمهورية روما. وزاد العمل من حماس بول الأول الذى تحالف فى يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨ مع نابولى ومع الإنجليز وتعهد بإرسال قواته إلى نابولى ولمبارديا[٥٨] وحينما قرر بول الأول أن يرسل أحد جيوشه، وافق على أن يسمح لهذا الجيش بحق عبور الأراضى النمساوية. ومر شهر قبل أن تعلن حكومة الإدارة الحرب على الحكومة النمساوية فى ١٢ مارس سنة ١٧٩٩، ووجدت هذه الحكومة الأخيرة نفسها منضمة لتكتل دون أن توقع على أية معاهدة. وسرعان ما قام الفرنسيون بامتلاك توسكانيا وأخذوا البابا بيوس السادس إلى فالانس حيث توفى فى شهر أغسطس[٥٩] ولم تدخل بروسيا هذا التحالف.

وهكذا اكتمل التحالف الثانى، ولم يدخل جوستاف الرابع ملك السويد إلى هذا التكتل إلا فى شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩، ولم يقدم قوات محاربة. وكان هذا التحالف أقل صلابة من التكتل الأول. وكالعادة تكفلت إنجلترا بنفقات الجيوش المتحالفة، ولكن هناك ظروف اقتصادية صعبة مثل الروسيا وإنجلترا التى كانت تمر بظروف اقتصادية صعبة للغاية ولذلك لم يحقق الحلفاء أى تقدم فى ميدان التنظيم وطرق الحرب على الرغم من فقدان فرنسا بعض الأراضى التى استولت عليها فى حملاتها بقيادة نابليون.

وكانت حكومة الإدارة تعانى صعوبات بالغة. وكانت طبيعتها مسئولة جزئياً عن تلك الصعوبات، فقد كانت الحكومة مليئة بالفساد والفضائح. فحكومة الإدارة لم

---

[٥٨] جورج ليفبير، عصر الثورة الفرنسية، ص ٤٨٧،٤٨٨.

[٥٩] نفسه، ص ٤٨٨، ٤٨٩.

تسقط بسبب فضائح الحكم دائما بسبب الهزيمة فى الحرب. ولقد سبق لأعضاء حكومة الإدارة أن استخدموا قوة الجيش وهيبته مرتين ليبعدوا عن المجلسين نوابا معادين لسلطانهم انتخبتهم البلاد ولكنهم أخفقوا هذه المرة (يونيو ١٧٩٩) فى الحصول على تأييد الجيش بعد أن حاقت الهزيمة بالبلاد وأصبحت مهددة بالمزيد من الهزائم فتشجع المجلسان وأقالا أحد أعضاء حكومة الإدارة وأرغما عضوين آخرين على الاستقالة وتألفت حكومة الإدارة الجديدة من سييز وبارا وديكو ومولان وجو هيبيه وهم آخر من تولوا عضوية هذه الحكومة فلقد أطلت اليعقوبية الديمقراطية برأسها من جديد لأن البلاد قد اعتراها القلق فأصبحت على استعداد للتهليل لأى شخص يمنحها العزة والأمن[٦٠].

وصل نابليون إلى فرنسا فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ فاستقبل بحماسة فائقة ولم يؤخذ عليه فشل مغامرته فى مصر. فقد حدث هذا الفشل فى مسرح بعيد وفى ظروف مبهمة. فذكر له الناس فقط حروبه فى إيطاليا وكيف أرغمت النمساويين على قبول الصلح، وعزز مسلكه سمعته الطيبة فقد بدأ متواضعاً متحفظاً، لا يسرف فى التباهى بانتصاراته ويخالط رجال العلم أكثر مما يخالط العسكريين. ومع ذلك فليس ثمة شك فى أنه كان يتطلع طوال الوقت إلى القيام بدور سياسى كبير، وفى أنه تدبر المشكلة وحلولها بعناية منذ وصوله إلى فرنسا.

كان من المؤكد أن تغير ما لا بد أن يحدث فى الحكومة. فماذا تكون طبيعة هذا التغيير؟ لقد وطد نابليون علاقاته ببارا حليفه القديم وسييز صاحب النظريات السياسية، وتاليران الأسقف السابق واليعقوبى، أبرع مدبرى المؤامرات وأشدهم ضبطا للنفس. وراح نابليون ينصت إليهم جميعا وإن أبقى لنفسه الرأى الأخير. وكان أمله أن تبلغ شهرته بين جميع الطبقات حداً يؤدى إلى المناداة به

---

[٦٠] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، جـ١، ص١٦٣.

رئيسا للدولة بصورة تلقائية،فيحكم استنادا إلى شيء هو أقرب ما يكون إلى الحق الدستوري في الحدود التي تسمح بها أوضاع فرنسا في عهد الثورة، ولا يضطر إلى إشهار السيف أو إراقة الدماء. ونحن نستطيع أن نفهم المؤامرة الكبرى التي أقدم عليها بوضوح أكبر إذ نحن، علمنا أنها لم تسر وفق الخطة المرسومة، وأنه لم يكن راغبا في اللجوء إلى العنف، وأن حاجته إلى استعراض قوته – وأن لم يضطر إلى استخدامها – فقد تركت في مستقبل حياته العامة أثر محسوسا[٦١].

ولقد ساعد الخطة أن أخاه لوسيان كان رئيسا لمجلس الخمسمائة وكان نابليون يأمل أن يستخدم المجلسان حقهما الدستوري في الانتقال إلى سان كلو لأن باريس لم تزل – حتى ذلك الوقت مكانا غير مناسب للقيام بثورة مضادة. وفي أن يعهد المجلسان إليه بقيادة قوات باريس، ثم يصوتان في اجتماع تحيط به القوات – لصالح تعديل الدستور ويكلفانه بالإشراف على هذا العمل وتوجيهه، ولم يكن يشك في أن هذه الخطوات ستؤدى – إن تمت – إلى انفراده بالسلطة تقريبا، حقا إنه لابد من التخلص أولا من أعضاء حكومة الإدارة، ولكنه كان يأمل أن يتمكن من إغرائهم بالاستقالة.

ولقد نفذت الخطة إلى نقطة معينة. فقد استقال سييز وديكو، اللذان كانا مشتركان في المؤامرة وإن لم يكن اشتراكها كاملا كما كان يتصوران، على أمل أن يحذو الآخرون حذوهما. وكان بارا يأمل أن ينال نصيبا من المسئولية والسلطة، فأصابه الكمد عندما تبين أن الدور الذي ترك له كان سلبياً، وفي النهاية استقال هو الآخر. وقد اعتقل العضوان الباقيان بحكومة الإدارة اللذان رفضا أن يستقيلا. وفي يوم نوفمبر سنة ١٧٩٩ قرر مجلس الشيوخ الانتقال إلى سان كلو، وعهد بالقيادة المنشودة إلى نابليون وفي ١٠ نوفمبر وقعت الأزمة الحقيقية، كان نابليون يعلم أن

---

[٦١] جرست. تمبرلي، تاريخ أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠، ط (ج١)، ص١٦٤.

مستقبله كله متوقف على أحداث ذلك اليوم. وقد قال لسييز أثناء الرحلة إلى سان كلو" سينتهي بنا المطاف أما إلى هنا (مشيرا إلى المكان الذى نصبت منه المقصلة" وأما إلى قصر لوكسمبرج". وفي سان كلو ألقى خطابا في كلا المجلسين على التوالي، ولكن الأمور لم تعد تسير وفق الخطة المرسومة، فالمجلسان لم يتأثرا بشعبية نابليون إلى حد الذى يدفعهما إلى التصويت على إلغاء الدستور ووجودهما ذاته. وقد استمع الشيوخ إلى خطاب نابليون يردد ثم أعلنوا ولاءهم للدستور، وأخذوا يهتفون "لاكروموبل" أما أعضاء مجلس الخمسمائة فقد طردوه في شيء من العنف من قاعدتهم عند ما مثَّل أمامهم. فأصبح جلياً أن الشعبية والعبارات البراقة لن تحل المشكلة، واضطر نابليون إلى اللجوء مكرها إلى حد السيف. فعندما أخطره أخوه أن زمام المجلس قد أخذ يفلت من يديه، استدعى القوات لدخول القاعة وطرد الأعضاء وكانت لحظة عصيبة بالنسبة له، فهل يا ترى سيصوب جنود الجمهورية حرابهم إلى حكومة فرنسا الحرة؟ لقد أطاعوا الأمر دون تردد يذكر، فلاذ معظم أعضاء السلطة التشريعية بالفرار، بينما صوتت البقية الباقية التي كانت متواطئة مع كبير المتآمرين، لصالح تعديل الدستور، وعينت ثلاثة قناصل للاضطلاع بذلك. وهؤلاء الثلاثة هم نابليون وسييز وديكو، وفي ١١ نوفمبر عاد نابليون إلى باريس وكان الانقلاب قد تم، فتقبلته العاصمة وفرنسا كلها بهدوء مذهل. فلم يكن ثمة من يعطف على المجلسين أو أعضاء حكومة الإدارة. وأصبحت البلاد مهيأة للدخول في تجربة جديدة[٦٢].

عندئذ أطلق سراح كل من المديرين السابقين "جوييه و مولان". وظن كل من "سبيس" وتالران وغيرهما من المدنيين مما شاركوا بونابرت في تدبير الانقلاب أنهم سينفردون بتدبير شئون فرنسا المدنية، على أنهم لم يكونوا يجهلون طبيعة

---

[٦٢] جرانت، تمبرلي، تاريخ أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠، حـ٢، ص١٦٦.

بونابرت وطموحه وبراعته في خلق السبل التي يسلكها للوصول إلى ما يريد وإن كانوا قد ظنوا في المجال العسكري ما يمكن أن يشبع طموحه. ولكن أشد ما كانت دهشة "سييز" عندما تبين أن بونابرت قد أثبت دراية ومعرفة وثيقة بكثير من الشئون المدنية، وقد توصل عن طريق ذلك إلى قرارات معينة كان من الصعب إقناعه بالعدول عنها(١٢).

---

(١٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص١٩٥.

الفصل الثالث

عهدى "القنصلية والإمبراطورية"

عهد القنصلية (١٧٩٩ - ١٨٠٤)

بعد انقلاب برومير بأسابيع قليلة، وافقت البلاد بأغلبية كبيرة من الأصوات على دستور جديد. خَول نابليون بوصفه القنصل الأول - من بين قناصل ثلاثة - سلطانا مطلقاً على مصاير فرنسا خلال الأعوام العشرة التالية.

أما الجمهوريات فقد ظلت باقية، لا من حيث شكلها الخارجي فحسب، فقد كان نابليون وليد الثورة، ومثل كثيرين من أذكياء الرجال، مكنه ذلك الانقلاب الاجتماعي الهائل من أن يضع نفسه في طليعة القابضين على زمام الأمور، أضف إلى ذلك أن عقله الناشيء كان قد تهذب وأدب الانتقاد والتمرد: ذلك الأدب الذى نادى بالثورة، وأنذر باندلاع لهيبها. وكان فتح باب الترقية أمام الذكاء والمواهب مما يهواه قلبه، ويحنوا إليه فؤاده، ذلك الأمر الذى هو روح الديمقراطية وعماد السلطة، وسر الانتصارات الحربية التى جعلت أوروبا بأسرها تنتفض فرقا أمام الثورة[1].

فقد عقد نابليون العزم على الاحتفاظ بهذا الجانب من ثمار الثورة على الأقل. فقد يفرط في الحرية السياسية، أما المساواة الاجتماعية فكانت فى نظره جليلة الشأن عظيمة القدر. والحق أن التفوق العجيب الذى أحرزته فرنسا على أوروبا أيام القنصلية والإمبراطورية لا تفسره عبقرية قائدها الفذة وحدها. بل يرجع أيضا إلى الحقيقة الواقعة، وهى أنه بالقضاء على الامتيازات وضعت تحت إمرة نابليون خيرة قرائح أكثر أمم أوروبا الغربية اكتظاظاً بالسكان، وأعلاها مدنية. فقد كان تاليران يضطلع بأعمال وزارة الخارجية، وفوشيه Fouché مديرا للشرطة وقلد

---

[1] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ٥٨.

رجال العلم مناصب الوزارة - الأمر الذى لم يسمح بمثله فى هوايتهول (مقر الوزارات البريطانية بلندن). وكان مجلس الدولة فى فرنسا أكفأ هيئة من الخبراء ذوى الدارية والكفاية رأتها أوروبا إلى ذلك الحين. كما ترقى معظم مرشالات فرنسا الذين قادوا جيوشها المظفرة - ترقوا عن جدارة واستحقاق من صفوف أنفار الجند العاديين[٢].

وبذل نابليون جهدا كبيرا فى إصلاح أمور البلاد الاقتصادية فأوقف سياسة القروض الجبرية التى كانت تتبعها حكومة الإدارة، والتى أثارت الرأى العام. ونظّم الضرائب، فوحدها وساوى بين الجميع فى تأديتها ونشأ لها نظاماً دقيقاً يتبعه مباشرة، فكان أمر التصرف فيه لرأيه المباشر. وانشأ إدارة جديدة للجمارك، وسجلا خاصا للأراضى الزراعية والغابات وجعل أملاك الدولة ضمانا للسندات التى أصدرتها، فرفع ذلك من قيمتها وسهّل بذلك السبيل أمام الدولة لتسديد ديونها، وأعاد نابليون نظام الغرف التجارية وضبط أمورها، وأعاد بناء الصناعات فأنقذها من الضياع والفساد. واستعان فى كل ما تقدم من النهوض باقتصاديات البلاد بجهود الخبير المالى المعروف "جــودان" الذى كان له الفضل فى تأسيس بنك فرنسا[٣].

وعطف نابليون على المهاجرين، فأنصف ذوى قرباهم مما اقترفه المهاجرون من آثام، واستصدر بذلك قرارا قوبل بارتياح عظيم.

وعفا عمن عادوا من المهاجرين، فوضعوا فى ظلمات السجون، كما رحب بعودة الكثيرين ممن رغبوا فى العودة إلى فرنسا. واستدعى من الفارين بعض الشخصيات البارزة أمثال "لافييت" Lafayette وكارنو "Carnot"؛ فاستعان بالأخير فى تنظيم وزارة الحربية، وقد كان لكارنو الفضل فى إصلاح حالة الجيش وإعداد فرنسا إعدادا عسكريا بسرعة تدعو إلى الدهشة.

---

[٢] فشر ، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ٥٧، ٥٨.

[٣] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٩٦، ١٩٧.

أما الثوار من ذوى النزعة الملكية الذين اشتركوا فى ثورة "الافنديه" فإنه قد عفا عمن تابوا إليه وقدموا له فروض الطاعة والولاء، ثم أنزل العقاب على من تآمروا عليه منهم فاعدم زعيمهم كادودال Cadoudal بعد اكتشاف تآمره على نابليون عام ١٨٠٤م[٤].

أما عن موقف نابليون من الكنيسة من المعروف أنه لم يكن متدينا أو متمسكا بدين رسمى، إلا أنه كان يدرك ما للدين من هيبة وسلطان فى نفوس جماهير أوروبا المسيحية وخاصة عند الفلاحين وسكان الأرياف فى فرنسا وخارجها. كان نابليون يؤمن بضرورة تماسك الهيئات الاجتماعية، ويمقت إلى حد كبير روح التفكك والفردية التى سادت زمن الثورة. والدين يساعد بصورة قوية، فى نظر بونابرت، على تحقيق هذا التماسك إذا كان يقول "إن الدين هو سر النظام الاجتماعى". لهذا سعى منذ بداية عهده لإيجاد اتفاق بين الدولة والكنيسة يزيل القطيعة القائمة منذ صدور القانون المدنى للأكليروس، ويحفظ للبلاد ويعيد للاكليروس من هيبتهم واحترامهم. وكان يسعى أيضا لتحقيق هدف آخر من وراء الاتفاق مع الكنيسة، فبإتفاقه مع الأكليروس يضعف إلى حد كبير من العناصر المناوئة للثورة الفرنسية ولحكمه، التى طالما حصلت على تأييد قوى من الكنيسة فى فرنسا وخارجها. ثم أنه كان يدرك أن البلدان التى ألحقها بفرنسا مثل بلجيكا والأراضى الألمانية على نهر الراين، وكذلك الأراضى الخاضعة للنفوذ الفرنسي فى إيطاليا، تضم كلها مواطنين كاثوليك فى أغلبيتهم الساحقة وعلى درجة كبيرة من التدين والولاء للكنيسة. فأى اتفاق يبرم بين حكم نابليون والأكليروس سيعمل ولو بصورة غير مباشرة على تمكين دعائم نفوذه بين هؤلاء الناس. ثم يجب أن نذكر دوما بأن الفرنسيين هم فى أغلبيتهم من الكاثوليك المؤمنين وان إلتحاق الكثيرين منهم

---

[٤] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٩٧.

بالثورة يجب أن لا يعني أنهم تخلّوا عن دينهم وألحدوا. ونابليون يرى أن دعوة الكنيسة لممارسة رسالتها المسيحية لا يمكن إلا أن يرضي الكثيرين من الفرنسيين ويلاقي استحسانهم ولو ضمنيا[٥].

بعد مفاوضات طويلة وشاقة وعسيرة بين الفرنسيين والكنيسة، لقيت الكثير من المعارضة والعراقيل في أوساط الفريقين، أمكن الوصول إلى اتفاق نهائي زمن البابا بيوس السابع. وفي ١٦ يوليو ١٨٠١، وقع الكاردينال كونسالفي Consalvi نيابة عن الحبر الأعظم اتفاق الكونورداتو في مدينة باريس.

بموجب اتفاق الكونورداتو المذكور اعترفت فرنسا بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية وبالكاثوليكية ديانة لأكثرية الفرنسيين وأعطى الأكليروس حق ممارسة الطقوس الدينية في فرنسا بصورة علنية، مع السماح للسلطات الحكومية بالتدخل لتحقيق ضروريات الأمن والنظام العام[٦].

بالمقابل اعترفت البابوية بقوانين مصادرة الأملاك الكنسية التي صادرتها الثورة وتعهدت بأن لا تعرقل بيع ما تبقى من أملاك الأكليروس حتى ذلك الحين بيد الدولة. على أن تتعهد الخزانة الفرنسية بتأمين مرتبات رجال الدين. ويقوم القنصل الأول بتعيين الأساقفة على أن يوافق على ذلك قداسة البابا.

عند وضع الاتفاقية المذكورة موضع التنفيذ عادت الكنيسة للعمل في فرنسا إلا أنها فقدت استقلالها القديم وأصبحت إلى حد بعيد كبير خاضعة للسلطات المدنية.

وعلى كل فإن الاتفاق لقي معارضة شديدة من المتطرفين عمن بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ومن كبار ضباط الجيش وقادة الجيش الفرنسي

---

[٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد النعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٩١،٩٢.

[٦] نفسه، ص٩٢.

الملحدين، وكذلك في أوساط المثقفين والمفكرين والفنانين الفرنسيين بالتيار الحر الذي أوجده كتاب القرن الثامن عشر غير أن نابليون تجاوز عن هذه المعارضة ووضعها موضع التنفيذ[٧].

دستور القنصلية:

وكانت هناك خمس مجموعات تشريعية Codes هي القانون المدني، وقانون المرافعات المدنية. وقانون الإجراءات الجنائية وقانون العقوبات والقانون التجاري. وقد مرت هذه التقنيات بعدة مراحل قبل أن تصبح نافذة ملزمة في فرنسا. وهناك هيئات كان لها الدور الحاسم فعلا في إقرارها: هما اللجنة الابتدائية التي وضع فيها مشروع القانون المدني ومجلس الدولة الذي عرضت عليه الاقتراحات وترأس الكثير من جلساته نابليون بنفسه. وكان نابليون ينظر إلي واجباته بين الجد، فحضر خمسا وثلاثين جلسة من سبع وثمانين جلسة خصصت للقانون المدني. وقد انحاز بطبيعة الحال إلى جانب تدعيم السلطة في الأسرة والدولة جميعاً، فناصر فكرة السيادة المطلقة للأب داخل الأسرة على الزوجة والأطفال على حد سواء، وأيد بشدة مبدأ خضوع المرأة للرجل، وسمح القانون المدني للأب بأشياء كثيرة تصل إلى سجن أبنائه، وسمح بالطلاق ولكنه أحاطه بالقيود، وأيد تقسيم الملكية فأصر على أن تقسم بالمساواة بين الأبناء حصة كبيرة من التركة على الأقل - وأمن الكثير من المكاسب التي حققتها الثورة ولكن نفوذ نابليون الشخصي كان مسئولا عن تجميد تطبيق كثير من الأحكام التي أتت بها الثورة مجالا فيما تمارس فيه نفوذها.

أما القوانين الأخرى فليس لها أهمية القانون المدني محكمة الإجراءات الجنائية إنما هي - من عدة أوجه - صورة للنموذج الإنجليزي على أن نظام المحلفين قد قوبل بهجوم عنيف، وأعلن الكثيرون أنه في مصلحة المتهم بأكثر مما

---

[٧] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي. التاريخ المعاصر، ص٩٢.

ينبغي وأنه يحد حداً خطيراً من سلطة الحكومة، ولكن الرأى قد استقر على الأخذ به في النهاية، والفضل يرجع في ذلك إلى حد يعيد إلى نفوذ نابليون. وقد رؤى أن تكون قرارات المحلفين بالأغلبية، وأن تجرى المحاكمات علناً، وأن يسمح بالدفاع في جميع القضايا. وتقرر - رغم معارضة الساسة الثوريين - الاحتفاظ في التقنين الجديد بذلك الإجراء الذى يميِّز المحاكمات الفرنسية وهو أن يصدر ضد المتهم قرار اتهام تمهيدى سرى في الغالب من قاضى التحقيق.. وسمح في العقوبات بعقوبات الوصم ومصادرة الأملاك، بقيود صارمة[٨].

أما بالنسبة للتعليم عمل نابليون على إصدار تشريع خاص بالتعليم يتماشى مع فلسفته التعليمية. وقد طبق هذا التشريع في جميع أنحاء فرنسا، وأهم ما ورد فيه تأكيده على السعى بكل جهد لتحقيق مجانية التعليم الابتدائى للفقراء مما يتيح الفرصة لتعليم جميع أبناء الشعب الفرنسى، وعمم سياسته على جميع مراحل التعليم، فانشأ سنة ١٨٠٨ جامعة تخضع لإشراف الدولة في العلوم والثقافات وما زالت هذه الجامعة قائمة حتى يومنا هذا. ولكى يضمن نابليون تطبيق سياسته ونشر أفكاره فقد أسس (المدرسة العليا للأساتذة) دار المعلمين العالية لتكوين أطر تدريسية للمدارس الفرنسية عامة وشجع تدريس اللغة الفرنسية على حساب اللاتينية[٩].

وفى أوائل سنة ١٨٠٠ أصدر نابليون تنظيما إداريا جديدا للبلاد واعتمد على التقسيم الإدارى الذى كانت الجمعية الوطنية قد أصدرته عند قيام الثورة. والجديد في هذا التنظيم أن نابليون جعل حكام الأقاليم يعينون من قبل القنصل الأول بدلا من انتخابهم من قبل سكان الأقاليم. وأقام محاكم إدارية لتؤمن حقوق المواطنين في حالة تجاوز الإدارة الحكومية عليها. ويمكن القول بأن نابليون أقام

---

[٨] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ج٢، ص١٩٠.

[٩] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٣٤.

حكماً مركزياً مرتبطاً به مع توفير نوع من الضمانات الديمقراطية المحلية. وفي مجال الأمور المالية أنشأ نابليون مجلساً استشارياً يهتم بالشئون المالية إلى جانب كل حاكم إقليم، ونظم الضرائب فزاد من واردات الدولة، وطهر الجهاز المالى من المرتشين. والذين أساءوا استعمال الصلاحيات المالية. ويرجع له الفضل في تأسيس (مصرف فرنسا) سنة ١٨٠٠ الذى اعتبر من المؤسسات المالية القوية فى العالم[١٠].

أما الإصلاحات العامة، فإنه قام بفتح طرق المواصلات واستصلاح الأراضي وبتجفيف المستنقعات وبني الجسور وفتح قنوات الري، وشيد القصور الضخمة فأصبحت باريس بل عموم فرنسا وجها جديدا أغتسل بمياه عذبة متخلصا من دماء القتل والإرهاب التى عاشتها فرنسا في بعض عهود الثورة لذلك منحته الأمة الفرنسية ثقتها عندما انتخب سنة ١٨٠٠ قنصلا أول لمدة عشر سنوات، ثم فى عام ١٨٠٢ قنصلا مدى الحياة وفي سنة ١٨٠٤ إمبراطورا. لقد منحته الأمة الفرنسية هذه الثقة اللا محدودة من أجل السلام لكنه خيب آمالها بتطلعاته الحربية نحو التوسع، وكانت هذه نقطة الضعف في حكم نابليون وربما كان الهدف الذى سعى إليه نابليون منذ البداية، فكان صلح أميان والإصلاحات وسيلة لتعزيز الجبهة الداخلية كمرحلة للفتح والتوسيع.

أما بالنسبة للمجالس الخاصة بالهيئة التشريعية بمقتضى هذا الدستور أربعة[١١].

١-مجلس الدولة: ويختص بوضع القوانين وصياغتها.

٢-مجلس التريبون: ويختص بدراسة القوانين ومناقشتها.

٣-المجلس التشريعي: وتختص بالنظر فى القوانين للموافقة عليها أو رفضها.

---

[١٠] محمد مظفر الأدهمي، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٣٦.

[١١] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٠٠.

٤-مجلس السناتو: المحافظ وهو صاحب الحق فى إلقاء النظرة الأخيرة فى القوانين ليوافق عليها أو يرفضها.

١-مجلس الدولة: الذى بنى تشكيله بمقتضى المادتين ٥٤،٥٣ من الدستور، فقد أخذ صورته الأخيرة بقرار من القناصل الثلاثة فى ٢٦ ديسمبر، فأصبح بذلك صاحب الحق فى اقتراح القوانين للعرض على مجلس التربيون، وكان تعيين أعضائه بما فيهم رئيسه من حق القنصل الأول الذى اتخذ لنفسه منصب الرئاسة.

٢- مجلس التربيون: ويضم مائة عضو، لا تقل سن كل منهم عن ٢٥ عاما، ويسقط عشرين منهم كل عام. وكان مقره البالية رويال Palais Royal. ومهمته هى دراسة مشاريع القوانين المرسلة من قبل مجلس الدولة، دون أن يكون له حق رفضها أو قبولها.

٣-المجلس التشريعى: وكان عدد أعضائه ثلاثمائة لا تقل سن الواحد منهم عن ثلاثين عاما، وكان له الحق فى التصويت على قبول القوانين أو رفضها دون مناقشتها، وذلك بعد أن يعرضها على أعضاء ثلاثة من أعضاء مجلس الدولة، ومجلس التربيون. ويتجدد خمس أعضاء هذا المجلس سنويا مثله فى ذلك مثل مجلس التربيون وكان يعقد جلساته فى "باليه بوربون" Palais Bouribon.

٤-مجلس السناتو: كان عدد أعضائه ثمانين، لا تقل سن الواحد منهم على أربعين عاما، ويعينون لمدى الحياة وكان اختصاصه ينصب على تعين القناصل كل عشر سنوات، وكذلك أعضاء مجلس التربيون والتشريعى، وكان له حق رفض أى قانون يقدمه مجلس التربيون أدا رأى أنه غير دستورى. وقد كان كل من سيس وديكو القنصلان السابقان عضوين فى هذا المجلس بل أصبح "سيس" رئيسا له، وهو مركز مغمور فى الحكومة الجديدة بالنسبة لكفاءته. فالرجل رأى أن يبتعد عن المناصب الرئيسية فى الدولة عندما تبين له أن نابليون لا يحترم المبادىء

الجمهورية والديمقراطية. ولكنه شارك " ديكو" والقنصلين الآخرين فى تعيين أعضاء هذا المجلس الذى كان يجتمع فى قصر لكسمبرج Palais Luxambourg.

وكان هذا المجلس أهم المجالس جميعا، كما كان هو ومجلس الدولة وحدها موضع ثقة القنصلية. وكان أعضاء مجلس التريبون لهم وحدهم حق المناقشة والانتقاد العلنى، وكانوا يضمنون فيه حمايتهم ممن يكرهون المعارضة.

أما السلطة التنفيذية، فقد نص لدستور الجديد على وضع السلطة التنفيذية العليا بين ثلاثة قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ مدة عشر سنوات، أصبح نابليون بموجب هذا الدستور قنصلا أول يتمتع بكافة الصلاحيات التى تعطى عادة لرؤساء الجمهوريات أو الملوك، بل تجاوزها أكثر من ذلك، فهو الذى يعيِّن الوزراء وكبار الموظفين ويعلن الحرب ويبرم المعاهدات ويصادق على إصدار القوانين. يضاف إلى هذا إدارته للجيش والحكومة والشئون الخارجية. أما القنصلان الآخران فكانا يساعدانه فى هذه المهام وهما لوبران وكاوبا سيرسى الذين اختارهما نابليون لثقته الشديدة بهما[١٣].

نابليــون والســياســة الخارجيـــة:

أما جلب السلام إلى ربوع أوروبا، فكان عملا أكثر مشقة وابعد منالاً، فإنه رغم انسحاب بول قيصر روسيا من التحالف، وغدوة بعد قليل شديد الإعجاب ببونابرت، ظلت النمسا وإنجلترا تتازلانه، فى ميادين القتال وأغمضتا عيونها عن رؤية تلويحات القنصل الأول بالصلح.

ولهذا السبب أختار نابليون النمسا هدفا أول للهجوم باعتبارها أضعف العدوين مركزا. فقد تمكن من إيقاع الهزيمة بها فى سهولة تبعث على الدهشة عند مقارنتها بحربها مع فرنسا فى العام السابق – فإن نصر مارنجو Marengo الفريد (١٤

---

[١٣] محمد مظفر الأدهمى، أوربا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٤، ٢٥.

يونيو سنة ١٨٠٠) الذى أثار فى فرنسا أشد ضروب التهليل والحماس، والذى كان باكورة الانتصارات التى أحرزتها القنصلية، كان كافيا لإضاعة التفوق الذى كسبه النمساويون لأنفسهم، بمعونة روسيا لهم أبان غياب نابليون فى القطر المصرى[١٣].

ولم يعر أحد التفاته إلى أن نابليون قصر فى إنجاد مسينا فى جنوة، إذ أن رجعة ديزيه Desaix الفجائية من الغرب هى وحدها التى خلصت نابليون من هزيمة منكرة فى مارنجو، بل كفى الباريسيين أنه كهانيبال، وعبر جبال الألب وقذف بنفسه فى جسارة وأقدام على مواصلات العدو، وبخمسة عشر مدفعا مقابل مائتين عند العدو، ظفر بفوز ساحق وفى الثالث من ديسمبر من العام نفسه اكتمل نصر فرنسا فى معركة هوهنلندن Hohenlinden ولم يكن النمساويين بالموفقين فى قوادهم. فقد اختير ملاس Melas الهرم ليقف أمام نابليون واختير دوق فى الثامنة عشر من عمره لينازل مورو Moreau.

وقد أدى هذه الانكسارات إمبراطور النمسا، فطلب وقف القتال وفى صلح لينفيل Luneville (٩ فبراير سنة ١٨٠١) وافق على خريطة لأوروبا وصلت فيها الحدود الفرنسية إلى ضفاف الراين، واعترف بالجمهوريات الأربع التى أقامتها فرنسا: وهى جمهوريات باتافيا، وهلفاتيا والألب الشمالية وليجوريا – هذه الجمهوريات التى أنشئت لأغراض الدعاية والتأثير فى الخارج.

أما وزارة بت Pitt فلم تقبل على الإطلاق الموافقة على تأليف أوروبا على هذا الوضع[١٤].

وكانت هذه الأموز تثير اهتمام بريطانيا ودول أوروبا على حد سواء، ولكن ثمة حوادث معينة كانت تمس بريطانيا مساً مباشراً بل وتزعجها إزعاجا لما تحمله من

---

[١٣] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص٥٩.

[١٤] نفسه، ص٥٩، ٦٠.

دلالة على أن فرنسا وحاكم فرنسا لم يسقطا من حسابهما بعد فكرة تحدى سلطان بريطانيا على المستعمرات والبحار.

وبدأ نابليون يفكر فى كسب حلفاء جدد لفرنسا فاستطاع بالعقل أن يستميل جودا Godoy صديق الملكة فى أسبانيا وصاحب النفوذ فيها. كما استمال إلى جانبه بول الأول قيصر روسيا، الذى بدأ يظهر إعجابه بنابليون، أما نجاحه فى أسبانيا فانتهى به إلى عقد معاهدة تحالف عرفت باسم معاهدة "سان الدفنسو San Ildefonso" فى عام ١٨٠٠، وبمقتضاها حصل على إقليم لويزيانا العظيم. وعن طريق هذه المعاهدة قرر أن يضرب البرتغال حليفة إنجلترا التقليدية، وقد زاده وثوقا من أهمية هذه المعاهدة فى صراعه مع إنجلترا موقف الروسيا منه فى تلك الآونة. فقد أظهر قيصر الروسيا ميلاً للتفاهم مع نابليون. وزاد من أسباب ذلك ما كان ينطوى عليه قيصر روسيا من ا لغضب على إنجلترا بسبب رفضها تسليم مالطة لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا تحت حماية القيصر. ونجح نابليون نجاحا جديدا فى توثيق أواصر الود بينه وبين القيصر حينما أعاد إليه عشرة آلاف من الأسرى أعادهم إليه فى حالة طيبة ومظهر لا يشير إلى أنهم كانوا فى حالة أسر، وأخيرا قبل نابليون وساطة الروس فى الإبقاء على مملكة نابولى[١٥].

ومن ثم ففى ديسمبر سنة ١٨٠٠ كوّن القيصر تحت لوائه الدانمارك والسويد وبروسيا "عصبة الحياد المسلح League of Armed Neutrality" لحماية حقوق المحايدين، وللإضرار ببريطانيا بنوع خاص وقد كانت نقطة من نقط الضعف فى درع بريطانيا أن أسطولها كثيرا ما سبب خسائر ومتاعب لأصحاب سفن المحايدين أثناء تفتيشها فى بحثه عن بضائع الأعداء أو البضائع المحرمة.

---

[١٥] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٠٤.

غير أن كيفية ممارسة حق التفتيش هذا، والضوابط والتأمينات التى تحول دون إساءة استعماله، والمجاملات والتعويضات التى تقدم عند مباشرته، كانت ولا تزال معضلة شائكة من معضلات القانون الدولي. وكانت كاترين الثانية قيصرة روسيا وقد أعلنت عام ١٧٨٠ مبدأ "حرية البحار" القاضى بأن السفن المحايدة الماخرة عباب البحار فى أعمال مشروعة يجب ألا تتعرض لأى مضايقة من الأساطيل المحاربة. فجاء بول وبعث هذا لمبدأ إلى الحياة سنة ١٨٠٠ وهذا مبدأ ما برح إلى يومنا هذا قضية حيَّة مثيرة للخلاف تنقسم بصددها الآراء، برغم أن الأسطول الأمريكى ضرب به عرض الحائط فى الطور الأخير من الحرب العالمية الأولى[١٦].

وكان افلاح بول الأول فى الحصول على تأييد الدول الأوروبية الشمالية للدفاع عن مبادىء الحياد المسلح – توفيقاً سعيداً غير مرتقب لنابليون الذى أسرع فى الإفادة منه. غير أنه فى اللحظة التى شرع فيها هذا المشروع يتخذ شكلا خطرا على إنجلترا: أى حين زحف البروسيون على هانوفر – التابعة للإنجليز وقتئذ – وأخذت الكتائب الدانماركية تحتل همبرج وليبك – فى تلك اللحظة أنهار المشروع انهياراً تاماً. ذلك أن القيصر اغتيل خنقا فى فتنة نشبت فى القصر الإمبراطورى فى مارس سنة ١٨٠١ فى أبريل من العام نفسه حطم نلسون الأسطول الدانماركى فى كوبنهاجن فقصفت تلك الصدمة المزدوجة، مع العصبة الشمالية التى لاحت لفترة من الزمن أنها ستكمل دائرة الحصار القارى وأتت ميتة فجائية غير مجيدة.

وقد مهدت هذه الحوادث: اغتيال القيصر ومعركة كوبنهاجن، واستعفاء بت – مهدت الطريق إلى صلح أميان Amiens مارس ١٨٠٢ ويغلب على الكتاب أن يقولوا أن أدنجتن Addington رئيس الوزراء الجديد، الذى لم يكن بالصلب العود، سلمً بأكثر مما تطلبه الموقف ولكن الكتاب الفرنسيين يرون عكس ذلك. فقد

---

[١٦] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص٦٣.

احتفظت إنجلترا بتفوقها البحرى على الأقل دون أن يمس بسوء، ومن بين فتوحاتها العديدة عبر البحار أبقت فى يدها ترينداد التى قد انتزعتها من الأسبان، وسيلان التى كانت قد اغتصبتها من الهولنديين.

وإذا كان صحيحا أن الفرنسيين لم يكن فى مقدرتهم على الإطلاق فى ذلك الحين أن يلزموا إنجلترا بالتخلى عن الفتوح التى كانت مستعدة أن تتنازل عنها، فإنه صحيح أيضاً أن هذه الممتلكات وراء المحيطات كان من السهل إعادة فتحها بحرية متفوقة، ما أستؤنفت الحرب.

ولكن أسوأ نذير كان يهدد سلام المستقبل، هو عدم إبرام فرنسا وإنجلترا اتفاقية تجارية فيما بينهما، فإنه طالما بقى التجار الإنجليز يعاملون فى فرنسا كأعداء غرباء، تعذر الوصول إلى تفاهم حقيقى بين الأمتين الفرنسية والإنجليزية(١٧).

---

(١٧) فشر، تاريخ أوربا العصر الحديث، ص٦٤.

عهد الإمبراطورية الأولى ١٨٠٤ - ١٨١٤

نابليون يصبح إمبراطورا:

الواقع أن نابليون طوال عهد القنصلية قد كان إمبراطورا فى سلطانه لا ينقصه إلا احتفال بإعلان اللقب بعد التتويج. وقد ساعدت الظروف فى الخارج والداخل على التعجيل بإعلان اللقب ففى مايو سنة ١٨٠٣ نقض صلح أميان، فاندلعت نيران الحرب من جديد بين فرنسا وبريطانيا أولا ثم بين فرنسا وأعضاء الحلف الأوروبى الثالث. فأصبح طبيعيا أن تلجأ فرنسا إلى مثل هذا القائد العظيم الذى لم تعرف البلاد له نظيرا فى الحرب أو السياسة قبل أيامه.

وقد اشتد اندفاع الناس إليه واللجوء إلى ساحته عندما كشفت الأيام عن مؤامرة خطيرة يدبرها "جورج كادودال" Georges Cadodoual من إقليم لافنديه. وكان ملكى النزعة ومن حوله آخرون كان من أهمهم وأعلاهم شهرة فى عالم الحروب بيشجرو Pichegeru ومورو Moreau من كبار القواد. وأخطر ما ظهر فى هذه المؤامرة عزم القائمين بها على الانقلاب الذى لا يتم أمره إلا باغتيال نابليون وظهر أن بريطانيا كانت على علم بذلك التدبير. واستطاع بونابرت ببعد نظره وقوة عزيمته وسرعة حسمه أن يطفىء نار تلك المؤامرة قبل اشتعالها[١٨].فاعدم "كادودال" ونفى "مورو" والقى "بيشجرو" فى ظلمات السجن حيث لقى موته. وأدى القضاء على هذه المؤامرة إلى قتل دوق "دانجان" Duke d' Enghien، وكان أميرا من أسرة كونديه، هاجر مع من هاجروا من فرنسا أول عهد الثورة، وكان مقيما فى "أتينهايم Ethenheim" فى بادن "Baden" على مقربة من فرنسا حيث

---

[١٨] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع، ص ٢١٣.

قبض رجال بونابرت، وأعدموه رميا بالرصاص، فى ""فانسين" Vincennes بالقرب من باريس وظهر بعد ذلك أنه كان برئياً من الاشتراك فى المؤامرة. واستاءت من ذلك بعض النفوس، وعدت القضاء عليه من أخطاء نابليون الجسيمة.

ولم يبد غريباً – بعد ذلك من تفاصيل تلك المؤامرة وخطرها على الفرنسيين فى الداخل والخارج بصفة خاصة خطر الحروب المحتمل شنها على فرنسا بعد نقض معاهدة أميان – أن يرى الفرنسيون فى المناداة بنابليون إمبراطورا عليهم ودرءاً لتلك الأخطار وتعبيرا عن ولائهم له. فلم يلبث مجلس الشيوخ (السناتو) حتى تقدم بالموافقة على مرسوم أصدره بمنح نابليون لقب إمبراطور. وكانت علاقات البابا بفرنسا يومئذ لا تشوبها شائبة من خلافات، فانتقل البابا من كرسيه بروما منطلقاً إلى باريس ليتوج نابليون وزوجته "جوزفين" فى كنيسة "نوتردام" وكان ذلك فى عام ١٨٠٤ وهكذا حققت الأيام حلم بونابرت العظيم.

إن الأيام قد أظهرت أن صلح أميان كان مجرد هدنة مؤقتة، فهذه إنجلترا تبين فى ذكر أن فرنسا غدت إمبراطورية تتسع أملاكها فى اطراد مستمر، فأصبحت تضم هولندا وتجد فى استرجاع مستعمرة رأس الرجاء الصالح. كما أصبحت جمهوريتا الألب الشمالية والهلفتية تابعتين تبعية مطلقة لها. وتزداد مطامع فرنسا، فتبعث بحملة لاسترداد جزيرة "سان دومنجو" فى جزر الهند الغربية. وتبين لإنجلترا كذلك أن فرنسا مازالت تبذل الجهود لاسترجاع مصر، وترسم مشروعاتها استعدادا للتوسع فى الهند، وتبعث بحملة يقودها الجنرال "ديكان" Decan.

ويشتد ذعر أوروبا من سلوك نابليون الذى أخذ ينقض وعوده، فبدأ ينقض عهده لبروسيا فى شأن المحافظة على حياد شمال ألمانيا، فاستولى على هانوفر. ولم يكن فى مقدور بروسيا يومئذ أن توقفه عن المضى فيما عزم عليه[١٩].

---

[١٩] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر،ص ٢١٤، ٢١٥.

ولم تر إنجلترا بدأ من تخليص نفسها من عهدها الذى اشترطه "صلح أميان" في عام ١٨٠٢ بشأن تخليها عن جزيرة مالطة، ذلك لأنها كانت تتوقع استئناف الحرب بينها وبين فرنسا، وأيديها فيما رأت يومئذ كل من روسيا والدولة العثمانية، كانتا تخشيان نتائج توسع بونابرت في الشرق. وكان أمر التوسع سببا في قطع العلاقات بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٨٠٣[٣٠].

التحـالف الدولـي الثـالث:

خلال العامين ١٨٠٣ و ١٨٠٤ اقتصرت الحرب على احتلال الجيوش الفرنسية لبعض المرافىء فى هولندا وإيطاليا وسواحل الهانوفر. وكانت هذه المرافىء ذات أهمية كبيرة للتجارة الإنجليزية وساد فى هذه الفترة الإنجليز خوف مرعب أن يروا ذات صباح جيوش الثورة الفرنسية ترفع العلم المثلث الألوان على البر البريطانى. ألم يكن نابليون يصرح بصورة مستمرة بأنه يحتاج فقط لست ساعات يسيطر فيها على بحر المانش وينتهى كل شىء بالنسبة لبريطانيا. وكان الفرنسيون يرفقون تهديداتهم هذه باستعدادات واسعة للغاية. ترسانات السفن الفرنسية صارت تعمل بهمة ونشاط على بناء قوارب وصنادل لنقل الجنود عبر البحر. الجنود الفرنسيون أخذوا يتجمعون على شواطىء المانش ويتدربون يوميا على فنون الحرب البرمائية. ومن كل المناطق الموالية لفرنسا جاءت جيوش حليفة إيطالية وألمانية وبلجيكية وهولندية لتساهم فى إذلال إنجلترا. وكان نابليون يأتى بنفسه للإشراف على هذه الاستعدادات ولإثارة الحماس فى نفوس جنوده. ولتمويل هذه الحملة لم يتردد بونابرت فى عقد صفقة مع الولايات المتحدة الأمريكية تنازل فيها عن مقاطعة لويزيانا مقابل أموال وفيرة[٣١].

---

[٣٠] زنيب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢١٥.

[٣١] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١٠٢.

عندما بلغت الاستعدادات الحربية مداها وتجمع لدى الفرنسيين جيش يضم حوالى ١٢٠ ألف جندى من خيرة الجنود المدربين ومن أفضل ما يمكن لأوروبا آنذاك أن تقدمه. ساد اعتقاد شامل بأن نهاية الغطرسة الإنجليزية باتت وشيكة. كما أن أكثر المشككين بقدرة الفرنسيين على تحقيق حملهم باتوا ميالين للاقتناع بأن النصر سيكون لنابليون. تصور نابليون خطة محكمة، فأعز للأسطول الفرنسي وحليفه الأسبانى بالإبحار إلى جزر الأنتيل ومحاصرتها مما يجعل الأسطول الإنجليزى يلحق بهما هناك لضربهما. فى نفس الوقت يخلو المانش من خط دفاعه الأول أى الأسطول وينفذ بسرعة كبيرة عملية إنزال جنوده على الشواطىء الإنجليزية إلا أن تنفيذ خطة كهذه تحتاج لذكاء نادر وخيال واسع ومرونة لا حد لها وهى أمور كان يفتقر إليها أميرال الأسطول الفرنسى فيليوف Villeneuve فترد وأبطأ فى تنفيذ الخطة مما سمح للأميرال نلسون بأن يفاجىء أسطول فرنسا عند الطرف الأغّر أمام الشاطىء الأسبانى وينزل به هزيمة قاطعة ويحطم أكثر سفنه. تم ذلك فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٥. بذا انهارت آمال نابليون كلها وعادت للأسطول البريطانى سيادته المطلقة على البحار والرعايا الإنجليز طمأنينتهم فى جزرهم وثقتهم بحارتهم[٢٢].

معركة الطرف الأغّر قضت على نابليون بأن يغّير مخططاته كلها. كانت إنجلترا منذ شهر أغسطس ١٨٠٥ قد وفقت لإقامة تحالف دولى جديد ضد فرنسا يعرف باسم "التحالف الدولى الثالث" يضم إنجلترا وروسيا والنمسا واسوج. إذ كان لكل واحدة من هذه الدول مآخذ على السياسة الفرنسية وعلى تصرفات نابليون. الحكومة البروسية لم تكن راضية عن تدخل نابليون المتزايد فى الشؤون الألمانية. والنمسا كانت تنتظر منذ أمد طويل والفرصة المناسبة للعودة إلى الحرب والثأر

---

[٢٢] نفسه، ص١٠٣.

لكرامتها التى جرحهاالفرنسيون أكثر من مرة. وقد أثار النمسا بصورة خاصة إعلان نابليون الأخير نفسه ملكا على إيطاليا وضم أراضى جنوى وبارم وبيامون إلى الإمبراطورية الفرنسية. والسويد أيضا كانت ناقمة على فرنسا غير راضية عن محاولاتها على شئون غرب أوروبا بكامله. وقد عرفت الدبلوماسية البريطانية كيف تستغل مواطن الضعف عند هذه الدول وجرتها فى صيف سنة ١٨٠٥ للتعاون معها وإعلان الحرب على فرنسا.

حين شعر نابليون بما كان يدبره ضده فى أوروبا سيَّر بعض جيوشه التى كانت مرابطة فى شمال فرنسا استعداداً لغزو إنجلترا إلى أراضى الإمبراطورية النمساوية وذلك يضرب جيوشها قبل أن تكتمل استعدادها وقبل أن تصلها النجدات العسكرية من حليفتها روسيا. على أن يعود بعد ذلك بسرعة لتنفيذ خطته والنزول فى إنجلترا.

وصلت الجيوش الفرنسية إلى مدينة أولم Ulm على نهرالدانوب حيث كانت تتمركز الجيوش النمساوية. وهناك جرت فى ٢٠ أكتوبر ١٨٠٥ معركة فاصلة انهزم فيها النمساويون وفروا مخلفين وراءهم خمسين ألف جندى أسير بيد الفرنسيين. بقية الجيوش النمساوية اتجهت نحو الشرق للاتصال بالجيش الروسى القادم وإعادة الهجوم ضد الفرنسيين. بادر نابليون للإجهاز على الجيش الهارب قبل التقائه بحلفائه.

ولما كانت الطريق الأقرب إلى مواقع أعدائه تقع فى أراضى دولة بروسيا المحايدة، التى لم يكن يحمل لها ولمليكها كبير احترام وتقدير، فإنه لم يتردد فى اجتياز حدودها وخرق حيادها مما أغضب عاهلها وجعله يميل لدخول الحرب ضد

فرنسا. وجرت بالفعل اتصالات بين الملك المذكور والقيصر الروسي للاتفاق على هذا الأمر[٢٣].

وفي ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ جرت أعظم معركة في تاريخ الإمبراطورية الفرنسية على هضبة أوسترليتز Austerlitz في النمسا. هناك نازلت الجيوش الفرنسية جيوش الدولتين الكبيرتين النمسا وروسيا وأنزلت بهما هزيمة ساحقة وسريعة قصد منها نابليون إلى حد كبير إرهاب بروسيا فلا تعود تفكر بدخول الحرب. وقد فَرَّت جيوش الأعداء متشحة بعار الهزيمة مخلِّفة وراءها ستة وعشرين ألف قتيل.

وكان من أبرز نتائج هذين الانتصارين أن إمبراطور النمسا بادر في اليوم التالي لمعركة أوسترليتز إلى مقابلة نابليون وأجرى معه مفاوضات للصلح. وفي ١٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وقع الصلح برسبورج Presbourg الشهير الذي أذل النمساويين إلى حد كبير وأطلق يد فرنسا في إيطاليا وجنوب ألمانيا. أما روسيا فقد انسحبت من الحرب عمليا دون أن توقع معاهدة صلح كما فعلت في المرة السابقة.

بالنسبة لبروسيا فقد استاء نابليون كثيرا من تمردها عليه أثناء الحرب ومحاولتها الالتحاق بركب أعدائه ودخول التحالف الدولي الثالث. لذا بادر عقب انتصاراته وفرض عليها معاهدة شائنة حطت كثيرا من كرامتها تعرف باسم معاهدة شونبرون Schoenburunn. أخذ منها أراضي كليف Cleves ونيوشاتيل Neufchate على نهر الراين وجعلها إمارات مستقلة تحت النفوذ الفرنسي وسلخ عنها مقاطعة انسباخ وأعطاها لبارفاريا وبالمقابل أعطى بروسيا مقاطعة الهانوفر الهامة الغنية فأوجد بذلك سببا دائما للخصام والنزاع مع الإنجليز لأن المقاطعة المذكورة

---

[٢٣] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١٠٤.

طالما كانت محط اهتمامهم باعتبارها موطن العائلة المالكة الإنجليزية القديم وجرى توقيع المعاهدة المذكورة فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٥[٢٤].

ولم يكتف نابليون بكل هذا بل أنه بعد عودته إلى باريس، مجللا بأكاليل النصر والفخار محطما التحالف الدولى الثالث مرجعاً الإنجليز والروس إلى عزلتهما السياسية، انشأ اتحاد للدويلات الألمانية اسماه اتحاد الراين وجعله موالياً لفرنسا بتعهد بأن تقدم لها زمن الحرب سبعين ألف مقاتل[٢٥].

اتصلت بروسيا بالروس بعد اختراق نابليون أرضيها للتنسيق معهم، إلا أنها لم تستمر بسبب انتصار نابليون فى استرليتز ولأملها بأراضى هانوفر التى وعدها. لكن البروس شعروا بضرورة قتال نابليون بعد أن علموا أنه يفاوض البريطانيين سرا لإعادة هذه الأراضى إليهم. فاتجهت إلى روسيا وإنجلترا والسويد لإقامة التحالف الأوروبى الرابع، وابتدأت بروسيا التحرش بنابليون بأن طلبت منه الانسحاب إلى ما وراء الضفة الغربية للراين، فهاجمها نابليون وانتصر عليها فى معركة يينا سنة ١٨٠٦ وتقدم فى الأراضى البروسية ودخل برلين ظافرا. وعندما تراجعت القوات البروسية إلى حدودها مع روسيا بقيادة القيصر فردريك وليم الثالث (١٧٩٧ – ١٨٤٠) لكى تلتقى مع الجيوش الروسية التى تقدمت لنجدتها، خاض نابليون مع الدولتين معركة فريدلاند في فبراير سنة ١٨٠٧ وحقق فيها انتصارا جديدا كان خاتمة لمعارك أوروبا فى هذه الفترة من الحرب[٢٦].

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ عقد اجتماع بين نابليون وقيصر روسيا بعد أن طلبت بروسيا الصلح وتوصل القائدان إلى عقد معاهدة صلح تلست وقعت فى ٥

---

[٢٤] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى. التاريخ المعاصر، ص١٠٥.

[٢٥] نفسه، ص١٠٦.

[٢٦] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٤٣.

يوليو من العام نفسه وفيها فرض نابليون عقوبات شديدة على بروسيا سواء فى التصرف بأراضيها أو فى فرض تعويضات حربية باهظة عليها وتحديد قواتها المسلحة وإقامة جيش احتلال دائم فى أراضيها أما روسيا فقد خرج نابليون وقيصرها من الاجتماع صديقين جديدين اتفقا على عدم خسارة روسيا لأى جزء من أراضيها ومساعدتها من قبل فرنسا لتحقيق مصالحها فى فنلندة والدولة العثمانية مقابل اعتراف القيصر الروسى بكل التغييرات التى أجراها والتى سيجريها فى الأراضى الألمانية بموجب معاهدة الصلح مع بروسيا وتعهد القيصر أيضا بالانضمام إلى فرنسا فى تنفيذ الحصار القارى ضد بريطانيا. أما السويد فقد هاجمتها حملة فرنسية من الدانمارك وأخرى روسية من فنلندا أجبرتها على عقد الصلح وقطع علاقاتها التجارية مع بريطانيا.

وهكذا انتهى التحالف الأوروبى الرابع ولم يبق أمام فرنسا سوى بريطانيا وقبل أن نترك هذا الموضوع لا بد من الإجابة على سؤال مهم وهو لماذا انهزمت الجيوش الأوروبية أمام قوات نابليون الأقل منها عدداً وعدة. والحقيقة أن هناك أسبابا واضحة يمكن إجمالها بالنقاط الآتية:- [٢٧]

١- كان التكتل الأوروبى ضعيف من الداخل تتعامل أطرافه فيما بينهما بنفس انتهازى مصلحى قائم على الرغبة فى التوسع على حساب الدولة الأخرى.

٢- عدم وجود قيادة عسكرية واحدة للجيوش المتحالفة التى كانت أعدادها تصل إلى أكثر من ضعف جيوش نابليون.

٣- كانت جيوش نابليون متناسقة تعتمد على قيادة حازمة ومحبوبة آمن الجنود والضباط لها وكانوا يؤمنون بأنهم يحملون رسالة سامية إلى

---

[٢٧] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٤٤.

أوروبا. أى أنهم كانوا أصحاب عقيدة فى القتال لم تكن تتوفر لدى أعدائهم.

٤- قوة البناء الداخلي لفرنسا حيث كانت الجبهة الداخلية تشكل سندا قويا للقوات المقاتلة، كيف لا وقد خلق منهم نابليون شعبا عسكريا مقاتلا مؤمنا بدور فرنسا فى نشر مبادىء الحرية والإخاء والمساواة.

٥- كان التجهيز في القتال والأشراف على سير المعارك وإدارة التموين فى مستوى عال جداً يفوق كثيراً مستوى أية قيادة فى جيوش التحالف الرابع.

٦- إن قيادة نابليون الذكيّة وشعبيته الواسعة وخططه البارعة وحزمه العسكرى وتعاطفه مع جنوده وضباطه لعبت دورا كبيرا فى أن تجعل منه ذلك القائد الفذ فى نظر الفرنسيين، والمهيب الجانب الذى يصعب قهره فى نظر أعدائه.

الحصــــار القـــارى:

وقد اتخذ الصراع مع إنجلترا طابعا جديدا كان له أثر عميق فى تعديل مجرى الحوادث فى أوروبا حتى سقوط نابليون. فقد يئس نابليون من اقتحام استحكامات بريطانيا البحرية. ولم يجد ثمة ما يشجعه على استئناف السياسة التى فشلت فشلا ذريعا فى الطرف الأغر. ولكن هل يعقل أن يقف سيد أوروبا الأعلى عاجزا أمام أمة من التجار وأصحاب الصناعات والحوانيت؟ لقد كان يؤمن بأن قوة إنجلترا إنما تكمن فى صادراتها، وبأن الدول الأوروبية هى سوقها الرئيسية ألا يستطيع إذن الحاكم الذى بسط سلطانه على أوروبا اقصاء السفن البريطانية عن جميع موانى أوروبا فيقضى بذلك ببريطانيا العظمى إلى الموت جوعا؟ لقد كانت

تلك سياسية فرنسية تقليدية نوعا عاما، ولقد أقرتها الثورة في أولى مراحل الحرب، ولكنها لم تكن ذاك في مركز يسمح لها بتطبيقها[28].

وقد جاء إعلان السياسة الجديدة من برلين في نوفمبر سنة ١٨٠٦ ولم يكن ثمة ما هو أبلغ دلالة على قوة مركز نابليون من إصداره مراسيمه من عاصمة فردريك الأكبر المهزومة. وقد نددت مراسيم برلين ببريطانيا لخرقها القانون الدولي ولأنانيتها في سياستها التجارية، وقررت الرد عليها بنفس أسلحتها، فأعلنت حالة الحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضي التي تخضع لحكم نابليون أو نفوذه. فلم يعد مسموحا للسفن البريطانية بدخول موانى فرنسا أو حلفائها، وأصبحت السفن التي تدخل على الرغم من ذلك الأمر عرضة للمصادرة.

وردت الحكومة البريطانية على ذلك بمراسيمها الملكية الصادرة في يناير ونوفمبر سنة ١٨٠٧. وفيها اتهمت فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وأعلنت أنه ما دام الاتجار مع أوروبا محرما على بريطانيا فليكن محرما على الدول المحايدة كذلك. وضربت بريطانيا الحصار على الأراضي الفرنسية. وهكذا أقصى نابليون بقوته الحربية بريطانيا عن التجارة مع أوروبا، فعزلت بريطانيا ببحريتها أوروبا الفرنسية عن التجارة مع بقية العالم. ولم تكن هذه السياسة الجديدة فكرة عابرة أو تهديدا أجوف. فقد تمسك بها نابليون باعتبارها الوسيلة القاطعة لإنزال الخراب ببريطانيا، وأرغم جميع الأمم الداخلة في نفوذه على انتهاجها. وكانت رغبته في توسيع مداها سببا في حروب أخرى. ولما كفل صلح تيليست في نوفمبر وديسمبر ١٨٠٧ تأييد

---

[28] جرانت، تمبرلي، تاريخ أوروبا في القرن ١٩، ٢٠، ج٢، ص٢٢٤، ٢٢٥.

روسيا وأصبحت جيوشه تقف بلا منازع، عاد يدعم ويؤكد من جديد في مراسيم ميلانو إعلانه السابق بحظر كافة أنواع التجارة بين أوروبا وبريطانيا[٢٩].

ولا ريب في أن بريطانيا قد قاست من هذا الحظر الذى سمي بالنظام القاري، فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الإفلاس واشتد عناء الناس من سوء الحالة التجارية الناشيء عنه. غير أنه وإن كانت للأسواق الأوروبية أهمية قصوى بالنسبة لبريطانيا، فإن باقي العالم ظل مفتوحا أمامها. ثم إن الآلات والأساليب الجديدة التى أدخلتها الثورة الصناعية في إنجلترا قد منحتها تفوقا كبيرا في الإنتاج، فقاست البلاد حقا ولكن مكابدتها قوت من عزمها على مواصلة الكفاح بدلا من أن تثبط ذلك العزم.

أما سكان فرنسا نفسها فكانوا يتمتعون في تلك السنوات بالرخاء من عدة أوجه فقد فتحت غزوات نابليون لتجارتهم مناطق جديدة واسعة، وشوهدت ثمار تشريعات الثورة الاجتماعية في ازدهار أحوال الزراعة. ولما بدأت فرنسا تقاسي من انقطاع ورود حاصلات المستعمرات نتيجة لسياسة بريطانيا، تمكن العلم الفرنسي، بمؤازرة الدولة وتوجيهها من تقديم بعض الحلول، فقد ارتفعت أسعار السكر ارتفاعا خيالياً، ولكن العلماء الفرنسيين تمكنوا من استخراج السكر من البنجر وأصبحت هذه الصناعة الجديدة من ذلك التاريخ موردا دائما من موارد الثورة الفرنسية، كما صنعوا النيلة أو بمعنى آخر حصلوا على بديل. حقا إن بعض أنواع الصناعات لم تجد من يقيلها من عثرتها"، ولكن أسوأ نتائج نظام نابليون القارى لم تكن تشاهد في فرنسا نفسها وإنما في الدول الأوربية الواقعة تحت سيطرتها. وقد تجلى هذا بصورة أقوى عندما عمد نابليون إلى فرض رسم جمركى عال – وصل غالبا إلى

---

[٢٩] جرانت، تمبرلي، أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠، ص ٢٢٥،٢٢٦.

نصف القيمة – على جميع حاصلات المستعمرات إيمانا منه بأن كل ما يصل منها إلى أوروبا إنما هو من تهريب البريطانيين[٣٠].

وقد تأثرت هولندا التى كان يحكمها لويس أخ نابليون تأثيرا سيئا بسياسة الحصار القارى، ولم تلق شكواها آذانا صاغية رغم ما كان عطف لويس على أهلها. ولم يجد لويس أمامه غير أن يتنازل عن عرشه المزعزع. ومع ذلك فإن حالة هولندا لم تتحسن، وضمت إلى فرنسا في يوليو سنة ١٨١٠. وقد دفعت نابليون عوامل مماثلة لكي يضم الساحل الشمالي الغربي لألمانيا إلى فرنسا. وبرر نابليون هذه السياسة بأن التجارة الإنجليزية ستجد لها منفذاً إلى القارة الأوروبية ما دام مدخل كل من الويزر والألب مفتوحا. وفي الواقع أن نابليون قد أضر بنفسه وبمركزه في الدول التى كان مسيطراً عليها. فمن الواضح أنه لو كان هناك أي احتمال لبقاء هذه الممالك تحت سيطرته، فإن تطبيق سياسة الحصار القارى عليها كانت كفيلة بالقضاء على هذا الإحتمال لأن هذه السياسة قد أساءت اقتصاديا إلى هذه الأقاليم إساءة بالغة، فجعلها تنسى ما أدخله نابليون من إصلاحات اجتماعية وإدارية.

كما أن سياسة الحصار القارى قد سببت لنابليون كثيرا من المتاعب بل كانت سبباً في المصائب التى نزلت به، وكانت في النهاية العامل الأساسي في سقوطه. ولكن نابليون لم يكن يرى بيده سلاحا لمحاربة أعدائه وفي مقدمتهم إنجلترا سوى هذا السلاح، ونعني تطبيق سياسة الحصار القارى واقتضاه ذلك أن يبسط نفوذه السياسي على كل من إيطاليا وأسبانيا حتى يجعل من ذلك سلاحاً ماضياً. وقد أدى ذلك إلى إثارة الشعور الديني والقومي في آن واحد[٣١].

---

[٣٠] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ج٢، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

[٣١] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر،ص ٢٢٧،٢٢٨.

أما الصعوبة الكبرى فكانت أدبية، فإن تنفيذ الحصار الإيطالي تنفيذا مشددا كان ينطوي على إثارة نابليون النزاع مع البابا. ولذا كان خللاً خارقاً للعادة حسن تقدير رجل عبقري مثله للأمور، رجل يدرك إدراكا كاملا أهمية احترام عواطف الكاثوليك في إمبراطوريته مترامية الأطراف، فإنه بدلا من حيدة الفاتيكان، نفى البابا في مايو سنة ١٨٠٩ من ولاياته، وألقاه في السجن، وضم أملاكه، وربطها بالنظام الإداري للإمبراطورية الفرنسية.

ومع أن الإيطاليين هم على الأرجح أقل شعوب البحر المتوسط تديناً، إلا أن البابوية كانت في نظرهم تمثل مجداً من أمجاد وطنهم التاريخية. ولذا استنكروا هوانها، واستثارهم تحقيرها. والحق أنه من بين أغلاط نابليون الخطيرة، لم يكن ثمة غلطة قدر لها أن تهز من الأعماق أسس سلطانه، لا في إيطاليا وحدها، بل في جميع أنحاء العالم الكاثوليكي، أشد من هذه الإهانة التي وجهها بلا مسوغ وبلا ضرورة للكرسي البابوي، وللتقاليد الرومانية[٣٢].

كانت تلك نتائج سياسته في إيطاليا أما في أسبانيا فقد أثار الشعور القومي، فأسبانيا مع ما اتصفت به من هذا العهد من ضعف وما تميزت به إدارتها من خلل لم ترض الخضوع لحكم أجنبي كما كان الحال بالنسبة لإيطاليا، الأمر الذي سهل على نابليون غزوها، إذ اعتبره أهلها منقذا لهم من الحكم الأجنبي. لذلك أصيبت القوات الفرنسية بأول ضربة وهزيمة برية. ولو رزق نابليون يومئذ شيئا من الحكمة والتروي لاكتفى بغزو البرتغال، ولما أقحم نفسه في غزو أسبانيا. ولكن إصراره على تنفيذ سياسة الحصار القاري هي التي دفعته لذلك.

أما عن البرتغال فقد فشلت كل جهود بونابرت لإقناع البرتغاليين بمقاطعة إنجلترا لما بين البلدين من علاقات سياسية واقتصادية وثيقة. ونظرا لكون مرافيء

---

[٣٢] فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص ٨٥.

البرتغال قد تحولت إلى مراكز لتهريب البضائع الإنجليزية إلى القارة عزم نابليون على احتلال هذه البلاد. وعقد لذلك مع رئيس الوزارة الأسبانية جودى Godoy الوصولى المفتقر إلى أبسط مبادىء الأخلاق والضمير والمكروه لدرجة لا توصف من شعبه، اتفاقا يقضى بالسماح لجنوده بالعبور إلى البرتغال عبر أراضى أسبانيا على أن يتقاسم البلدان الغنيمة فيما بعد.

ولم يجد الجيش الذى أرسل عبر أسبانيا بقيادة الجنرال جينو Junot، أية صعوبة فى احتلال البرتغال. ذلك العرش البرتغالى. نظراً لما كان لفرنسا آنذاك من سيطرة ومهابة ولم يفكر حتى بالمقاومة، وفرت العائلة المالكة إلى البرازيل تاركة القائد الفرنسى يتم احتلاله للبلاد دون مقاومة فعلية. وكان ذلك فى عام ١٨٠٧.[٣٣]

عقب احتلال البرتغال ظلت بعض القوات الفرنسية مرابطة فى أسبانيا بحجة أن ذلك ضرورى لتأمين الدفاع عن شواطىء البرتغال. إلا أنه فى الواقع وأمام السهولة التى تم بها احتلال البرتغال فكر نابليون بضم أسبانيا إلى أملاكه متجاهلا أنها بلد حليف وصديق لفرنسا، وأن جيوش فرنسا دخلت أراضيها صلحاً وبموافقة حكامها على أن تغادرها فور تحقيق الحملة الفرنسية لأغراضها فى البرتغال. وهناك أمر آخر ربما أغراه بالبقاء وهو أن الفرنسيين اكتشفوا أن الكثير من المدن والقرى والسواحل الأسبانية كانت تتاجر بصورة سرية ولكن ناشطة مع الإنجليز وتتولى تهريب بضائعهم إلى أسواق أوروبا متجاهلة قوانين الحصار. ثم أن حكومة مدريد كانت أضعف من أن تفرض سيطرتها ورقابتها على كل البلاد لتقضى على أعمال التهريب.

وتحقيقا لفكرته الطارئة عيَّن نابليون مورا Murat قائداً عاماً للجيوش الفرنسية فى أسبانيا وكلفه مهمة احتلال كل أراضيها تدريجيا. أرتكب نابليون بتصرفه

---

[٣٣] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص ١١١،١١٢.

هذا خطأ لا يقل فداحة عن احتلاله لأراضي البابا. فالأسبان هم أكثر شعوب أوروبا تمسكا بالدين واقلهم تأثيرا بالمبادىء المتحررة الشائعة في فرنسا؛ كانوا إجمالاً متخلفين سياسيا وثقافيا وفكريا. فهم رغم استبداد ملوكهم وفسادهم وبطانتهم السيئة، وتردى أوضاع بلادهم، ما كانوا يشعرون أنهم في وضع سيىء وأن شيئا هاما اسمه الحريات ينقصهم، وبالتالي فإن منجزات الثورة في فرنسا لم تكن تثير عندهم أي رد فعل إيجابي. ثم أن أسبانيا بلد متماسك قوميا لدرجة كبيرة اكتسب شعورا قويا بالوطنية والوحدة منذ أيام صراعه مع المسلمين. والبلدان التي حاربها نابليون حتى ذلك الوقت وانتصر عليها كألمانيا وإيطاليا والنمسا والروسيا لم تكن تعرف الوحدة القومية المتماسكة ولا كانت مترابطة الأجزاء. أما في أسبانيا فكان عليه أن يواجه بلدا موحدا منذ قرون عديدة. وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية[٣٤].

وقف الأسبان منذ البداية من المحتل الفرنسي موقف العداء الشديد. وبدأت المقاومة في الأوساط الشعبية وبين الفلاحين في الأرياف تخلق المصاعب للمحتلين، مهاجمة طرق مواصلاتهم، متلفة مستودعات أسلحتهم وأغذيتهم ضاربة مؤخرة جيوشهم. وفي نفس الوقت كانت جيوش الاحتلال في تزايد مستمر لتصبح قادرة على احتلال الأراضي الأسبانية. وعندما شعر الملك الأسباني بنوايا الفرنسيين حاول مع أعوانه وعائلته أن يترك العاصمة ويستقر في المرفأ الأسباني الشهير قادش حيث يمكنه إذا أشتد الخطر أن يسافر إلى أمريكا الجنوبية. استاء الشعب كثيرا في العاصمة من هذا التصرف الذي يفتقر للشجاعة والعزة القومية فثار وأجبر الملك على التنازل عن العرش لأبنه فرديناند السابع. تذرع ميرا بهذه الاضطرابات وأمر جيوشه بدخول العاصمة الأسبانية للقضاء على مقاومي الاحتلال الفرنسي ولفرض النظام والأمن فيها. ولما لم يتمكن من التوفيق بين الملك القديم المخلوع، وكان قد أقنعه

---

[٣٤] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١١٢.

بالبقاء في العاصمة وعدم الهرب، وبين الملك الجديد الحائز على ثقة جماهير الأسبان وعطفهم، أرسل ميرا، العائلة المالكة كلها إلى بايون Bayonne في فرنسا، حيث استعمل نابليون كل ما عنده من أسباب الحيلة والدهاء وجعل الاثنان يتنازلان عن العرش الأسباني.

وعهد بتاج مدريد إلى شقيقه جوزيف الذى كان ملكاً على نابولي وأعطى عرش هذا الأخير لميرا قائد الحملة الأسبانية.

لم يفهم الأسبان الأحداث الجديدة، وظلوا متمسكين بملكهم الأسباني المخلوع وبولائهم لعائلتهم المالكة، وبضرورة إعادة فرديناند إلى عرشه باعتباره الوريث الشرعي الوحيد للعرش. أما الملك الجديد جوزيف بونابرت فلم يروا فيه إلا وجه أجنبي مغتصب مستعمر[٣٥].

ولما كان رجال الدين الأسبان يرون في بونابرت واحدا من أبناء الثورة الفرنسية الملحدة التي اضطهدت الدين ورجاله وحطمت عظمة الكنيسة الفرنسية وقوتها، فقد حملوا بقوة وشجاعة لواء التصدى للاحتلال الفرنسي وأخذوا يثيرون الأمة ويحرضونها على مزيد من المقاومة والقتال. كان هؤلاء مشبعين إلى جانب الإيمان والولاء للكنيسة بعاطفة وطنية جامحة جعلتهم دوما في طليعة رجال المقاومة ضد المحتلين الملحدين. كما أنهم عملوا على افهام الأشراف الأسبان وكبار الملاك الأراضي حقيقة المبادىء التي يمكن أن تزرعها الثورة الفرنسية بواسطة جنود نابليون في قلوب الفلاحين الأسبان. مما قد يؤدى لانهيار امتيازاتهم. وراح رجال الدين بعد ذلك يوقظون في عامة الأسبان العاطفة الدينية الراسخة طالبين منهم محاربة أعداء المسيح والمسيحية. ولما لم تكن أصلا فلسفة الثورة الفرنسية ومبادىء الحرية قد لاقت هوى عند جماهير الأسبان فإن صيحات رجال الدين لاقت آذانا

---

[٣٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١١٣.

صاغية وهبت أسبانيا بأسرها لمقاومة الجيوش المحتلة التى تضم مائة وستين ألف جندى من جنسيات وقوميات متعددة[٣٦]. ولن يكون عجيبا بعد ذلك أن تهزم القوات الفرنسية تحت قيادة "دوبون" Dupont فى واقعة بايلن Baley فى جنوب أسبانيا فى يوليو سنة ١٨٠٨ وكانت هزيمة منكرة أخذ منها القائد أسيرا ومعه حوالى ٢٣,٠٠٠أسيرا. وقد أثارت هذه الهزيمة دهشة أوروبا، كما شحذت الهمم على مقاومة نابليون فكانت هذه فاتحة أبواب الشر على حياة ذلك القائد الذى أرعب الدنيا وهزها حتى باتت تخشاه وبات حكامها يهابون لقاءه والاصطدام به. ولا أدل على حرج موقف الفرنسيين فى أسبانيا عقب هذه الهزيمة من أن يهتز نابليون نفسه، فيغادر فرنسا ليظاهر جيشه المنهزم فى أسبانيا ويشجعه ويعيد الثقة إلى جنده[٣٧].

أسباب انهيار إمبراطورية نابليون:

يرجع انهيار تلك الإمبراطورية الشامخة إلى عدة عوامل[٣٨]

أولا: أن أوروبا أفاقت من غشيتها وحاولت القضاء على السيطرة الفرنسية واستخدمت نفس الوسائل التى تغلبت بها جيوش فرنسا على أوروبا. ويبدو أن الثورة الفرنسية حملت معها جراثيم هدمها، فلقد دخلت الجيوش الفرنسية البلاد المفتوحة بمبادىء الثورة وهى الحرية والإخاء والمساواة وحكم الشعوب نفسها بنفسها. لذا سنجد أن هذه الشعوب ستعمل على تطبيق تلك المبادىء والاحتفاظ بحقوقها. فالشعب الفرنسى كان يحارب حكومات لا قوميات. وبينما كان الشعب الفرنسى ممثلا فى الجيش كانت الجيوش الأوربية جيوش مرتزقة لا تمثل الشعوب. لقد وجدت شعوب أوروبا أن الحكم الفرنسى ليس فى صالحها

---

[٣٦] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ١١٥.

[٣٧] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢١٩.

[٣٨] محمد محمود السروجي، تاريخ أوروبا السياسي والاقتصادى فى القرن ١٩، الاسكندرية١٩٦٦ص ٧٦.

دائما، وأن نابليون يعمل على أن يقوم كل شعب يدفع نفقات النصر الذى أحرزه وأعباء جيش والاحتلال. وجد كل شعب من الشعوب الأوربية. إن نابليون وفرنسا من ورائه لا يعمل إلا لمصلحة فرنسا وحدها. ولم يكن حكم نابليون لها حكما ديمقراطيا، بل كان حكما قائما على الاستبداد. فكان هذه الشعوب قد استبدلت حكما استبداديا بأخر من نوعه. وسنجد أن هذه الشعوب التى أيقظتها صيحات الحرية ستعمل على إدخال النظم والأساليب الحربية الفرنسية حتى تحارب فرنسا بنفس سلاحها. هذا بالإضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية من جراء حصار إنجلترا لأوروبا وحصار نابليون للجزر البريطانية. فأصبحت أوروبا مملوءة بالجنود لا تحترم إلا مصلحة فرنسا ومصلحة نابليون.

ثانيا: كانت أوروبا تشعر شعورا واحدا إزاء فرنسا. وهو الشعور بالعداوة بعد أوسترلتز وبيينا وفريدلاند. فالعلاقات تحسنت نوعا ما بعد :تلست" بين فرنسا وبروسيا ولكنها كانت ثقة مؤقتة. النمسا ولو أنها سلمت لنابليون فى صلح برسبرج إلا أنها سلمت مرغمة، وستنتهز الفرصة للقضاء على نابليون. وسنجد الدول الأخرى مثل أسبانيا تتألب على فرنسا، وهذه الدول فى مجموعها أقوى من فرنسا من الناحية الحربية ومن ناحية الثروة، وكانت هذه الشعوب تدفع ثمن هذه الحروب عن طريق الضرائب المنتظمة وتقديم زهرة شبابها لخدمة نابليون، فإذا كانت هذه الدول تستطيع تقديم محاربين لنابليون لتثبيت دعائم حكمه الاستبدادى فى أنحاء أوروبا كان بوسعها أن تستخدم هؤلاء الشبان فى القضاء على النفوذ الفرنسي وحكم نابليون.

ثالثا: الحملة الفاشلة على روسيا ومعركة الأمم:[٣٩] لم يسترح نابليون بعد حربه مع النمسا فقد بدأت العلاقات تتدهور بينه وبين قيصر الروسيا لأسباب

---

[٣٩] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٥٠.

عديدة أهمها أن نابليون لم يف بوعوده إلى القيصر الروس فـى تحقيـق مطامعه في السيطرة على الآستانة ومضيقى الدردنيل والبوسفور قلب الدولة العثمانية وحلم روسيا الأزلى فى الوصول إلى المياة الدافئة.

من جانب آخر فإن الحصار القارى قد أضر بروسيا وهى بلد زراعى بحاجة إلى المنتوجات الصناعية، إذ كانت تجارتها تعتمد على تصدير المواد الزراعية واستيراد المواد الصناعية فتأثرت التجارة الروسية وتدهور مصالح التجار والزراع مما شكل ضغطا على القيصر اضطره سنة ١٨١١ إلى السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى بلاده فاعتبر نابليون هذا العمل خروجا على صلح تلست وعملا عدائيا. وقد زاد في ذلك العداء من جانب روسيا زواج نابليون من ابنة إمبراطور النمسا التى عارضت والدتها الروسية تأنف زواج إحدى أميرات آل رومانوف من رجل وضيع المنبت مهما كان مركزه السياسى، يضاف إلى هذا أن الأميرة أرثوذكسية ونابليون محسوب على الكاثوليك رغم أنه لم يكن متدينا، لذلك تردد الروس فى إرسال موافقتهم لنابليون وتأخروا فى الرد عليه فى ذلك فبادر نابليون إلى طلب يد الأميرة مما اعتبر إهانة كبرى بحق روسيا وعائلتها المالكة. ولا شك أن رغبة القيصرة فى أن يلعب دورا رئيسياً فى السياسة الأوروبية قد دفعه إلى التخلى عن تحالفه مع نابليون تحرضه وتدعمه فى ذلك الطبقة الأرستقراطية الروسية الشديدة العداء لنابليون صاحب أفكار التحرر والثورة[٤٠].

في ١٢ إبريل سنة ١٨١٢ وكان القيصر الروسى قد أنجز استعداداته، وجه إنذارا إلى نابليون يطلب فيه إليه أن يتخلى عن تنظيماته فى ألمانيا وأن يأمر بجلاء جيوشه عن بروسيا. ولما كان نابليون يستعد منذ أمد بعيد لمثل هذا اليوم، ولم يكن من القادة الذين ينصاعون لأمر ويقبلون إنذار فقد غادر فرنسا على رأس جيش ضخم

---

[٤٠] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٥٠، ٥١.

يتألف من سبعمائة ألف مقاتل من قوميات عديدة. كان هناك جنود فرنسيون وألمان وبولونيون وطليان وأسبان وسويسريون وبرتغاليون. ولعل فى تعدد جنسيات هذا الجيش نقطة ضعف كبيرة إذ جعلته عديم الانسجام يصعب التفاهم بين فرقه المختلفة بسبب اختلاف اللغات والقوميات وطرق الحياة. وكان جيش أعدائه الروس يتألف من ربع مليون جندى تجمعهم رغبة واحدة هى الدفاع عن أرضهم وبلدهم.

وقد استفاد الروس كثيرا من تجارب الأسبان فحاولوا أن لا يخوضوا معركة رئيسية قد تكون فاصلة ضد نابليون. فأخذوا يتراجعون نحو المشرق تاركين الفرنسيين يبتعدون عن طرق مواصلاتهم الأساسية ليستنفذوا أكبر قدر ممكن من مئونهم ومن طاقات جنودهم. وفى أغسطس وقع أول صدام بين الفريقين عند مدينة سمولنسك Smolenskفى منتصف الطريق بين الحدود والعاصمة موسكو. انتصر الفرنسيون واحتلوا المدينة غير أن الجيش الروسى انسحب نحو الداخل دون أن يترك لعدوه فرصة القضاء عليه. أخذ نابليون يتقدم نحو الشرق ودخل العاصمة موسكو فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢ فوجدها خالية من سكانها الذين غادروها قبل وصول الفرنسيين. وفى مساء ذلك اليوم أشعلت النيران فى المدينة بأمر حاكمها. ارتد نابليون خارج المدينة وبقى هناك مدة شهر كامل ينتظر أن يعرض عليه القيصر الصلح إلا أن هذا رفض كل صلح أو مفاوضة مع الفرنسيين. وفى أكتوبر أمر جيشه بالعودة إلى فرنسا إذ كان يخشى قيام ثورة داخلية هناك وانضمام الدول الأوربية إلى روسيا. ذلك أنه خلال غيابه عن البلاد كثرت هناك الدسائس والمؤامرات ضد حكمه الذى جرَّ على فرنسا الويلات والكوارث[41].

---

[41] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ١٢٤،١٢٥.

في طريق العودة مات عشرات الألوف من الجنود الفرنسيين بردا وجوعا بسبب قساوة شتاء ذلك العام وبرده الشديد. وفي نفس الوقت كانت فلول الجيوش المنسحبة تتعرض لهجمات وحشية من الجيوش الروسية ومن فرسان القوازق من كل جانب. ولم يصل إلى الحدود البروسية من ذلك الجيش الضخم سوى مائة ألف جندي تقريبا.[٤٢] فلما بلغ أوروبا كانت شعوبها عامة قد تحولت إلى حلف يعاديه ويستعد للقضاء عليه، وكان شعب بروسيا بخاصة أكثر الشعوب الأوروبية استعدادا لمحاربته انتقاما لكرامته. فأحاط بمليكه يستحثه على التحالف مع روسيا، فعقد معها معاهدة "كاليش" Kalish في فبراير ١٨١٣، اتفق الطرفان على ألا ينفرد أحدهما بعقد صلح مع فرنسا، وتعهد القيصر بأن يعيد لبروسيا ما فقدته من أملاك ثم أن يرد على ألمانيا كلها حريتها، وأراد أن يستوثق من استعداد الشعب الألماني في قبول هذا العرض، فأعلن على أمرائه أن من يتخلف منهم عن مشاركته في محاربة نابليون سوف يفقد في النهاية أملاكه[٤٣].

وتبدأ هذه الحرب بأن يهاجم جيش الحليفين روسيا وبروسيا القوات الفرنسية التي يقودها نابليون فتضطرها إلى التقهقر غربا. فتظفر باحتلال همبورج Hamburg عند مدخل نهر الألب ثم درسدن في سكسونيا، ولكنها مع ذلك لم تظفر بقهر نابليون الذي لم يلبث أن انتصر على غريميه المتحالفين: فأوقع بها هزيمتين أحدهما في لوتزن Lutzen في اتحاد الراين والثانية في بوتزين Butzen بسيلزيا. ولكن انتصار نابليون في هاتين المعركتن لم يرق بقيمته إلى المستوى الذي حققته له الظروف بعد معركتي "استرلتز" فخسائر بالرغم من الانتصار

---

[٤٢] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ١٢٥.

[٤٣] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٢٣٨.

في المعركتين الأخريين كانت فادحة. وأحس أن روح الجند من حوله قد تغيرت ولم يصبح كما كان بالقائد المطاع[٤٤] .

وترتب على ذلك أن تحرير ألمانيا لم يكن ليتم من غير مساعدة فعلية من الإمبراطورية النمساوية. ولكن هذه الإمبراطورية وقتئذ في جملتها دولة غير جرمانية، وقد قللت باطراد تعهداتها في الغرب، فتخلت عن البلجيك وحدود الراين وتنازلت عن ممتلكاتها القديمة في سوابيا Swabia وشاهدت اختفاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة في شيء من الارتياح. وكانت تهتم بالسيطرة على شمال ووسط إيطاليا، ومن ثم على الفاتيكان، أكثر من اهتمامها باستئناف هذه العمل المحفوف بالمخاطر والجحود، وهو حماية ألمانيا من الاعتداء الفرنسي في الغرب. فيما كان الزعيمان السياسيان يرومان أن يطردا نابليون من ألمانيا بالطعان والنزال، ومن ثم يخلقان دولة ألمانية متحدة. كان مترينخ Metternich (١٧٧٣ – ١٨٥٩) يرغب في فرض توسطه مع الفرق المتناحرة، ويدعو إلى مؤتمر للصلح. فوافق نابليون على هذا الاقتراح[٤٥].

على أية حال لم تكن النية صالحة من جميع الأطراف للصلح وانتهى ذلك بقيام الحرب بين الطرفين انتهت بهزيمة نابليون خمس مرات متتالية. ولم ينته الأمر على ذلك. فالتقى نابليون بخصومه جميعا من روس وبروسيين وألمان وسويدين وإيطاليين في ليبزيج لمواجهته، فتقع بينهم وبينه فيها بمعركة الشعوب، خسر فيها نابليون خمسين ألف من جنده، وفر الباقين من رجاله إلى الراين. فبلغه في ديسمبر بعد أن فتكت الأمراض بأكثرهم، وهنا قضى على سلطانه في شرق الراين وتتابعت المصائب تلاحق نابليون، فتنسحب قواته من أسبانيا حتى تبلغها الجيوش البريطانية بقيادة ولنجتن Wellington الذى عزم على غزو فرنسا قاصدا إليها من الجنوب. وانتهى ذلك بأن طلبت فرنسا الصلح وسقط نابليون.

---

[٤٤] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٢٣٨.

[٤٥] فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١٠٤، ١٠٥.

الفصل الرابع

مؤتمر فيينا (١٨١٤ - ١٨١٥)

ونظام المؤتمرات

اقتضت الظروف السياسية بعد هزيمة نابليون ونفيه إلى جزيرة إلبا Elba حلفاء دول أوروبا الكبرى على الاتفاق على تسوية أمور أوروبا، وفي مقدمتها النظر فيما ينبغي أن يكون عليه مستقبل فرنسا. فكان قرارهم في تنفيذ ما نصت عليه معاهدة باريس معاهدة باريس الأولى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤، وتميزت باعتدال سياسي، فلم تطالب تلك الدولة بدفع غرامة أو تعويض حربي، ولم يصر أعداؤها على احتلال أرضها، بل لم يكن هنالك حتى هذا الشرط، وهو أن الكنوز الفنية التي نهبتها فرنسا من متاحف أوروبا، يجب أن تعاد إلى أصحابها الشرعيين. حقا أن فتوح نابليون الأجنبية سلخت منها، ما في ذلك شك. ولكن مما هو قمين بالملاحظة أنه برغم انتصار الحلفاء الكامل، وبرغم طول الحرب ومرارة القتال، فقد أعطى لويس الثامن عشر رقعة من الأرض أكبر قليلا من تلك التي كان أخوة لويس السادس عشر يملك عليها قبل اندلاع الثورة. ذلك أن تطبيق أبسط قواعد الحكم السليم كان كافيا لأن يظهر للحلفاء بأن حليفهم لويس لن يستطيع الاحتفاظ بعرشه المزعزع تحت ظلال صلح مرهق مذل[1] وأعلنت المادة الثانية أن حدود فرنسا لابد وأن تظل كما كانت عليه في ا يناير ١٧٩٢، واقتضى ذلك أن يضاف إليها بعض البقاع عند حدودها الشمالية والشرقية، بشرط أن تتعهد فرنسا بأن تكتفي بذلك، وألا تطمع في السيطرة أو الإشراف على أي بقاع أخرى فيما وراء حدودها الجديدة. وكان ربح فرنسا من وراء هذه المعاهدة مساحة قدرها ١٥٠ ميلا، ويسكنها ٤٥٠,٠٠٠نسمة، وذلك على الرغم من أنها أفقدتها السيطرة على هولندا وبلجيكا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وجزيرة مالطة.

---

[1] فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١٠٩.

وتقرر في نفس المعاهدة أن تضم من مستعمرات فرنسا جزيرتا توباجو Tobago وسانت لوتشيا Santa Lucia إلى إنجلترا، وأن تسترد أسبانيا نصيبها من فرنسا من جزيرة سان دومنجو" San Domingo"[٢] واحتفظت فرنسا بأفنيون Avinon (في الجنوب على نهر الرون) ومونتبليار MontebelLiard وملهوس Milhausen (في الشرق في إقليم الراين الأعلى) وشامبرى Chambery وأننسي Annecy وكانت فرنسا قد استولت على هذه الأقاليم قبل ١٧٩٢. وكذلك احتفظت بحقوقها القديمة في الصين وفي نيوفوندلاند والجزيرة الإنجليزية في أمريكا الشمالية[٣] . وظاهر مما تقدم أن تصرف الحلفاء لم يكن الباعث عليه شيء من العواطف بل كانت النظرة فيه تهدف إلى تهدئة الحال وإقرار السلام حتى تهدأ خواطر الفرنسيين. ولا أدل على ذلك من أنهم تركوا للفرنسيين بعض الأراضي الألمانية التي كانت تسيطر عليها فرنسا عند مطلع أحداث الثورة تجنبا لحقد الفرنسيين على الحلفاء بسبب القرارات القاسية خشية أن يتكتل فريق من الذين لازال يؤيدون نابليون ويقضون على حركة من يريدون مساندة ملكية البوربون التي أعادها الحلفاء إلى فرنسا ممثلة في شخص لويس الثامن عشر (١٨١٤ - ١٨٢٤) الذي تعهد لقاء ذلك الموافقة على قرارات عند صدورها[٤].

ويذكر عمر عبد العزيز أنه بعقد الصلح مع فرنسا في معاهدة باريس الأولى انتهت الحروب التي بدأت في أوروبا في عهد الثورة الفرنسية، ثم استمرت في عهد الإمبراطورية النابليونية وأصبح من الضروري عقد مؤتمر للتباحث في شؤون أوروبا العامة وتسوية المشكلات التي نجمت من هذه الحروب الطويلة. ووقع الاختيار على

---

[٢] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٤٥.

[٣] عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوروبا، (١٨١٥ – ١٩١٩)، الإسكندرية ١٩٩١، ص٣٧.

[٤] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٤٥.

فيينا لتكون مقراً لهذا المؤتمر لأنها مدينة أوروبية عظيمة، وعاصمة لدولة من الدول الكبرى التي انتصرت في الحرب، ولأن حكومتها حكومة الإمبراطورية النمساوية – كانت تمثل كل ما ينطوي عليه معنى المحافظة على التقاليد والقانون والنظام في أوروبا وقتئذ. وهكذا فالمؤتمر لم ينعقد لإبرام الصلح لأن الحرب كانت منتهية فعلا وقانوناً بين فرنسا وبين الدول المتحالفة، وفي استطاعة فرنسا كذلك عند انعقاد المؤتمرات أن تطلب الانضمام إلى الأسرة الدولية. ولم يكن الغرض من عقد المؤتمر إعادة تنظيم شؤون أوروبا على قواعد جديدة، باعتبار أن النظام الأوروبي قد أنهار فعلا من أساسه نتيجة لحروب الثورة ونابليون خلال العشرين سنة الماضية. ولكن الذي حدث أن السياسيين الذين اجتمعوا في هذا المؤتمر اعتقدوا على العكس من ذلك أن النظام القديم بالصورة التي عرفها القرن الثامن عشر، أي احترام السلطات الحكومية وتمجيد التقاليد أو المحافظة على التوازن الدولي، هو خير نظام وجد لبعض الشعوب حرياتها، وليحقق سيادة القانون. وكان الأصل في نشأة هذا المؤتمر أنه جاء في معاهدة باريس الأولى، في مادتها الثانية والثلاثين، أن تتعهد الدول المشتركة وقتئذ في الحرب من كلا الطرفين بإرسال مندوبيها في خلال شهرين إلى فيينا للاجتماع في مؤتمر عام لوضع التسوية التي تضمنتها نصوص هذه المعاهدة على أنه لما كان يحق لفرنسا بحكم هذه المادة، ولأنها كانت في حالة سلم مع الدول بفضل إبرام معاهدة الصلح هذه، وأن تشترك في وضع التسوية المزمعة، فقد أراد الحلفاء أن يحرموها هذا الحق، فأضافوا مادة سرية، اضطرت فرنسا إلى الموافقة عليها، نصت على أن يكون للحلفاء فيما بينهم هم وحدهم فقط الحق في وضع المبادىء والقواعد التي تجرى عليها تسوية الصلح النهائية[٥].

---

[٥] عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا، ص ٣٨،٣٩.

التمهيد لعقد مؤتمر فيينا:

كان الحلفاء قد اتفقوا في معاهدة باريس الأولى على النظر في إعادة تنظيم أوروبا.ولما أثير الحديث بينهم على مكان انعقاد المؤتمر اختلفت الآراء. ولكنهم انتهوا إلى اختيار فيينا مقراً لانعقاده. ولعل الموافقة على اختيار فيينا كان مبعثه إرضاء النمسا بعد الذى أصابها من أضرار وما نزل بها من محن على يد نابليون. وإذا كانت دول أوروبا التى أرهقها نابليون بحروبه قد دعيت كلها إلى المشاركة في هذا المؤتمر، فإن دعوتها كانت في الواقع شكلية لأن الذين قاموا فعلا بأعمال المؤتمر كانوا ممثلى الدول الأربع الكبرى الروسيا وإنجلترا والنمسا وبروسيا.

ولم يجتمع المؤتمر في الموعد الذى حدد له بادىء الأمر وهو أول أغسطس عام ١٨١٤، وإنما تأجل إلى ١٦ سبتمبر لأسباب منها انشغال كاسلريه لحضور جلسات البرلمان في إنجلترا وانتظار عودة كل من قيصر الروسيا وملك بروسيا من رحلتهما إلى إنجلترا ومنذ منتصف سبتمبر بدأ أعضاء المؤتمر يتوافدون على فيينا ومنهم "كاسلرى" Castelereagh وهارد نبرج Hardenberg ونسلرود Nesselordes ومترنيخ Metternich الذى كان يستشفى في بادن كما وصل حكام أوروبا[1].

وكان يستقبلهم إمبراطور النمسا فرانسيس الأول باعتباره مضيفا، واقتضاه ذلك كثيرا من الإنفاق في وقت كانت بلاده أحوج ما تكون إلى المال ولعل اشتراكه في هذا المؤتمر قد وقف عند حد الضيافة فهو لم يكن على حظ من السياسة تبيح له المشاركة الفعالة. فبرزت عن النمسا شخصية "مترنيخ"، وإنما كان ابرز الحكام الذين شاركوا في المؤتمر قيصر "الروسيا" إسكندر أول، وصاحب الكلمة الأولى في التسوية التى انتهى إليها هذا المؤتمر، وكان يعتمد في كل ذلك على

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٢٤٦-٢٤٧.

القدر الذى أسهمت به بلاده فى القضاء على نابليون، والسلطان العظيم الذى كان يتمتع فى بلاده، وجيشه القوى الذى لم يسرح وإنما ظل قائماً على تمام الاستعداد للحرب فى سبيل تحقيق مطامع القيصر. وحالفه الحظ فى انعقاد المؤتمر وإن كان قد ضاق كثيرا بمكانه مترنيخ. كما حسد إنجلترا على نصيبها من قرارات المؤتمر وإن كانت قد بذلت فى سبيله كثيرا من الجهود والتضحيات فى مقاومة نابليون[1].

واقتصر اجتماع المؤتمر فى أول الأمر على أربع دول فقط هى بريطانيا وروسيا، والنمسا وبروسيا، تتألف منها ما يعرف باسم لجنة الأربعة ولقد نجح تاليران عند اجتماع المؤتمر بفضل مهارته السياسية فى أن يجعل الدول توافق على انضمام فرنسا إلى هذه اللجنة التى تحولت إلى لجنة خماسية وكانت لجنة الخمسة هذه هى المؤتمر فعلاً، فاستأثرت وحدها ببحث المشكلات والمسائل الهامة. وباتخاذ القرارات الحاسمة بشأنها. وعندما انتهى مؤتمر فيينا من أعماله انضمت ثلاث دول أخرى هى السويد وأسبانيا والبرتغال إلى الدول الخمس الأولى فى التوقيع على وثيقة أو قرار المؤتمر النهائى Final act فى ٩ يونيو ١٨١٥. وأما ممثلو سائر الدول والإمارات الذين بلغ عددهم فى فيينا المائة تقريبا، فقد اشترك قليلون منهم فى أعمال اللجان الأخرى الفنية ولم يعقد المؤتمر جلسة واحدة رسمية تضم جميع أعضائه سواء عند البدء أو عند الانتهاء منه[2].

أما عن أعمال المؤتمر ومقرراته، كان لابد من وضع خطة عمل لإنجاز أعمال المؤتمر. والواقع أن أعمال المؤتمر كانت فى الغالب عبارة عن مفاوضات سرية تجرى خلف الكواليس بين الدول الكبرى، أما الدول الصغرى فقد كانت مجرد متفرج. ولعل من أبرز القضايا التى أثارت النزاع وطفت على السطح بشكل

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٤٧.

[2] عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا، ص ٤٠.

واضح هى الخلاف الذى نشب بين الدول الكبرى حول مصير بولونيا وساكسونيا. فلقد كانت روسيا تشتهى امتلاك بولونيا، وكانت بروسيا تشتهى امتلاك سكسونيا ولو أن تلك الدولتين تركتا تحلان بأنفسهما حسب مشيئتهما، لاختفت بولونيا وسكسونيا من خريطة أوروبا. بيد أن حلاً كهذا لم يكن تستسغه قط النمسا وفرنسا، فلم تكن الأولى تطيق أن ترى مزاحمتها بروسيا تكبر إلى هذا الحد. وكانت الأخرى تؤمل حيزا كبيرا فى قيام دولة بولونية محررة. ولقد أوصلت هذه المشكلة المؤتمر إلى شفا الحرب. وأخيرا وصل المفاوضون إلى تسوية تنال بروسيا وفقها نحو ثلثى سكسونيا ومقاطعات الراين، وأقيمت فى بولونيا ملكية دستورية تحت حكم قيصر روسيا[٨].

وكانت قاعدة "الحقوق الشرعية" التى نادى بها تاليران هى قوام تسوية مؤتمر فيينا وروحها. فالحقوق المشروعة هى التى أعادت آل بوربون إلى فرنسا، وهى التى أنقذت سكسونيا لآل وفتتر Wettins، وهى التى ثبتت سلطان البيت المالك فى سردينا. ولم يقم أى اعتبار للقومية أو لرغائب السكان. ولهذا السبب كان السواس الذين وضعوا معالم التسوية فى فيينا على نقيض تام، أهدافاً ومبادىء مع مبدعى أوروبا التى تقوم اليوم[٩] وكانت جميع الأمور قد سويت فى الواقع عندما فوجىء العالم بأنباء هروب نابليون من أسره فى ألبا، وفرار لويس الثامن عشر، واستقبال فرنسا من جديد للإمبراطور الذى حكمت بسقوطه بقية أوروبا. ولذلك انزعج المندوبون انزعاجا كبيرا وبادروا يعملون بكل سرعة لإنجاز القرار النهائى الذى وقع بالفعل قبل معركة وترلو بتسعة أيام فقط. وقد تضمن القرار النهائى التسوية التى وضعها السياسيون للمسائل التسع المتفق عليها فى المؤتمر[١٠].

---

[٨] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص١١١.

[٩] نفسه، ص١١١.

[١٠] عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا، ص٤٢.

قامت تسوية فيينا على أساسين هما: توازن القوى Balance of Power والتعويضات Compesation قاعدتا الدبلوماسية الأوروبية فى القرن الثامن عشر. فأعاد السياسيون فرنسا إلى ما كانت عليه (Status quo ante bettum) قبل حروبها الأخيرة كى يعيدوا التوازن الدولى فى أوروبا، ثم أنهم اتبعوا خطة تعويض الدول التى أخذت منها أراضيها إعطائها إلى دولة أخرى، كذلك صار إرجاع الأسر القديمة إلى الحكم فى الدول التى نحى نابليون أصحابها عن عروشهم وضمها إلى فرنسا، ولكن هذا المبدأ الشرعية Legitimism لم يتبع أيضا حذافيره فلم يشأ المؤتمر عودة الأسر الحاكمة التى كان يسوءه رجوعها أو التى أراد توزيع أملاكها فى شكل "تعويضات" تعطى للدول التى تولى المؤتمر التصرف فى أملاكها[11].

أما عن الممالك الألمانية التى أقامها نابليون لم تعد إلى أصلها، وإنما اختصر عددها فى ٣٨ دولة ضمت فى اتحاد ألمانى لضمان سلامة استقلالها وحدودها، بعد أن كانت حوالى ثلاثمائة، ينتظم حكمها تحت إمرة الدايت الألمانى، فيظهرها على مسرح السياسة فى ثوب أمة متحدة.

ويأتى دور الحديث عن النمسا التى توجهت لضمان مكاسب فى إيطاليا بإعادة نفوذها القديم فيها فنالت ولاية البندقية وساحل دلماش الأدرياتى مقابل خسارتها بلجيكا، وأعيد الأمراء القدماء الإيطاليون الذين أبعدهم نابليون إلى إماراتهم ما عدا تلك التى أعطيت إلى النمسا أو سردينيا، وهذه الأخيرة حصلت على نيس وسافوى. كما أعيدت الولايات البابوية إلى الوجود، وأنشئت مملكة نابولى من جديد تحت حكم ملك من سلالة آل بوربون الذى وعد مترنيخ بمعاهدة سرية بعدم منح بلاده دستورا دون الحصول على موافقة النمسا، وعموما فإن الولايات الإيطالية قد أصبحت توابع تسير فى فلك النمسا[11].

---

[11] عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوروبا، ص٤٢، ٤٣.

[11] محمد الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٦٨.

وتحققت بذلك أغراض النمسا، فلم تعد إيطاليا إلا تعبيراً جغرافياً،واصبح على الإيطاليين. فى سبيل تحقيق هدفهم الاسمى فى الوحدة، أن يعملوا على القضاء على نفوذ النمسا من شبه الجزيرة؛ وكان يشملها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. كما أعيدت للنمسا ما فقدته من أملاك اضطرت إلى التنازل عنها لبافار فى معاهدة "برسبورج" Pressburg.

وهكذا خرجت النمسا من تسوية فيينا ظافرة بأكبر قدر من الغنيمة فزاد عدد سكانها نحو أربعة ملايين ونصف مليون نسمة، كما أن سواحلها على بحر الأدرياتيك قد جعلها دولة بحرية تتمتع بأهمية عظمى[١٢].

أما بريطانيا فقد خرجت من الحروب النابليونية بنظام صناعى جديد وإمبراطورية جديدة، وظفرت بمالطة ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وجزيرتى موريتيوس وسيلان، ودافعت عن كندا دفاعاً ناجحاً فى حرب ضد الولايات المتحدة نشبت سنة ١٨١٢، بسبب النزاع معها على حق تفتيش السفن فى عرض البحار. وشرعت تنمى تجارة عظيمة نافقة مع المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا الجنوبية – هذه المستعمرات التى انتهزت فرصة حرب شبه جزيرة إيبريا، فخرجت على الدولتين المستعمرتين لها. وقد اختلف أيضا مركز بريطانيا عن مركز حلفائها فى القارة فى وجود مصالح كبيرة نامية لها خارج أوروبا، وأن نابليون لم يغز قط أرضها[١٣].

ومن نتائج التسوية أن استعادت كل من أسبانيا والبرتغال حدودها القديمة، وأعيد إلى كل منها حاكمها السابق، كما ردت لها مستعمراتها.

---

[١٢] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٥٢.

[١٣] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١١٧.

واحتفظت سويسرا، باستقلالها على أساس الدستور الذى وضعه لها نابليون، وأصبح اتحادها يتكون من ٢٢ ولاية، ولا تزال سويسرا إلى اليوم دولة اتحادية.

أما فى شبه جزيرة إسكندنياوه فنقرر فصل النرويج عن الدانمارك وضمها للسويد تعويضا للأخيرة عن "بوميرانا" التى ضمت إلى بروسيا، ووفاء بالوعد الذى بذل "لبرنادوت" لقاء مساهمته الفعالة فى القضاء على نابليون، وعقاباً للنرويج على صداقتها للأخير[١٤].

أما القسم الثانى من تسوية فيينا فهو الخاص بإحاطة فرنسا بدول قوية تمنعها من الاعتداء على غيرها.

فتقرر ضم بلجيكا إلى هولندا، وكان هذا الإجراء إنما يعمل على تحقيق هدف سعى إليه الساسة المجتمعون فى فيينا، وهو خاص بإحاطة فرنسا على حدودها الشرقية بمجموعة من الدول والولايات الحاجزة يقصد حماية وسط أوروبا وشرقها من الخطر الذى يحتمل أن ينشأ فى المستقبل بسبب قيام ثورات فى فرنسا. وتعمد الحلفاء تقوية هولندا؛ فأعادت إنجلترا إلى تلك الدولة جزيرة "جاوة". وكانت إحدى مستعمرات هولندا، وعلى جانب عظيم من الخيرات والثروة. وساعدتها إنجلترا بقرض قدره مليونان من الجنيهات للانفاق على تقوية حدودها وحمايتها من فرنسا. وقد وصفت هذه السياسة بأنها حكيمة، برغم من عدم نجاحها. قد كانت سياسة فاشلة فعلا لأن البلجيكيين كانوا يكرهون الهولنديين فلم يلبث أن ثاروا عليهم عام ١٨٣٠، وانتهى الأمر بانفصالهم عنهم واستقلال بلجيكا فى عام ١٨٣٩م[١٥].

وتحقيقا لهذا المبدأ كذلك أعيدت مملكة "بيدمنيت" أو سردينيا إلى الأسرة التى كانت تحكمها من قبل وهى "أسرة سافوا" وتعمد الحلفاء تقويتها بضم

---

[١٤] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٥٣.

[١٥] نفسه، ص٢٥٤.

جمهورية جنوة إليها، وكذلك دوقية سافوى بقصد حماية شمال إيطاليا من عدوان فرنسا والمؤثرات الثورية التى قد تنشأ فيها[١٦].

ومن التسويات الهامة التى تمت بمقتضى هذه المعاهدة وضع تنظيم دولى لاستغلال الأنهار الدولية، حتى لا يؤدى تضارب المصالح بين بعض الدول حول الاستفادة من هذه الأنهار إلى قيام نزاع دولى قد يؤدى إلى نشوب حرب كذلك أعلنت الدول الموقعة على إلغاء تجارة العبيد التى اعتبرت منافية للمبادىء المدنية والأخلاق العامة، وقدمت الدول جميعها وعدا بإيقاف تلك التجارة. كما أقر المؤتمر بعض الأمور الخاصة بالتمثيل الدبالوماسى[١٧].

ورغم عيوب تسوية فيينا، فقد نجحت فى تحقيق الغرض المباشر الذى هدفت إليه التى وقعت على معاهدة باريس الأولى فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤، وكانت تريد وقتئذ إقامة نظام حقيقى ودائم للتوازن الدولى فى أوروبا. حقيقة طرأ على النظام شىء من التعديل بانفصال بلجيكا عن هولندا عام ١٨٣١م أو حينما خطت إيطاليا خطوة كبيرة نحو وحدتها فى عامى ١٨٥٩،١٨٦٠، ولكن هذا النظام لم يتصدع وعلى العكس فقد استطاعت تلك التسوية أن أوروبا حرباً أخرى لمدة أربعين عاما وحتى هذه الحرب (حرب القرم ١٨٥٣ – ١٨٥٦) وقعت فى ميادين بعيدة. ولكن التوازن الدولى الذى أوجدته تسوية فيينا قد تصدع فعلا فى عام ١٨٧٠ عندما قامت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا، واستولت الأولى على الألزاس واللورين من فرنسا.وعلى أية حال خضعت التسويات التى أقرها مؤتمر ڤينا بمرور الوقت لضغط شعبى أوتوقراطى وهو أمر لم يكن من المحتمل التنبؤ به أو منعه فى حينه[١٨].

---

[١٦] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٥٤.

[١٧] محمد الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٦٩.

[١٨] عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوروبا، ص ٤٩، ٥٠.

معاهدة باريس الثانية نوفمبر ١٨١٥:

فى ٧ يوليو سنة ١٨١٥ دخل الحلفاء مدينة باريس للمرة الثانية ومعهم الملك لويس الثامن عشر، وفى ٢٠ نوفمبر وقعوا مع فرنسا معاهدة باريس الثانية التى أتت شروطها أشد وأقسى من سابقتها. لقد فرضت المعاهدة الجديدة على فرنسا أن تدفع غرامة حربية تبلغ سبعمائة مليون فرنك ذهب وتعويضات تقدر بأكثر من ثلاثمائة مليون فرنك. ونصت المعاهدة أيضا على ان تقبل فرنسا ولمدة خمس سنوات فى بعض مقاطعاتها جيوش احتلال حليفة تبلغ ١٥٠ ألف جندى تتولى الخزينة الفرنسية دفع نفقاتهم. وأعيدت فرنسا إلى حدودها زمن لويس السادس عشر، ولم يسمح لها بأن تحتفظ من الأراضى التى استولت عليها زمن الثورة إلا بمدينة نيس وبقسم من أراضى السافواى.

وإذا بدت هذه المعاهدة أيضا على شيء من الاعتدال بالنسبة لما كان يجيش فى صدور أعدائها، وبصورة خاصة البروسيين والنمساويين من حقد ورغبة فى إذلال فرنسا وتقطيع أوصالها فإن الفضل فى ذلك يعود لحكومة لندن التى قاومت هذه الرغبات لكى لا تجرح الشعب الفرنسى فيتمرد على ملكة ويعود للثورة والحرب[١٩].

التحالف الرباعى (٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥)

وقد تعهدت الدول المؤلفة له وهى روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا باستمرار العمل على إقصاء بيت بونابرت عن فرنسا، ولكن لم يجمل إذ ذاك فى خاطر ساسة تلك الدول. الذين أنكروا مبدأ القومية، أن يقيموا عصبة أمم. غير أنه نصفى مواد التحالف الرباعى Quadruple Alliance على وجوب اجتماع

---

[١٩] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص ١٣١،١٣٢.

ممثلي الدول المتعاقدة وفي فترات يتفق عليها للبحث في مصالحها المشتركة. وفي الشؤون التي تمس سلام أوروبا وأمنها[٢٠].وقد ترتب على هذا النص وتطبيقه قيام الاتحاد الأوربي The Concert of Europe الذي أخذ يعالج المشاكل التي ظهرت في أوروبا في الفترة التالية.

ولم يكن في الاستطاعة وقتئذ ابتكار أداة خير من هذا التضافر المؤلف من دول أربع عظمى مرتبطة معاً بعهود العمل على صيانة قضية السلام الأوربي. بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى أضحى جليًا أن اتحاد تلك الدول كان اسما أكثر منه حقيقة. فعلى حين كان مترنيخ يبغي جعل التحالف الرباعي أداة فعالة لقمع الحركات الحرة في جميع أرجاء أوروبا. كان كا سلريه يرى أنه ليس جزءاً من واجب الدول الأربع أن تتدخل في الحكم الداخلي للدول.

ولقد كان كاسلريه محافظاً، وكان في أعين الأحرار المثل المتجسد لاستبداد المحافظين، وآلة في يد التحالف المقدس – رغم رفضه الانضمام إليه – وعدو المبادىء الحرة في مشارق الأرض ومغاربها. غير أنه في الواقع، بينما كان يبغي تقوية ألمانيا كي تصبح سداً في وجه كل من فرنسا وروسية ويعرف قيمة التحالف مع النمسا، كدعامة من دعائم المبادىء المحافظة الأوروبية. فإنه لم تكن له رغبة في مشاهدة إنجلترا تجر إلى التدخل في المشحانات الداخلية لدول القارة. إذ مع تمسكه الشديد بالمبادىء المحافظة، كان يعرف جيدا أن مواطنيه لن يسمحوا لأنفسهم بالاشتراك في سياسة مترنيخ المنطوية على الشدة والقمع.

قد أزداد باطراد الخلاف بين وجهة نظر السياسة الإنجليزية التي كانت في صميمها حرة، ووجهة النظر النمساوية التي كانت محافظة غاية التحفظ، إلي أن اخترمت المنون حياة كاسلريه في أغسطس سنة ١٨٢٢، واستلم كاننج خيرزانة الأمور مكانه، وحينئذ ظهر الخلاف بين الدولتين جليا وسافرا[٢١].

---

[٢٠] فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١١٨.

[٢١] فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص١١٨،١١٩.

التحالف المقدس ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥:

أما من وجهة نظر الوضعية الإقليمية فإن الارتباط الوحيد الذى ارتبط به الدول الأربع حيال بعضها كان معارضة كل محاولة يمكن لفرنسا أن تقوم بها من أجل تعديل حدودها. ولكن هذا الارتباط كان يهدف مجرد "مجموعة" ولا يعنى تحالفا حقيقيا: فبسبب الارتباط لم يعرف بوضوح، ولم تحدد القوات الحربية أو البحرية التى كان على كل الدول أن تقدمها، أما بالنسبة لحدود الدول العظمى الأخرى فلم تكن لأى ضمان جماعى. ولا شك أن التحالف المقدس كان يعنى من جانب النمسا والروسيا وبروسيا، الاحترام المتبادل لهذه الحدود؛ ولكنه لم يكن إلا مجرد إعلان نيات، وغير مصحوب بأى وعد محدد فرغم الرغبة فى المحافظة على السلم، وبالتالى فى احترام الوضع الإقليمى القائم فإنها لم تشتمل هى الأخرى على أى نص لضمانه[٣٢].

والواقع أن هذا الحلف قد بنى على آمال وخيالات لا يمكن أن تتحقق. فقد ظهر بالفعل أن قيصر الروسيا – وهو أول نادى به – قد أصدره عن هوى فى نفسه وقدم له بمظاهره الدينية ومزاعمه التصوفية. وتلك أمور تعد فى مقدمه ما تخدع به الجماهير. ولعل مترنيخ كان أشد الساسة إدراكاً لأغراض هذا الحلف حين قال أن القيصر أراد أن يطبق المبادىء المسيحية على ما يجرى فى أوروبا من أمور السياسة، وأعلن أن هذا الحلف لم يكن الغرض منه كبت شعور الجماهير ونشر السلطان المطلق على حياتهم. كما صدق كاسلريه "وزير خارجية بريطانيا حين وصفه بأنه مظهر من المظاهر الزائفة التى يكسوها لباس التصوف البراق، أى أنها فى النهاية أشبه شيء بالطبل الأجوف، وإن كان القيصر صاحب هذه الفكرة قد زعم إنما

---

[٣٢] بيير نوفان، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥ – ١٩١٩) ترجمة جلال يحيى، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٨٠، ص٥٨،٥٩.

قصد بها إلى خلق الضمير السياسي بين حكم أوروبا، راجيا أن يصبحوا أخوة في اتصالاتهم وآباء لشعوبهم. ولم يكشف هذا الحلف إلا عن شيء واحد، وهو أن إنجلترا ترمي إلى هدف معين، ووضح ذلك في المؤتمر الرباعي، بينما كان قيصر ومن معه من دول شرق أوروبا ووسطها، كانوا جميعاً أصحاب شعارات براقة، وقد خلت خططهم من الجدية والواقعية[٣٣].

وبقدر ما كان هناك اختلاف بين الأسس التي قام عليها كل من التحالف المقدس والتحالف الرباعي، فقد كان هناك اختلاف بين وزير خارجية النمسا ووزير خارجية بريطانيا في تفسير الأهداف والالتزامات الخاصة بالتحالف الرباعي. فقد كان رأي كاسلريه أن بريطانيا ملزمة، وفقا لهذا التحالف وبنوده، بحماية الحدود السياسية التي وضعت في مؤتمر فيينا لمدة عشرين سنة. وهي ملزمة أيضا بالاجتماع مع حلفائها في مؤتمرات دورية، ولكنها غير ملزمة بالتدخل في حالة قيام الثورة الداخلية في أي بلد، عدا محاولات إرجاع نابليون، أما مترنيخ فقد فهم التحالف الرباعي على أنه إلزام لأعضاء التحالف بالتدخل المسلح لقمع أية ثورة داخلية وفي أي بلد.وقد كان لهذا الاختلاف أثره في انسحاب بريطانيا من مؤتمرات المتابعة فيما بعد. ولابد من الإشارة إلى أن طبيعة النظام البريطاني هي التي فرضت هذا الموقف، بل إن انضمام بريطانيا إلى التحالف الرباعي قد لقي معارضة شديدة في أوساط الرأي العام البريطاني بسبب الخوف من أن تجر أراء مترنيخ وأفكاره الرجعية بريطانيا إلى التدخل في شؤون قارة أوروبا الداخلية وهو ما لا يريده عامة البريطانيين.

ويأتي بعد ذلك مؤتمرات المتابعة، فقد جاء في المادة السادسة من معاهدة التحالف الرباعي أن "الأطراف السامية المتعاقدة قد اتفقت على استئناف اجتماعاتها

---

[٣٣] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٦١.

فى فترات محدودة سواء بتشريف العواهل أنفسهم أو بحضور وزرائهم بغية التشاور فـى المصالح المشتركة والبحث فـى أفضل السبل لتوفـير طمأنينـة الأمـم ورخائـها والمحافظة على السلم فـى أوروبا" ولقد دفع استقرار الأحـوال فـى فرنسا وقيـام انتفاضات وثورات فـى الدول الأوروبية المتضررة من قرارات مؤتمر فيينا إلى عقد سلسلة من المؤتمرات لمتابعة تطبيق تلك القرارات.

١- مؤتمر إكس لاشـابين Aix – La – Chappelle سبتمبر سنة ١٨١٨:-

كـانت الغاية الأساسية من عقد هـذا المؤتمر بحث مسألة جلاء الجيـوش الأجنبية عن فرنسا والتى كانت موجودة فيها بموجب نصوص معاهدة باريس الثانية. نصت المعاهدة المذكورة عند توقيعها على ضرورة عقد مثل هـذا المؤتمـر. وقـد حضره عن النمسا إمبراطورها يرافقة وزير خارجيته مـترنيخ ومن الروسيا قيصرها، أما بروسيا الدولة المضيفة فقد مثلها ملكها فردريك غليوم الثالث. وتمثلـت إنجلترا بوزير خارجيتها كاسلريه ودون ولنجتون، وحضر عـن فرنسا رئيس وزرائها ريشيليو الصديق الشخصى للقيصر الروسـى. وبالنظر لما أظهرتـه فرنسـا من تقيد بمقررات مؤتمر فيينا ومن ميول سلمية ورغبة فى حفظ التوازن الدولى ولما أيدته أكثر من مرة من تمسك بالنظم التقليدية الملكية فقد وافق مندوبوا إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسـا علـى الجلاء عن الأراضى الفرنسية قبل نهاية شهر نوفمبر سنة ١٨١٨. وبالمقابل تتعهد فرنسا بدفع جميع ما تبقى من تعويضات وغرامات بموجب معاهدة باريس الثانية مـرة واحدة. ويعزى الفضل فى اتخاذ هـذا القرار، رغم تردد إنجلترا تخوفها إلى القيصر الروسى الذى كان شديد الحماس لمساعدة فرنسا من جهة لأنه كان يرغب فـى تحريرها وإدخالها مع الدول على قدم المساواة أملا منه فـى أن تكـون فرنسا حليفا وعونا له فى غرب أوروبا، ومـن جهة ثانية بسبب صداقته المتينة مع ريشيليو رئيس الوزراء الفرنسى، ولا بد من الإشارة هنا أنه بسبب مخاوف إنجلترا مـن تجدد أخطار

الثورة الفرنسية وقعت الدول الكبرى على بروتكول سرى أكدت فيه تمسكها بمبادى التحالف الرباعي ومقررات مؤتمر فيينا[٢٤].

والواقع أنه كان هناك سبب أساسي جعل الدول الكبرى كلها تتساهل ليس فقط بالقبول بمبدأ الجلاء الباكر عن فرنسا، وإنما أيضا بالموافقة على اقتراح القيصر الروسي وقبول فرنسا كدولة مشاركة على قدم المساواة مع الدول الكبرى في المؤتمرات الدورية المقبلة التي صارت بعد ذلك تعرف بالمؤتمرات الخماسية. هذا السبب يتعلق بالوضع الداخلي في فرنسا. فالملك لويس الثامن عشر كان يواجه عن يمينه معارضة قوية من عناصر الملكيين المتطرفين وعن يساره حفظا شديدا من العامة والعمال والمثقفين الذين ظلوا شديدى التعلق بمبادىء الثورة الفرنسية أوفياء لذكرى بونابرت الحافلة بالأمجاد والانتصارات. وكان على الدول الكبرى للمحافظة على الوضع القائم في فرنسا ولتقوية العناصر المعتدلة القابضة على زمام السلطة بزعامة ريشيلو إن تقدم للملك ولنظامه كل عون ممكن وكل مساعده مفيدة.

وفي جلسات المؤتمر أثار القيصر الروسي مسألة دعوات التعبير الدستورى التي تظهر هنا وهناك، والأفكار الثورية التي تطلق تارة في إيطاليا وطورا آخر في ألمانيا أو أسبانيا، ورغب في أن يجر المؤتمرين إلى إقرار مبدأ التدخل في شؤون البلدان الأخرى الداخلية كلما بدا ذلك ضروريا. وكان أشد المتحمسين للاقتراح المذكور مترنيخ وزير خارجية النمسا الذي وجد فيه صورة حية لآرائه وأفكاره السياسية، ثم لكون إقرار مثل هذا المبدأ يطلق يده بصورة نهائية للقضاء على معارضة قد ترتفع بوجه العرش النمساوي في إيطاليا وفي ألمانيا[٢٥].

---

[٢٤] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ١٥٧،١٥٨.

[٢٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١٥٨،١٥٩.

عارض الإنجليز بشدة مثل هذا الاقتراح لأنهم وجدوا فيه دعوة لا مبرر لها للتدخل في شؤون الدول الصغرى وهو أمر قد يجر من جهة إلى مشاكل دولية شديدة التعقيد في شئون الدول الصغرى لا تريد إنجلترا أن تتورط فيها ومن جهة أخرى قد يهدد التوازن الدولي في القارة وهو المبدأ الذى اعتبرته إنجلترا منذ توقيع مؤتمر فيينا حجر الرحى في سياستها الخارجية.وقد عرفنا منذ البداية وزير الخارجية البريطاني كاسلريه يوقع التحالف الرباعى وسط معارضة شديدة من الرأى العام البريطاني ومن أوساط المثقفين الإنجليز اللذين كانوا يأخذون على التحالف المذكور رجعيته وعدائه للحرية والديمقراطية التى يحترمونها ويجلونها في بلدهم، كما في بلدان الآخرين. وبقى المبرر الوحيد الذى جعل الحكومة الإنجليزية توافق بعد تردد على قبول التحالف الرباعى وتوقيعه هو الخوف من تجدد الثورة الفرنسية وإبعاث الروح التوسعية فيها. فالإنجليز كانوا يرون في المؤتمرات أداة رئيسية لكبح جماح فرنسا ولجعلها تقبل بحدودها الجديدة إلى أبعد وقت ممكن أما بالنسبة لأوروبا فلم يكن الإنجليز يبغون سوى المحافظة على الحدود الدولية، كما أقرها مؤتمر فيينا، في خطوطها الرئيسية.

وقد ظهر واضحا في مؤتمر إكس لا شابيل الاختلاف الكبير بين نظرة كل من الروس والنمساويين من ناحية والإنجليز من ناحية أخرى إلى أهداف التحالف الرباعي وأبعاده. ولعل مما كان يزيد في معارضة الإنجليز لمبدأ التدخل في شؤون الدول الأخرى معرفتهم ما يضمره الروس من نوايا توسعية واستعمارية تجاه البلقان والبحر الأسود والمضايق، وكذلك ما يتمناه النمساويون من تشديد قبضتهم وزيادة نفوذهم في كل من إيطاليا وألمانيا[٣٦].

---

[٣٦] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١٥٩.

انتصرت وجهة النظر الإنجليزية وصدر عن المؤتمرين فى نهاية الاجتماعات بيان حددت فيه الحالات التى تستطيع فيه دول التحالف الرباعى - الذى صار منذ ذلك الوقت خماسيا التدخل فى شئون الدول الأخرى. لقد اشترط البيان المذكور لاجتماع الدول الكبرى من أجل بحث قضية دولة أخرى أن تطلب هذه الدولة وبصورة رسمية وشرعية عقد مثل هذا الاجتماع وأن ترسل ممثلين عنها يشاركون فى أعمال المؤتمر. لقد جاء هذا التحديد لحق التدخل مطابقا لوجهة النظر البريطانية إلى حد كبير وفعلا لقدرة ورغبة الروس والنمساويين فى التدخل فى شئون أوروبا الداخلية[٢٧].

مؤتمر كارلسباد سنة ١٨١٩:-

كان القصد من الاتحاد الألمانى الذى أنشأته الدول الكبرى فى سنة ١٨١٥ هو تسليم ألمانيا للنمسا وبروسيا تنفذان فيها مشيئها. وسرعان ما أمسك مترنيخ بزمام القيادة فى يديه. كانت أهدافه واقعية فى بساطة وقوة. وأن أخفاها بكثير من الحذق تحت ستار من العبارات الطنانة. وقد اعتقد أن أول ما ينبغى عمله سحق الروح التحررية والدستورية والبرلمانية فى ألمانيا. أما بروسيا فكانت على كل حال دولة عسكرية. (كان كانتج يسميها "جنديا من الرأس إلى أخمص القدم لا يفهم من السياسة إلا دق الطبول وسوط الجندية) فحتم على بروسيا إذن أن تسير فى ركاب النمسا طالما انتهجت الأخيرة هذه السياسة الرجعية. ومن هنا جاءت ثقة مترنيخ فى أنه سيكسب امتنانها وتأييدها بالغت فى عضد التجارب الدستورية الراهنة التى قام بها حكام بافاريا وفرتمبرج وساكس - فايمر .....الخ. وقد أثبتت الأيام أن نجاحه فى ذلك كان كاملا[٢٨].

---

[٢٧] نفسه، ص١٥٩.

[٢٨] جرانت، تميرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ج١، ص٢٩٧.

لقد أسفر اجتماع الدول الألمانية في كارلسباد سنة ١٨١٩، عن التصديق على مراسيم مترنيخ. فرفض بالإجماع على التعليمات الخاصة بالتحكم في الصحافة وإرهاب الجامعات وكبت حرية الرأي في شتى أنحاد ألمانيا. وبذلك أصبح مترنيخ يملك إدارة بوليسية قوية يستخدمها دون رحمة أو هوادة. وقد وفق تماما لفترة من الزمن، فإن الثورات التي نشبت في أنحاء أوروبا خلال عامي ١٨٢٠ - ١٨٢١ لم تمس ألمانيا حيث طفقت يد مترنيخ الحديدية تبث الرعب في قلوب الأحرار. وقد نشأت بعض القلاقل في بعض الدول الألمانية على أثر الموجة الثورية التي قامت في أوروبا في سنة ١٨٣٠. غير أنه لا شك في أن هذه الموجة كانت ستزيد من القلاقل لولا مترنيخ. على أن سلطانه بدأ ينكمش منذ ذلك التاريخ. لم يكن لديه ما يقدمه لألمانيا الفتية سوى قمع الإرهاب والحكم البوليسي، وكان عهده قاحلا عقيماً خلوا من الإبداع. لقد كان من المحال أن يظل المد الصاعد في ألمانيا حبيس ذلك السد الضيق[٢٩].

- مؤتمر تروباو Tropeau عام ١٨٢٠:

كان القيصر على استعداد لاتخاذ إجراءات العنف إزاء ثورة أسبانيا سنة ١٨٢٠، فاقترح أن يعقد مؤتمر في باريس لمناقشة الحالة ،وأعلن استعداده لإرسال جيش باسم أوروبا لقمع هذه الثورة.كما اقترح إعادة تشكيل لجنة وزراء الدول المتحالفة في باريس لمراقبة الأمور التي تجري في فرنسا. وقاوم كل من كاسلريه ومترنيخ الاقتراح الأخير بشدة، إذ أن ذلك يعتبر خرقاً للتعهدات التي قدمتها الدول لفرنسا في إكس لاشابل منذ عامين، كما أنه يثير نفوس الشعب الفرنسي. ولم يوافق كاسلريه ومترنيخ على عقد المؤتمر في باريس. أما النمسا فلم تتأثر كثيرا

---

[٢٩] جرانت، تمبرلي، تاريخ أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠، ج١، ص ٢٩٨.

بالاضطرابات الواقعة فى أسبانيا. وإن موافقة الدول على اقتراح القيصر بشأن مرور جيش روسى بأراضيهم لقمع الثورة فى أسبانيا فيه تعريض لأمن بلادهم للخطر.

لم تلبث فى يوليه من نفس العام أن وقعت ثورة عسكرية أخرى فى نابولى، واضطر ملكها فرديناند إلى قبول الدستور الأسبانى الذى صدر عام ١٨١٢. وكان لهذا الحادث أهمية عظمى وخطورة كبرى بالنسبة لتعرُّض نظام مترنيخ يتخذ موقفا جديدا، وساعدته هذه الثورة على أن تنفرد النمسا بتقرير سياسة الدول المتحالفة والعمل على توجهيها. ففى رأيه أن مسألة أسبانيا ليست ملحة مثل مسألة نابولى يستند إلى أساس واضح، أوضح بكثير من حق أى دولة أخرى للتدخل فى أسبانيا. وقد وافقت الحكومة البريطانية على مبدأ أحقية النمسا فى التدخل بمقتضى المعاهدة المبرمة بين النمسا ونابولى لأن التغيير فى حكم نابولى يعتبر خطراً محققا على نفوذ النمسا فى إيطاليا. كان موقف الروسيا مشكوكا فيه، إذ أعلن أحرار نابولى أنهم قد حصلوا على التأييد الأوروبى من قيصر الروسيا، ومن ثم كان يتحتم على النمسا أن تقضى على اعتقاد الإيطاليين الأحرار بأن استطاعتهم أن يعتمدوا على تأييد الروسيا وحمايتها[٣٠].

وعندما طلب إمبراطور النمسا مقابلة القيصر فى النظر فى هذه المسألة رفض الأخير أن يكون جانباً فى مثل هذا الاتفاق المنفصل،إذ لم يكن من رأيه النظر فى اضطرابات نابولى قبل النظر فى اضطرابات أسبانيا. وأعلن على لسان ممثله فى النمسا أن الروسيا لن تعترف بشىء إلا فى مؤتمر يضم الدول المتحالفة، أى أن القيصر لن يرضى إلا بمؤتمر على نمط إكس لاشابل فى عام ١٨١٨. وكتب دوق ريشيليو من فرنسا مؤيداً رأى القيصر، مؤكداً أن الاضطرابات التى ظهرت فى أسبانيا وإيطاليا لن تلبث عدواها أن تسرى إلى بقاع أخرى من أوروبا. وكانت فرنسا تخفى

---

[٣٠] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

حقيقة أطماعها، وتود أن تنجح فى السعى إلى دول أوروبا لتشارك معها فى المؤتمر المقترح إنشاؤه لمعالجة مشاكل أسبانيا ونابولى. وسعى مترنيخ منفردا فى تجنب عقد مؤتمر فى هذا الشأن خشية أن ينجح أعضاء المؤتمر فى الاقتناع بالنظر فى مشاكل أسبانيا أولا. واجتهد فى الحصول على الدول إياه فى البدء فى حل مشكلة نابولى، واقتضاه هذا المسعى أن يطلب إلى تلك الدول رفض الاعتراف بالحكومة الثورية فى نابولى، واعتبار جميع ما أصدرت من أحكام ونظم لاغية لا أثر لها، وتبليغ ممثليهم فى نابولى بأن النمسا صاحبة حق هذا التدخل[٣١].

وقد رفض كاسلريه الموافقة على ذلك. وأعلن أن بلاده لن تدخل فى مسألة نابولى الداخلية، كما أنها لن تساعد الآخرين على هذا التدخل. ولكنها على استعداد لأن تقف جانبا وتترك النمسا تعمل إذا كانت تشعر بأنها فى خطر. وهناك تبين للنمسا أن عقد مؤتمر من الدول المتحالفة يفتح لها باب العمل ويسندها فى محاولة إرجاع الأوضاع إلى أصلها فى نابولى، لأن اجتماع المؤتمر مظهر من مظاهر تأييدها فيما تريد أن تعمل. واقترح مترنيخ اجتماع المؤتمر فى ترباو Troppou فى سيلزيا بألمانيا لتوضيح المبادىء التى على أساسها يحق للدول المتحالفة أن تتدخل فى مسألة نابولى، ثم تتقدم النمسا بعد ذلك لتطبيقها . بدأ مترنيخ بتفسير الثورات فذكر "أن الثورة تكون شرعية إذا كانت السلطة الحاكمة أى العليا هى التى قامت بها، ولكنها لن تكون كذلك عندما يقوم بها الشعب". وفى الحالة لا يحق أن تتدخل، أما فى الحالة الثانية فيقتضى الأمر فيها تدخلا عاجلا". وكان رد كاسلريه على رأى مترنيخ على جانب عظيم من الأهمية موضحا للسياسة التى ينبغى أن تسلكها إنجلترا من مؤتمر "ترباو" إلى مؤتمر عقد فيما بعد فى فيرونا Verona إزاء تلك المشاكل التى ترى النمسا حلها. فبين أن توسيع نطاق المحالفة وجعلها تنصب على

---

[٣١] زينب راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٧٠.

أعمال الحاضر والمستقبل فيه تغيير لطابعها وخصائصها، وذلك أمر يمنع إنجلترا من المشاركة فيها. وكان ذلك الرأى صدمة لمترنيخ الذى كان يعتمد على تأييد إنجلترا بقدر ما كان يخشى اتجاهات الروسيا[٣٢].

فوجىء فيه مترنيخ بما لم يكن يتوقع وهو أن القيصر قد تغيير تماما، فأصبح يرى ما يطمئنه بعد تخلى إنجلترا عن معونته، وزاد من سروره بهذه المفاجئة ما سمع من القيصر الذى اعترف بندمه على سلوك سياسة تبين له عدم جدواها، فهو يرى الآن أن مترنيخ كان أبعد نظرا مما قدر له، وزاد القيصر فى إكرامه حينما وعده بمعاونته فى كل ما يقدم عليه من عمله، وزاد اطمئنانا أن بروسيا تقف هى الأخرى بجانبه. والتقى الحلفاء الثلاثة النمسا والروسيا وبروسيا فى "تروباو" دون انتظار حضور ممثلى إنجلترا وفرنسا.

وفى هذا اللقاء استطاع ثلاثتهم فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٢٠ الاتفاق على ما يأتى "الدول التى تغير نظام حكمها نتيجة الثورة، وبات نظامها الجديد مهددا لغيرها يجب عليها أن تنسحب من التحالف الأوروبى، وتظل بعيدة عنه إلى أن تتقدم بضمانات تكفل الحرص على الهدوء واستقرار الأمور بها. وتعهدوا بإعادة النظام فى الدول التى أصابها خطر غيرها من الدول الخارجية التى تغير فيها نظام الحكم بسبب ثورى، ووعدوا باستخدام السلاح فى تنفيذ ما يرونه إذا لم ينجحوا بالطرق السلمية حتى يعيدوا الدول الخارجية إلى حظيرة الحلف الأوروبى".

بدأ التصدع فى التحالف يظهر بوضوح فى هذا المؤتمر عندما لم توافق الدولتان الأخريان فرنسا وإنجلترا على ذلك الاتفاق.وانتهى هذا المؤتمر دون أن يصل إلى أى حل أو قرار فيما يتعلق بالمسألة الإيطالية وأعلن كاسلريه فى البرلمان الإنجليزى أن اتفاق (بروتوكول ترباو) يعوزه الإدراك السليم[٣٣].

---

[٣٢] زينب عصمت، المرجع السابق، ص٢٧٠.

[٣٣] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص ٢٧٠-٢٧١.

مؤتمر ليباخ Laibachفى ١٢ يناير سنة ١٨٢١:

تأجل مؤتمر ترباو من غير الوصول إلى قرار بشأن المسألة الإيطالية على أن يجتمع فى يناير عام ١٨٢١ فى مدينة ليباخ. على أن يدعو لحضوره فرديناند الأول ملك نابولى لأن الدول الثلاث رفضت المفاوضة مع حكومة ثورية. وانعقد المؤتمر فيما بين ٨ يناير و١٢ مارس وحضره إمبراطور النمسا وقيصر روسيا ومترنيخ وفرديناند الأول ملك نابولى. وقرر المؤتمر أو بمعنى أصح أعضاء الحلف المقدس (النمسا وروسيا وبروسيا) إلغاء دستور نابولى، ثم عهد ثلاثتهم إلى النمسا بمهمة تنفيذ هذا الإلغاء بالقوة العسكرية. ولذلك أرسلت النمسا جيشا إلى نابولى أخمد الثورة الدستورية وأعاد إلى فرديناند سلطاته الاستبدادية وقبل أن يختتم المؤتمر أعماله استنجد به ملك سردينيا ضد رعاياه الثائرين فأرسلت النمسا الجيش الذى جمعته فى لمباردیا لهذه الغاية دائما لإخماد الثورة فى بيدمنت، وأعيد بفضل هذا الجيش النظام القديم فى سردينيا.

وفى مايو انفض المؤتمر بعد أن أعد منشورا جاء فيه أن الهدف من التحالف الأوروبى إنما هو تأييد المعاهدات القائمة والمحافظة على السلام العام وتحقيق سعادة الأمم وأن التغييرات النافعة والضرورية من الناحيتين التشريعية والإدارية، والتى تحدث داخل الدولة يجب أن تأتى من جانب أولئك الذين أعطاهم "الله" مسؤولية الحكم فى هذه الدول، وهكذا فإن المؤتمر لم يقنع بتأييد مبدأ التدخل Intervention الذى أسفر عنه مؤتمر ترباو، بل عمل على إرجاع النظام القديم بحذافيره، مع أساسى الاعتراف من جديد بالحق الإلهى المقدس للملوك فى الحكم. وقد أدت تلك القرارات إلى اتساع شقة الخلاف بين دول الحلف المقدس (روسيا والنمسا وبروسيا) وبين إنجلترا بالذات مما عجل فى نهاية

الأمر بفشل نظام الاتحاد الأوروبي. فلقد أعلنت الحكومة الإنجليزية استنكارها لما حدث وعدم اعترافها به وتنصلها من تبعاته بما سبق أن أعلنته من قبل[٣٤].

وأثناء انعقاد المؤتمر في لبياخ قام اليونان بالثورة ضد الحكم العثماني، وكانت روسيا ترغب في نجاح الثورة اليونانية. ولم يكن للدوافع الاقتصادية. إلا دوراً ثانويا في توجيه هذه السياسة. ولكن كان من الضروري من ناحية أخرى، أن يكون هذا الحل مطابقا للمصالح السياسية للإمبراطورية الروسية، وكان انتصار اليونانيين يخدم هذه المصالح، ما دامت روسيا ستصبح المستفيد الرئيسي من تفكك الإمبراطورية العثمانية[٣٥].

وكانت الإمكانيات خطيرة بالنسبة للنمسا، التي لم تكن تقدر على التخلي على البلقان للنفوذ الروسي.وكانت متعلقة كذلك بالنسبة إلى بريطانيا العظمى، التي خشيت أن يتزعزع سريعا تفوقها في البحر المتوسط والتي كانت تخشى من تغلغل روسي في مناطق الشرق الأدنى، وبالتالي من تهديد أمن الهند. ومع ذلك فقد كان في وسع بريطانيا العظمى أن تتعود على إضعاف الإمبراطورية العثمانية، إذا ما تمكنت من تضمن نفوذا مسيطرا على اليونان المستقلة. ولذلك فإن المصالح الإنجليزية لم تكن تتفق في كل النقط مع مصالح النمسا[٣٦] أضف إلى هذا أن الثوار في أسبانيا استطاعوا أن ينزعوا من الملك فرديناند السابع دستوراً أقيمت بفضله الحكومة الدستورية في مدريد، وهذا بينما كانت الثورة مشتعلة في مستعمرات أسبانيا في أمريكا الجنوبية، فأعلنت الأرجنتين استقلالها منذ ٩ يوليو١٨١٦، وأعلنت ديكتاتورية أخرى في فنزويلا على يد سمون بولفار منذ عام ١٨١٣، وبعد ذلك

---

[٣٤] عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوروبا، ص ٧٧، ٧٨.

[٣٥] بير نوفان، تاريخ العلاقات الدولية، القرن التاسع عشر، ص١١٤،١١٥.

[٣٦] بيرنوفان، العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر، ص١١٥.

بعامين تحررت بيرو وفى مايو ١٨٢٢ أعلنت المكسيك استقلالها. وفى هذا الشهر أيضا أعلن بدرو Pedro نفسه إمبراطورا مستقلا فى البرازيل. وإزاء انتشار الثورة فى العالمين القديم والجديد والتفكير فى التدخل العسكرى فى هذين العالمين القديم والجديد والتفكير فى التدخل العسكرية فى هذين العالمين من أجل إخماد الثورة بها، انعقد مؤتمر فيرونا فى منتصف أكتوبر عام ١٨٢٢م[٣٧].

مؤتمر فيرونا Verona أكتوبر ١٨٢٢:-

لما قامت الثورة فى اليونان ضد الحكم العثمانى، وتضاربت المصالح والأهواء، فقد اجتمع مترنيخ وكاسلريه فى هانوفر قبيل نهاية ١٨٢١ وسويا خلافاتهما واتفقا على دعوة مؤتمر آخر كانا يأملان أن يحولا بوساطته دون اتخاذ إسكندر قيصر الروسيا أى إجراء ضد الدولة العثمانية.

وقد حدد خريف ١٨٢٢ موعدا للمؤتمر. ولكن حادثين وقعا قبل أن يلتئم شمله. أولهما أن القلاقل فى أسبانيا بلغت فى يوليو درجة من الخطورة حفزت فرنسا إلى الحديث عن التدخل هناك، وثانيها أن كاسلريه قد انتحر فى أغسطس بعد اختلال قواه العقلية. وإذا كان قد بدى فى سنواته الأخيرة بعض الاعتراضات على نظام المؤتمرات نفسه. فقد خلفه كاننج الذى جاء على يد القضاء على هذا النظام.

وسرعان ما شغل المؤتمر الذى انعقد فى فيرونا بأمر أسبانيا بدلا من اليونان. فقد سألت فرنسا الحلفاء فى بداية المؤتمر عما إذا كانوا سيؤيدونها فى غزو أسبانيا، فارسل كاننج، الذى كان ينظر إلى تلك المؤتمرات نظرة ملؤها الشك والريبة. تعليماته بألا تشترك إنجلترا فى أى مشروع للتدخل. بالقوة أو بالتهديد "مهما تكن العاقبة" وأفضى ولنجتون بهذه التعليمات إلى المؤتمر فى ٣٠ أكتوبر ١٨٢٣، فكان لها

---

[٣٧] عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا، ص٧٩.

دوى القنبلة، وحالت دون تدخل الحلف ككل، تدخلا عسكريا فى أسبانيا، وأن تدخلت فرنسا بصورة مفردة[٣٨].

لقد أضر موقف كاننج فى ١٨٢٢ بـ" التضامن المعنوى" لأوروبا وبنظام المؤتمرات. ولكن هذا النظام لم يختف من الوجود على التو.ففى ديسمبر سنة ١٨٢٣ دعا ملك أسبانيا الذى أعيد إلى عرشه الحلفاء إلى عقد مؤتمر لبحث شئون أمريكا الأسبانية. وكم كانت دهشة أوروبا حين منع كاننج ببساطة عن إرسال مندوب عن حكومته (٣٠ يناير ١٨٢٤) فكانت النتيجة أن فشل المؤتمر. وقد حاول إسكندر بعد ذلك أن يدعو فى غضون ١٨٢٤ مؤتمرا لبحث الدولة العثمانية واليونان. ولكن كاننج رفض فى النهاية حضور هذا المؤتمر نيابة عن إنجلترا فى نوفمبر ١٨٢٤. فاجتمعت الدول الأربع العظمى الأخرى رغم ذلك بسان بطرسبرج فى يناير ١٨٢٥، وإن يكن مؤتمرها قد انفض فى مايو دون الإتفاق على شىء بعد أن دب بينهما الخلاف وسوء التفاهم، فكانت تلك، فى الحقيقة والواقع نهاية نظام المؤتمرات.

وكانت اعتراضات كاننج على ذلك النظام الذى كان يرمى إلى إقامة حكومة دولية. قال إن عقد المؤتمرات شىء مناسب جدا لوضع معاهدة. فالشعب الإنجليزى أولا لا يروق له أن يرى مندوبه الذى يمثل دولة برلمانية، يتفاوض نسرا مع دول استبدادية، ثم إن لإنجلترا صوتا واحد، وقد يتغلب عليها الآخرون بأصواتهم. ونظام المؤتمرات ثانيا يتجه إلى إقامة نظام للتدخل العام بالقوة فى الشئون الداخلية لمختلف البلاد، ومثل هذا النظام لابد أن تعارضه إنجلترا تمشيا مع طبيعة حكومتها. وثالثا أن الدول الصغرى ليست ممثلة فى هذه المؤتمرات فحقوقها عرضة للإغفال أو الضياع ولم يكن كاننج ليمانع فى عقد مؤتمر يقتصر على سياسة "التضامن المعنوى" ويضع رغبات الدول الصغرى موضع الاعتبار وينبذ استخدام القوة. ولكن

---

[٣٨] جرانت، تميرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ط١، ص٢٢٢، ٢٢٣.

نظام المؤتمرات على الصورة التى تطور بها حتى عام ١٨٢٢، كان بعيدا عن ذلك كل البعد فرأى كاننج من الأفضل أن تعارضه إنجلترا كلية، وقد وفق فى هذه المعارضة توفيقا تاما. إذ لم يعد لنظام المؤتمر أى اعتبار من ١٨٢٥ فصاعدا. وحدد كاننج السياسة التى تنتهجها أوروبا بالآتى كل أمة ترعى مصلحتها والله يرعانا جميعا"[٣٩].

مبـــدأ مـــونــــــرو ١٨٢٣.

إن دراسة مبدأ مونرو تتطلب العودة إلى حركات الاستقلال فى قارة أمريكا الجنوبية، ويرجع ذلك إلى أيام نابليون لأسبانيا حينما أعلنت المستعمرات الأسبانية فى أمريكا الجنوبية تمسكها بولائها للملك الشرعى فرديناند السابع، ورفضها الخضوع لحكومة مدريد التى أقامها الحكم العسكرى الفرنسى. لذلك قامت فى الأرجنتين والشيلى والبيرو وكولومبيا وفنزويلا حكومات محلية مارست السلطة باسم الملك الأسبانى والمعزول ونيابة عنه، ثم أخذت مستعمرة تلو الأخرى ترفع عن عنقها نير سيدتها الأوروبية، فحرر كشرين بيرو ثم البرازيل. وأعلن بوليفار استقلال كولومبيا، وأعلن إتربيد Iturbide استقلال المكسيك. وأضحى جلياً واضحا قيام إمبراطورية تجارية جديدة تقدم فرصاً للمغامرين البريطانيين السعيدى الطالع. فرفع تجار مدينة لندن نداء يطالبون فيه الحكومة البريطانية بوجوب تنظيمها هذه التجارة النامية وتأمينها بالاعتراف رسميا بالمستعمرات الثائرة.

وكان السياسى الإنجليزى الذى قُسم له أن يعالج هذه المشكلة هو جورج كاننج (١٧٧٠ – ١٨٢٧)، فمع أنه كان وزيرا فى حكومة إنجليزية محافظة، وخصما لايلين للإصلاح البرلمانى، إلا أنه كان فى السياسة الخارجية رائداً من رواد ذلك اللون الجديد من الدبلوماسية الحرة الشعبية التى واصل إتباعها بعده بالمرستون

---

[٣٩] جرانت تمبرلى، المرجع السابق، ج١، ص٢٩٤.

Palmerstone أحد تلاميذه العظيمى الإعجاب به. وصارت تلك لدبلوماسية مدى قرابة نصف قرن شوكة فى جنب ملوك أوروبا وحكامها الأوتوقراطيين[٤٠].

ولم يكن من سياسة كاننج أن يؤيد نظاما جماعيا لإقرار النظام فى الأقطار الأجنبية. فمع أن النمسا بموافقة روسيا وبروسيا، أثرت أن تخمد الفتن والثورات التى نشبت فى نابلى، فقد كان هذا فى نظره هو شأنها الخاص بها وحدها. ومع أن فرنسا أنفذت جيشا إلى أسبانيا للقضاء على فتنة عسكرية أجبرت ملكا مستبدا خاضعا لنفوذ الأكليروس على منح دستور لبلاده سنة ١٨٢٣، فهذا أيضا لم يكن فى رأيه بالأمر الذى يتطلب موافقة إنجلترا وتأييدها. بل على النقيض من ذلك، نظرت لندن إلى الغزو الفرنسى نظرة قلق شديد. إذا ماذا تعمل لو أن الجيش الفرنسى بعد قمعه هذه الفتنة، ظل معسكرا فى أسبانيا؟ وما العمل إذا غزا البرتغال، حليفة إنجلترا وما العمل أيضا لو أنه أعان أسبانيا على استرجاع جزر الهند الغربية؟ غير أن كاننج وطن عزمه على منع احتمالات مزعجة كهذه. ولهذا السبب اعترف بالثوار الأمريكيين الجنوبيين، رغم استياء عواهل أوروبا الأوتوقراطيين واستنكارهم الشديد.

ومع عظم الضجة والدهشة اللتين نجمتا عن هذا الاعتراف الخطير الشأن، فإن الضجة والدهشة كانتا تغدوان أعظم، لو أنه اعترف بمركز المستعمرات الأمريكية الجنوبية بإصدار إعلان مشترك من لندن وواشنجتن، كما اقترح كاننج، بيد أن الولايات المتحدة بمشورة جون كوينسى أدمز John Quiency Adams وزير خارجيتها صممت على أن تصدر تصريحا خاصا. فأعلن الرئيس مونروه Monoro فى رسالة شهيرة إلى الكونجرس مبدأه الشهير الخاص بأن أمريكا للأمريكيين، وأذاع إنذارا خطيرا إلى العالم القديم بان الولايات المتحدة لن تطيق استعمارا أوروبيا جديدا لأية بقعة من بقاع أمريكا. ولقد سبق مبدأ مونرو تصريح كاننج. ولكن الذى

---

[٤٠] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٢٣، ١٢٤.

وفى قارة أمريكا الجنوبية إبان الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر من أى هجوم أوروبى عليها، هو سطوة أسطول ملك بريطانيا وقوته، أكثر من الأمنية الجليلة التى فاه رئيس الجمهورية الامريكية"[41].

[41] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٢٣، ١٢٤.

الفصل الخامس

ثـــورة عام ١٨٣٠ ونتائجها

ثورة عام ١٨٣٠

١-الانقلاب الصناعي:

بعد موقعة ووترلو بخمس سنين، كتب هجل Hegel أحد جهابذة الفلاسفة الألمان عن الإنجليز يقول "إن حياة الإنجليز المادية تقوم على التجارة والصناعة. وقد أخذ الإنجليز على عاتقهم عبء نقل الحضارة إلى العالم. فإن روحهم التجارية تحفزهم على الطواف في كل بحر، والتنقل في كل مكان، وإنشاء صلات وروابط مع الشعوب المتبربرة، وخلق الحاجات وإنعاش دولاب الأعمال، وتهيئة الأحوال الضرورية فيما بينهم – أولا وقبل كل شيء – لقيام التجارة. وهذه الأحوال هي نبذ حياة العنف غير المشروع، واحترام الملكية، واتباع آداب اللياقة والسلوك مع الغرباء".

فلم يبد الإنجليز إذن أمام الأجانب كأسياد إمبراطورية، كما أنهم لم ينظروا إلى أنفسهم بهذه العين، بل ظهروا بالأحرى بمظهر تجار عالميين، يبيعون السلع التي أنتجتها لهم حديثا التحسينات الميكانيكية ووفرة المنابع المعدنية وقرة واسعة النطاق في بلادهم، ويجلبون بدلا منها منتجات كل قطر من أقطار البسيطة. فمع أن استراليا كانت قد كشفت وامتلكت ومع أن كندا كان قد دوفع عنها بنجاح في حرب قصيرة مع الولايات المتحدة، ومع أن سيلان ورأس الرجاء الصالح ومالطة قد أضيفت إلى ممتلكات الملك جورج وراء البحار، ومع أن النظام الاستعماري العتيق القاضي يمنح أفضلية للتجارة بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها، قد عمّر بعد ثورة المستعمرات الأمريكية الناجحة، إلا أنه لم يكن ثمة ما هو أبعد إلى أفكار الإنجليز في ذلك الحين من حصر تجارتهم مع الممتلكات البريطانية. فقد كانت أسواق أوروبا الغنية قريبة الشقة من بلادهم، وقدمت أمريكا الجنوبية بعد تحريرها من ربقة

أسبانيا والبرتغال فرصاً واسعة المدى للتجارة الإنجليزية. وكان فحم وحديد ومنسوجات إنجلترا لازمة لسد حوائج القارة الأوروبية. كما أنه من مبادلة السلع المصنوعة الإنجليزية بالمواد الخام التى تنتجها أقطار قاصية، نشأ تطور للتجارة الدولية لم يشاهد التاريخ قط مثيلا له من قبل.

وكانت إحدى خصائص القرن التاسع عشر، أنه شاعت أثناءه فى ربوع أوروبا والعالم الخارجي، تلك الاختراعات الآلية وذلك اللون من الحضارة الصناعية التى طلعت وتطورت أولا عند الدول الإنجلو سكسونية. ففى عام ١٨١٩ عبرت أول سفينة تجارية المحيط الأطلنطى، وشاهد العقد التالى افتتاح السكك الحديدية فى البلجيك وفرنسا وألمانيا، وفى سنى الأربعين عمم التلغراف أوروبا طولاً وعرضاً، نتيجة لاختراع مورس Morse المخترع الأمريكى. وجاءت سنو الخمسين بالتلغراف الممتدة أسلاكه تحت سطح الماء. وتقدم فى سنى الستين مدخطوطه عبر الأوقيانوسات. ورأت سنو السبعين تكوين الاتحاد البريد الدولي، وتطور تجارة الحبوب الدولية، هذا التطور الذى جعل محصولات العالم الجديد فى متناول سكان العالم القديم.

وإمتازت العقود الختامية للقرن التاسع عشر، بنماء حجم المدن فى جميع أنحاء أوروبا الغربية. وبدت هذه الظاهرة على الأخص فى ألمانيا، تلك البلاد التى كان يمكن وصفها حتى سنة ١٨٧١ حين أسست الإمبراطورية بأنها قطر تتألف غالبية أهله من فلاحين أحرار مالكين لأرضهم، وسادة من ملاك الأرض ذوى حول وطول، ومن مدن عظيمة قليلة العدد، ومن نسبة غير كبيرة من سكان المدن. ولكن نظراً للتأثير المشترك لانتشار السكك الحديدية ونمو التجارة الخارجية، وظهور الاختراعات فى صناعتى الفولاذ والكهرباء، ونتيجة للنشاط الحجم المترتب على انتصار ألمانيا

فى حرب السبعين، زاد سكانها الحضر أربعة أمثال، فى مدى الستين عاما التى تخللت سنتى ١٨٤٩، ١٩١٠[١].

وكان تقدم الصناعات - الذى سار بخطوات حثيثة فى بريطانيا - بطىء الخطى فى قارة أوروبا، اللهم إلا فى ذلك الشطر الصغير الرقعة من البلجيك الذى عرف منذ القرن الثالث عشر بازدحام مدنه بالسكان، وحياته الصناعية الموفورة النشاط. وعلى هذا فلم تكن الحركات الثورية التى قامت فى اصقاع مختلفة من أوروبا أعوام ١٨٢٠، ١٨٣٠، ١٨٤٨ هى نتيجة لتذمر عمال المصانع الكبيرة سواء فى فرنسا أو فى ألمانيا. ويذكر البعض، أنه لم يكن فى فرنسا بين سنتى ١٨١٥، ١٨٤٤، سوى مدينتين فقط هما سنت إتيين St Eteinne وروبيه Roubaix فقد نمتا نموا سريعا، وأن ثلاثة أخماس الحديد الخام الذى أنتجته تلك المملكة أخرج من مئات الأفران الصغيرة المنشورة فى الأقاليم ذات الغابات؛ ولم يكن الحال فى ألمانيا مغايرا لهذا. أجل، كان للألمان مزايا عديدة على منافستهم الإنجليز. فقد كانت طبقتهم الوسطى أفضل تعليما، وكانوا يتفوقون عليهم فى فنون الرسم والمستحدثات، وكانوا أكثر منهم دراية بالكيمياء، وكان فى مكنتهم أن يعلنوا أن صناعة قطع المائدة المعدنية فى سولنجن Solingen ذات سوق أوسع وشهرة أطيب، من مثيلاتها فى أوروبا. كما أنه لم يكن لألمانيا بين أوروبا جمعاء ضريب فى خبرتها الموروثة فى صناعات التعدين.

ومن هذا فإن العقل الألمانى كان قليل الانشغال بالأشكال والمعايير الجديدة للتطور الاقتصادى. وكانت الصناعات الألمانية حتى الصناعات المشتغلة باستغلال منابع البلاد المعدنية الغنية، متأخرة تأخرا عظيما. إذ نقصتها المعدات العلمية ورأس المال والمغامرة، حتى أنه لم يشرع إلا حوالى سنة ١٨٤٠ فى العمل

---

[١] فشر، المرجع السابق، ص ١٣٣، ١٤٣.

بمناجم الفحم العظيمة فى سيلزيا التى كانت مبعث خلاف شديد بين بولندا وألمانيا فى السنين الأخيرة[٢].

عودة البربون إلى الحكم فى فرنسا ١٨١٥ - ١٨٣٠:-

لقد خلف نابليون لمن جاء بعده فى فرنسا مشكلة التوفيق بين تحقيق غرضين متناقضين. وهو تكوين نوع من الحكم يرضى الفرنسيين كما يرضى فى الوقت نفسه الساسة الأوروبيين. وقد ظلت هذه المشكلة المسألة الهامة التى استنفذت جهود ساسة فرنسا على نقض تسوية فيينا عام ١٨١٥، تلك التسوية التى اقترنت باقتطاع أملاك كثيرة من فرنسا، وبالقضاء على العزة القومية للفرنسيين على حين كانت دول أوروبا تعمل جاهدة للمحافظة على هذه التسوية بكل جزيئاتها. وقد قامت فى فرنسا محاولات ثلاث للتوفيق بين هذين الفرضيين، ولكنها فشلت جميعا، فالفرنسيون لم يستريحوا لعودة أسرة البوربون إلى عرش فرنسا. وقد أظهروا منذ البداية عدم رغبتهم فيها لأنها كانت تعتمد فى بقائها فى فرنسا على الدول الأوروبية فكان واضحاً أنها لن تعمَّر طويلا. وسلكت الحكومة أيام أسرة أورليان سياسة خارجية تتعارض مع رغبات الأمة، غير أن تأييد الطبقة الوسطى لهذه الأسرة قد أخر سقوطها وإن كان لم يستطع حمايتها من ذلك. ولما كانت أيام نابليون الثالث نجح هذا الحاكم فى استمالة الفرنسيين نحوه، إلا أن نجاحه هذا فى بادىء الأمر عرضه لعداء دول أوروبا التى رأت فى نشاطه ومجهوداته محاولة لإرجاع عظمة فرنسا فى عهد الإمبراطورية الأولى. وانتهى الأمر بسقوطه كما سقط أسلافه[٣].

لويس الثامن عشر ١٨١٤ - ١٨٢٤:-

لم تكن مهمة الساسة الفرنسيين بعد عودة الملكية فى عام ١٨١٤ يسيره وإنما كانت شاقة ومعقدة إلى ابعد الحدود؛ ففى عهد لويس الثامن عشر ظهر بوضوح عداء

---

[٢] فشر، المرجع السابق، ص ١٣٤،١٣٥.

[٣] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٧٩.

القيصر إسكندر لفرنسا وكان موقفه من تاليران منذ أيام تسوية فيينا معروفا. ولم يكن هناك بد من أن يبعد تاليران، فلم يشارك فى المفاوضات التى وقعت بين الدول العظمى وانتهت باحتلال أجنبى لثلاثة أرباع فرنسا.

وكانت الأحوال الداخلية فى فرنسا معقدة، وليس ذلك بالأمر الغريب، فعودة نابليون إلى الحكم لمدة مائة يوم بعد فراره من ألبا "فقد كان لها أثرها فى ازدياد التنافس بين الأحزاب فى خلق جو من الكراهية والبغضاء بين طبقات الشعب الفرنسى فالملكيون المتطرفون يعتقدون أن هناك مؤامرة تدبر ضدهم للانتقام منهم، بينما ظل الأحرار المتطرفون يرفضون الاعتراف بملكية لويس الثامن عشر بعض الوقت وإن كانوا قد اضطروا إلى قبول الأمر الواقع. وحكم أسرة البربون قد بدأ والبلاد منقسمة إلى حزبين متخاصمين، واستمر الخصام بينهما قائما مدة خمسة عشر عاما، فحزب الملكيين المتطرفين كان معروفا بعدائه للثورة الفرنسية، يحارب جهد طاقته كل نزعة إلى الحرية للانطلاق من قيود الحكم الملكى، ويواصل سعيه إلى إرجاع فرنسا إلى ما كانت عليه فى العهد القديم. وكان أكثر أعضاء هذا الحزب من الذين اضطروا أيام قيام الثورة إلى الهجرة، ثم عادوا بعد ذلك إلى فرنسا، وباتوا يعملون على الرجوع بها إلى ماضيها طمعا فى استرداد سلطانهم مهما كان فى ذلك من هضم لحقوق الطبقات الأخرى ولو كان فى ذلك انتقاص من سلطة الملكية. ومن الوسائل التى اتخذوها لتحقيق هذا الغرض العمل على إعادة الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عظمتها وقوتها. وكان من رأيهم أن الاتحاد بين الكنيسة الكاثوليكية والدولة من شأنه أن يزيل العقبات التى تعترض سبيل تحقيق السياسة الجديدة، فرأوا أن تعود إلى الكنيسة أملاكها التى كانت لها قبل الثورة وأن يكون الإشراف على أمور التعليم والثقافة من حق رجال الدين فهذا أحد الأساقفة يعين مديرا للجامعة فى عام ١٨٢٢ فيهيمن على شئون التعليم العالى والثقافة، وفتحت

أبواب فرنسا لجماعة الجزويت، فعادوا إليها ليستأنفوا نشاطهم المعروف في مجال التعليم. وكان الحزب الملكي المتطرف يؤمن بأن العودة بفرنسا إلى الرجعية يكون نجاحه مؤكدا إلا تحت ستار التعليم الديني، ورأوا لضمان النجاح في الوصول إلى غرضهم أن تفرض الرقابة الشديدة على الرأى العام ووسائل النشر عنه في الصحف والمؤلفات والمنشورات[4].

ولم ينجح ذلك الحزب رغم كل ذلك في سياسته لأن أثر الثورة وما بذرته في عقول الشعب وقلوبهم من مبادىء الحرية وقيمتها لم يكن قد زال تماما، ولأن أعضاء الحزب قد بالغوا في أطماعهم، فطالبوا بما كان لهم من امتيازات حتى قبل أيام عهد الثورة بعهد طويل ونعنى ابتداء من عهد الوزراء العظام أى عند مطلع القرن السابع عشر[5].

حزب الأحرار المؤيدين للثـورة:-

وكان يقاوم حزب الملكيين المتطرفين حزب من عشاق الثورة الذين آمنوا بمبادئها وما أحدثته من تغيير في الأوضاع. وكانت خطتهم تنحصر في الدفاع عن الثورة والاستمرار في التمتع بنتائجها دون الالتجاء إلى العنف والروح الثورية المتطرفة. وكانوا يمدون آمالهم إلى الوصول إلى هدف بعينه وهو التوفيق بين الحيازة المنظمة والحرية التي نادت بها الثورة وتمتع بها الشعب دهرا. والواقع أن هذا الحزب لم يخاصم الحكم الملكي وإن كان قد فرض على فريق فرضا. وتعهد بتأييد الملك والولاء له مادام لا يتعرض للحريات بسوء، ويحترم الشروط التي أخذها على نفسه عندما آلت إليه ملك فرنسا. وكان الحزب يعتمد في ذلك على ما ضم " الميثاق" أو "العهد La Charte" من شروط؛ غير أن ذلك العهد كان ينقصه

---

[4] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ٢٨٠، ٢٨١.

[5] نفسه، ص٢٨١.

الإيضاح والتحديد في بعض مواده، فمن ذلك مثلا أنه لم يحدد في المادة الخاصة بتشكيل الوزارة الحزب الذى تختار منه الوزارة وستعرض لذكر "الميثاق" في تفصيل بعض مواده فيما يلي:-[1]

صدر هذا الميثاق بارادة لويس الثامن عشر، واستقبله الشعب بالرضا على الرغم من أنه لم يوسع في باب الحرية بالقدر الذى تضمنه دستور عام ١٧٩١ الذى أصدره لويس السادس عشر عند مطلع أحداث الثورة الفرنسية[2].

نص الميثاق على وجوب تشكيل هيئة تشريعية تمثل الشعب الفرنسي. وهو بذلك قد أتاح له ما لم يتيح له أيام نابليون. فكان الهيئة التشريعية مكونة من مجلسين؛ مجلس الشيوخ وللملك حق تغيير أعضائه وكانت عضويتهم مدى الحياة، وقد تكون وراثية، والمجلس التشريعي وكانت عضويته عن طريق الانتخاب، إلا أن الانتخاب كان معتمدا بنصاب الملكية، فلم يكن الناخب يستطيع أن يدلى بصوته الانتخابى إلا إذا أثبت للدولة أنه يدفع ضريبة سنوية مباشرة قدرها ١٣ فرنكا. فأما المرشح لعضوية المجلس فلم يكن يسمح له بالترشيح إلا إذا اثبت أنه يدفع للدولة ضريبة مباشرة لا تقل عن أربعين فرنكا. فترتب على هذه الشروط أن عدد الناخبين لم يزد على حوالي مائة ألف يمثلون شعبا تعداده وقتئذ ثمانية وعشرون مليونا. وعلى الرغم من هذه القيود التى فرضها الميثاق على عملية الانتخاب فقد كان للمجلس التشريعي من الحقوق ما لم يتوافر لأى هيئة تشريعية منذ أول عهد القنصلية. وبحسب تلك الحقوق منها ما يشاء ويرفضون ما يشاء، ومن ذلك رفض فرض الضرائب حين يقتنع بضرورة ذلك.

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٢٨١.

[2] نفسه ، ص٢٨١-٢٨٢.

واعترف "الميثاق" بطبقة النبلاء التى نشأت أيام نابليون، فحلت محل طبقة النبلاء القديمة على أنه لم يكن لها ما كان لسابقتها سوى الاسم والمظهر[8].

ونص "الميثاق" على ضمان حق أصحاب الأملاك التى اشتروها فى أول عهد الثورة، كما ابقى على الاعتراف بالحرية الدينية وفرض المساواة أمام القانون وحق التقدم لشغل وظائف الدولة للمؤهلين من مختلف طبقات الشعب. وكانت كل أولئك من حقوق الشعب التى منحها فى عهد الجمهورية والإمبراطورية. وأصبحت كل هذه المبادىء التى تضمنها "الميثاق" جزءا هاما من القانون العام فى فرنسا. كما نصت مواد "الميثاق" إلى جانب ما تقدم على حرية الصحافة.

وظاهر من استعراض مواد الميثاق أنه لم يسمح باستعلاء طبقة من طبقات الشعب على أخرى... ومع ذلك فقد رأى النبلاء وعلى رأسهم أخ الملك "كونت دارتوا Conted, Artois أن يعوضوا عما تغاضى عنه "الميثاق" فى شأن حقهم فى شغل وظائف الحكم والإدارة؛ فاتجهت آمالهم نحو الوظائف العسكرية. وكانت المؤسسة العسكرية يومئذ أعظم المؤسسات حظا من الديمقراطية والقومية. وقد اقتضت الظروف الاقتصادية حينئذ أن تسرح الحكومة حوالى أربعة عشر ألف من رجال الجيش، فأصبحوا لا يتقاضون إلا ما كان لهم من مرتبات. فلم يلبث أن حل محل المسرحين من الجيش عدد كبير من المحاربين المهاجرين من الذين حاربوا ضد الجمهورية داخل "فرنسا" أثناء حرب لافنديه"وخارجها من صفوف أعدائها. وأعيد إلى خدمة الجيش فى قواته البحرية من كانوا قد اضطروا إلى تركه من قبل، أعيدوا برتبهم التى بلغوها فى بحرية العدو. وعين "دوبون" Dupont وزيرا للحربية، وكان قائدا لقوات فرنسا التى هزمت لأول مرة أيام نابليون فى أسبانيا فى واقعة

---

[8] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٨٢.

بيلين Beylen عام ١٨٠٨ وحل علم ملكية البوربون الأبيض محل علم الثورة المثلث الألوان.

والواقع أن ما حققه النبلاء لأنفسهم لم تعد مظاهر تافهة وإن كانت قد أثارت في نفوس الشعب كثيرا من الاستياء؛ فالشعب يرى أن رجال الجيش من أيام نابليون وإيطاليا الثورة المجيدة قد أهمل حالهم وحال أسرهم وأصاب الاضطهاد بعضهم.

وتقول زينب راشد لم يقتصر الأمر على إثارة النفوس على الحكم الملكى بل اشتد غضب الشعب من زيادة سلطان الكنيسة نتيجة لموقف الملك منها، فهو قد غمر الكنيسة بما رأى لها من سلطان، وأعلن أساقفتها، أنه وضع الدولة كلها تحت حماية العذراء (أى تحت حماية الكنيسة). وبالغ فى تكريم الكنيسة واحترام أعيادها فقرر تحريم البيع والشراء أيام الآحاد والأعياد. وإذا كان مثل ذلك الإجراء لم يهز كبار رجال التجارة، فإنه من غير شك قد أوغر صدور الطبقة الصغيرة من العاملين فى التجارة[٩].

وإذا كان ينسب إلى النبلاء ورجال الدين من سلوكهم إزاء طبقات الشعب والاستعلاء عليها فإنه كان من الأمور التافهة إذا قيس بما وقع لهذا الشعب الفرنسى أيام بونابرت، إلا أن مظاهر البطولة والمجد فى عهد هذا الإمبراطور العبقرى قد كان كفيلا بأن ينسى الشعب كل ما أصابه من متاعب الدنيا وأهوالها. فقد أستيقظ فى خواطر الشعب ما كان مطويا من مساوىء العهد الملكى الذى قضت عليه الثورة وبطلها نابليون. ولا عجب فهذه طبيعة النفس البشرية فى كل زمان ومكان. وتشعر الدنيا مجال فرنسا عامة وعاصمتها باريس خاصة؛ فهذا ولنجتن سفير بريطانيا فى فرنسا يكتب إلى حكومته شارحا لها شعوره بذلك ويختم بيانه بقوله "فى الحق أن ملك فرنسا لن يكون جديرا بهذا الاسم من غير أن يكون حوله جيش قوى".

---

[٩] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

والواقع أن لويس الثامن عشر كان رجلا سيئ الحظ، فهو على الرغم من مظاهر مقاصده الطيبة نحو شعبه ومحاولته التوفيق بين طبقاته لم يوفق في ذلك كل التوفيق لأن الحزبيين المتنافسين في أيامه قد حالا بسلوكها نحو تحقيق الأغراض المتباينة دون الوصول إلى استقرار سياسي، ذلك مع أنه بادر بوضع "الميثاق" دون أن يتأثر بآراء الملكيين المتطرفين. ومع ذلك لم يصل بنياته الطيبة وما صدر عنها من أراء تضمنها الميثاق إلى ما كان يرجو من نجاح وإن كان سلوكه قد أخر قيام الثورة فلم تقع في أيامه[10].

ويكفي للتدليل على حسن نيته ونفاذ بصيرته وسرعة إدراكه أن يبادر بالعمل على التخلص من المجلس التشريعي الذي كان قائما أول عهده. وكان أكثر أعضائه من الملكيين المتطرفين الذي لم يرضوا بالتعاون مع حكومة يراسها ريشيليو. D. Armand Emmanuel Richelieu. وكانت معروفة بالاعتدال في سلوكها السياسي. وبذلك استطاع لويس الثامن عشر أن يستبعد نفوذ الحزب الملكي المتطرف ولو إلى حين، وترتب على ذلك أن ساد الوئام بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية مما أدى إلى تحسين أحوال فرنسا الاقتصادية. فاستقامت الأمور فيها وبخاصة أمورها المالية مما أعانها على دفع ما كان عليها من غرامات حربية، بحيث أصابت شيئا من رضا الحلفاء، فلما اجتمعوا في مؤتمر "إكس لا شابل" قرروا في عام ١٨١٨ تحريرها من جيش الاحتلال. وعد ذلك نصرا لسياسة ريشيليو وإن كان زوال نفوذ بعض الأحرار في المجلس التشريعي قد أضطر ريشيليو إلى الاستقالة، وخلفه "ديكاز" Decazes (في رئاسة الوزارة) الذي كان يعتمد في سلوكه على تأييد الأحرار. وكان أول عمل بادر إلى القيام به تحرير الصحافة من سلطان الرقابة والترحيب باستقبال الأحرار في المجلس التشريعي، وفي مقدمتهم "لافاييت".

---

[10] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٤٨٤.

وظلت الأمور تجرى فى فرنسا فى هدوء إلى أن وقع حادث غيَّر من سيرتها، وهو حادث اغتيال "دوق دى برى" Duke de Berri ابن أخ الملك فى عام ١٨٢٠. فأثار ذلك شعور الملكيين وادى إلى ضعف مركز الوزارة، فاضطر الملك إلى حل الوزارة التى يرأسها وزيرة المحبوب "ديكاز". وترتب على ذلك تغيير فى مجرى الأمور في فرنسا وأثبتت الأحداث أن سقوط الوزارة المذكورة قد كان بداية لعهد رجعي جديد. أخذ نفوذه يقوى فأصبح أساسا فى قيام ثورة جديدة فى يوليو ١٨٣٠[11].

شـــارل العاشـــــر:

وبوفاة لويس الثامن عشر سنة ١٨٢٤ دون أن يخلف ابنا يرث عرشه. أصبح التاج الفرنسي من حق كونت داراتوا وهو آخر من تبقى على قيد الحياة من هذا الفرع لعائلة بوربون الكبيرة. فارتقى العرش تحت اسم شارل العاشر، وبذا باتت سيطرة الملكيين المتطرفين كاملة على أجهزة الحكم والدولة باعتبار أن الملك الجديد كان منذ أمد طويل زعيمهم وموجههم وصاحب الرأى لأول فيهم. فبدأت الحكومة الفرنسية فى عهده مرحلة التحول الفعلى للعودة بكل المؤسسات والنظم الفرنسية إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩. أعادت للأشراف ما لم يكونوا قد استعادوا بعد من امتيازاتهم القديمة واستصدرت قانون يعرف باسم "المليار"يعطيهم تعويضاً عما صادرته منهم الثورة الفرنسية. كذلك سمحت للآباء اليسوعيين (الجزويت) بالعودة إلى البلاد ووضعت الجامعة ومؤسسات التعليم تحت رئاسة أكليريكى[12].

هذه السياسة المتطرفة أثارت موجة عارمة من المعارضة فى جميع أنحاء البلاد وتخوَّف الناس من أن يقدم الملك على مزيد من الخطوات الرجعية كأن يلغى

---

[11] زينب عصمت راشد. تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٤٨٥.

[12] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص١٨.

الدستور ويعيد الملكيـة المطلقة بأشمل مظاهرها. ولم يكن هـذا بالمستبعد عليه إذ سبق له أن صَرح أكثر من مـرة قائلا "الخير لى أن أكـون حطاباً مـن أن أملك علـى شاكلة ملك إنجلترا" وتوزعت المعارضة فـى جبهات ثلاث فإلى اليسار كـانت هنـاك فئات المثقفين والكتاب والصحف الشديدى التعلق بالجمهورية وبمبادىء الثـورة وهؤلاء هالتهم تصرفات الحكومة وبصـورة خاصة إلغاء الحرس الأهلى وهـو آخـر ما تبقى من مؤسسات الثورة الفرنسية وكذلك طرد بقايا ضباط نابليون من الجيش. وفـى الوسط كانت تعارض جماعات الملكيين الدستوريين المؤلفة من فئات مـن المثقفين وكبار التجار والصناعيين، وفى أقصى اليمين أنشقت فئة من الملكيين المتطرفين بزعامة شاتو بريان بسبب إبعادهم عن مراكز الحكم والسلطان.

وأمام رفض البرلمان الفرنسى، رغم موالاته للعرش، لقانون يفرض مزيـدا مـن الرقابة على الصحـف ولقانون آخر يعطى حق وراثة الملكيات الكبيرة للابن البكـر اقدم الملك حل البرلمان والدعوة لإجراء انتخابات جديدة. وفـى الانتخابـات التى جرت فى سنة ١٨٢٨ فاز تحالف الملكيين الدستوريين وبعـض الأحـرار والجمهوريين المعتدلين بأغلبية مقاعد البرلمان وبات الملك ملزما بانتهاج سياسة معتدلـة استدعى لتنفيذها أحد قدامى السياسيين مارتينياك Martignac وعينه رئيسا للـوزارة. إلا أن الرئيس الجديد فشل فى إرضاء أى من أحزاب المجلس واضطر للاستقالة سنة ١٨٢٩ وهو الأمر الذى كان يتمناه ويبتغيه شارل العاشر.

عندئذ استدعى بولينياك De Poliganc سفير فرنسا فى لندن والمعروف بعدائه الشديد للنظم المتحررة وعينه رئيسا لوزرائه. حكم هـذا الرجل سبعة أشهر دون أن يجمع البرلمان ووجه معارضه عنيفة للغاية كانت تعبر عن مواقفها بصـورة جريئية للغاية منذ يناير سنة ١٨٣٠، صحيفة ناسيونال Le National التى يشرف على إصدارها سياسى شاب اسمه تيير Thiers ويمولها أحـد كبـار أصحـاب المصـارف

الفرنسيين كانت الصحيفة المذكورة تجاهر علنا بضرورة أحداث تغيير فـي نظـام الحكم للمحافظة على الدستور وعلى الحريات العامة[١٣].

وفي الجلسة الأولى التي عقدها النواب في شهر مارس سنة ١٨٣٠ طالب المجلس بالمشاركة في الحكم والمسئولية ونزع الثقة عن الحكومة. غضب الملك وحل البرلمان. إلا أن الانتخابات الجديدة التي جرت بعد ذلك أعطت الأحرار نصرا قويا وزاد عدد نوابهم خمسين نائبا. في هذه الفترة بالذات جرت عملية غزو بلاد الجزائر مما وضع حجر الأساسي في بناء إمبراطورية فرنسا الواسعة في بلاد المغرب العربي وعمر خزينة شارل العاشر التي كانت تشكو فراغا مزمنا بكميات ضخمة بلغت حوالي خمسين مليون فرنك ذهبي سببت عنوة من أموال الشعب العربي هناك. نجاح هذه العملية الاستعمارية زادت ثقة الملك بنفسه وبقوته وجعلته يقدم على خطوة متهورة يتحدى بها قوة المعارضة المتزايدة، فأصدر أربعة مراسيم قضت بحل المجلس الجديد وتقييد حرية الصحافة وتعديل قانون الانتخابات بحيث يصبح أكبر الناخبين من فئات ملاكي الأرض وكان ذلك في ٢٥ يوليو سنة ١٨٣٠.

وفي ٢٧ يوليو تم التفاهم بين الجمهوريين والجمعيات العمالية على ضرورة اللجوء إلى العصيان المسلح وفعلا نزل العمال والطلاب إلى الشوارع وأقاموا المتاريس كما أغلقت المصانع أبوابها وجرى توزيع الأسلحة على الناس من قبل الصناعيين. وفي اليوم التالي احتل الثوار قصر الملك في باريس (التويلري) وسيطروا على العاصمة كلها. وقد حاول الملك الذي كان يصطاد آنذاك في ضاحية سان كلو استرضاء الجماهير بالعودة عن مراسيمه الأربعة إلا أن رجال الثورة أصروا على خلعه فهرب شارل العاشر إلى الخارج[١٤].

---

[١٣] عبد العزيز نوار. عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص١٨١، ١٨٢.

[١٤] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ١٨١، ١٨٢.

واتجهت الأنظار فورا نحو دوق أورليان زعيم عائلة أورليان العريقة إحدى فروع آل بوربون وابن فيليب المساواة Philipe d, Egalite قريب لويس السادس عشر والمناصر والمؤيد للثورة منذ يومها الأول حتى أنه صَوت على قرار إعدام الملك الفرنسي قبل أن يفقد هو نفسه رأسه على مقصلة عهد الإرهاب. وبقى طيلة غياب الملكية عن فرنسا ابنه دوق دور ليان، بعيداً عن أوساط المهاجرين لم يتآمر ولم يعاد شعب فرنسا وحكم الإمبراطورية. وبعد سقوط نابليون حافظ على علاقات ممتازة مع الأوساط التقدمية والمتحررة فى البلاد.

دعى البرلمان الفرنسي دوق دور أورليان ليكون "ملكا على الفرنسيين" وليس ملكا لفرنسا كما كان جميع أسلافه. وهذا يعنى بالطبع أن الأمة قد اختارته بمحض إرادتها وبموجب مالها من حق السيادة ليكون ملكا عليهما كما فرضت عليه أن يحكم فى ظل علم الثورة المثلث الألوان والحبيب إلى قلوب الفرنسيين بعد أن أبعد نهائيا علم آل بوربون القديم.

والواقع أن المتعقلين من الفرنسيين استبعدوا النظام الجمهورى لعلمهم بان أوروبا وخاصة النمسا وروسيا ما كانتا لتوافقا على ذلك بحال من الأحوال. وبذلك يكون الجمهوريون بقايا الثوريين الفرنسيين هم الذين غرسوا نبتة ثورة سنة ١٨٣٠ وهم الذين تعهدوها ورعوها إلى أن أينعت وحان قطافها فجناها الملكيون الدستوريون دون كبير عناء لأن الظروف الدولية فى أوروبا ما كانت تسمح بغير ذلك[١٥].

وانتشرت على جناح السرعة شرارات من أتون باريس إلى الكتل الخشبية الواهية الدعائم التى أقامها مؤتمر فيينا. فخرج البلجيكيون على الهولنديين والبولنديين على الروس. وجمعيات الكاربونارى على الحكم الأكليركى فى

---

[١٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ١٨٢، ١٨٣.

الولايات البابوية. ورنت في باريس صيحة عالية بإشهار حرب تحريرية على النحو الثورى القديم العظيم، لإنقاذ شعوب أوروبا المعذبة. فاندلعت في فرنسا فإن خطيرة، وبقيت حكومة باريس الجديدة مدى عام كامل، وهي في كفة القدر، إلى أن هدأت العاصفة في النهاية. فغن لويس كشح بوجهه عن أولئك المجانين الذين كانوا يبغون اشتباك فرنسا في حرب مع إنجلترا بخصوص البلجيك، ومع روسيا بخصوص بولندا ومع الإمبراطورية النمساوية بخصوص الانتصار لقضية القومية الإيطالية، ولقد أبان بهذا العمل عن حسن تقديره للأمور، وبمعرفته بدقائق السياسة. إذ أنه بمحافظة على السلم مع الدول العظمى أتاح لبلاده ثمانية عشر عاما من التقدم الاقتصادى وقسطا من الرخاء المادى المتزايد[١٦].

٢-ثورة بلجيكا واستقلالها:

أما الثورة التي فصمت عرى مملكة الأراضي المنخفضة السيئة التكوين، فقد ابتدأت بشغب اندلع في بروكسل ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠. فقد تململ البلجيكيون وتذمروا طويلا من حكم أسيادهم الهولنديين الصارم. وكانوا يمقتون المذهب البروتستانتي، وروح التسامح الهولندى. واستئثار الهولنديين بكل طيب في الدولة. ورأوا أنفسهم أكثر منهم عددا وأفصح لساناً، واعتقدوا أنهم أعلى ثقافة وألطف معشراً. فلهذا عدوا جعل اللغة الهولندية اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة، وإبعاد السكان الوالونيين Walloons عن الحياة العامة، وإعطاء جميع الوظائف الهامة تقريباً، مدنية أو عسكرية للهولنديين. عدا هذه الأمور مظالم لا تحتمل. وكان شعور التفوق والامتياز الذى بدا على وجوه الهولنديين يستفز صدور مواطنى روبنز Rubins المصور الذائع الصيت، كما أذكى لظى غضبهم مثال باريس. فوطنوا العزم على خلع نير الأجنبي من أعناقهم.

---

[١٦] فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص ١٤٢، ١٤٣.

ويذكر فشر أنه يشير عمود تذكاري مقام في ميدان الشهداء في بروكسيل إلى اللحد الذي يضم رفات ستمائة متطوع بلجيكي استشهدوا في قتال نشب في سبتمبر سنة ١٨٣٠ في شوارع المدينة مع الجند الهولندية النظامية. فلفت هذا الاستشهاد الذي حرك يومئذ شعور الناس، الأنظار إلى قضية استقلال بلجيكا، ولكنه لم يحققه.

فإن مملكة البلجيك الحديثة لم تقم على بسالة البلجيكيين الحربية، بل قامت نتيجة لمفاوضات دبلوماسية طويلة بين إنجلترا وفرنسا، مع معونة يسيرة قدمها الجيش الفرنسي. فبناءا استقلالهم هما بالمرستون (١٧٨٤ – ١٨٦٥) الذي كان قد عين حديثا وزيرا للخارجية في وزارة اللورد جراي الحرة، وتاليران سفير فرنسا يومئذ في لندن الذي أحسن اختياره لهذا المنصب. فإن حب بالمرستون للحرية، مقرونا بتصميم لويس فيليب وتاليران على ألا يفتحا أبداً من جديد النزاع القديم مع إنجلترا، مكنا الدولتين من حسم الخلاف بينهما، دون التجاء إلى تحكيم السيف وذلك على أساس منح البلجيك استقلالها. ولو أن بالمرستون انحاز إلى جانب الهولنديين، وأيد حكمهم الأوتوقراطي أو لو أن لويس قبل التاج البلجيكي الذي عرض على ثاني أولاده، لاستمر الشجار القديم بين فرنسا وإنجلترا مرة ثانية، جارا في ذيوله عواقب، ربما كانت قد قضت على آمال البلجيكيين في نيل استقلالهم[١٧].

ولكن تعاون الدولتين حصر موضوع الخلاف، وحل المشكلة فعرض التاج البلجيكي على ليو بلد أمير ساكس كوبرج Leopold de Saxe Cobourg (١٧٩٠ – ١٨٦٥) خال الملكة فكتوريا البعيد النظر الواسع الاطلاع، الذي كان قد اقترن قبلا بابنة جورج الرابع. ثم أظهر الآن الاستعداد للاقتران بابنة لويس فيليب، كعلامة لعدم تحيزه.

---

[١٧] فشر، المرجع السابق، ص١٤٣-١٤٤.

ولقد أظهر المستقبل أن البلجيك أجادت انتقاء هذا الأمير. فقد ذلل ليوبولد جميع المصاعب والعقبات التى واجهته. فتغلب على الغزو الهولندى المحفوف بالخطر على بلاده، الذى شن فى أواخر يوليو سنة ١٨٣٠ وتغلب على مشكلة لا تقل عن هذه الخطورة، وهى تخلصه من جيش فرنسى جاء لطرد الهولنديين. وتغلب على سخط الشعب البلجيكى الشديد وتذمره العميق لفقدانه شطرا من لكسمبرج ولمبرج – هذا الفقدان الذى فرضته الدول العظمى فى مؤتمر لندن، وأيدته معاهدة لندن المبرمة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٣٠.

أما النصر الحقيقى فكان هذا النصر الذى كسبته سياسة بالمرستون. فقد تخلصت البلجيك حقا من حكم هولندا، ولكنها أنقذت من خطر انضمامها إلى منطقة النفوذ الفرنسى الحربى والتجارى. فعرض عليها نظام من الحياد المستديم. فبمقتضى معاهدة ١٨٣٩ الشهيرة، التى وضعت بعد ذلك بخمسة وسبعين عاما بأنها قصاصة ورق، ضمن حياد البلجيك بواسطة خمس من الدول الكبرى، كان من بينها بروسيا وفرنسا، علاوة على إنجلترا التى حصلت بهذا التدبير على ضمان أولى مصالحها السياسية، تلك المصلحة التى وافقت عنها قرونا عديدة بدماء أبنائها[18].

٣- الثورة فى بولنده:

أما بولنده فقد منحها إسكندر وقت حصوله على الجزء الأكبر منها عام ١٨١٥ دستورا وأعلن عن عزمه حكمها كمملكة لها كيانها القومى وكان صادق فأيده لفترة من الزمن كثيرون من الوطنيين البولنديين ومن أشهرهم النبيل زار توريسكى ولكن الروس والبولنديين كانوا أشبه بالزيت والخل لا يمتزجان فالبولنديين وهم العنصر المغلوب على أمره كانوا يشعرون بالتفوق فى كل شىء عدا القوة إذ كانت لهم ثقافة لاتينية مقابل ثقافة الروس شبه اليونانية وتاريخ مجيد مقابل صحائف

---

[18] فشر، المرجع السابق، ص ١٤٤ – ١٤٥.

الروس الحافلة بإراقة الدماء وتقاليد لحمتها المساواة الأرستقراطية مقابل خضوع الروس العبودى لحاكم وروح لينتها الفروسية والاعتزاز بالحرية مقابل روح الطغيان والاستبداد عند الروس ولم يبدل من الأمر شيئا أن إسكندر منحهم دستورا تحرريا تقدمياً فإن اية عملية يقدمها حاكم روسى مهما يكن عطوفا لابد وأن تكون موضعا للريبة فى نفوس معظم البولنديين الوطنيين، ثم إن إسكندر على ما يبدو من لطفه ووداعته عين أخاه الدوق الأعظم قسطنطين قائدا عاما عليهم وكان هذا طاغية أحمق راح الدوق الأعظم يفرض سيطرته على نائب الملك الضعيف وقد اقتنع الديت الأول فى ١٨١٨ ولكن الرقابة المشددة فرضت على الصحف فى ١٨١٩ ومع أن الديت انعقد مرة أخرى سنة ١٨٢٠ فإن إسكندر لم يلبث أن حله وامتنع طوال خمس سنوات عن دعوة المجلس الجديد للاجتماع[١٩].

وقد أخذت الجمعيات السرية تنمو وتقوى ولما افتتح إسكندر الديت الثالث فى سنة ١٨٢٥ حد من سلطانه جدا وجعل الدستور من الوجهة العلمية معطلا فهو كما قال بايرون لم يكن له اعتراض على الحرية الحقة سوى أنها تجعل الأمم حرة ولما مات إسكندر فى أواخر سنة ١٨٣٥ قامت مؤامرة ضد خلفه إشترك فيها بولنديون وكان القيصر الشاب نيقولا أوتوقراطيا بطبيعته، وقد أثار موقف بولنده حفيظته إلى أبعد حد ورغم أن تصميمه على إخماد الحريات الضئيلة التى بقيت لبولنده يرجع على الأرجح إلى ذلك التاريخ فقد أخفى عزمه بضعة أعوام ودعا الديت الرابع كما سنتبين إلى الانعقاد بعد خمس سنوات فاجتمع دورة قصيرة تجلى فيها الشك من الجانبين وقد أثارت الثورة الفرنسية التى هبت فى يوليو ١٨٣٠ انفعالا كبيرا فى نفوس البولنديين وأخذت الجمعيات السرية تتفشى حتى فى صفوف ضباط الجيش، وأخيرا أدت الاستعدادات التى راح نيقولا يتخذها لإخماد الثورة فى فرنسا وبلجيكا

---

[١٩] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ص٣١٩.

إلى نشوب حركة تمرد فى البلاد ففى ٢٩ نوفمبر حدث عصيان فى وارسو وفقد الدوق الأعظم قسطنطين رباطة جأشه، فسحب القوات الروسية من العاصمة وغادر المملكة فالفت قبل نهاية العام حكومة مؤقتة مناهضة للروس وللشعور القومى.

وقد أظهر البولنديين ترددا كبيرا فرغم أن جيشهم كان يربو على ٥٠٠٠٠ رجل ورغم أنه قد أخذوا القيصر على حين غرة فقد راحوا يضيعًوا الوقت فى مفاوضات عقيمة على أنه يخلعهم القيصر فى يناير ١٨٣١ قد جعلوا الصراع أمرا محتوما فكان أن دخل الروس بعد أن تمكنوا من حشد قواتهم ودخلوا المملكة فى فبراير فى أعداد ساحقة إلا أن المعارك الأولى لم تكن حاسمة فصمد البولنديون حتى مايو ولكنهم لم يستطيعوا تأخير النهاية إلا إلى سبتمبر ففى ذلك الشهر دخل الروس وارسو وأطاحوا فى ضربة واحدة بالملكية الدستورية والحريات العامة فقدر لبولندة أن ترضخ مدى ربع قرن لحكم حديدى فقدت فيه حياتها العضوية المستقلة وساسها فيه السيف الروسى وحده[٢٠].

ومما يجدر بالذكر أن ما أداه البولنديون من الفروسية واندفاعهم الثورى ومقاومتهم الباهرة قد أثارت عمقا كبيرا فى مزاج يسمح لها بإعارة الاحتجاجات النظرية أذنا مصغية فلن يجد شيء فى صرفها عن تحقيق غرضها فى محو كيان بولندة المستقل من الوجود. بيد أن من المهم أن نلاحظ أن روسيا قد حاولت إقامة نوع من الحكم الدستورى فى بولندة وإن فشل تلك المحاولة يرجع – جزئيا – إلى بولندة نفسها إلا أن الشعور القومى كان أقوى من أن يسمح بالتعاون مع روسيا بل أقوى من أن تخضعه تدابير القمع الوحشية التى استخدمتها روسيا فلإن باتت بولنده بلا حول ولا قوة روحها ظلت صلبة لا تقهر وقد بقيت رغم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء متمسكة بمثلها الأعلى فى الوحدة القومية فظلت كما كتب ميتلاند "ثلاث كسر لا

[٢٠] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ٣٢٠ –٣٢١.

تقوى على هضمـها ثـلاث معـدات" وقـد اتيحـت للبولنديـين الخـاضعيين للحكـم النمساوى بل وأحيانا الخاضعين للحكم الروسى نفسـه بعـض الفـرص للتعبـير عـن قوميتهم وأثبتت الأيام أن ضم كراكاو والنمسا فى ١٨٤٦ كان مـن العوامـل التـى ساعدت فعلا على بعث بولنده فقد سمحت النمسا للبولنديين في جاليسيا بشيء يشبه "الحكم الذاتي" وفي ظل سيطرتها المعتدلة نما الشعور القومى وأصبحـت كراكاو مركزا للثقافة البولندية والفن والأدب البولندى والدعوة الوطنيـة ولسوف تكبر قـوات القومية التى نبتت هناك فتشمل بولنده كلها فى النهاية[٢١].

وكانت إحدى نتـائج هـذه الحركـة البولنديـة هجـرة كثـير مـن الفنـانين والكتاب البولنديين إلى باريس، التى غـدت مـدى أجيـال عديـدة عاصمـة الأمـة البولندية الثقافية. فرغم فرار الضباط والجنـد البولنديين المرتزقة الأدل بهجرة كثير من الأساتذة والشعراء والموسيقيين الذين أظهروا النبـوغ السلافى للنـاس فـى أعلـى عواصم أوروبا أدبا وأرقها شمائل.

ويقول فيشر أنـه لهذا السبب فإن ثـورة بولنـدا عام ١٨٣٠، لم تكـن مـن غير جدوى، ولو أن نتيجتها بـدت فشلاً سـاًحقا ذريعاً. فقد ذكـرت أوروبا بوجـود جماعة تشيع فى صدورها العواطف القومية: جماعة مازالت قوية، وإن كـانت مرهقـة بمظـالم ما برحت تئن من ثقلها، جماعة تغمر قلوب أبنائها شجاعة تقرب مـن التهور. ولم ينـس الفرنسيون أن العصيان البولندى كان نتيجـة لثورتهم الداخليـة، وأنـه إذكـاه، وشـجع عليه رهط مـن الفرنسيين البـارزين، وأنـه هـاجم فـى لحظـة خطـرة فـى تاريخـهم مـن احتمال شـن هجـوم جبار على وطنهم، ومـا انفكـوا يذكـرون هـذه الأمـور، وتـهتز خواطرهم بهذه الأحاسيس. فتكونت بـين فرنسا وبولنـدا رابطـة قويـة وثيقـة، مـازالـت عاملا فى مجرى السياسة الأوروبية[٢٢].

---

[٢١] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ص ٣٢١.

[٢٢] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ١٤٦.

٤- الثورات في إيطاليا:

بعد التدخل النمساوي عقب مؤتمر لبياخ هدأت بعض الشيء الحركات الثورية في إيطاليا واستكان الإيطاليون في الظاهر على الأقل إلى واقع سياسي أدركوا استحالة تغييره في المستقبل القريب إلا أن بعض الجمعيات السرية وخاصة جمعية الفحامين الكاربوناري التي تضم بعض العناصر من الثوريين المتطرفين ومن بقايا ضباط نابليون ظلت تعمل بهمة ونشاط إنما بمنتهى الحذر على مقاومة الوجود النمساوي بالبلاد. وفي سنة ١٨٣١ قام بعض أعضاء هذه الجمعيات متأثرين بثورة يوليو الفرنسية تحدوهم رغبة رومانطقية مثالية لا تستند إلى أي أساس واقعي أو عسكري، وبحركات تمرد في بعض المقاطعات الإيطالية: في مودينا وبارم وبعض المقاطعات البابوبة أيضا. وفي أكثر هذه الحالات كان هدف هذه الثورات مقاومة استبداد الأمراء ولم تهدف إطلاقاً إلى ابعد من ذلك، رغم رومانطقية القائمين بها وبعدها عن الواقعية، وذلك ليأسهم من إمكانية الحصول على أي دعم خارجي.

ولم يتردد النمساويون منذ البداية في مواجهة هذه الأحداث بشدة وحزم مخافة أن تتطور وتنتشر في كل البلدان الإيطالية، فأمر مترنيخ باحتلال المقاطعات المتمردة وقضى على الثائرين فيها وخنق حركات تمرد سنة ١٨٣١ في مهدها[٢٣].

أما في بريطانيا فقد أدى نجاح ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ يوليو في باريس إلى قيام مظاهرات وحركات شعبية طالبت بتعديل القوانين الانتخابية القديمة التي أصبحت لا تتناسب مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي أحدثتها الثورة الصناعية في بريطانيا. حيث بقيت بعض القرى ترسل أكثر من نائب إلى مجلس العموم بينما كانت بعض المدن الصناعية الجديدة ترسل أقل بكثير مما يحق لها إرسالها قياسا بعدد نفوس سكانها، وكان بعضها لا يرسل نوابا على الإطلاق، ويعود

---

[٢٣] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، تاريخ أوروبا المعاصر، ص١٩١.

ذلك إلى قانون الانتخابات قد صدر تلك التحولات أى أنه كان يخضع لقواعد وضعت فى القرن الرابع عشر، حيث كان يشارك فى الانتخابات ملاك الأرض وأعضاء البلديات فى المدن. لقد كانت الحكومة بأيدى المحافظين التى لم تحاول القيام بإصلاحات رغم المطالب التى تقدم بها الشعب، بل أنها اصدرت سنة ١٨١٩ قوانين قيدت فيها حرية الرأى والنشر مناهضة لأنصار التغيير لكن رياح ثورات ١٨٣٠ كان له أثره فى تأجيج التظاهرات والاحتجاجات فى بريطانيا. وكانت نتيجة التظاهرات سقوط حكومة ولينجتون تحت ضغط الشارع ومجلس العموم وتشكيل اللورد جراى حكومة جديدة قامت بالإصلاحات الدستورية المطلوبة ووسعت حق الانتخاب[٢٤].

أما بالنسبة لسويسرا، فإنها كانت تأثرت أيضا بثورة يوليو الفرنسية، حيث أنها كانت تتألف من ٢٢ مقاطعة مستقلة تجمع بينها "ديات" للاهتمام بالسياسة الخارجية. وكانت السلطة فى أكثر المقاطعات بين أيدى طبقة تجار المدن أصحاب الميول الرجعية المحافظة على الصعيدين الاجتماعى والاقتصادى. وكان من نتائج ثورة يوليو الفرنسية أن نشطت المُعارضة التى تضم فئات الأحرار والمثقفين من خريجى الجامعات الألمانية المعروفة فى ذلك الوقت بكونها إحدى أهم مواطن الفكر الحر فى أوروبا، وحصلت على مكاسب انتخابية جعلتها أكثر قدرة على مواجهة الفئات المحافظة وعلى تحقيق إصلاحات دستورية هامة بالطرق السلمية، وأبرز هذه الإصلاحات:-

- الاعتراف بمبدأ السيادة للقوميات المختلفة فى سويسرا.
- المساواة بين المواطنين دون النظر إلى أوضاعهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية.

---

[٢٤] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ١٨٩.

- إعطاء مزيد من الضمانات لاحترام حرية الرأى والصحافة[٢٥]

الاتجاهات العامة:

لقد بدأت الفترة ما بين ١٨١٥ إلى ١٨٤٨ بمحاولة من جانب الدبلوماسيين الأوروبيين لتمكين القوى التى أطلقتها الثورة الفرنسية ونابليون وأبرمت تسويات فيينا لتنسيق مطامع الدول الكبرى الإقليمية لا لإرضاء المطالب القومية إلا أن هذه التسوية الإقليمية كانت - إذا قصرنا نظرتنا على الدول الكبرى وحدها - ناجحة، فقد أبقت أوروبا بمنأى عن الحرب الكبيرة طوال أربعين عاما. أما التجربة الأكثر طموحا ونعنى بها تجربة الحكم الدولى أو الحكم بواساطة المؤتمرات التى استمرت من ١٨١٥ - ١٨٢٥ فكانت نهايتها أليمة فقد تحولت إلى "نقابة للملوك" يشترك أعضاؤها فى بوليصة تأمين متبادلة وعجزت عن أن تدخل فى اعتبارها حاجات ورغبات حكومة برلمانية تستند إلى تأييد شعبى قوى مثل حكومة إنجلترا فأسدى كاننج بإنهاء هذه التجربة المحفوفة بالمخاطر خدمة جليلة لا لإنجلترا وحدها وإنما لأوروبا كلها[٢٦].

وكانت سياسة مترنيخ فى النمسا وفى ألمانيا تمثل محاولة مماثلة فشلت لأسباب مماثلة فقد رمى مترنيخ إلى رمى نظام موحد للقمع على مجموعة من الشعوب والدول لم تكن لترضى بإنكار رغباتها القومية وأمانيها فى الحرية فهبت شعوب النمسا والمجر ودول ألمانيا تكافح ضد القيود التى أثقلتها بها مترنيخ حتى حطمتها أوروبا فى سنة ١٨٤٨ وسجلت ثورتها نجاحا دائما هذه المرة فلم يبق بعد انتفاضات ١٨٤٨ أثر لا لألمانيا ولا النمسا كما عرفهما مترنيخ.

---

[٢٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص١٩٣.

[٢٦] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ط١، ص ٣٢٦-٣٢٧.

أما فى بروسيا فقد سبق الثورة والاتجاهات التحررية مجموعة من الرجال الأكفاء بانتهاجهم سياسة حكيمة نيرة فى التعليم والإصلاح وبفرضهم على الدولة نظام عسكريا صارما اثبت أنه خير ضمان لسيادة القانون وقد جاء هذا النظام ملائما للشعب البروسى الذى كان يقدر الذكاء والحكم القوى حق قدرهم ويدرك عدم كفايته فكان أن تكسرت أمواج ١٨٤٨ التى أحالت قصور مترنيخ إلى أكوام من الرمال بعنف ولكن دون طائل على صخرة الدولة البروسية الراسخة.

وقد انتهجت إنجلترا فى كل من كاننج وبالمرستون سياسة قوامها الانتهازية البارعة والعطف على الأمانى القومية والمناصرة الصريحة للحكم البرلمانى والدستورى وقد وفق الرجلان فى عمل شىء ما للبرتغال وأسبانيا وفى تحرير اليونان وأنشأ بلجيكا وأثبت عام ١٨٤٨ أن فى إنجيلهما خلاص الملوك فيهما اللذان "جعلا العالم مكانا آمنا للملكية الدستورية" ولكن للملكية وحدها[٢٧].

ولو سئل لوى فيليب لما وافق أغلب الظن على هذا الرأى فهو قد حاول أن يكون ملكا دستوريا ولكنه ألقى نفسه مع ذلك أول الساقطين فى ١٨٤٨ غير أن النظام الذى طبقه لم يمكن بالذى بتناسب الأمة الفرنسية فهو لم يلق بالا للمساواة وحقوق الإنسان اللذين كانا ابقى ما فى تراث ١٧٨٩ ولم يكن لحكمه شىء من روعة العهد النابليونى واستنارته ومثل هذه الحكومة القائمة على الانتخاب المقيد المتبلدة غير النابهة المسالمة غير العسكرية الأوليجركية غير الديمقراطية لابد وأن تفشل ففرنسا قد تحكم يوما إمبراطور واستفتاءات وانتخاب عام وجمهورية ولكنها لم تكن لتحكم بوساطة حل وسط موفق بين الأمرين لقد كانت جموع الشعب فى بلجيكا وبيدمونت وإنجلترا تتقبل راضية حكم الطبقة الوسطى فى تلك الفترة بخلاف الحال فى فرنسا ولهذا نجحت الملكية الدستورية فى البلاد الأخرى لعين

---

[٢٧] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ص٣٢٧.

السبب الذى فشلت من أجله فى فرنسا، وبينما كان وجودها عاملا على تجنب قيام الثورات أو تهدئتها فى سائر أنحاء أوروبا نراها قد ولدت الثورة وأكسبتها قوة فى فرنسا.

أما أيرلندا وإيطاليا فكانتا تختلفان عن فرنسا الثورية وعن البلاد الدستورية كذلك فيهما قد أثبتتا أنهما أكثر حماسة للاستقلال القومى منها للديمقراطية منيما للحكم الدستورى وقد دفعتهما كراهيتهما للأجنبى إلى الانغماس فى تيار الثورة باندفاع وقبل أن يؤول أوان النجاح وقد بدأ فشل بولندة جليا فى ١٨٣١ وإيطاليا فى ١٨٤٩ لكن الجهود التى بذلت والحماسة التى أثارتها بطولتهما وإخلاصهما لم تذهب أدراج الرياح فلإن كان إيطاليا قد صنعت ثورة فإنها قد صنعت فى نفس الوقت أمة وقد تسبب فشل الأولى فى نجاح الثانية ولسوف تبلغ إيطاليا مرادها فى ١٨٦٠ وتفشل بولنده مرة أخرى فى ١٨٦٣ وإن كانت ستكسب فى النهاية لا محالة استقلالها القومى ببذل النفس والتضحية شأن إيطاليا وإن اقتضاها ذلك وقتا أطول.

ومهما يكن من أمر فإننا نظرنا إلى النتائج الفعلية أمكننا القول بأن الحكم الفردى والثورة قد فشلنا فى تلك الحقبة وأن الحكم الدستورى قد نجح فإن الدول الأوتوقراطية قد أدت بمحاولتها كبت القوة الدامغة للأفكار الجديدة بدلا من تلطيفها أو استيعابها إلى انفجار ١٨٤٨، وعندئذ اتضحت مزايا الحكم الدستورى، ولم يكن 'لعالم "ناضجا للثورة" فى ١٨٤٨ لكنه كان "قد جعل مكانا مأمونا" للملكية المقيدة، فجاءت نتائج تلك الانتفاضة فى صالح الملكية الدستورية والاتجاهات التحريرية "البالمرستونية" فى كل مكان عدا فرنسا[٢٨]

---

[٢٨] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ج١، ص٣٢٨-٣٢٩.

الفصل السادس

المسألة الشرقية وحرب القرم

١٨٥٣ - ١٨٥٦

المسألة الشرقية وحرب القرم

١٨٥٦-١٨٥٣

وهى المشكلة التى ظهرت على أثر ضعف الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر، وتجسدت بشكل واضح وخطير فى القرن التاسع عشر نتيجة عوامل متعددة يأتى فى مقدمتها التنافس الذى وقع بين النمسا وروسيا وفرنسا لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى وصفها القيصر الروسى بالرجل المريض كان هذا التنافس بشكل جزءا من ظاهرة الصراع الاستعمارى بين الدول الأوروبية الكبرى للسيطرة على أكبر قدر ممكن من المستعمرات فى آسيا وإفريقيا خلال القرن التاسع عشر. أما العامل الثانى فهو الحركات القومية التى ظهرت فى بلاد البلقان للتخلص من حكم الدولة العثمانية والتى تمثلت بشكل ثورات تنافست الدول الأوروبية الطامعة بأراضى الدولة العثمانية لنجدتها تحت ستار المسيحية، وقد زاد من تعقيد القضية أن شعوب البلقان لم تكن تدين لمذهب مسيحى واحد، فالسلاف كانوا أرثوذكس بينما كانت مناطق الأفلاق والبغدان كاثوليكية، وكان لهذا الأمر انعكاسه على ذلك التنافس: فقد ادعت روسيا الحق فى حماية الأرثوذكس الموجودين فى الدولة العثمانية بينما ادعت فرنسا لنفسها حماية الكاثوليك هناك. ومهما يكن من أمر فإن الأمانى القومية كانت المحرك الأساسى لشعوب البلقان إضافة إلى تشجيع الروس لهم، لهذا تحرك العنصر الأساسى لشعوب البلقان إضافة إلى تشجيع الروس لهم، لهذا تحرك العنصر السلافى مطالبا بالاستقلال والوحدة، وثار الصرب فى بلغراد خلال الفترة ١٨٠٤ – ١٨١٢. وفى سنة ١٨٣٠ إضطر العثمانيون الأتراك إلى إعطاء صربيا استقلالا ذاتيا شريطة دفع الجزية للسلطان العثمانى، ثم تابع الصربيون كفاحهم حتى جلا الأتراك العثمانيين عن بلادهم عام ١٨٦٧. واستقلت اليونان عن الدولة العثمانية

سنة ١٨٣٢ بعد قيام ثورتها الكبرى وتدخل الدول الأوروبية لصالحها. ولا شك أن ضعف الدولة العثمانية عسكريا وسياسيا واقتصاديا قد حفز هذه القوميات على الثورة كما شجع الدول الأوروبية الكبرى على التدخل فى شؤونها الداخلية فبعد وفاة السلطان سليم الثالث وقعت عدة ثورات وانقلابات داخل القصر السلطانى خلال الفترة ١٨٠٦ – ١٨٠٩ وأصبحت بعض الولايات العثمانية مستقلة عملياً عن السلطة المركزية فى استنبول مثل مصر زمن محمد على والوهابيين فى الجزيرة العربية وباشوية عكا وباشوية كونيا وباشوية بغداد[1].

إن دخول الفرنسيين كطرف رئيس فى هذه القضية قد جعلهم يطلقون عليها اصطلاحا قريبا من التسمية المتعارف عليها وهو (مسألة الشرق الأدنى) ويقصد الفرنسيون بالشرق الأدنى منطقة شرق البحر المتوسط، أى الإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها فى الوطن العربى وشبه جزيرة البلقان ودويلات الدانوب وجزيرتا قبرص وكريت واستعمل المؤرخون الفرنسيون اصطلاح (المسألة الشرقية) أو الشرق الأدنى أثناء كتاباتهم عن الإمبراطورية العثمانية – وعنوا لمسألة الشرق الأدنى مسألة الدولة العثمانية أو المسألة الشرقية التى هى فى واقعها مسألة (غربية) أكثر من كونها مسألة (شرقية) لأنها تمثل جانبا من الصراع الاستعمارى بين الأوروبيين[2].

أطراف المشكلة وأهدافهم:

ترتبط المسألة الشرقية بأطراف متعددة تنازعت فيما بينها من أجل اقتسام ممتلكات وأراضى الدولة العثمانية التى يحكمها العثمانيون والتى كانت منطقة البلقان ومعظم أجزاء الوطن العربى تحت سيطرتها. ويعود هذا النزاع إلى تضارب مصالح الدول الأوروبية الاستعمارية فى تلك المناطق وهى إمبراطورية النمسا

---

[1] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٦٣.

[2] نفسه، ص ٢٦٤.

والمجر وروسيا القيصرية والإمبراطورية البريطانية وفرنسا. ويمكن فهم هذه المصالح من خلال دراسة أهداف كل طرف من هذه الأطراف[٣].

١- إمبراطورية النمسا والمجر:

لا تعود تطلعات النمسا والمجر في الدولة العثمانية إلى سنوات قريبة من القرن التاسع عشر، بل ترجع إلى رغبة في الانتقام منذ أن وصلت الجيوش العثمانية أبواب فيينا في بداية القرن السادس عشر بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م حيث فتح ذلك بوابة جنوب شرقي أوروبا بوجه القوات العثمانية. وقد أتيحت الفرصة لتوجيه النمساويين عنايتهم بالأراضي البلقانية بهدف استرجاعها بعد اندحارهم في معركة سادوا أمام بروسيا سنة ١٨٠٤، حيث كرسوا جهودهم لإيجاد منطقة نفوذ قوية في البحر المتوسط والقضاء على أي منافس لهم فيه بعد أن خسروا ألمانيا. وبذلك أصبح ظهور أية تطورات في البلقان العثماني يشكل حساسية كبيرة للنمساويين والمجريين[٤].

ولعل ما كانت تخشاه النمسا هو انهيار الإمبراطورية العثمانية وتفككها مع ذلك انتصار لمبدأ القوميات وهذا أكثر ما كانت تخشاه، فإذا زالت الإمبراطورية العثمانية على مسرح لسياسة الأوروبية أصبحت هي رجل أوروبا المريض. وقد أدركت كل من فرنسا وإنجلترا بكامن الضعف في السياسة النمساوية وأخذت تستغلانه وتستدرجان النمسا تدريجيا نحو الانحياز إلى صفها رغم أنها قد أعلنت عند بداية النزاع حيادها التام وذلك بعد أن فشلت محاولتها لعقد مؤتمر في فيينا يجد حلا سلميا للمشكلة ويحول دون اتساع النزاع[٥].

---

[٣] محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر، دراسة في التاريخ والفلسفة، ص ٢٦٤.

[٤] نفسه، ص ٢٦٥.

[٥] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٢٣٦-٢٣٧.

٢- روسـيا القيصريـة:

تزعمـت روسيا الحركـة السلافية فـى البلقـان وسـعت إلى رعايتـها وتشـجيع الحركات القومية فيها لتحقيق استقلالها ووحدتها مما أدى إلى اصطدامها بالعثمانيين وكذلك بإمبراطورية النمسا والمجر. لأن هذه الأخيرة كـانت تخشى أن يـؤدى هـذا التوجيه الروسى إلى إثـارة الشعوب السلافية الواقعة تحت سيطرتها فتكـون النتيجة أضعاف جديد لإمبراطورية النمسا والمجر وتقوية للنفوذ الروسى فـى البلقان حيث ستصبح الشعوب السلافية رأس حربة للسياسة الروسية فى المنطقة. ومن هنا يمكـن أن نفهم أن روسيا والنمسا كانتا تتسابقان من اجل وراثة الدولة العثمانية فى البلقان[٦].

لم تكن قضية البلقان هى وحدها التى تشكل قضية أساسية بالنسبة لروسيا القيصرية بل كانت هناك القضية الأكبر والأهم والتى تعتبر البلقان جزء منها، وهـى الهدف الروس المزمن فـى الوصـول إلى المياه الدافئة فـى الخليج العربـى والبحر المتوسط ولما كان العراق يقع على الخليج العربى والدول العربية الأخرى تطل على البحر المتوسط، وهى بمعظمها تابعة للدولة العثمانية، فإن الوصـول إلى هذه المناطق أو السيطرة عليها أو إيجاد نفوذ روسى فيها هو عمل مكمل ومتناسق مع الأهداف الروسية فى البلقان بمـا فيها السيطرة على البحر الأسود ومضايق البسفور والدردنيل. وبذلك فإن الصدام مع الدولة العثمانية كان حتميا والـذى سيؤدى بالتأكيد إلى صدام مع الدول الأوروبية الاسـتعمارية الأخـرى ذات المصـالح فـى المنطقة والتى لا تسمح للروس بالتوسع فيها. ولهـذا كـانت هناك مقاومـة بريطانيـة نمساوية فرنسـية للنفوذ الروسى وتوسعه على حساب الدولة العثمانية مما أدى إلى تأخير تصفيتها. إلا أن ذلك لم يمنع الروس من الحصول على امتيازات من الدولة العثمانية منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر بواسطة معاهدة كوتشـك قينـارجى

---

[٦] محمد مظفر الأدهمى، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٦٥ –٢٦٦.

التي عقدت سنة ١٧٧٤ . وتعود ظروف عقد هذه المعاهدة إلى الحرب الطويلة التي وقعت بين روسيا والدولة العثمانية والتي استمرت من سنة ١٧٦٨ إلى ١٧٧٢ على أيام كاترين الثانية حيث انتصرت فيها روسيا على الدولة العثمانية. وفي الواقع فإنه كان بإمكان قيصرة روسيا أن تفرض شروطا قاسية على السلطان العثماني بعد أن سيطرت جيوشها على خانات القرم وأصبحت قواتها النازلة من شمال البلقان صوب قلبه متجهة إلى استانبول. إلا أن التوازن الدولي لعب دوره في الموضوع والمقصود به أطماع الدول الأوروبية الأخرى في الدولة العثمانية. ذلك أن الإمبراطورية النمساوية أخذت تنظر بقلق شديد إلى هذا التوسع الروسي الكبير في البلقان، وكادت الأزمة التي نتجت عن هذا الأمر أن تتحول إلى حرب بين الطرفين لولا أن بروسيا لم تكن تريد لهذه الحرب أن تقع لأنها ستجد نفسها متورطة فيها إن تفجرت وهي التي كانت قد خرجت قبل سنوات قليلة من حرب السنوات السبع ١٧٥٧ - ١٧٦٢). ولهذا سعت بروسيا لإيقاف التصادم بين النمسا وروسيا وتحقيق مكاسب للجميع تبقى على التوازن الدولي ولا تخل به، فجاءت معاهدة كوتشك قينارجي لتعيد إلى الدولة العثمانية معظم ما فقدته في البلقان من روسيا مقابل اشتراك هذه الأخيرة في اقتسام بولنده. مع كل من النمسا وبروسيا. وقد نصت معاهدة كوجك قينارجي على ما يأتي:-[٧]

-تصبح مدينة آزوف وما حولها من البقاع تحت السيطرة الروسية ويعني هذا حصول روسيا على الأقسام الشمالية في البحر الأسود.

-يكون لروسيا حق التمثيل الدبلوماسي بدرجة سفير في الدولة العثمانية، كما أن لها الحق في إرسال القناصل إلى حيث تشاء في البلاد العثمانية لغايات تجارية.

---

[٧] محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٦٧.

-يمنح التتر في شبه جزيرة القرم استقلالا ذاتيا من قبل الدولة العثمانية على أن يكون السلطان العثماني خليفة للمسلمين فيها بصفته المرجع الديني الأعلى للمسلمين كافة.

-لروسيا الحق في حماية الرعايا الأرثوذكسي في الدولة العثمانية.

-تعاد جميع الولايات الدانوبية إلى السلطان العثماني شريطة أن يدخل الإصلاحات الضرورية لإدارتها.

ومع أن معاهدة كوتشك قينارجي قد سلبت بريق انتصار الروس إلا نهم استمروا يتطلعون للسيطرة على البلقان، فأصبحت فكرة الوحدة السلافية القومية جزءا من ميدان السياسة الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أيام الإسكندر الثاني، وغدت هذه الحركة قوة فعالة ومؤثرة بفعل المساندة الروسية التي استمرت حتى قيام الحرب العالمية الأولى وانسحاب روسيا من الحرب بعد قيام الثورية البلشفية فيها سنة ١٩١٧.

ويعتبر المؤرخون معاهدة كوتشك قينارجي بداية الضعف الحقيقي للدولة العثمانية، بينما يرى البعض الآخر أن ضعف الدولة العثمانية قد بدأ منذ توقف الأتراك العثمانية عن التوسع حين عقدوا مع النمسا ستيفاتورك سنة ١٦٠٦. ثم انكشف ضعفهم بعد عقدهم كارلو فتز مع روسيا سنة ١٦٩٩ اثر الحرب التي شنتها روسيا والنمسا ضد الدولة العثمانية حيث بدأت الدول الأوروبية تتوسع على حساب العثمانيين منذ هذا التاريخ وتتنافس على اقتسام إمبراطوريتهم[٨].

٣- بريطانيا العظمى:

ارتبطت قضية تأمين الطرق البحرية والبرية والنهرية إلى الهند بالسياسة البريطانية ومواقفها من الصراع الدائر بين الروس والنمساويين حول الدولة

---

[٨] محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٦٧.

العثمانية، ولهذا قال ذررانيلي إن الاستانة هـي مفتاح الطريق إلى الهند واتجه إلى شراء أسهم الخديو إسماعيل من شركة قناة السويس عام ١٨٧٥ تمهيدا للسيطرة البريطانية على القناة. وعمل في الوقت نفسه على الوقوف بوجه أى تفوق أو توسع. روسى على حساب الدولة العثمانية وخصوصا في مضيقى البسفور والدردنيل. أما عن منطقة الخليج العربى التى تقع على الطريق إلى الهند فقد بدأ النفوذ البريطانى يركز أقدامه فيها منذ منتصف القرن السابع عشر، فى حين كان النفوذ العثمانى معدوما في هذه المنطقة لأن الدولة العثمانية كانت دولة برية من الناحية العسكرية توقفت عند حدود العراق الجنوبية فى عهد السلطان سليمان القانونى وسليم الثانى ولم تدخل الصراع القائم فى الخليج العربى بين الدول الأوروبية. ولكن ذلك لم يمنع من أن تصبح أراضى الدولة العثمانية فى العراق وبلاد الشام طريقا مهما إلى الهند بالنسبة للبريطانيين فقبل فتح قناة السويس بفترة طويلة قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بفتح ما عرف ببريد الصحراء Desert Mail بين أوروبا والهند عبر حلب والكويت وبغداد فى أواخر القرن الثامن عشر بثلاثين يوما وثمانين يوما بين الكويت وحلب واستخدام نهرى دجلة والفرات لأغراض الملاحة النهرية. وقد تمكن البريطانيون من الحصول على سلسلة من الامتيازات فى العراق وسوريا من الدولة العثمانية، وبدأوا يفكرون فى إنشاء سكة حديد بين الإسكندرية والكويت عبر ديار بكر والموصل وبغداد، وقد تمكنت بريطانية خاصة باسم "شركة سكك حديد دجلة والفرات" من الحصول على امتيازات هذا المشروع من الحكومة العثمانية سنة ١٨٥٦. وفى الواقع فإن البريطانيين قد اعتبروا منطقة الهلال الخصيب بأجمعها والتى كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية طريقا استراتيجيا مهما إلى الهند[٩].

---

[٩] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٦٨- ٢٦٩.

ومن جانب آخر، كانت بريطانيا تخشى قيام الدول الأوروبية المنافسة لها وخاصة روسيا القيصرية وفرنسا بالاستيلاء على الهند، فالروس كانوا يهددون أفغانستان وحدود الهند الشمالية الغربية بهدف الوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندى والخليج العربى، بينما كان نابليون يحلم بإعادة سيطرته على مصر والوصول إلى الهند، واتصل ببعض حكام فارس وأمراء الهند لمساعدته فى تنفيذ خطة عسكرية لاحتلال الهند، وقد تبلورت تلك الخطة فى معاهدة تلست سنة ١٨٠٧ بين نابليون والإسكندر الأول إلا أن انهيار حكم نابليون وسقوطه بعد الحملة على روسيا ومعركة وترلو قد جعل البريطانيين يتنفسون الصعداء، لكن ذلك الارتياح لم يدم طويلا بسبب ظهور محمد على الكبير فى مصر الذى زحف إلى سوريا والجزيرة العربية مما كان يشكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية فى المنطقة كان على البريطانيين الوقوف بوجهه. وعموما فإن السياسة البريطانية كانت فى البداية تهدف إلى المحافظة على كيان الدولة العثمانية يوجه أى توسع أوروبى، وفى الوقت نفسه تقوية الوجود والنفوذ البريطانى فيها، وكانت مستعدة أيضا لخوض حرب مع روسيا القيصرية إذا حاولت الأخيرة تقويض الدولة العثمانية، ولكن السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية أخذت تتحول بمرور الزمن من سياسة المحافظة إلى سياسة الاحتلال واقتسام الدولة العثمانية بعد أن بدأت هذه الأخيرة تعانى من الأزمات المالية والتنظيمية والاضطرابات التى اجتاحت سوريا ولبنان سنة ١٨٦٠[١٠].

٤- فرنســـا

امتازت العلاقات العثمانية الفرنسية بالصداقة بين البلدين منذ القرن السادس عشر عندما عقدت بين السلطان سليمان القانونى وفرانسوا الأول سنة ١٥٣٥ معاهدة التحالف والصداقة التى وضعت الحجر الأساسى للامتيازات والمصالح

---

[١٠] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٦٨- ٢٦٩.

الفرنسية فى الدولة العثمانية. وقد نصت تلك المعاهدة على تسهيل الملاحة للسفن الفرنسية فى المياه العثمانية.ومنح الحرية الدينية التامة للفرنسيين فى البلاد العثمانية وعدم محاكمتهم أمام المحاكم العثمانية ولذلك نجد أن فرنسا قد وقفت موقفا وديا من صراع النمسا وروسيا ضد الدولة العثمانية ولم تنصرهما أو تحاول الوقوف معهما. إلا أن المواقف تغيرت منذ احتلال نابليون لمصر سنة ١٧٩٨، إذ أصبحت الصداقة متخلخلة بين البلدين لتنضم فرنسا إلى ركب الدول الأوروبية الأخرى المتحفزة للقضاء على الرجل المريض ومع ذلك كانت علاقة فرنسا بالدولة العثمانية جيدة فى كثير من الأحيان[11].

حـرم القـــرم:

كان للتراجعات والانحدارات التى أصابت الدولة العثمانية ولتدخل الدول فى شؤونها أثرها فى حكامها الأتراك العثمانيين الذين حاولوا القيام ببعض الإصلاحات لجعل الدولة العثمانية عصرية فى نظمها العسكرية وتشريعاتها الإدارية والاجتماعية، وقد نجح السلطان محمود الثانى فى إدخال الإصلاحات بتشجيع من الصدر الأعظم رشيد باشا الذى كان سفيرا فى لندن وتأثر بالحياة الدستورية والاجتماعية هناك، فشتت جيش الانكشارية الذى أصبح عالة على الدولة بعد توقف حروبها التوسعية وأنشأ جيشاً نظامياً على أسس حديثة، وحذا حذوه من بعده السلطان عبد المجيد الذى اشتهر بإصداره لائحة إصلاحات (خطى شريف كولخانة) سنة ١٨٣٩ وإعلانها أمام الممثلين والدبلوماسيين الأوروبيين. وقد نصت هذه اللائحة على إعطاء الحقوق الكاملة للأفراد فى الحرية والمساواة فى الضرائب وحق التملك وإصلاح الجيش والقضاء. إلا أن اللائحة لقيت معارضة داخلية شديدة من كثير من العناصر الرجعية والمتضررة مما أعاق تطبيقها كما أنها أثارت مشكلة بين

---

[11] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٢٧٠.

الرعايا المسيحيين حول أحقية حراسة الأماكن المقدسة في بيت المقدس بفلسطين، ذلك أن اللائحة قد أعطتهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية. ومع أن القضية تبدو بسيطة إلا أنها في واقعها تمثل صراعاً بين روسيا القيصرية التي كانت تدعي بتمثيلها للأرثوذكس في العالم وبين فرنسا التي تعتبر نفسها حامية الكاثوليك وتلك كانت المسألة الأساسية التي أثارت حرب القرم فيما بعد، وهي تمثل أيضا مظهر؛ آخر من مظاهر ضعف الدولة العثمانية وتدخل الدول الكبرى في شؤونها في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ففي سنة ١٨٥٢ طلب نابليون الثالث من السلطان العثماني أن يعيد لفرنسا باسم الصداقة القائمة بينهما، الامتيازات الفرنسية القديمة في الأماكن المقدسة، وقد وافق السلطان العثماني بعد تردد على المطالب الفرنسية، وأعيدت للرهبان الكاثوليك حقوقهم القديمة وتسلموا ثلاثة مفاتيح لكنيسة بيت لحم مما أغاظ القيصر الروسي كثيرا الذي كان يهمه أن يتبقى صاحب الكلمة المسموعة عند الأتراك العثمانيين، والذي خشي من تزايد النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية الذي يدعم النزعات التحررية[11].

أراد القيصر الروسي نيقولا الأول معالجة الموضوع بشكل جذري فعرض سنة ١٨٥٣ على السفير البريطاني في روسيا مشروعا لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بأن يصبح مضيق البسفور والاستانة تحت الاحتلال الروسي، وتتوحد الولايات العثمانية الأوروبية في دولة مستقلة. وتكون حصة بريطانيا مصر ورودس وقبرص. إلا أن بريطانيا رفضت المشروع لتناقضه مع سياستها في أبعاد الروس عن البحر المتوسط والحفاظ على الدولة العثمانية، وعليه قرر القيصر الروسي الاتصال بالعثمانيين الأتراك مباشرة. ولكي يأخذ هذا الاتصال طابعا جديا وضاغطا من الجانب الروسي على الجانب العثماني، فقد أمر القيصر بتعبئة جيش روسي وإرساله إلى نهر بروث الذي

---

[11] محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

يؤدى عبوره إلى احتلال مقاطعتي الافلاق والبغدان . العثمانيتين. ومع تجمع القوات الروسية على نهر بروث أوفد القيصر الروسى بعثة برئاسة الأمير منشيكوف فى أواخر شهر فبراير ١٨٥٣ إلى استانبول لتتقدم بمشروع معاهدة تعقد بين روسيا والعثمانيين وتتكون من ثلاثة بنود وهي:[١٢]

١-سحب جميع الامتيازات الممنوحة لرجال الدين الكاثوليك فى فلسطين وإعطائها لرجال الدين الأرثوذكس.

٢-الاعتراف بحق روسيا فى حماية الرعاية العثمانيين الأرثوذكس.

٣-عقد تحالف عسكرى دفاعى بين البلدين.

لم يستجب السلطان العثمانى لهذه المطالب التى وصفها بعض المؤرخين أنها تفوق فى مدى إرهاقها للعثمانيين جميع المطالب الروسية السابقة. وتذكر المصادر أن السفير البريطاني فى استانبول (ستراد تفورد دى رد كلف) قد أشار على السلطان العثمانى قبول البند الأول فقط من المشروع المقترح لأن البريطانيين كانوا إلى حد هذا الوقت يريدون الحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية؛ وقد أدى ذلك إلى فشل مهمة منشيكوف واجتياز القوات الروسية لنهر بروث واحتلالها الافلاق والبغدان، ومن ثم قيام الحرب بين البلدين فى أواخر سنة ١٨٥٣ مما دفع البريطانيين والفرنسيين إلى إرسال أسطولهما إلى البحر الأسود لكبح جماح الروس، لكن ذلك التدخل قد أدى فيما بعد إلى إعلان الدولتين الحرب على روسيا فى ٢٨ مارس ١٨٥٤ . وقد كان إغراق الروس للأسطول العثمانى فى البحر الأسود السبب المباشر لدخول بريطانيا وفرنسا الحرب ضد روسيا، إذ اعتبرناه عملاً عدوانياً ضدهما. وفى الواقع أن هناك أسبابا متعددة دفعت هاتين الدولتين لنجدة الدولة العثمانية وهى:-

---

[١٢] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٢٣٥.

١- بريطانيا:

كان الرأى العام البريطانى متعاطفا مع العثمانيين منذ رفضهم تسليم اللاجئين المجريين إلى النمسا أو الروسيا، أولئك اللاجئين الثوار الذين قد أخضعت النمسا ثورتهم. وقد أدت أخبار إغراق الروس للأسطول العثمانى إلى إثارة موجه شديدة من الحنق فى بريطانيا ضد روسيا، إن موقف الرأى العام البريطانى هذا وقد تناغم مع السياسة البريطانية التقليدية فى الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ضد التوسع الروسى الذى يهدد المصالح البريطانية فى الهند والخليج العربى والبحر المتوسط. وتذكر المصادر أن الموقف الصلب الذى وقفه العثمانيون أمام الضغوط الروسية الدبلوماسية قد جاء نتيجة للإسناد البريطانى المتمثل فى شخص سفيرها فى الآستانة الذى أحبط مذكرة تقدمت بها بريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا فى ١٢ ديسمبر ١٨٥٣ إلى روسيا تحثها على التخلى عن مطالبها المتطرفة. ومن الملاحظ أن النقاط التى جاءت بها المذكرة قد أرضت القيصر الروسى والسفير العثمانى فى النمسا، لكن السفير البريطانى دفع القيصر على رفضها[١٣].

٢- فرنسا:

كانت فرنسا إضافة إلى شعورها بضرورة الوقوف بوجه روسيا فى محاولاتها تحويل السلطة الدينية فى الأماكن المقدسة من الكاثوليك إلى الأرثوذكس، فإن نابليون الثالث كان يريد تعديل مقررات مؤتمر فيينا ومبادئه وأن يقدم العون لإيطاليا ويتجنب الأخطاء التى أدت إلى سقوط سلفه نابليون الأول. ولما كانت بريطانيا سيدة البحار فقد تحالف معها ضد روسيا التى كان رجال الدين الفرنسيين يمقتونها، كما أن الجمهوريين الفرنسيين كانوا يكرهونها بسبب نظام الحكم الاستبدادى

---

[١٣] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ٢٣٥.

القائم فيها ولذا فقد كانت هذه الحرب بالنسبة للفرنسيين وسيلة لاستعادة نفوذهم القديم[14].

٣-النمســـا:

كانت النمسا حليف تقليدى لروسيا، وتدين للقيصر بالخدمة التى قدمها لها بإرساله حوالى مائة وخمسون ألف جندى سنة ١٨٤٩ للقضاء على الثورة المجرية والحفاظ على سلامة أراضيها. ومع ذلك فقد كانت النمسا قلقة جدا من ازدياد النفوذ الروسى فى البلقان، ولم تكن راضية على احتلال روسيا للافلاق والبغدان الملاصقتين لأراضيها. بل إنها كانت تخشى كثيرا انهيار الدولة العثمانية على أساس مبدأ القوميات والمطالبة بحقوقها لأن ذلك سيؤدى إلى انتقال القضية والمبدأ القومى إليها لتصبح الرجل المريض الثانى بعد العثمانيين.

ولهذا بذل الفرنسيون والبريطانيون كل جهودهم إدخال النمسا إلى جانبهم فى الحرب، وبذلت النمسا كل جهودها للتوسط فى إنهاء الحرب[15].

العمليات الحربية:

استمرت معارك حرب القرم خلال سنتى ١٨٥٤-١٨٥٥ وقد تركزت المعارك فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود بعد أن انسحبت روسيا من مقاطعتى الافلاق والبغدان فى شهر أغسطس ١٨٥٤ بناء على طلب النمسا التى احتلتها حالا ريثما يتم التوصل إلى اتفاق. وقد جاءت موافقة الروس إثر هزيمتهم فى حصار مدينة سيليستريا الواقعة على نهر الدانوب بعد أن طال الحصار وتفشت الكوليرا بين الجنود الروس، ولم يحقق الجانبان فى معارك القرم بعد ذلك أية نتائج حاسمة رغم دخول

---

[14] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٣٦.

محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٨.

[15] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٨٢.

سردينيا كافور الحرب ضد روسيا طمعاً فى كسب عطف البريطانيين والفرنسيين لمساعدة الإيطاليين فى القضاء على مقاومة النمسا لمساعيهم فى الوحدة القومية ثم جاءت الوساطة النمساوية فى أواخر سنة ١٨٥٤، ولكنها لم تؤد إلى نتائج بسبب عدم موافقة القيصر الروسى على قبول بنود الوساطة دون قيد أو شرط وهو ما طلبته فرنسا وبريطانيا. لكن تبدل الظروف سنة ١٨٥٥ قد أدى إلى إنهاء حرب القرم، فقد توفى القيصر الروسى نيقولا الأول وخلفه إسكندر الثانى فى الثانى من مارس، والذى كان ميالاً إلى السلم والاهتمام بالشؤون الداخلية لروسيا أكثر من ميله إلى التوسع أو التدخل فى الشؤون الأوروبية. كما أن الأزمة المالية لروسيا وخسائر الأسطول الروسى وسقوط مرفأ سباستبول استراتيجى قد دفعت القيصر إلى قبول الإنذار النمساوى الذى أرسل إلى روسيا فى أوائل سنة ١٨٥٦ والقاضى بقبول روسيا شروط إنهاء الحرب التى عرضتها النمسا سابقا أو دخول النمسا الحرب ضدها[١٧].

معاهدة باريس ٣٠ مارس ١٨٥٦:-

لقد أدى قبول روسيا لشروط السلام والقاضية بوضع نظام جديد للافلاق والبغدان بضمانه أوروبية وحرية الملاحة فى الدانوب وتنازل روسيا عن مطالبها فى حماية المسيحيين فى الدولة العثمانية وإعادة النظر فى معاهدة المضايق الموقعة سنة ١٨٤١ إلى عقد مؤتمر سلام فى مدينة باريس انتهى بتوقيع معاهدة للصلح عرفت باسم معاهدة باريس ٣٠ مارس ١٨٥٦.وقد جاءت بنودها بالأتى:-[١٨]

١-إعلان حرية الملاحة فى نهر الدانوب وتأليف لجنة دولية للإشراف على ذلك.

---

[١٧] فشر، تاريخ أوروبا الحديث، ص٢٢٢.

[١٨] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٨٤.

٢-حرم على روسيا إبقاء سفن حربية فى البحر الأسود أو إنشاء معامل حربية أو حصون علية.

٣-تتمتع ولايتى الافلان والبغدان بالاستقلال الذاتى تحت سيادة الدولة العثمانية.

٤-يتعهد السلطان العثمانى بالقيام بالإصلاحات التى وعد بها رعاياه المسيحيين وجميع المذاهب الكبرى والأديان الأخرى على أن لا تتدخل الدول الكبرى فى شئونه الداخلية.

٥-ضمنت الدول الكبرى جميع الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها صربيا بسبب حيادها فى الحرب مع بقائها خاضعة للسيادة العثمانية، وأكرهت روسيا على إرجاع قارص فى أرمينيا إلى الدولة العثمانية والتى احتلتها بعد سقوط ساستبول وأعيد جنوب سباربيا إلى ملدافيا، وأصبحت هذه الأخيرة ذات استقلال داخلى تحت السيادة العثمانية.

كانت معاهدة باريس هذه علامة ضعف جديدة فى الدولة العثمانية رغم أنها قد أطالت فى عمرها. ذلك أن تمهيد بقائها على الحياة قد جاء بفضل الدول الأوروبية الحليفة لها وليس نتيجة لانتصارات حققتها بنفسها ولوحدها. ولذلك نجد أن المعاهدة فرضت على السلطان العثمانى القيام بإصلاحات وضمنت الاستقلال الذاتى للافلاق والبغدان وصربيا ومناطق أخرى، وهى علامات تدخل فى شؤون الدولة العثمانية مع أنها كانت منتصرة[19].

وكان بين الجالسين حول نضد الصلح فى مؤتمر باريس، والكونت كافور الذى صار رئيس وزراء بيدمنت سنة ١٨٥٢. ولقد استطاع هذا السياسى الكبير البعيد النظر، بعد خوضه معركة من أعنف المعارك البرلمانية قامر فيها بكل ما يملك كما

---

[19] محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٨٤.

يفعل فى الغالب أقطاب السياسة لكى يفوزوا بأكثر الأربـاح - استطاع هذا السياسى أن يحمل برلمان بلاده فى يناير سنة ١٨٥٥ علـى الموافقة على إنقاذ فرقه سردينية إلى القرم.

والتوفيق يلازم الجسور عادة. وهذا ما تم للكافور يدفعه ثمنا تافها هو خسارة ثمانية وعشرين قتيلا فقدتهم كتيبة بلاده فى معركة تشرنايا Tchenaya وإصابة عـدة آلاف من رجالها بالكوليرا، فإنه كسب الحق فى أن يرفع ظلمات إيطاليـا أمام ممثلى ممالك أوروبا على مائدة الصلح عندما وضعت الحرب أوزارها.ويضاهى عمله أقداما وجسارة وقوة عزيمة، ولكن فى مضمـار آخر - عمل سيدة إنجليزية نشأت فى مهاد العز وبحبوحة الحياة الناعمة الفكتورية. فقد أشجنها قصـص الآلام المبرحـة التى يعانيها الجند الإنجليز فـى حرب القرم. فهجرت وطنها. وسافرت لتمرض الجرحى، ورفعت بمثالها الحى هذا، وأنموذجها الشخصى، ونشاطها المتأجج إبـان الحـرب وبعدها، مركز صناعة التمريـض بـين مواطناتـها، وحسـنت مستوى الصحـة العامـة. وبتأثيرها - ولعله كان أقوى من أى تأثير فردى آخر - ظفرت لنساء وطنها بحـق الدخـول فـى مهن مفيدة جدية. والحق أن عمل فلورنسى نيتجيل Florence Nightingale الباهر وجرأتها الخارقة فى تحدى تقاليد عصرها البالية، وانخراطها فى عملها الجديد لتخفيف الآلام البشرية، هى إحدى المكافآت القليلة التى عوضت عن التدمير والتخريب والتبديد التى أحدثتها حرب القرم[٣٠].

---

[٣٠] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

الفصل السابع

الوحدة الإيطالية

الوحدة الإيطالية

لم يلبث قول نابليون الثالث أن الإمبراطورية تعني السلم أن تعرض لامتحان جديد وفى هذه المرة أيضا تعد آراء الإمبراطور ومطامحه الشخصية مسئول إلى حد بعيد عن نشوب الأعمال الحربية التى ساقت فرنسا إلى تلك الساحة الشهيرة من ساحات القتال ألا وهى شمال إيطاليا،وهذه الحرب الجديدة تختلف من عدة أوجه اختلافا بينا عن حرب القرم فقد حسمتها معركتان هامتان ولم تسبب نزاعا طويلا كذلك الذى سببته حرب الخنادق الطويل حول سباستبول وهى فوق هذا كله أول حرب تدور بصراحة حول مبدأ القومية، الذى أصبح الطابع الجديد المميز للمشكلات الدولية فى القرن التاسع عشر. فالقومية هى الكلمة التى باتت توقد الحماسة فى النفوس والتى تعلق بها العصر تعلقا كاد يصل إلى حد الخرافة، وهى تعد من ناحية استمرار وتكملة للعملية التى كانت تسرى منذ عصر الإصلاح الدينى فقد تراجعت كافة المؤسسات التى تمثلت فيها الوحدة الإنسانية إلى المؤخرة أو سقطت (زالت الإمبراطورية وفقدت الكنيسة نفوذها السياسى القديم) وغدت الدولة هى الوحدة التنظيمية التى لها كل الأهمية ولم تعد تعترف بأية سيادة أو تقر بأى حد لسلطانها وعلى انه بازدياد أهمية الدولة وسلطانها تجلت أهمية النظر فى الأساس الذى يرتكز عليه هذا السلطان. كانت الحركة الدستورية التى تزعمتها إنجلترا قد بلغت من العمر ما يربو على مائتى عام وأحرزت انتصارات كبرى، فقد انتشرت الدعوة إلى تحقيق الوحدة بين الدولة والشعب وقيام مشاركة إيجابية بين الحكومة والأهالى ونالت هذه الدعوة الاعتراف والتأييد فى أحوال كثيرة فنشأت عن ذلك قضية جديدة. ما هى الصفات التى ينبغى توافرها فى الشعب كى يؤلف دولة؟ وهل تعد أية مجموعة من الأفراد مهيأة لحياة الدولة؟

لقد صحا الناس على وعى وإحساس جديد بمعنى القومية وتجلى هذا الوعى والإحساس الجديد أقوى ما تجلى لا بين تلك الأمم التى فازت من قبل بقدر موفور من الاستقلال القومى والوحدة مثل الفرنسيين أو الإنجليز أو الأسبان وإنما بين تلك الأمم التى لم تسفر بعد دولة قومية والتى ألفت نفسها نتيجة للتطور التاريخى مختلطة باسم قوميات أخرى بنفس الدولة[1].

مازينى والوحدة الإيطالية؟

أثبت الشعور القومى قوته فى شبه جزيرة البلقان على غموضه العادى فى كثير من الحالات. وبلغ هذا الشعور مبلغ العاطفة الدينية لدى أعداد هائلة من البولنديين وكان لهم شأن كبير فى إخفاق الوحدة بين هولنده وبلجيكا على أن البلدين اللذين أسفروا فيها هذا الشعور عن النتائج السياسية والعسكرية هما ألمانيا وإيطاليا. كانت ألمانيا قد جزئت أجزاؤها منذ العصور الوسطى. ولم يكن تكوينها الغامض الذى يضم التشيكيين وبعض البولنديين وعناصر أخرى غير ألمانية بالذى يرضى الرغبة القومية فى الوحدة أما إيطاليا فكانت حالتها أسوأ من ذلك وأدهى. إذ كانت قد فازت بقدر موفور من الوحدة القومية فى ظل نابليون فلم تنس تلك التجربة ولكنها أصبحت توصف اعتبارا من ١٨١٥ "بأنها مجرد إصلاح جغرافى" وآلت السيطرة عليها من جديد إلى الأباطرة النمساويين. ولقد شاهدنا كيف انتهت إلى الفشل، أو الفشل الظاهرى على الأقل – المحاولات التى بذلتها فى ١٨٤٨ ولكن هذا الفشل لم يؤدى إلى إخماد الإحساس القومى بل لعله ـ عززه وأحياه. وكانت هناك حقاً فروق ضخمة بين سكان شبه الجزيرة من حيث العنصر والطباع فسمة فرق شاسع من اللغة والشعور التاريخى بين اللومباردى والصقلى إلا أن القومية – الأمر الذى أصبح لنا الآن – هى مسألة شعور أكثر منها مسألة حقيقية موضوعية وهنا يجدر

---

[1] جرانت، تمبرلى، أوروبا فى القرن التاسع عشر والعشرين، ج١، ص٤٤٣ – ٤٤٤.

بنا أن نشير إلى عظمة شعوب إيطاليا السالفة وعلى الذكريات الباهتة لأيام الإمبراطورية الرومانية وأشعار دانتي وفنون عصر النهضة وعلومه بوصفها جميعا من الأشياء التي ساعدت على بقاء ما من شأنه إثارة كبرياء الإيطاليين الوطني قد ساعدهم وساهم في تعزيز رغبتهم في أن تكون لهم دولتهم الخاصة بهم. ولكن تأثير مازيني يفوق في أهميته كل تأثير آخر على العقل الإيطالي. فالدعوة إلى القومية الإيطالية لم تكن عنده وعند أتباعه مسألة نابعة من التحليل والمنطق وإنما من الإيمان الدافن الذى يبلغ العقيدة الدينية. ولقد كان قيام إيطاليا المتحدة الحرة الديمقراطية الجمهورية هو الهدف الأوحد الذى طغى على كل ما عداه في نفسه والمثل الأعلى الذى برح ينادى طوال حياته بضرورة السعى إليه الوسائل ومهما كان الثمن.

وقد تمسك بكل نقطة من نقاط برنامجه هذا فلم يكن إرساء دعائم الديمقراطية في إيطاليا وإقامة الجمهورية في ربوعها أقل أهمية في نظره من تحقيق وحدتها وحريتها. ولم يكن ليستطيع أن يروض نفسه على قبول هبة الوحدة والحرية على يد الإمبراطور وملك سردينيا ولا يفوتنا أن نضيف إلى ذلك أنه قد استطاع أن يمتد بصره إلى ما وراء القومية ليحلم بانتظام أم أوروبا طواعية واختيارا في رباط أعظم من التعاون السلمي[٢].

وقد بدت أحلامه هذه بل أية أحلام أخرى غايتها قيام الوحدة الإيطالية ابعد ما تكون عن التحقيق في منتصف القرن. فقد عادت النمسا تحكم من جديد بعناد وحماقة بل وفي كثير من الأحوال بقوة مبعثها الخوف. ولم يقتصر حكمها على أملاكها الخاصة في سهل لومبارديا. فدوقيات الوسط باتت خاضعة هي الأخرى لنفوذها والبابا أنشأ يتطلع إليها بحثا عن العطف الصادق بدلا من فرنسا، أما ملك

---

[٢] جرانت، تمبرلي، أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين، ج١، ص٤٤٥.

نابولى فقد أظهر من قبل مدى اعتماده على فيينا. وإذا كان استرضاه النمسا للأهالى لها أمرا عسيرا على كل حال فإنهم لم تبذل أية محاولة جديدة فى هذا السبيل وقد حدث أن انبسط الأشراف على لومبارديا فى ١٨٥٧ إلى "مكسمليان" شقيق الإمبراطور فرنسيس الأصغر، الذى سيلعب دورا مفجعا للغاية فى المكسيك فيما بعد وكان مكسمليان عطفاً حقيقياً على الأفكار المتحررة فقام بمحاولة صادقة لإصلاح الإدارة، ولكن فيينا لم تلبث أن تبرأت من أعماله وشددت النكير ماليا وعسكريا على البنادقة وأهالى ميلانو أكثر من ذى قبل.[٣]

مملكة سردينيا:

ولم تكن سردينيا إيطالية الهوى والشعور لأن حاكمها الملك "شارل البرت" Charles Albert كان متأثرا بالثقافة الفرنسية يفضل بها الكلام على اللغة الإيطالية. وعلى الرغم من أن شعب سردينيا كان متأثرا ببلاط حاكمه شارل البرت، فرنسى الهوى فى تقاليده ومظاهره فإنه كان شعبا ذا نزعة حربية، كما كان لأسرة الملك نفسه مطامع سياسية ونشاط يدفعها إلى تحقيق تلك المطامع. وقد أعلن أمله فى أن تتفق إيطاليا على طرد الأجنبى منها. وكان الرجل برغم تردده لا يخلو من الشجاعة. ويرجع تردده فى الغالب إلى تفانيه فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية ثم اعتقاده بأن تحرير إيطاليا وسيادة الأفكار الحرة الديمقراطية فيها سيعوق الوحدة الإيطالية. ولا شك فى أن موقف الرجل يدل على أنه كان صادق الرغبة فى تخليص إيطاليا من الحكم الأجنبى، ولكنه كان يكره أن تحرر من حكم قوى لا يستند إلى الاستبداد. فكان يرغب فى تخليص إيطاليا من العدو الأجنبى ويعنى النمسا. ولم

---

[٣] جرانت، تمبرلى، أوروبا فى القرن التاسع عشر والعشرين، ج١، ص٤٤٥ – ٤٤٦.

يكن من السهل إقناعه بأن الحرية السياسية كانت خطوة أساسية للتحرر من الحكم الأجنبى[٤].

اتجهت أنظار الإيطاليين نحو هذا العاهل الذى صرح بآماله فى توحيد إيطاليا. وقد وجد كثيرون من الإيطاليين الأحرار مثل ما اضطروا إلى مبارحة بلادهم ملجأ فى هذا البلد حيث تمتعت الصحافة بحرية لم تتمتع بها فى سائر أنحاء إيطاليا. واسهم كافور بجهد عظيم فيما كانت تنشره الصحف، فقد كان محرر جريدة البعث. وكان يدين بالمبادىء الديمقراطية بل حث المواطنين على المطالبة بالدستور. واضطر شارل البرت إلى أن يمنح شعبه ذلك الدستور الذى قاده إلى الحرب ودفعه إلى الخراب والمنفى ثم الموت، ولكنه جعل من ابنه ملكا على عرش إيطاليا الموحدة. حقق هذا الدستور لمملكة سردينيا حكما ملكيا مقيدا على غرار النظام الإنجليزى وقد عم هذا الدستور فيما بعد مملكة إيطاليا المتحدة، وظل قائما إلى أن ظهر موسولينى Moussolini فأدخلت عليه بعض التعديلات[٥].

دور كافور فى الوحدة الإيطالية:

فشلت حركات عام ١٨٤٨ الثورية فى إيطاليا فى تحقيق الوحدة وتطبيق المبادئ الديمقراطية ويرجع ذلك إلى عدم اتحاد الأغراض وانعدام وجود قيادة منظمة تجمع بين الإيطاليين جميعًا كما أن إيطاليا لم تلق أية معونة خارجية. وكان كافور يشك فى مقدرة إيطاليا على تحقيق الوحدة ويرى وجوب الاستعانة بفرنسا لطرد النمسا من إيطاليا.

وكانت هذه هى النقطة الأساسية فى سياسته فى سبيل وحدة إيطاليا. ومن الأثار الهامة لحركات ١٨٤٨ الثورية فى إيطاليا أنها أبرزت عظمة مملكة سردينيا، ولم

---

[٤] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٣٤٣ – ٣٤٤.

[٥] نفسه، ص ٣٤٤.

يكن لها ذكر مثل هذه الأحداث، فبدأت في وضع أسس عظمتها المستقبلة عندما انضمت إلى ميلان في حركة مقاومتها للنمسا.

وقد أظهر فكتور عمانويل عزمًا أكيدًا على تحرير إيطاليا، وعداء صريحا إزاء النمسا. ولا شك في أن اسمه سيظل خالدًا ومعه اسم كافور الذى بدأ وزارته العظيمة في عام ١٨٥٣. وكان ابنا لأحد النبلاء من بيدمنت المتشبعين بالروح الحربية والآراء المتطرفة في الحكم. وقد نشأ نشأة عسكرية. ولكنه منذ صغره اعتنق مبادئ الحرية، وترك الجيش، وقام برحلات عديدة درس أثناءها الحياة السياسية في فرنسا وانجلترا بوجه خاص. وأظهر دراية تامة بالسياسة الأوروبية عندما كان عضوا في برلمان سردينا. وتأثر بإقامته في انجلترا فأخذ بمبادئها الحرة وأراد أن ينشرها في مملكة سردينيا ثم إيطاليا كلها إذا ما أعانته الظروف بعد ذلك في خلال حكمه الطويل (١٨٥٣ – ١٨٥٩)، (١٨٦٠ – ١٨٦١) وضع بذور الحكم الديمقراطي الذى تأصل بعد ذلك في إيطاليا[١].

إصلاحات كافور

عمل كافور منذ بداية عهده في رئاسة الوزراء أن يجمع شمل تلك المملكة التي عهد إليها بإدارة شئونها، ويشيد فيها دولة قوية تمتاز بممارستها للنظم البرلمانية لتستطيع أن تقبض على زمام الحركة الإيطالية، وتحتفظ بقيادتها وتتولى توجيهها. وساعده في تحقيق خططه أمور منها:–[٢]

١ – الدستور الذى ورثته بيدمنت من عهد الملك السابق.

٢– الشعب الذى عرف بنشاطه الجم.

٣– وجود ملك عظيم الهمة شديد الحماسة لتحقيق أهداف إيطاليا القومية.

---

[١] زينب عصمت راشد. تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٤٧.

[٢] زينب عصمت راشد. تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٣٤٨.

٤- الجيش الذى كان يوعند يتميز عن بقية الجيوش الإيطالية بدقة تنظيمه وحسن تدريبه.

انتهى نضال كافور ضد الكنيسة إلى نتائج محمودة. فطعن فى قانون السيكاردى Siccardi الذى صدر فى بداية عام ١٨٥٠م على ما كان للمحاكم الأكليركية من حقوق وما كان للاكليروس من مركز مميز أمام القانون. ونجح فى تخفيض إيرادات الأوقاف للكنيسة والدخل الوفير لكبار رجال الكنيسة فى إغلاق ما يزيد على ثلثمائة دير. وآقر برلمان تورين التشريع الخاص بالزواج المدنى رغم مقاومة الفاتيكان الشديدة. ودعمت الإصلاحات التى جعلت من بيدمنت دولة عصرية متحررة بوضع ميزانية متعادلة للدولة وإبرام سلسلة من المعاهدات التجارية، واهتمام الحكومة المتصل بمد خطوط السكك الحديدية وتحسين طرق الزراعة، وتطوير أساليب الصناعة، والعناية بإنشاء جيش قوى وتدريبه على أحدث النظم، لتتخذ منه مملكة سردينيا فى الوقت المناسب أداة لطرد النمساويين إلى ما وراء جبال الألب.

اشتهر كافور بآرائه الديمقراطية وإخلاصه لقضية إيطاليا الكبرى وآيتها تحقيق الوحدة وكان هو ومازينى يتحدان فى الغرض وهو تحرير إيطاليا وتوحيدها وإن كان قد امتاز عن مازينى بواقعيته فى تخطيط مشروعه، وكذلك فى إدراكه للمشاكل التى تعترض سبيله فى تحقيق ذلك الغرض. وكان يرى أن إيطاليا لن تستطع وحدها أن تصل إلى ما تسعى إليه من هدف، فالحماسة وحدها ليست كفيلة بتحقيق ذلك، ولذلك تلفت يبحث عن حلفاء، وبذل فى سبيل ذلك أقصى ما يملك من جهود.[٨]

---

[٨] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٤٨.

الصدام بين ماتزيني وكافور:

على الرغم من اتفاقهما في الغرض إلا أنهما اختلفا في كثير من الأمور ونظرة سريعة في حياة الاثنين تظهرنا على ما كان بينهما من فروق، فكافور كان ارستقراطي النشأة، كما كان واقعياً، لا يفتأ بجهد نفسه في التفكير والتدبير قبل أن يقدم على العمل حتى لا يتعرض للفشل. وكان ماتزيني غزير العلم واسع الثقافة، ومع ذلك فقد كان كافور أقدر منه على ممارسة الأساليب السياسية التي شاءت الأقدار أن تكون عاملاً من عوامل النجاح في سبيل تحقيق الأغراض السامية. وكثيرون يرون أن سياسة كافور العملية كانت أجدى على إيطاليا وأرشد، فهي خير من مثالية ماتزيني وأساليبه الروحية، ومع ذلك فليس في الاستطاعة أن ننكر على ماتزيني فضله في خدمته لقضية الإيطاليين، فالإيطاليون كانوا بحاجة إلى الغذاء الروحي الذي كانت تمتلئ به آراء ماتزيني.

اتهم كافور ماتزيني بأنه مدبر حادث الاعتداد على حياة نابليون الثالث، وذكر في البرلمان السرديني أن صوبة المعتدى التالية ستصوب نحو الملك فيكتور عمانويل.[9]

وقد هيأت حرب القرم لكافور ليضرب ضربة من ضرباته الدبلوماسية الموفقة ولم يكن لايطاليا حقا في أية مصلحة في النزاع القائم بين روسيا والحلفاء ولكن أعداء روسيا كانوا في مسيس الحاجة إلى العون والتأييد، فإذا دخلت سردينيا الحرب إلى جانبهم ظهرت بمظهر الدولة الأوربية الهامة وأصبح لها حق الجلوس في المؤتمر الذي يتولى وضع شروط الصلح وربما إعادة رسم خريطة أوربا كلها وعلى ذلك توجه الجنود السردينيون إلى القرم، وحاربوا بنجاح مرموق في معركة شريانا

---

[9] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٣٤٨ – ٣٤٩.

مثبتين بذلك أن الهزيمة التى منى بها الإيطاليون فى معركة نوفار لم يكن مؤدها إلى تميز فى طبيعتهم عن القتال وقد قال أحد العسكريين البيدمونتيين يومذاك[10]:

"إن إيطاليا سوف تصنع من هذا الطين" (طين خنادق سباستبول) وهذه الكلمات تعبر أفصح التعبير عن هدف كافور الأساسى، وقد أتاح مؤتمر باريس لكافور بالفعل الفرصة التى كان يتمناها للمجاهرة بشكاوى إيطاليا.

وقد نال تأييدًا حارا من كلارندون وزير الخارجية الانجليزية واستمع المؤتمر لبيان رسمى عن سوء الحكم فى إيطاليا جنوبًا وشمالا وعن الأخطار الدولية النائية عن ذلك وهكذا أصبحت سردينيا جزءا معترفًا من نسيج أوربا الدبلوماسى ولقد كانت المهمة التى كرس لها كافور حياته ووقف عليها دهاءه هى إعادة تشكيل ذلك النسيج بحيث تدخله إيطاليا الحرة المتحدة.

ولم يكن كافور يعتد كثيرًا بعبارة (أن إيطاليا ستتولى أمرها بنفسها) التى تباهى بها البعض فى فترة سابقة إذا كان لها الأمر رأى قاطع هو أن إيطاليا إذ تتولى الأمر بنفسها لم تتمكن من بلوغ الهدف المنشود، فجعله شغله الشاغل كسب محالفة فرنسا لإيطاليا فى كفاحها وكان نابليون الثالث قد عرف فى شبابه طرفا من الحركة الثورية فى إيطاليا وقد اجتذبه إلى صف كافور عاطفة الصادق على مبدأ القومية الذى ما برح يدعو له فى إخلاص ولكن الأمر اقتضى كل دهاء كافور وحنكته لتحويل هذا العطف المهم إلى عمل محدود والحيلولة دون تراجع نابليون عندما تجلت أخطار المهمة.

وفى يناير ١٨٥٨ وقع اعتداء ألقيت فيه القنابل على نابليون والإمبراطورة بينما كانا فى طريقهما إلى دار الأوبرا وقد نجوا من الحادث، ولكنه أسفر عن قتل وإصابة كثيرين واعتقل على أثره عدد من الإيطاليين وما لبث التحقيق أن كشف أن

---

[10] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جـ١، ص٤٤٨، ٤٤٩.

اليد الأولى فى المؤامرة لإيطاليا يدعى اورسينى ورغم أن هذا كان على صلة وثيقة بمازينى فى يوم من الأيام فقد تعذر إثبات عطف مازينى على محاولة الاغتيال. وقد أعلن اورسينى أنه إنما أقدم على فعلته لاعتقاده أن نابليون قد خان قضية إيطاليا. وكتب من سجنه رسالتين إلى الامبراطور يناشد فيهما على تحرير إيطاليا وكانت صيحته الأخيرة من فوق خشبة المقصلة "لتحيا إيطاليا" وبدلا من أن تؤدى تلك الأحداث إلى إبعاد نابليون عن قضية إيطاليا تراها قد أدت – على ما فى ذلك من غرابة بادية – إلى زيادة قربه منها، وما لبث أن اتخذ فى يونيو ١٨٥٨ الخطوة التى تعد حاسمة بمعنى الكلمة.[١١]

وكان نابليون ميالا إلى إلقاء دفة الشئون الخارجية فى يديه والتصرف فى بعض الأحيان دون علم وزرائه المسئولين. فبعث برسالة إلى كافور عن طريق مصدر من مصادره الخاصة يبلغه فيها أنه يزمع قضاء الصيف فى بلومبير وأنه يسره أن يراه هناك، فأدرك كافور لتوه ما يكمن وراء هذه الدعوة البسيطة المظهر من أمور جليلة وكتب إلى أحد أصدقائه "إن الدراما تقترب من ذروتها" وتم اجتماعه بالامبراطور يومى ٢١، ٢٢ من يوليو حيث أجريا محادثات طويلة فى قصر نابليون أولاً ثم فى نزهة طويلة حول المدينة قاد فيها نابليون العربة بنفسه، كانت الحرب هى هدف المتآمرين (فقد كانا فى الحقيقة متآمرين مهما يكن من مثالية أهدافهما). وقد وعدت فرنسا بتأييد سردينيا فى حرب ضد النمسا على شرط أن يتولى كافور إيجاد الذريعة التى تبرر مسلك فرنسا فى نظر أوربا وفى هذه الحرب يتم طرد النمساويين من شبه الجزيرة الإيطالية فيؤلف الشمال مملكة إيطاليا برئاسة فيكتور عمانويل ثم ترتبط البلاد كلها بعد ذلك برباط اتحادى يرأسه البابا.

---

[١١] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جـ١، ص٤٥٠، ٤٥١.

كان كافور يعلم حسن العلم أنه لن يتمكن من بلوغ هذه النتيجة دون سيف فرنسا ونابليون فماذا عساه أن يكون الثمن؟ لا مراء في أن نابليون سيرحب بخدمة قضية يؤمن بها إيمانا صادقا، وفي نفس الوقت سيفوز بمكانة عظيمة تدعم عرشه وذلك أمر له أهميته البالغة، ولكن هل تراه يكتفي بذلك؟ لقد طلب أيضا جزاء ماديا هو التنازل لفرنسا عن سافوي ونيس (سافوى مهد البيت المالك والدولة السردينية ونيس مسقط رأس غاريبالدى) وموافقة فكتور عمانويل على تزويج ابنته البالغة من العمر ستة عشر ربيعا إلى ابن عمه الأمير نابليون ولن يلبث المستقبل أن يثبت مدى ما في إصراره على هذه الشروط أو أي شروط أخرى من مجافاة للحكمة والسداد. فلربما كان بوسعه أن يتحاشى كارثة كبرى في تحقيق حريتهم سنة ١٨٧٠ لو لم يكن يسيئ إلى مشاعر الإيطاليين الذين ساهم مساهمة كبرى في تحقيق حريتهم. ولكن علينا أن نذكر أنه كان مضطرا لتبرير مسلكه أمام الفرنسيين لا أمام الإيطاليين وحدهم.

لقد فاز كافور إذن بالوعد الذى كان يصبو إليه بدخول فرنسا الحرب إلى جانبه وبقي عليه أن يشعل تلك الحرب على نحو تبدو معه كأنها عمل عدواني من جانب النمسا. وقد توافرت لديه مرارا أثناء سعيه لتحقيق تلك الغاية أسباب للشكوى من الامبراطور شريكه في المؤامرة، ذلك أن الفتور كان يعقب نوبات الحماسة دائما عند نابليون. وقد سارت الأمور على ما يرام حتى نهاية ١٨٥٨ فقد وقعت في ديسمبر من تلك السنة معاهدة سرية بين فرنسا وسردينيا سميت حلفا دفاعيا وتقرر فيه أن تقدم فرنسا لحليفتها في حالة الحرب ٢٠٠٠٠٠ رجل وأن تعمل على إجلاء النمسا عن إيطاليا. فأحس كافور بالثقة والطمأنينة وكتب يقول: "لقد وضعنا النمسا في مأزق لن تستطيع الإفلات منه دون إطلاق المدافع، وعم الانفعال شمال إيطاليا وراح الناس يهتفون لفكتور عمانويل ومملكة إيطاليا" وينادون "فلتحيا إيطاليا".

الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩

وكذلك كانت النمسا فى نظر كافور، فقد رأى فيها العدو الأكبر للوحدة الإيطالية. غير أنه على حين أن ماتزينى لم ير سبيلا إلى غايته إلا عن طريق الخناجر والمؤامرات، فإن لباب خطط كافور لتحرير إيطاليا كان صرع النمسا فى ساحة الوغى على يد جيش فرنسا وبيدمنت المتحدين. ففى تورين كان الجميع يتأهبون للقتال والحرب، أما فى باريس فكانت زوايا التويلرى الخفية – حيث كان يجتمع المتآمرون الطليان – كانت تزخر بالآمال والدسائس[١٢].

وخطا نابليون الثالث – الذى كان فى خبايا نفسه "كاربوناريا" ولكن الأحداث والسياسات المتضاربة أخذت تنازعه بعد قبضته زمام الأمور فى فرنسا – خطا خطوة هامة حاسمة فى يوليو سنة ١٨٥٨، بدعوته فى الخفاء ودون أن يطلع وزراءه أو يستشيرهم كافور لمقابلته فى بلومبير Polembiers بإقليم الفوج. وهناك أوضح للسياسى الإيطالى فى مقابلتين خطته الخاصة بتنظيم إيطاليا بعد تطهيرها من النمساويين.

وقد رسم فى هذه الخطط إنشاء مملكة إيطالية فى الشمال، تمتد من الألب حتى البحر الأدرياتى، ومملكة أخرى تجمع من هنا وهناك وسط إيطاليا ودولة بابوية. لأن الرأى الأكليركى فى فرنسا كان يطالب بوجوب بقاء البابا فى روما، ومملكة مصلحة فى نابولى. ويربط هذه الدويلات بعضها ببعض شكل ما من أشكال الاتحادات التعاهدية تحت رياسة البابا. وحزر الرجلان أنه لا مفر من الدخول فى حرب مع النمسا. ولكنها اتفقا على أن تكون حربا يبررها عذر يستهوى أفئدة الفرنسيين: حربا تظهر فيها النمسا كالمعتدى الجبار، وبيدمنت كالدولة الضعيفة البريئة التى تناضل فى سبيل حياتهاوكيانها. وفى هذه الحالة يمكن لكافور أن يعتمد على

---

(١٢) فشر، تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص٢٣٣.

عون فرنسا له، يشرط أن تعطى بعض التعويضات جزاء تضحياتها، كأن تعطى سافوى ونيس. وسافوى هى الوطن الأصلى للبيت المالك فى بيدمنت، ونيس كانت من سوء الحظ مسقط رأى غاريبالدى الزعيم الإيطالى الكبير. على أن تتوّج هذه المعاهدة السياسية بقران ملكى، فتقدم يد الأميرة كلوتلدة ابنة فكتور عمانوئيل - وكانت طفلة فى الخامسة عشر من عمرها - إلى الأمير جيروم ابن عم الامبراطور، وهو رجل مستبيح فاسق يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، فلقد جال بذهن نابليون أن المقادير قد تخط لهذين الزوجين المختلفين كل الاختلاف أحدهما عن الآخر، أن يجلسا على سرير الملك فى فلورنس يومًا من الأيام. إذ كانت أحيانًا تمر فى ذهن الأمبراطور أخيلة عابرة واضحة المعالم باحتمال تأسيس بيت بونابرت أسرات مالكة فى إيطاليا، فيجلس أمير بونابرتى على عرش تسكانيا وأمير من سلالة ميرا على عرش نابلى.

ورجع كافور إلى تورين ليمهد للحرب، وفى وطابه هذه المساومة، التى وإن كان عسيرًا على سيده الملك هضمها، إلا أنه كان مطمئنًا إلى أن امبراطور الفرنسيين بات من ذلك الحين شريكه المتواطئ معه.

وفى الاستقبال الرسمى الذى عقده نابليون بمناسبة رأس السنة الجديدة عام ١٨٥٩، ذكر عرضًا للسفير النمساوى أنه يأسف لأن علاقاته مع النمسا ليست من الود بمثل ما كانت عليه أولاً. فطارت هذه الكلمة المبهمة على أجنحة السرعة فى مشارق أوروبا ومغاربها، وعدّت نذيراً بحرب وشيكة. ولكن بلغ من تفكير الامبراطور المتزن واعتقاده بفائدة عقد المؤتمرات الدولية، أنه خيّل له أن الحرب قد لا تنشب مطلقًا[١٣].

---

[١٣] فشر، تاريخ أوروبا ص ٢٣٤.

ولكن في اللحظة التي لاحت فيها الامور سوداء قانمة في عيَن كاثور، إذ بدا له أن آماله في نشوب الحرب ستطيش، جاءت إليه النمسا بالنجدة. فإن تلك البلاد التي كان في المقدور على الدوام بأن تقع فريسة في حبائل خصومها بلغت بها الحماقة أن تبعث في ١٣ إبريل سنة ١٨٥٩ إنذاراً نهائياً إلى حكومة تورين تطلب منها فيه تجريدها من السلاح. فقدمت بذلك الذريعة التي كان ينشدها اجتماع بلمبير لإعلان الحرب. فقد ظهرت النمسا بمظهر المعتدى. وسرعان ما خف مقاتلو فرنسا المغاوير تحت علم بونابرتي مرة ثانية. عندما أعلنت الحرب رسميًا في ٢٦ إبريل – خفوا إلى سهول إيطاليا بقلوب يهزها الطرب، وتغمرها ثقة لا حد لها.

ويقول فشر أن أكبر ما يذكره دارسو التاريخ الحربي عن هذه الحملة الإيطالية هو أنها كانت ثبتًا طويلاً من الأغلاط الحربية. فلقد كان يظن أن النمساويين بعد أن أنذروا طويلاً باقتراب الحرب منهم، سيعمدون إلى توجيه بعض العناية إلى تحسين خطوط سككهم الحديدية. ولكن عقول رجال الحرب بطيئة في استيعاب المخترعات الفنية، فكأن واط وستيفنسن عاشا في نظرهم عبثا. فإن الحكومات المتنافسة وقواد الجيوش لم تعر احتمالات السكك الحديدية وفرص الانتفاع بها إلا الشئ الضئيل من اهتمامها. فلم يكن يربط فيينا بتريستا سوى خط حديدى فردى واحد. ولم يكن هناك أى خط حديدى بين البندقية وتريستا، مع أن المسافة بينهما سبعون ميلا. وبلغت غلبة الطرق العتيقة البطيئة التي ظلت سائدة في تسيير الحروب، أن النمساويين برغم أنهم هم الذين أشهروا الحرب، وحشدوا جيوشهم على حدود بيدمنت، فإنهم لم يبذلوا أى جهد للقضاء على البيدمنتيين أولا، ثم يركزون بعد ذلك قواتهم ضد الفرنسيين. وبدرجة من العجز والتقصير تكاد لا تصدق زحف جيولي Giulay القائد النمساوى داخل حدود بيدمنت. ولكنه انسحب منها، ثم سلَم في استكانة زمام الأمر لخصمه[١٤].

---

[١٤] فشر، تاريخ أوروبا، ص٢٣٤، ٢٣٥.

بيد أنه برغم تألق الاسم الذى يحمله الامبراطور الفرنسى، والمجد الذى حف به، فإنه لم يكن قائدًا، فقد رسمت خطة للحرب أغفلت فيها السكك الحديدية، لأن راسمها كان قائدًا من قواد نابليون القدامى - بدلا من تطبيق الخطط التى يقضى بها العقل والزمن. ولهذا فإن نابليون الثالث الذى اضطلع بالقيادة العليا، والذى اتبع قواعد يومينى Jomini - السويسرى الأصلى - اتباعًا أعمى - كان سيعًرض جيشه وهو يزحف به صوب الشمال، لهجمات خطيرة كثيرة لو أن خصمه كان كان يقظاً ساهراً. ولكن القيادة النمساوية كانت فى حال أسوأ حتى مما كانت عليه قيادة الجيش الفرنسى. ولهذا أفلح الجيش الغازى فى جميع حركاته، وبلغ جميع أهدافه: فقد أفلح فى زحفه إلى الشمال، وفى تقدمه شرقًا صوب ميلان التى احتلها فى ٧ يوليو بين تهليل السكان وترحيبهم البالغ، وأفلح فى الظفر بعدوه فى الملحمتين العتيقتين اللتين يلوح أن كل شئ فيهما لم يسر طبق الخطة الموضوعة وهما ماجنتا Mengenta(فى ٤ يونيو) وسلفرينو Selferino (فى ٢٤ يونيو) بيد أنه شكراً لبسالة الجند الفرنسيين والبيدمنتيين ونخوتهم، ما جل شهر يوليو حتى كان الملكان المتحالفان يسيطران على لمبارديا[١٥].

وإذا كانت النمسا قد منيت فى سولفرينو بهزيمة فادحة جدت فإن الضربة التى تلقتها لم تكن تعد من الشدة بحيث تحسم القتال كله. ومع ذلك فإن القتال قد توقف بالفعل عن هذا الحد نتيجة لمسلك نابليون الثالث فما هى دوافعه؟

كانت الحرب نصرا عظيمًا له وعام ١٨٦٠ قد شاهد ذروة قوته وسمعته فى أوربا. فقد وصفه الكثيرون بالبراعة الدبلوماسية الخارقة، وخيل إليه أنه سوف يبنى لنفسه سلطانًا فى أوربا لا يقل عن سلطان نابليون الأول، فهو قد تمكن فى حرب القرم من صد سلطان روسيا وتثبيت أقدام الدولة العثمانية من جديد وها هو ذا

---

[١٥] نفسه، ص٢٣٥، ٢٣٦.

يسحق النمسا ويدعو إيطاليا الحرة إلى الخروج إلى حيز الوجود. وقد استقبل عند دخوله ميلانو بعد معركة ماجنتا بآيات التمجيد ومظاهر الترحيب التى لم يحظ بمثلها إلا فاتحون قلائل.

فلقبه الجماهير المتحمسة "محررنا ومخلصنا وراعينا" ونثرت نساء ميلانو الزهور فى طريقه، وقد ضاعف كلماته من تلك الحماسة، إذ قال أن لن يفعل شيئا لفرض مشيئته على شعب إيطاليا، وأهاب الإيطاليين أن يغتنموا الفرصة السعيدة السانحة أمامكم أن حلمكم بالاستقلال يوشك أن يتحقق إذا برهنتم على جدارتكم، فلتتحدوا بالا فى مجهود عظيم لتحرير بلادكم.

وقد استنشق نابليون البخور الذى أحرق له بغبطة لا خفاء فيها على أن حماسة الإيطاليين لم تلبث أن تبدلت – وسرعان ما انفلت امتنانهم نفورًا ولقد كان نابليون دائمًا مغامرًا حالمًا تعوذه القدرة على تمييز الممكن من غير الممكن تلك القدرة التى تعد من ألزم لوازم السياسى المحنك، فكان خياله يصور له مشاهد رائعة وانتصارات مجيدة وإن لم يرشده قط إلى الطريق السوى لتحقيقها[١٦].

ونحن نراه طوال حياته يقدم ثم يحكم تحدوه الرغبة فى بلوغ الهدف ويثنيه الخوف من الوسيلة لا مفر لبلوغه من اللجوء إليها.

وقد توافرت لديه وسط أمجاد الحملة الإيطالية أسباب كثيرة إذ كان للمجد ثمن لابد أن يدفعه، وقد تركت المجزرة التى شاهدتها ساحة القتال فى سولفرينو انطباعًا عميقًا فى مخيلته، ثم أنه قد تبين أن قيادة الإيطاليين ليس بالسهولة التى كان يتصورها فقد انهارت كل الخطط التى رسمها لمستقبل توسكانا إزاء إصرار التوسكانيين على أن يكونوا سادة مصيرهم. وهو لم يكن فوق هذا كله جنديًا قديرًا رغم الاسم الذى يحمله، وإنما كانت ملكاته تكمن فى اتجاه آخر فى قدرته على

---

[١٦] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جـ١، ص٤٥٦.

تكوين إئتلافات دبلوماسية غير متوقعة وفى قوة تأثيره على مخائل الرجال لقد كانت لديه إذن أسباب وجيهة للرغبة فى إنهاء الحرب. ولكن خوفه من العاصفة التى توشك أن تهب عليه من ألمانيا كان سببًا أقوى من كل ما تقدم.

فرغم أن بروسيا كانت على خصومة مريرة مع النمسا فإنها لم تكن لتستطيع أن تنظر بعين الرضا إلى إذلال دولة ألمانية على يد فرنسا وإيطاليا وكان جيشها قد وضع من قبل على أهبة الاستعداد للحرب فسارعت الآن إلى تعبئة جميع قواتها والمطالبة بمنحها قيادة الجيش الألمانى ودعت بريطانيا وروسيا للانضمام إليها فى عرض الوساطة على المتحاربين فبدا جليًا أن الجيوش الفرنسية قد تلزم قبل مضى وقت طويل لحماية حدود الراين(١٧).

مفاوضات الصلح فى فيلا فرانكا:

وعلى هذا وطد نابليون العزم على إنهاء الحرب وراح يتصرف فى سعيه إلى تحقيق تلك الغاية – كعادته – تصرفاً أقرب إلى تصرف المتآمر منه إلى تصرف رجل الدولة فبينما كان الجميع يتوقعون تجدد القتال، أوفد نابليون الجنرال فليرى لعقد هدنة تمهيدًا للصلح بأيدى العاهل النمسوى استعدادًا طيبًا لتلقى عروضه وذلك أن الخسائر التى تكبدها جيشه كانت فادحة ولكن هذه لم تكن السبب الوحيد المجرد كانت تنظر بالثورة الحاجة تدعو إلى توفير القوات اللازمة لقمعها. ثم أن احتمال تدخل بروسيا لم يكن ملائمًا بالمرة للدبلوماسية النمساوية لما سيصحبه حتماً من تنازلات لبروسيا فى ألمانيا لم يكن فرنسيس راغبًا فى القيام بها – بحال. وعلى هذا اجتمع الامبراطور النمساوى بنابليون فى فيلا فرانكا وسرعان ما وضعت مقدمات الصلح وقد تم الاتفاق على تسليم لومبارديا إلى نابليون ليتولى تسليمها بدوره إلى فكتور عمانويل وعلى تأييد فرنسا والنمسا بعد ذلك لقيام اتحاد إيطالى برئاسة البابا

(١٧) جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جـ١، ٤٥٦، ٤٥٧.

الاسمية واستمرار تبعية البندقية للنمسا مع اشتراكها فى الاتحاد الإيطالى وعودة حكام مودينا وبارما وتوسكانا إلى مناصبهم وحث البابا على إدخال الإصلاحات فى الأراضى التابعة له وعقد اجتماع يضم ممثلى جميع الدول المعنية لإقرار هذه المقترحات وتطويرها.

ونحن نعلم أن تلك الخاتمة كانت بداية لاستقلال إيطاليا ووحدتها وأن البناء لم يلبث أن اكتمل بسرعة فائقة، ولكن الأمر بدا فى نظر الكثيرون من الإيطاليين إذ ذاك – وكافور قبل سواء خيانة لقضيتهم وقضاء على آمالهم وإنكارا لحريتهم ووحدتهم المنشودتين وغلب اليأس على كافور فقال: "لن يأتى هذا العام بشيء انقلب متآمرا ثوريا ولا تنفذ هذه المعاهدة" واستقال من رئاسة الوزارة بعد مشهد عاصف مع مليكه ولكن سرعان ما لاح، ولاح الأمل من جديد إذ وقعت فى وسط إيطاليا أحداث مدهشة. فلم يكن الأهالى فى توسكانا ومودينا ورومانا على استعداد للسماح للإمبراطوريين بتسليمهم إلى حاميهم القدماء من جديد وقد كان بينهم نفر من القادة الوطنين الذى ابلوا بلاء حسنا فى خدمة القضية وإن طغت شهرة كافور وغاريبالدى ومازينى على شهرتهم فقد رفع مازينى صديق كافور الحميم راية القومية عاليا فى مودينا وبارما ولعب ريكاز ولى فى توسكانا دورا أهم وابرز فكان أن أصدرت الجمعية النيابية فى فلورنسه بيان بإجماع الأصوات أعلنت فيه "رغبة توسكانا فى أن تصبح جزءا من دولة إيطالية قوية تحت الحكم الدستورى لفيكتور عمانويل" أغسطس سنة ١٨٥٩ فأبدى فيكتور عمانويل عطفه على هذه الرغبة وأشاد بالمثل الرائع الذى ضربته توسكانا فى الاعتدال والوحدة قائلا أنه سيعرض مطالبها فى المؤتمر القادم وبنفس القوة طالبة بارما ومودينا وبولونا بالاتحاد مع مملكة فيكتور عمانويل فلم يسعه فى البداية إلا الإعراب عن عطفه ليس إلا وقد أحبطت معارضة نابليون الاقتراح الداعى إلى تحسين وتعيين أمير من بيت سافوى على أراضى إيطاليا الوسطى.

وما لبثت الأيام أن أكدت صعوبة تحقيق المشروعات التى تضمنتها مقدمات الصلح الموقعة فى فيلا فرانكا. فلقد اجتمع ممثلى فرنسا والنمسا وسردينيا فى زيورخ وألحقت لومبارديا بسردينيا ولكن البابا لم يبد أقل استعداد للقيام بالدور المرسوم له فى تشكيل الاتحاد الإيطالى واستمرت القلاقل فى ولايات إيطاليا الوسطى تنذر بالخطر فاتجهت النية التى أحالت تسوية هذه المسائل إلى مؤتمر آخر يعقد فى باريس ويضم الموقعين على صلح فيينا ولكن هذا المؤتمر لم ينعقد قط. فقد رفض البابا الاشتراك فيه بأى حال من الأحوال بعد أن صدر فى فرنسا بموافقة الإمبراطور كتب يعلن وجوب إنقاص أراضيه إلى اقل حد ممكن وأبدت النمسا معارضة لا تقل عن معارضته فلم يعد ثمة مفر من التخلى عن فكرة عقد المؤتمر(١٨).

خطوات الوحدة الإيطالية:

ولم يلبث كافور خارج الحكم طويلا إذ عاد إلى رئاسة الوزارة فى يناير سنة ١٨٦٠ وقد مارس حتى من قبل عودته نفوذا كبيرا على مجريات الأمور. وقد راح يسعى إلى تسوية مسألة إيطاليا وسعى عن طريق المفاوضات السرية مع نابليون، كان قد طلب بادىء الأمر بسافوى ونيس ثمنا لتحالفه مع سردينيا ولكنه لم يعمد إلى المطالبة بسداد هذا الثمن لأنه لم يف بنصيبه من الصفقة. فإذا آلت دوقيات الوسط إلى فيكتور عمانويل حق له أن يفعل ذلك ورغم أن النزول عن سافوى ونيس يعد ضربة مروعة لمشاعر الإيطاليين فقد استقر رأى كافور على ضرورة إتمامه وتم الاتفاق على اتباع طريقة نابليون المفضلة وذلك بإجراء استفتاءات فى كل من إيطاليا وفرنسا.

وقد فازت الوحدة مع مملكة فيكتور عمانويل أغلبية هائلة فى تسكانيا وبما يشبه الإجماع فى سائر الجهات ورغم أن اسم المملكة الرسمى كان لا يزال

---

(١٨) جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ص٤٥٦-٤٥٨.

"سردينا" فقد باتت تعرف باسم "إيطاليا" وأظهرت تصميما على إثبات جدارتها بهذا الاسم ثم جاء دور التصويت في سافوى ونيس. ففاز مبدأ الانضمام إلى فرنسا فوزا كاملا إلى حد يبعث على الريبة، إذ أعلنت سافوى بأغلبية ١٣٠,٥٣٨ صوتا ضد ٢٣٥فقط ونيس بأغلبية ٢٤,٤٤٨ ضد ١٦٠ فقط ورغبتها في الانضمام للإمبراطورية النمساوية الفرنسية فبدا انتصار نابليون في تلك اللحظة أعظم من انتصار كافور، ولكنه فقد في الواقع امتنان الإيطاليين الذين باتوا يشعرون أنه تقاضى الثمن، وياله من ثمن جزاء الخدمات التي أداها. وقد اتسم تنفيذ حركة إندماج أقاليم إيطاليا الوسطى في إيطاليا المتحدة "إذ من الجلي أن سردينيا لم تكن سوى خطوط أولى نحو تكوين إيطاليا" بالهدوء وضبط النفس والوقار رغم الحماسة الدافقة في كل مكان فبدا لأن الطبع السياسي للجمهورية الرومانية القديمة قد عادت في إيطاليا الجديدة التي أنشأها فيكتور عمانويل وكافور.

فقد فازت هذه السلسلة العجيبة من الأحداث لإيطاليا المتحدة بقاعدة راسخة في شمال شبه الجزيرة ووسطها ولكن هذه القاعدة لم تكن تمثل إلا ما يزيد قليلا على نصف شبه الجزيرة كلها وبقي أن تضم كل من البندقية وروما ومملكة نابولي إلى أراضي إيطاليا الحرة حتى يتم تحقيق حلم الوحدة القومية المنشودة. كان البابا بيوس التاسع قد تخلى عن كل أثر من آثار ميوله التحررية السابقة وبات يطلق الآن على الاتجاهات التحررية القومية والديمقراطية كلمة "الثورة" ويعتبرها خطرا على الكاثوليكية لا يعد له الآخر الإسلام في العصور الوسطى ولكن أهالي الولايات البابوية كانوا متبرمين، وقد أبدى جانب كبير منهم عطفهم على الآراء التي انتصرت في الشمال. أما في نابولي فقد ارتقى العرش فرنسيس الثاني كما ذكرنا من قبل في سنة ١٨٥٩ ولم يكن طاغية قاسيا مجردا من كل عطف على الآراء الجديدة ولكنه ورث مهمة تستعصي في أغلب الظن على أي حاكم مهما تكن مقدرته ومن

العسير علينا بصفة خاصة أن نتفهم ظروف مملكة نابولى وصقلية. فثمة فوارق كبرى فى الطباع بين الأهالى هناك وأقرانهم فى شمال أوروبا. فجمهرة الشعب فى الجنوب كانوا من الأميين غير المتعلمين الذين لم يبدوا إلا أقل الاهتمام بالثورة السياسية التى تجتاح البلاد – وسلطان الكنيسة على النفوس كان عظيما جدا، فكان الأهالى متعلقين برسومها وعقائدها تعلقا صادقا وإن لم يصدر وعى، وكذا الجمعيات السرية ولاسيما جمعية كامورا الشهيرة – كانت مصدر خطر دائم يعرقل إقامة مجتمع يحترم القانون وكان أحد وزراء الملك الرئيسيين على اتصال وثيق بتلك الجمعية فجاء انحيازه إلى صف الغزاة عاملاً حاسمًا فى الصراع – على أن ثمة قطاعًا من السكان كان لا يقل فى حماسته للحرية الإيطالية عن سكان لومبارديا وتوسكانا ومهما يكن من أمر فإن تفسير الصقليين للحرية والوحدة ظل ردحًا من الزمن أمرًا بعيدًا عن الوضوح كل البعد فلم يكن مؤكدًا حال إنهم سيرضون بضياع استقلال نابولى وصقلية واندماجها فى مملكة سردينيا، حتى لو اتخذت الأخيرة لنفسها اسم إيطاليا فقد كان ثمة حزب قوى يرغب فى قيام شكل من أشكال الاستقلال الذاتى.

وقد أصبح التآمر والتمرد سمتين ثابتتين من سمات الموقف فى تلك المملكة الجنوبية، وقد شجعهما أيما تشجيع نجاح الوطنيين فى الشمال. وكان الملك فرنسيس مدركًا للخطر المحدق به، فراح يفكر فى إمكان إجراء إصلاحات ترضى المشاعر القومية لشعبه. ولكن غاريبالدى سبق بالهبوط فى صقلية قبل أن يتخذ فرنسيس أية خطوة جديدة فى هذا السبيل.

وبهبوطه بدأت أعظم وأنجح مغامرة شاهدتها أوربا فى القرن التاسع عشر ويتعين علينا لكى نجد شبيها لها أن نعود القهقرى إلى مغامرات روبرت جين سكار النور ماندى فى نفس البقعة تقريبا أولى حماسة كورتيز على المكسيك فى مطلع القرن السادس عشر. إنها تعد حقا قصة مذهلة من قصص البطولة والتآمر. وقد استحوذ غاريبالدى على أنظار أوروبا كلها ومازال يستأثر باهتمام كل من يقر النظامية

وحماسته النبيلة لقضية إيطاليا وببساطة طبعه وسمو خلقه كل هذه قد انطبعت على أحداث تلك السنوات بنفس الوضوح الذى انطبع به قصوره السياسى وجهله بالكثير من القوى التى كانت تهيمن على العالم الأوروبى فى ذلك الزمان وكان على صلة ضعيفة بمازينى الذى رأى فى هذه الحركات الجنوبية فرصة لإقامة إيطاليا الحرة المتحدة على أساس مختلف عن ذلك الأساس الملكى الدستورى الذى انتصر فى الشمال فقد كان مازينى يأمل فى رؤية "الله والشعب" ترتفع فى مواجهة راية إيطاليا وفيكتور عمانويل، ويحلم بإنشاء نظام جمهورى أو على الأقل بداية لذلك النظام فى الجنوب. ولما تحقق النصر للوحدة الإيطالية جاءت فى صورة بعيدة كل البعد عن تلك التى كان ينشدها مازينى حتى أنه أعلن أن عينه لن تقر بعد اليوم فى إيطاليا، فقد قتلت تلك البلاد روحى بإزدرائها لكل المثل العليا ولقد اجتذب سيف غاريبالدى المسقول أنظار الناس جميعا فلم يكن أحد يذكر فى تلك الآونة الأهمية البالغة للملك كافور وحكومة مملكة سردينيا (كان هذا لا يزال اسمها الرسمى) على أن انضمام نابولى وصقلية جاء ثمرة لجهود كافور مثلما جاء ثمرة لجهود غاريبالدى. فقد علم كافور بأمره قبل وقوعه وذكر لغاريبالدى أنه "عندما يكن الأمر مشروط من هذا القبيل فإن أحدا لن يسبق الكونت كافور إليها مهما تكن جسارتها" ولم يكن غاريبالدى يرتاح قط إلى العمل من كافور، بل كان يبغضه ويرتاب فيه كل الريبة ولكن ضرورة الحصول على تأييده قد توصلت فى كل فصل من فصول الرواية المجيدة وقد منحه كافور هذا التأييد بشجاعة دون أن يشعر فى ذلك بأى حرج لم يعرف عن الدبلوماسية أنها استخدمت الألفاظ المزدوجة المعانى وأنصاف الحقائق بل والأكاذيب الصريحة بصورة أبرع من تلك التى استخدمها بها كافور. إن وحدة إيطاليا التى طالما حلم بها دانتى قد تحققت ولكنها أنجزت ولا سيما فى طورها الأخير بروح ميكافيللى.

وفى ٥ مايو سنة ١٨٦٠ غادر غايبالدى ميناء جنوا بسفينتين و١١٣٦ متطوعا وزعت عليهم أثناء الرحلة القمصان الحمراء التى قدر لها بطريق الصدفة المحضة أن

تنول كل تلك الشهرة الذائعة فى أوروبا وفى ١١ مايو نزل مع رجاله إلى البر فى ماسينا. ولم تكن هذه العصبة الصغيرة كفوا بطبيعة الحال لمنازلة الحاميات الملكية في صقلية، فأضحى كل شيء متوقفا على نوع التأثير الذى يحدثه غاريبالدى على مخيلة الصقليين ولهذا لم يعد ثمة جدوى للتبصر والحذر وإنما أصبحت الشجاعة المتهورة لسمى مراتب الحكمة، تلك الشجاعة المتهورة التى كان غاريبالدى يتمتع منها بأوفر نصيب شرع على الفور الزحف على بالرمو، التى كانت المقر الرئيسى لحكومة نابولي، ولعل فى النصر العجيب الذى أحرزه خارج بالرمو واستيلائه بعد ذلك على المينه نفسها، إنما يرجع إلى براعة قيادته وشجاعة رجاله وتأييد كل الصقليين وما أبداه لا تزال قائد حامية بالرمو من ضعف مزو، كما يرجع إلى شيء من حسن الحظ والتوفيق العجيب. وقد حدد هذا النصر الأول مصير القتال فى صقلية وسرعان ما لقى الملك فرنسيس نفسه بلا أعوان خارج حصن مسينا ولكن غاريبالدى لم يلبث أن وطد العزم على تسديد ضربة أجرأ وأشد جسارة، وذلك أن أحداث صقلية أثارت حركات مشابهة فى نابولي وراح الوميون هناك يناشدون غاريبالدى العون.

أما فيكتور عمانويل فقد نهاره عن اجتياز المضيق وإن أوحى له فى الوقت نفسه بالعبارات التى يستخدمها، لرفض أوامره نزل غاريبالدى فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ومن هناك زحف على نابولى مارا بمناطق مهيأة بطبيعتها للمقاومة دون أن يصادف فيها أدنى مقاومة، لقد خان فرنسيس الكثير من وزرائه وجنوده ولم يبق على الولاء الصادق له أحد تقريبا. فما كان منه إلا أن غادر نابولي قاصدا جليتا فى ٦ سبتمبر فدخلها غاريبالدى فى اليوم التالى وبلغت حماسة الشعب حد الهوس إذ كان انتصار المحرر ذو القميص الأحمر خارقا حقا. وقد تقبله فى تواضح جم وبساطة عظيمة. أما نهاية القصة فتختلف اختلافا بينا عن بدايتها فقد حل

الدبلوماسى محل الجندى مما يمنعنا من مواصلة سردها على أنها مجرد ملحمة من ملاحم البطولة.

لقد تتبع كافور ما حدث فى صقلية ونابولى بمزيد من الغبطة والقلق فلذلك كان سقوط عرش الملك البوربونى قد أدخل السرور إلى قلبه فإنه كان حريصا كل الحرص على تباين الوضع الجديد الذى سيحل محل ذلك العرش حقا إن غاريبالدى ما برح يعلن أنه إنما يعمل باسم إيطاليا وفيكتور عمانويل ولكن تفسيره العلمى لهذا الشعار لم يكن قطعا بحال فقد رفض أن يعلن على الفور انضمام صقلية إلى مملكة سردينيا ولعله كان ثمة اعتبارات عسكرية بررت ذلك.

ومهما يكن من أمر فإن المستقبل لم يكن قد اتضح بعد وبصورة مؤكدة. فمازينى وأتباعه كانوا يعملون من أجل اقناعه من أجل إقامة جمهورية. وثمة حزب قوى كان يرغب فى منح نابولى وصقلية مركزا مستقلاً نوعا ما داخل إيطاليا الحرة المتحدة وقد ظل هناك بعض الاحتمال فى أن يسترد أنصار الملكية البربونية قواهم، وقد ظل الملك فرنسيس صامدا فى جليقا وأخذت خيبة الأمل التى لم يكن ثمة مفر من أن تأتى فى أعقاب الحرية تمده ببعض التأييد ولم يكن كافور يثق بقدرة غاريبالدى الذهنية على معالجة الموقف، فبدا له أن الأوان قد أن لكى يأخذ دورا صريحا فى الرواية التى ما برح يمارس بها نفوذا بالغ الأهمية وأن يكن مستترا. كما رأى أن الفرصة ليست متاحة فقط لإنجاز تسوية مستقبل نابولى وإنما ليضيف أيضا إلى أراضى إيطاليا جانبا على الأقل من الأراضى البابوية التى طالما تطلعت إليها الأبصار.

وقد أحس بيوس التاسع بالخطر الداهم، إذ أن بوادر الثورة كانت قد بدأت فى آل "مارس" وفى اومبريا وكانت الحكومة البابوية قد أخفقت تماما فى كسب تأييد الأهالى منذ أحداث ١٨٤٩، إلا أن الجيش البابوى كان قد زيد عددا

وأدخلت عليه تحسينات كبيرة وكان يتألف من رجال جاءوا من بلاد مختلفة ولا سيما فرنسا وإيرلنده وبلجيكا وكان يقودهم الجنرال موريسير الذى كان قد أبلى بلاء حسنا في خدمة الجيش الفرنسي.

ثم أن الحكومة البابوية كانت تحظى بالاعتراف العام بوصفها جزءا من النظام الدولي في أوروبا فكان من العسير إيجاد مبرر مقبول لمهاجمتها. ومهما يكن من أمر فقد أعلن كافور في رسالة وجهها إلى بيوس التاسع إن ملك سردينيا يجد لزاما عليه "من أجل الإنسانية أن يمنع قوات البابوية من إخماد الحركات الشعبية في أوروبا بالقوة."

قال كافور في مناسبة أخرى: "لو فعلنا من أجل أنفسنا وما نفعله من أجل بلادنا لكنا أوغادا أي أوغادا". وبهذه الزريعة دخل الجيش الإيطالي الولايات البابوية حيث دمر الجيش البابوى في كاستلفيد أردو بعد قتال مشرف لقوات الجنرال لامورسير. ثم واصلت قوات فيكتور عمانويل الزحف إلى أراضي نابولي حيث آلت إليها السلطة التي ظل يمارسها حتى ذلك الحين غاريبالدي بوصفه ديكتاتور على البلاد، وقد أعلن غاريبالدي الأمر أنه لا يثق بكافور وأنه يعلن الانضمام إلى مملكة فيكتور عمانويل حتى ضم "روما" وبدا ثمة خاسر وقوع صدام بين القمصان الحمر والقوات النظامية. ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تبدد وقد أرغم الملك فرنسيس على التخلي عن جامبتا والانسحاب إلى روما وقابل غاريبالدي فيكتور عمانويل فشكره الأخير بحرارة على كل ما فعله بيد أنه رفض كل جزاء مظهرا بذلك نكرانا للذات يكاد أن يكون منقطع النظير وأثر الأنزواء في بيته بجزيرة كابريرا ثم أجرى الاستفتاء في نابولي وصقلية والأراضي البابوى التي ضمنت مؤخرا، فأعلن الأهالي بالأغلبيات الساحقة المألوفة رغبتهم في الانضمام فورا إلى مملكة فيكتور عمانويل الدستورية.

وأجتمع أول برلمان إيطالى فى تورينو فى فبراير سنة ١٨٦١ وفى مارس صدر مرسوم دستورى جديد يتألف من مادة واحدة:-

"يتخذ فيكتور عمانويل الثانى لنفسه ولخلفائه من بعده لقب ملك إيطاليا"

لقد تحقق أعز أحلام الحرير فى أوروبا ولسوف نرى فيما بعد كيف تم إنضمام البندقية إلى الأراضى الإيطالية فى سنة ١٨٦٦ وروما فى سنة ١٨٧٠.

الفصل الثامن

الوحدة الألمانية

الوحدة الألمانية

قلنا حين تحدثنا عن الوحدة الإيطالية إن مؤتمر فيينا قد سادته روح مترنيخ الاستبدادية الرجعية وبنفس روح هذه الروح عالج المشكلة الألمانية وبشكل ابعد ما يكون عن روح العدالة والحرية. إذ فرض هذا المؤتمر حين عرضت أمامه هذه المشكلة إنشاء اتحاد جرماني تشترك فيه جميع الدول الألمانية أو المقاطعات الألمانية الخاضعة لحكومات غير جرمانية. وقد ضم هذا الاتحاد الإمبراطورية النمساوية أيضاً وتم ذلك بفضل مساعي مترنيخ الذى شاء أن يضع الاتحاد الجديد تحت سيطرة النمسا ليقضى على كل محاولة لجعل بروسيا تتزعم الاتحاد الألماني. واعترف مؤتمر فيينا بأن رئيس الاتحاد الدائم هو إمبراطور النمسا. أما أهم دول الاتحاد فكانت النمسا ثم بروسيا وبافاريا، وسكسونيا وورتبرج وقد تم الاتفاق على أن ينشأ مجلس للاتحاد تمثل فيه جميع الدول ويدعى (دايت) وكان مركزه الدائم فى مدينة فرانكفورت. أما مهمة هذا المجلس فكانت البت فى الخلافات التى قد تنشأ بين دول الاتحاد وتقرير الأمور التى تهم الجميع[1].

ولكن الواقع أن هذا الاتحاد كان عديم الفعالية ضعيف النفوذ. ذلك أن إحدى مواد دستوره كانت تفرض الإجماع لتقرير الأمور المهمة. وبذا يمكن اعتباره عاجزا عن القيام بأى عمل مهما كان، إذ ليس من المعقول أن يحصل إجماع بين ٣٧ دولة على أمر ما بالنظر لما بينها من تباين فى النزعات والميول والمصالح يضاف إلى ذلك قرارات الاتحاد لم يكن لها مفعول تنفيذى إذ أنها كانت تصدر بشكل توصيات لعدم وجود قوة منفذه. أما فى الواقع فإن القرارات كانت تتخذ صفة الإلزام إذا كانت النمسا وبروسيا تريدان ذلك نظرا لما للدولتين من قوة ونفوذ لدى بقية

---

[1] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٦٩.

. ولكن كلما حصل اتفاق بين الدولتين المذكورتين على أمر من
-نظرة الأساسية لكل منها إلى الاتحاد كانت مختلفة.

ـا كانت تريد المحافظة على الاتحاد بأى ثمن لأسباب كثيرة فهو أولا
ـرة والزعامة على العالم الجرماني. ثم أن بقاء الاتحاد يلزم بروسيا ولو
ـشكلية بالتغير بسياسته، ويضاف إلى ذلك أن النمسا كانت ترى في بقاء
الحاضر حاجزا أمام تزعم بروسيا للعالم الجرماني وتفردها بتحقيق
ـسية التي كانت اشد ما تخشاه النمسا.

ـما يتعلق ببروسيا فإنها كانت ترغب في تحطيم ذلك القيد الذي طوقها
الانطلاق في سياسة قومية مستقلة. كما كانت ترى البقاء الاتحاد
ـبية على الوطن الألماني وبالتالي بقاء بروسيا رغم قوتها ونشاطه[٣].

إلى هذه الأمور التي تفرق بين بروسيا والنمسا قضية أساسية مهمة.
كانت ترى بنفسها أكبر وأقوى دول ألمانيا ولذا فإنها كانت تشعر
القضية الألمانية إذ كانت تشعر بأن عليها وحدها يقع عبء تحقيق
ـمسا فإنها بالعكس من ذلك كانت تعي أن قيام الوحدة الألمانية يهدد
ـنمساوية بشكل جذري. ذلك أن الوحدة تعني قيام دولة ألمانية تضم
٪ من سكان النمسا ذوى الأصل الجرماني. وهذا يعني إثارة بقية
ـنية التي كانت تطالب بسيادتها واستقلالها.

ـذه الأسباب السالفة الذكر مع خطر زوال الزعامة النمساوية في
إذا ما قامت فيها دولة ألمانية فتية قوية جعل النمسا لا تريد سماع
ـلمانية وكان من المنتظر بنجاح المساعي النمساوية لولا أن الظروف
ـك الوقت في بروسيا رجلا قويا يعرف ما يريد ويعرف كيف يصل إلى

ـبان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٢٧٠.

ما يريد وأعني به [illegible]

النمساوية تبؤ بالفشل و[illegible] الشعب الالماني بقوة وثبات نحو [illegible]

بسمارك:

ولد في سنة ١٨١٥ في براند بورج البروشية [illegible]

عريقة في أرستوقراطيتها محافظة على التقاليد [illegible]

البروسي. تلقى دروسه في برلين ثم دخل العدلية [illegible]

إلى بلده ليمارس العمل في أراضي عائلته الواسعة [illegible]

حين انتخبه سكان المقاطعة ممثلا لهم في المجلس النيابي [illegible]

قيام لما أوتي من موهبة خطابية وحجة قوية بليغة [illegible]

في فرانكفورت أي في مجلس الاتحاد.

كان صاحب شخصية قوية استبدادية [illegible]

بحقه في الاشتراك بالحكم. هذه الصفات جعلت [illegible]

روسيا ثم في باريس وقد بقي في فرنسا حتى [illegible]

البروسية.

ففي هذه السنة نشب خلاف بين الملك والبرلمان [illegible]

الموافقة على اعتمادات عسكرية كبيرة طلبها [illegible]

الملك وضع كتاب استقالته. ولكن بسمارك حال [illegible]

رغباته. وقد تمكن من تجاوز معارضة المجلس [illegible]

بما يكفل له تنفيذ أهدافه وغاياته[4].

---

[3] عبد العزيز سليمان نوار. عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٢٧٠ - [illegible]

[4] نفسه، ص ٢٧١.

هدف بسمارك:

جاء بسمارك إلى الحكم وهو يحمل برنامجاً واسعاً يسعى لتحقيقه بطريقة مدروسة علمية. كان يرى أن هدف كل حكومة بروسية يجب أن يكون تحقيق الوحدة الألمانية إذا أنه كان يعتقد كما سبق القول أن زعامة بروسيا في ألمانيا تفرض عليها القيام بأعباء الوحدة. وإذا لم تقم بروسيا بذلك فإن هذا يعني أن الوحدة لن تتحقق.

وكان بسمارك يرى أنه يوجد هنالك خصمان للوحدة يجب قهرهما كخطوة أولهما هما النمسا وفرنسا. ولذا فإنه أخذ يعد بروسيا لخوض حربيين متتابعتين ضد النمسا والثانية ضد فرنسا[٥].

قضية شلزويج – هلشتاين Sleswig. Holstein.

مات فردريك السابع، ملك الدانمارك في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٣، وترك من ورائه عرش دوقيتي شلزويج - هلشتين تحيط به المشاكل من كل جانب، وتهدده الأخطار السياسية التي يمكن أن تتمخض عن حرب يتسع مجالها. كانت مساحة الدانمارك عقب تسوية فيينا في ١٨١٥ واسعة تمتد حتى ضواحي همبورج Hamburg ويكفي أن تعرف أن مدينة "التونا Altona" إحدى مدن تلك الضواحي – كانت دنماركية. وبذلك كان سلطان ملك الدانمارك يغطي ثلاثة أقاليم مختلفة:-

١- الجزء الشمالي من شبه جزيرة "جتلند Jutland (الدانمارك) وسكانه من الدنماركيين.

---

[٥] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٧٢.

٢- الجزء الجنوبى الأقصى من جتلند الممتد من نهر الألب إلى جدول "إيدر Eider" وتقع فيه هلشتين وسكانها من الألمان، وبها ثغر من أهم ثغور بحر البلطيق وهو ثغر "كييل Kiel".

٣- دوقية "شلزويج" ويتوسط موقعها بين الإقليمين السابقين وسكانها خليط من الألمان والدانماركيين.

كانت إحدى الدوقتين وهى هلشتين عضوا فى الاتحاد الألمانى، وبذلك أصبح ملك الدانمارك عضوا فى هذا الاتحاد، بينما كانت دوقية شلزويج خارج هذا الاتحاد. وعلى الرغم من هذا كان مواطنو الدوقيتين يعتبرونها فى وحدة تامة. وكانت قوانين الوراثة فى الجزء الشمالى (الدانمارك) تختلف عما كان يناظرها فى الدوقتين، ففى الدانمارك كان النساء الحق فى تولى العرش على حين لم يكن ذلك ممكنًا فى الدوقتين. ومن هنا تبدأ المشاكل. ففردريك السابع ملك الدانمارك لم يترك من السلف من يخلفه على العرش، وبات عرشه وعرش الدوقيتين مصدرا للمشاكل. وبات الألمان يتطلعون إلى استقلالهما بالانفصال عن الدانمارك، وتولية "دوق" اجستنبرج Duke of Augustenbung على عرش الدوقيتين. ومن قبل ثار الألمان فى الدوقتين عام ١٨٤٨ على الحكم الدنماركى، وأيدهم فى ذلك متطوعون من الألمان كما أيدهم ملك بروسيا بعض الوقت. ويتولى دوق "اجستنبرج" عرش الدوقتين غير أنه لم يلبث فى الحكم طويلا، بل اضطر إلى التنازل عن العرش والفرار منهما حين تخلى عنه تأييد ملك بروسيا[1].

وهنا تتدخل دول أوروبا التى يهمها الأمر ويلتقى ممثلوها فى لندن ويقررون بقاء الدوقتيين مع الدنمارك فى وحدة حكومية تامة، ويقر الاتفاق كل من النمسا وبروسيا. ويمتنع الاتحاد الألمانى عن التوقيع عليها. ويسعى دوق اجستنبرج

---

[1] زينب عصمت راشد،تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٣٩٧.

إلى ملك الدانمارك فيتعهد له بانسحابه من الأمر وعدم التدخل في شئون الدوقيتين.

لم يلتفت بسمارك إلى رغبة الألمان في الدوقيتين حين أرادوا التخلص من الدانمارك والحصول على الاستقلال التام، ذلك لأنه كان مشغولا بتوسيع رقعة بروسيا. فطمح في ضم الدوقيتين إليها. ولم يكن أمر ذلك مشروعا ولا ممكنا إلا عن طريق الحرب. وقد سنحت هذه الفرصة عند موت ملك الدانمارك فردريك السابع في عام ١٨٦٣[٧].

ويظهر في الأفق السياسي شبح جديد وهو ابن دوق اجستنبرج فيطالب بعرش الدوقيتين، ويتهلل لذلك سكان الدوقيتين ويرحب بتوليه دوق اجستنبرج عليها. ولم يكن يجول بخاطره يومئذ أن يضمها إلى أملاكه على حين كان بسمارك يخفي عنه رغبته في ضمها. ولا غرابة في ذلك، فهكذا كان بسمارك يرى دائما من المصلحة أن يخفي نواياه السياسية، وبخاصة عندما يرى أن كشفها قد يعرقل تحقيق أمانيه. وهو قد قصد من كتم نواياه نحو الدوقيتين المذكورتين لأنه كان يخشى أن يذيعه ولي عهد بروسيا الذي كان صديقا للمطالب بعرشهما، ونعني دوق اجستنبرج[٨].

وتقول زينب راشد ولو استطعنا أن نكشف الغطاء عما كان يقف في سبيل ضم هاتين الدوقيتن لبروسيا لتبين لنا مقدار ما كان لبسمارك من مواهب سياسية وعزيمة جبارة تتضاءل أمامها الصعاب والعقبات. فإنجلترا كا ت شديدة الحرص على مصالحها في بحر البطليق، وكانت من أجل ذلك تقف إلى جانب الدانمرك. وكان رئيس وزرائها بالمرستون Palemestone شديد الحرص على معاهدة لندن في

---

[٧] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٣٩٧-٣٩٨.

[٨] نفسه، ص ٣٩٨-٣٩٩.

عام ١٨٥٢، فأخذ رئيس وزرائها يحاول إشراك الإمبراطور نابليون الثالث في المحافظة على معاهدة لندن ولكن أمر ذلك لم يكن بالهين اليسير، فنابليون الثالث لم يكن قد نسي بعد موقف إنجلترا منه حين دعا إلى مؤتمر للاتفاق على تأييد ثورة البولنديين في عام ١٨٦٣. كما أن نابليون نفسه كان يعتبر نفسه من أنصار الحرية، وحماة الديمقراطية. وكان يرى من أجل ذلك أن يضم شلزويج إلى الدانمارك نظرا لأن غالبية سكانها من الدانماركيين، وأن تترك هلشتين للألمان. وكان بسمارك قد أوهمه برغبته في شمال شلزويج للدانمارك[9].

ومن العقبات التي كانت تقوم في سبيله يومئذ الدايت الألماني الذي كان يرى أن الواجب يقتضي احتلال دوقية هلشتين عسكريا بعد أن يقر اجستنبرج على عرشها. وخشي بسمارك عواقب ذلك فأخذ يفكر في القضاء عليه قبل أن يولد ورأى أن أمر ذلك لن يتم له دون الاستعانة بالنمسا، ففعل وهنا أخطأت النمسا في قبول ما عرض عليها. فهو في الواقع قد قرر بها حين أوهمه برغبته في فصل الدوقتين عن الدانمارك وتوحيدها تحت إمارة دوق اوجستنبرج. وهكذا تم له ما أراد من إحباط مشروع الدايت الألماني.

وينجح بسمارك في خديعة النمسا والتغرير بها فتشاركه بجيوشها في الهجوم على الدانمارك وتتقدم جيوش الدولتين بروسيا والنمسا، فتعبر حدود شلزويج ويقاوم الدانماركيون بعد أن خدعهم بسمارك فأشاع بين صفوفهم أن إنجلترا ستعاونهم تنفيذا لقرارات معاهدة لندن عام ١٨٥٢، وكان بسمارك يريد أن يظهر المهتمين بالأمر على أنه لم يأخذ هذه الأقاليم إلا بجهود الجيوش المشتركة النمساوية البروسية وعندما أرتفع صوت إنجلترا بالاحتجاج مذكرة بمعاهدة لندن سنة ١٨٥٣ ووجوب احترامها، طالبت الدولتان المحاربتان بانفصال الدوقيتين عن الدانمارك

---

[9] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٣٩٨-٣٩٩.

وتوحيدهما تحت إدارة دوق اوجستنبرج ولم يكن بسمارك مخلصا فـي مطالبته هـذه وغنما اقتضاه الموقف أن يشارك النمسا فى هذه الرغبة[10].

ولما كانت إنجلترا غير مستعدة للحرب فإنها لم تجرؤ علـى التدخل: فنظر ملك الدانمارك فلم يجد إلى جانبه أحد فاسقط في يده، ولم ير أمامه غير التنازل عن الدوقيتين لإمبراطور النمسا وملك بروسيا. رضيت الدولتان بذلك على أن يكون حكم الدوقتين شركة بينها. ولكن ظهر أن النمسا لم تكن راغبة فـى الحكم المباشر فاقترحت على بروسيا أن يترك الحكم لدوق اوجستنبرج. ولم يقبل بسمارك ما عرضته النمسا فتخرج الموقف بين الدولتين وازداد تحرجا بعد أن احتل بسمارك ثغر كييل Kiel وجعله من ثغور بروسيا. وأعلن فون رون على أعضاء البرلمان البروسـى أن بروسيا لن تتنازل عن هذا الثغر بحال من الأحوال. وطلب إلى النمسا أن توافق على ما يراه حرمان دوق اجستنبرج من حكم الدوقيتين فلما رفضت اشتد لومه عليها متهما إياها بمخالفة ما اتفقا عليه.

ويتأزم الموقف بين النمسا وبروسيا، فتتوالى المساعى، وتستمر المفاوضات، ثـم تنتهى بعقد اتفاقية "جاشتين" Gastein فـى ٤ أغسطس مـن عـام ١٨٦٥، وبمقتضاها ينتهى أمر الحكم المشترك، فيؤول حكم هلشتين للنمسا وحكم شلزويج لبروسيا، وابتاع ملك بروسيا من إمبراطورية النمسا الدوقية الصغيرة المعروفة بلونبرج Lauenburg ونقده الثمن فورا، كما تم الاتفاق بـين الدولتين علـى أن تتـولى بروسيا الإشراف على قلاع "كييل".

وقوبلت هذه الاتفاقية بسخط من إنجلترا والولايات الألمانية إذ وجدت فـى ذلك خرقا لمعاهدة لندن التى كانت تقضى بعدم الفصل بين الدوقيتين.

---

[10] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص ٣٩٩-٤٠٠.

بدأ بسمارك يمهد لتحقيق مطامعه بالاتصال بفرنسا ليضمن حيادها إذا ما اشتعلت الحرب بينه وبين النمسا. فأفهم القائم بالأعمال الفرنسي في برلين "لوفيفر" Lefebvre أن بروسيا لا تستطيع تحقيق مآربها من النمسا إلا إذا وقفت فرنسا إلى جانبها. ووعده أن تم ذلك أن يضمن لفرنسا السيطرة على البقاع التي يتكلم أهلها اللغة الفرنسية وفي مقدمتها بلجيكا التي كان نابليون يتطلع إليها ويطمع في السيطرة عليها. وزاد على ذلك أن الإمبراطور يستطيع أن يوسع أملاكه على حساب بعض الولايات الألمانية(١١).

ولم يكن نابليون الثالث يومئذ يرى مانعاً من أن تضم بروسيا الدوقيتين إلى أملاكها، بل كان من رأيه أن تلك القضية عادلة، ويرى أن خلق اتحاد من ولايات ألمانيا الشمالية تحت زعامة بروسيا من شأنه أن يجعل اعتماد الولايات الجنوبية في ألمانيا عليه أمراً يكاد أن يكون محتوماً؛ فتمكن بذلك من توسع النفوذ الفرنسي في هذه المنطقة. وخال نابليون كذلك أن وقوع الحرب بين النمسا وبروسيا قد يمكنه من توسيع أملاكه على حدود فرنسا الشرقية كما وسعها بضم نيس وسافوى في عام ١٨٦٠. وتوقع نابليون كذلك – إذا ما وقعت الحرب وانتصرت فيها بروسيا – أن ترد البندقية إلى إيطاليا.

ولما اطمأن نابليون إلى وعود بسمارك خطر له أن يستجيب في لقاء يتم بينهما. وتم ذلك في بيارتز Biartiz في نهاية سبتمبر عام ١٨٦٥. وكان الغرض من هذا اللقاء أن يؤكد الإمبراطور لبسمارك وعده في الحياد إذا ما قامت الحرب بين بروسيا والنمسا. وقد وجد بسمارك في هذا اللقاء استعداداً من جانب الإمبراطور الذي كان مركزه قد تحرّج في فرنسا من فشل الحملة على المكسيك ورأى بسمارك أن يرضيه بوعد شفوي مؤداه المعاونة على توسيع رقعة فرنسا(١٢).

---

(١١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٤٠٠-٤٠١.

(١٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص ٤٠١-٤٠٢.

ويواصل بسمارك مساعيه فيعلن في مجلس الوزراء البروسي تاريخ ٢٨ فبراير ١٨٦٦ أن الحرب بين بروسيا والنمسا واقعة لا محالة وأن بروسيا في حاجة إلى محالفة إيطاليا. ونجح بسمارك في توقيع المحالفة في ٨ أبريل من نفس العام؛ وفيها تعهدت إيطاليا بأن تنضم إلى بروسيا إذا ما وقعت الحرب بينها وبين النمسا بشرط ألا تتأخر بروسيا في إعلان الحرب بل عليها أن تعلنها في مدى لا يجاوز ثلاثة أشهر واشترطت إيطاليا إذا ما تم انتصار بروسيا على النمسا أن تحصل على البندقية. ونجح بسمارك باتفاقه مع إيطاليا في أنه سوف يشغل النمسا إذا ما قامت الحرب في جبهتين، إحداهما في الشمال أمام بروسيا والأخرى في الجنوب أمام إيطاليا- واستطاع بذلك وبعد نجاحه في محالفة كل من فرنسا وإيطاليا – أن يفرغ للاستعداد للحرب فأتم مد الخطوط الحديدية في بروسيا وأتم إعداد الجيش البروسي للحرب[١٣].

أما روسيا فإننا نجد أنه منذ أن تسلم بسمارك زمام الأمور في بروسيا بنى سياسته الخارجية على أساس قيام محور بروسيا – روسيا إذ أنه اعتبر روسيا دائما حليفته الطبيعية وذلك لأسباب مهمة جدا، إذ أن روسيا ليس لها أي مطامع في أوروبا الوسطى تتنافى ومصالح بروسيا فالمصالح الروسية موجودة في البلقان والشرق حيث ليس لبروسيا أي مطامع. هذا الواقع جعل قيام صداقة بروسية روسية أمراً طبيعياً بعد أن اتضح عدم تعارض المصالح وعلى هذا الأساس تعاونت الدولتان في أوروبا طالما أن بسمارك كان يحكم في بروسيا. وعندما عرضت الحرب النمساوية البروسية وجدت روسيا نفسها مسبوقة لتأييد بروسيا[١٤].

الحرب النمساوية البروسية:

وفي ليل ١٤-١٥ يونيو سنة ١٨٦٦ بدأت المعارك بين بروسيا والنمسا بعد أن أعلن وفد بروسيا اعتبار الاتحاد لاغيا وانسحب من المجلس.

---

[١٣] نفسه، ص ٤٠٢.

[١٤] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٧٤-٢٧٥.

وعندما بدأت الحرب أرسلت النمسا جيشا مؤلفا من ٢٣٠ ألفا لمقابلة الجيوش البروسية وأرسلت جيشا مؤلفا من ١٤٠ ألفا ليرابط فى الجنوب بانتظار الجيوش الإيطالية. وفى ٣ يوليو وقعت بين الجيشين النمساوى والبروسى معركة فاصلة تدعى معركة سادوا Sadowa سحق فيها الجيش النمساوى على يد بروسيا المحالفة للنمسا وقد تم النصر قبل أن تتمكن الدول الألمانية من مساعدتها. وفى نفس الوقت كان الإيطاليون قد بدءوا زحفهم من الجنوب فوقعت بينهم وبين النمسا معركه كوستوزا Gaustozza التى هزم فيها الإيطاليون رغم تفوقهم فى العدد، وقد كان لمعركة سادوا دوى هائل فى اوروبا لأنها أتت أثبتت فى نظر الأوروبيين عظمة الجيش البروسى وحسن تنظيمه وتدريبه كما أثبتت أن البروسيا قد أصبحت دولة كبرى يجب أن يحسب لها فى ميزان القوى فى أوروبا. وقد كان أثر هذه المعركة أقوى ما يكون فى فرنسا. فقد أدرك الجميع أن النصر البروسى تهديد مباشر للسلامة الفرنسية وإن المَوقف الذى اتخذته حكومة الإمبراطورية الفرنسية قبل الحرب والذى اتسم بالحياد إن لم يكن بالتأييد الفعلى لموقف بروسيا كان بمثابة خطأ شنيع. وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا نفسها مجبرة على القيام بدور الوسيط بين الطرفين وقد قامت بدور الوساطة هذا بناء لطلب النمسا. وبصورة خاصة لكى تمنع بروسيا من قطف ثمار انتصارها العسكرية بشكل كامل. قبلت بروسيا ذلك على مضض ولكن ليكون هذه الوساطة فعاليتها كان يجب أن تقرن بعمل أو باستعداد عسكرى كما كأن يريد وزير الخارجية الفرنسية. وخوف نابليون وتردده وعجزه، كل ذلك جعل الوساطة سلمية مما أفسدها وجعلها عديمة الجدوى والفعالية.

وأخيرا تم الاتفاق فى مجلس الوزراء الفرنسى على عرض الشروط التالية:-

١- المحافظة على سلامة الأراضى النمساوية عدا البندقية.

٢- حل الاتحاد الجرمانى الذى كانت تتمسك به النمسا.

٣- الاعتراف لبروسيا بحق إنشاء اتحاد شمالي الماين.

٤- الدول الواقعة جنوبي النهر تشكل اتحادا تحت النفوذ الفرنسي.

٥- إعطاء الدوقيتين لبروسيا.[١٥]

وقد قبل بسمارك بهذه الشروط لأنه كان لا يريد إذلال النمسا بينما كان الملك والعسكريون يودون تحقيق الاتحاد والتوسع على حساب المناطق النمساوية. ولكن بسمارك تمكن من إقناعهم. ذلك أن سياسة بسمارك كانت تهدف لتحقيق الوحدة الألمانية وليس إذلال النمسا والقضاء عليها. وأخيرا تم الصلح على هذا الأساس سنة ١٨٦٧ بين النمسا وبروسيا.

وفي ١٢ أغسطس عقدت إيطاليا معاهدة الصلح مع النمسا، على أساس أن تتنازل هذه لفرنسا عن البندقية وتهديها بدورها لإيطالية.

وبموجب هذه المعاهدات تكون ألمانيا قد خطت خطوات واسعة نحو الاتحاد إذ أن ألمانيا أصبحت مقسمة إلى ثلاثة مناطق. اتحاد الماين وتتزعمه بروسيا، اتحاد جنوبي الماين حيث للنفوذ الفرنسي أثر لا بأس به وأخيرا قسم تسيطر عليه النمسا. وهكذا تمكن بسمارك من أن يقهر النمسا ويجعل مقاومتها للوحدة غير ذات أثر كما أنه سار شوطا بعيدا في طريق الوحدة بأن أزال الاتحاد الجرماني من عالم الوجود[١٦].

أما الأثر في فرنسا لقد شعر الفرنسيون منذ أيام معركة سادوا أن الخطر بات يهددهم بشكل قوي وأدركوا أن كل نصر تحرزه بروسيا يعتبر بحق ضربة قوية توجه إلى فرنسا ومما زاد في نقمة الفرنسيين أنه كان بإمكان نابليون أن يساوم عندما قام بوساطته فيحقق لفرنسا بذلك بعض الأرباح ولكنه اكتفى بأن أخذ البندقية ليهديها

---

[١٥] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٧٧.

[١٦] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٧٨.

لإيطاليا. وتجاه ثورة الرأى العام الفرنسى رأى نابليون الثالث نفسه مجبرا على إحراز بعض المكاسب للفرنسيين ولكنه نسى أن الوقت قد فاته وأن بروسيا التى صفت خلافاتها مع النمسا قد أصبحت فى وضع يمكنها من رفض كل مطلب جديد يتقدم به الفرنسيون[١٧].

وبالنسبة لسياسة بسمارك حيال فرنسا لقد لاحظنا منذ البداية أن فرنسا كانت تخاف الوحدة الألمانية إلى حد كبير وأنها ترى أن وجود دولة ألمانية على حدودها الشمالية يهدد سلامة الأراضى الفرنسية. وقد كان بسمارك يدرك هذه الحقيقة فوضع خطته على أساس قهر النمسا أولا ثم فرنسا ثانيا كمقدمة للوحدة الألمانية. وقد جاء تدخل نابليون فى الحرب بينه وبين النمسا يزيد بسمارك اقتناعا بأن فرنسا لم تتدخل إلا لتأخير الوحدة وعرقلتها ولذا فإنه ما انتهى من الصراع مع النمسا حتى أخذ يستعد لمواجهة فرنسا ولكنه من جهة أخرى كان يهمه أن تكون فرنسا هى المعتدية فى كل حرب مع ألمانيا. وقد ظل بسمارك يسعى لذلك حتى تهيأت له الفرصة سنة ١٨٧٠[١٨]

وكانت العلاقات الفرنسية الألمانية حتى سنة ١٨٧٠ :- بعد انتهاء الحرب بين النمسا وبروسيا شعر نابليون الثالث بأن الفرصة قد فاتته إذ كان بإمكانه أن يفرض ما يشاء من مكاسب لمصلحة فرنسا حين قام بوساطته بين الدولتين. أراد أن يعوض عما فاته فأخذ يطالب بروسيا ببعض التعويضات الإقليمية. طلب أولا بعض الأراضى الألمانية على الراين. ولكن بسمارك رفض ذلك بحجة أنه لا يملك حق التصرف فى الأراضى الألمانية ثم عاد نابليون وطالب بلجيكا ولوكسمبرج. فقبل بذلك مبدئيا ولكنه أطلع إنجلترا من طرف خفى على نوايا نابليون مما أحرج موقف فرنسا ثم عاد نابليون يطالب بالمرة الثالثة باللوكسمبرج فقط ولكن بسمارك رفض ذلك أيضا

---

[١٧] نفسه، ص٢٧٨.

[١٨] نفسه، ص٢٧٨.

فلجأت فرنسا إلى احتلال اللوكسمبرج مما جعل الوضع يتأزم فى أوروبا. عند ذلك عقد مؤتمر فى لندن سنة ١٨٦٧ تقرر فى أثنائه أن تكون هذه الدولة منطقة حياد بين بروسيا وفرنسا[١٩].

وهكذا يفشل نابليون الثالث فى جميع المحاولات التى قام بها للحصول على بعض المكاسب فى أوروبا مما جعله يحقد على بروسيا ويصمم على محاربتها.

ومما زاد فى تأزم الأوضاع أن بسمارك لم يكتف بما حققه من مكاسب عقب الحرب النمساوية البروسية بل عقد سنة ١٨٦٧ معاهدات تحالف بين اتحاد ألمانيا الشمالية وبين بعض دويلات ألمانيا الجنوبية فى ذلك دليل على تصميم بسمارك على تحقيق الوحدة الألمانية رغم معارضة فرنسا لذلك[٢٠].

وهكذا أخذ يتضح شيئاً فشيئاً أن الحرب بين بروسيا وفرنسا واقعة لا محالة إذ أن بسمارك لن يتراجع عن تحقيق الوحدة وفرنسا لن تسمح بذلك إطلاقا. ومما زاد فى حراجة الموقف أن السياسة الداخلية التى كان يتبعها نابليون الثالث أثبتت فشلها إلى حد كبير مما جعله يفتش عن انتصارات عسكرية أو سياسية يقوى بها أركان حكمة المتحرِّج ويشغل الفرنسيين عن الاهتمام بمشاكل فرنسا الداخلية وأوضاعها المتردية اقتصاديا وماليا واجتماعيا[٢١].

أما بالنسبة للموقف الدولى حتى سنة ١٨٧٠ منذ أن شعر الفريقان فى سنة ١٨٦٧ أن الحرب واقعة لا محالة أخذ كل منهما يعمل على تهيئة وضع ملائم له أوروبا ففرنسا أخذت تفتش عن حلفاء لها ضد بروسيا وذلك لعلمها بأن الجيش البروسى قوى وربما عجزت عن قهره لوحدها أما بروسيا فكانت واثقة من قوة جيشها وقدرته

---

[١٩] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٧٩.

[٢٠] نفسه، ص٢٧٩.

[٢١] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٢٧٩.

على سحق فرنسا. فإنها أخذت تسعى لعرقلة الجهود الفرنسية في أوروبا وضمان حياد دولها الكبرى وهنا سنعرض باختصار موقف كل من هذه الدول.

من المعلوم أنه في سنة ١٨٦٧ كان وجه النمسا تبدل ذلك أن المجر كانت قد نالت استقلالا ذاتيا.وأصبحت النمسا تدعى إمبراطورية النمسا المجر. وهذا يعنى أن النمسا لم تعد وحدها تقرر سياسة الدولة ومصيرها بل يشاركها في ذلك المجريون.

ثم أن النمسا بعد هزيمتها أمام بروسيا سنة ١٨٦٦ غيرت أسس سياستها وجعلت اهتمامها ينحصر في الشؤون البلقانية وشؤون المتوسط وبذا أصبح خصمها الرئيسي الروسسيا وليس بروسيا. وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا أنه لا يمكنها الاعتماد إلى حد كبير على النمسا التي لم تعد تهتم بالشؤون الألمانية. ورغم العروض الكثيرة والمتكررة ورغم الأماني السخية التي عرضها نابليون على النمسا مقابل عقد تحالف مع فرنسا ضد بروسيا فإن نابليون لم يحصل على أي نتيجة إيجابية من قبل الحكومة النمساوية[٢٢].

ولم تكن روسيا تشعر بأي خطر من جراء قيام الوحدة الألمانية بل على العكس كانت روسيا على استعداد دوماً لتأييد بروسيا ذلك أن روسيا كانت تهتم بقضايا البلقان من جهة وبمراقبة الوضع في بولونيا من جهة أخرى مخافة تجدد الثورة التي قامت سنة ١٨٦٣. وكانت روسيا تحرص على صداقة بروسيا لبقاء استقرار الوضع في بولونيا[٢٣].

وكان الحكم في الوقت في إنجلترا بيد الأحرار الذين كانوا منصرفين إلى معالجة شؤون الإمبراطورية الداخلية. أميركا – كندا، الحدود الهندية – الروسية،

---

[٢٢] عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٨٠.

[٢٣] نفسه، ص٢٨٠.

الشؤون الانتخابية، كل هذا صرف إنجلترا عما يجرى فى أوروبا ... عم ... خلف تتمسك إلى حد كبير ببقاء التوازن الدولى فى أوروبا على حاله

ولهذه الاسباب لم يحصل أى تحالف بين إنجلترا وفرنسا. وهكذا انقضت السنوات الثلاثة السابقة للحرب فى تسابق بين فرنسا وبروسيا على كسب ود الدول الكبرى وقد جاء عام ١٨٧٠ دون ان تحصل فرنسا على حليف قوى يساعدها فى حربها ضد بروسيا. بينما كان بسمارك قد ضمن صداقة روسيا وحياد إنجلترا والنمسا. وعند ذلك بدأ يدفع فرنسا لكى تعلن الحرب ذلك أنه كان لا يريد أن يظهر فى أوروبا بمظهر الرجل المعتدى[٢٤]

٢- الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠:

فقد نما إلى باريس فى ٣ يوليو سنة ١٨٧٠ أن الأمير ليوبولد من أمراء بيت هوهنتزولرن سيجمارنجن Hohenzollern Sigmaringin، وهو قريب بعيد لملك بروسيا، وابن الأمير أنطونى الذى شغل قبلا منصب كبير وزراء بروسيا، وأخو الأمير شارل الذى انتخب سنة ١٨٦٦ أميرا على رومانيا – نمى إلى باريس أن هذا قبل عرش اسبانيا الشاغر، على شريطة تصديق الكورتس الأسبانى على اختياره. فنشأ فى الحال موقف من التوتر الدبلوماسى بالغ الخطورة. ذلك أن ترشيح الأمير الهوهنتزولرنى كان قد عُرض على بساط البحث بشكل سرى فى برلين سنة ١٨٦٩. وأحيط البروسيون وقتئذ علماً باعتراض الفرنسيين على ترشيحه، فقد عده الأخيرون جزءا من خطة تنطوى على تهديد بلادهم بخطر عودة إمبراطورية شارل الخامس، وقلب التوازن الدولى الأوروبى فى غير مصلحتهم[٢٥]

---

(٢٤) عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى. المرجع السابق.ص ٢٨١

(٢٥) فشر. تاريخ اوروبا فى العصر الحديث ص ٢

فما الذى دعا إلى تجدد هذا الترشيح المبغوض فى يوليو سنة ١٨٧٠؟ إن الحكومة الفرنسية انتهى رأيها على الفور إلى أن بسمارك ينصب لها أحبولة من حبائله، بغية إذلال الأمة الفرنسية. ورأت أنه إذا لم يسحب الترشيح قبل انعقاد الكورتس فى ٢٠ يوليو. فإن فرنسا ستكره على إشهار الحرب على بروسيا. وأخبر الدوق دى جرامون Duc de Grammont وزير الخارجية الفرنسية مجلس النواب فى ٦ يوليو بأن هذا الأمر يمس شرف بلاده ومصالحها. بل إنه حتى ألفييه السياسى الأريب الحر الميال إلى المسالمة، الذى كان قد صرح إلى مصدر ألمانى بأنه لن يكون شريكا لأية حركة ترمى إلى أن تقاوم بلاده بحد السيف أى اتحاد اختيارى بين جنوب ألمانيا وشمالها -- حتى ألفييه استفزه هذا الشرك المزعوم الذى حاكه ختال بروسيا وسوء نواياها المبيتة.

ولكن وسط هذا الفوران العام الفرنسى الذى ارتفع إلى أوج الحمى، هبطت بغتة على باريس فى ١١ يوليو -- كما يهبط المن من السماء -- أخبار غير رسمية بأن الأمير أنطونى هوهنتزولرن أمكن استمالته إلى أن يعلن باسم ابنه نزوله عن ترشيحه للعرش الأسبانى. فكانت دهشة باريس عظيمة، وروح الفرح والغبطة فيها أعظم، وبدا كأن الخطر قد أبعد، وأن تصريحات فرنسا قد أثمرت ثمرها. وأعرب الإمبراطور وألفييه عن ارتياحهما. أفلم يكن هذا ينطوى، لا على صون السلم فحسب، بل على صون السلم مع الشرف؟ وأكد جيزو الوزير السابق العجوز أنه لا يذكر نصراً دبلوماسياً أحرزته فرنسا أعظم من هذا النصر.

بيد أنه سرعان ما كسب السلم، حتى راح ضحية عمل دبلوماسى طائش يدل على الحمق والرعونة. فإن جرامون، وهو دبلوماسى محترف، كان أكثر من كبير الوزراء ميلا إلى الحرب والأخذ بأساليب الشدة -- فلم يكتف بأن يعلن "الأب أنطونى" تخلى ابنه عن الترشيح، بل رأى ضرورة الحصول على تأكيد صريح من

ملك بروسيا بتصديقه على هذا التخلى، وتعهده بعدم تجدد هذا الترشيح قط فى المستقبل. بل إنه ذهب حتى إلى المدى البعيد، بأن يقترح على السفير البروسى بباريس أنه يجدر بمليكه أن يعرب عن أسفه على حدوث هذا الترشيح إطلاقا.

ومن سوء الطالع، لم ينفرد جرامون بهذا الطيش وتلك الحماقة، فإن غُرا أحمق آخر وقف فى مجلس النواب الفرنسى - الذى كان قد أذكيت فيه لظى حمى متأججة من التحمس والهوى فى الأيام القليلة السابقة - وطالب حكومته بضرورة حصولها على تأكيدات وافية. وانتقلت هذه الصرخة من المجلس إلى القصر الإمبراطورى، فجرفت أمامها تعقل الإمبراطور واعتداله، فأنفذ هو ووزير خارجيته - من غير علم ألفييه والوزارة - تعليمات فى ١٢ يوليو إلى بندتى سفيره برلين، بأن يقابل الملك وليم فى مدينة إمز Ems، ويحصل منه على تأكيد بأنه يشترك مع الأمير أنطونى فى تنازل الأمير ليوبولد، وأنه لن يقر البتة أية محاولة لتجديد إجلاس أمير من آل هوهنتزولرن على أريكة العرش الأسبانى[٢٦].

ومع أن هذه المشكلة الأسبانية لم تعرض قط على الوزارة البروسية، إلا أن الفرنسيين كانوا على صواب فى حدسهم بأن بسمارك كان قطب الرحى فى هذه الأحبولة. وفى الواقع لم يترك بسمارك من الوسائل إلا طرقها، لكى يحبط المحادثات النمساوية الفرنسية بشأن تقرب الدولتين، وسعى إلى عقد تحالف بين بروسيا وأسبانيا يفتح الأسواق الأسبانية فى وجه التجارة البروسية، ويكفل لبلاده فى حالة نشوب حرب دولة صديقة عبر البرانس. ولهذا حض الأمير الهوهنتزولرنى على قبول الترشيح، وحض الأسبان على تجديده وحض مليكه على أن ينظر إليه بعين الرضا، وأن يتصرف فيه كأمر سرى للغاية. وبينما كان ينكر فى دهاء معرفته رسمياً بهذه المسألة، سعى كى تبحث فى اجتماع خاص لمجلس الدولة حضره الملك

---

[٢٦] فشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ٢٨٦، ٢٨٧.

والأمراء وأقطاب الحرب. وقد روعيت بشأن انعقاد هذا الاجتماع أشد ضروب الكتمان والتستر. وأمل بسمارك أنه قبل أن يدرى أحد حتى الفرنسيون بأن عرضا كهذا قدم، فإن الأمير الألماني يكون قد زكي وقبل مليكا بصفة رسمية في مدريد.

فإن بسمارك رأى حدوث إحدى نتيجتين، كانت كلتاهما ملائمة لأغراضه، وهما: إما شبوب حرب بين فرنسا وبروسيا، أو ما هو أقل ملاءمة لمقاصده، شبوب حرب بين فرنسا وأسبانيا. ولهذا علم في ١٢ يوليو، وقلبه يطفح خيبة أمل برفض "الأب أنطوني" هذا العرض الكبير إذ كان معنى انتصار الدبلوماسية الفرنسية، وعجز عن الاقتصاص من الصحافة الباريسية على قحتها وتهجمها. وهو يصف هذا الموقف في مذكراته "أفكار وذكريات" بأنه أكبر إذلال أصاب بلاده منذ ألمتز.

بيد أن جرامون خلصه من وجومه ومرارة نفسه. فإنه لما حظي بندتي بمقابلة ملك بروسيا في صباح ١٣ يوليو وهو يتنزه في شوارع إمز، قابله المليك الهرم مقابلة مجاملة، ولكنها حازمة أيضا، إذ رفض إعطاءه أي وعد. ثم رجا السفير الفرنسي مرتين تحديد موعد لمقابلة أخرى مع الملك، غير أنه رفض استجابة طلبه. وأرسل الملك إلى بسمارك برقية يقول فيها، إنه وصله إخطار رسمي من الأمير لبوبولد بتنازله عن الترشيح، وإنه موافق على هذا التصرف. وأعرب لوزيره الأول عن رأيه بأن هذا سيؤدى إلى فض المشكل[٣٧].وأخبره أن المقابلة التي جرت بينه وبين السفير الفرنسي – وكان كلاهما يتوق إلى تجنب بلاده الحرب – كانت تسودها المجاملة البالغة والشعور الطيب.

وتسلم بسمارك في مساء ذلك اليوم البرقية الملكية التي تروى هذه الوقائع. بينما كان يتعشى مع ملتكه رئيس هيئة أركان الحرب وورون وزير الحربية.فأبصر هذا الاستراتيجي الأكبر في لمح البصر بأن خصمه قد وقع في الفخ.ذلك انه رأى أن

---

[٣٧] فشر، المرجع السابق، ص٢٨٨.

يصدر بيانا إلى الصحف يضمنه فحوى البرقية، ولكن بعد أن يعمل في نصها تغييرا أريباً طفيفاً، بحيث تبدو كأن السفير قد أهان الملك، وأن الملك أكره على أن يرد الإهانة أضعافا. ولما قرأ بسمارك على القاندين الشهيرين النص المعَّدل للبرقية، اغتبطا اغتباطا كبيراً. وقال ملتكه: "إنه تحد". وقال فون رون "إنه لشيء جميل".
وكان بسمارك والقائدان على محجة الصواب، فإن برقية إمز هي التي أشعلت نار الحرب بين فرنسا وألمانيا.

ففي صباح ١٤ يوليو اندفع جرامون إلى مكتب ألفييه، وبيده نسخة من جريدة "شمال ألمانيا" Norddeuche Zeitung، حاوية نص بسمارك لبرقية إمز. فصاح ألفييه "تالله إنهم يرمون إقحام الحرب علينا". ولقد كان ذلك اليوم في باريس يوم عصيبا حافلا بالتردد وعدم الوصول إلى قرار حاسم. فقد أخذ بندول النقاش في مجلس الوزراء الفرنسي الذى عقد ذلك اليوم يشير مرة إلى غلبة السلم، ثم يتحول تحولا عاجلا إلى ضرورة تجريد السيف. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر صدرت الأوامر باستدعاء الاحتياطي. وفي منتصف الساعة السابعة تقرر دعوة مؤتمر، غير أن الرأى تصيب بعد العشاء في جانب امتشاق الحسام. وفي الليل انتهى المجلس إلى إعلان الحرب. وقد حضرت الإمبراطورة الاجتماع في العشية حينما اتخذ المجلس قراراه الخطير. ومع أنها التزمت الصمت، إلا أن ميولها كانت معروفة بانتصارها لجانب الحرب[٢٨].

وأظهرت باريس رأيها بشكل جلي. وقال الإمبراطور حينئذ:"إنه حتى إذا لم يكن ثمة باعث لنا نستطيع أن نتقدم به لخوض غمار الحرب، فإننا مضطرون إلى الامتثال لمشيئة الشعب، بيد أن الشعب دل على جهله الكبير بحقائق الموقف في هتافاته التي ملأت الشوارع: "إلى برلين، لتحيا الحرب".

---

[٢٨] فشر، المرجع السابق، ص٢٨٩.

ر دا كان باريس قد استقبل الحرب في تهليل وتكبير. فقد قوبل إنه نتا
ي بردد واسع في احدى وسعين مديرية من مديريات فرنسا السح والثماين فقد
كانت في نطر هذه المديريات حربا لا ضرورة لها ولا معنى

وإن على أكتاف بسمارك وجرامون يجب أن نلقي أكبر التبعة في إعلانها: فعلى بسمارك، لأنه حبك حبائل مؤامرة ترشيح الأمير الالماني سرا، ولتحويره نص برقية إمز، وعلى لتعجله في السير وراء اهوا ـه المندفعة، وقطعه عامدا أسباب السلام. كما أنه لا يمكن إعفاء الملك وليم والإمبراطور نابليون من اللوم والمؤاخذة. فإن الملك وليم الذى كان أنموذج الشرف والنبل، سمح لنفسه. ضد رأيه الصائب. أن يتحمل إلى التصديق على المغامرة الأسبانية من غير استشارة فرنسا، برغم معرفته بان لها مصلحة في هذا الشأن. وكذلك لا يقل نصيب الإمبراطور في اللوم والتقريع. لأنه انضم إلى جرامون في طلب الضمانات الذى أدى إلى هذه الحرب المشئومة. أما أن موقفه قد جعل شاقا عسيرا بتحمس الخطباء الفرنسيين المحافظين المتهورين في مجلس النواب، وبلهجة صحف باريس النارية. فما في هذا ريب. بيد أن حاكما قوياً حازماً خليق به الاحتفاظ بهدوء ورجاحة رأيه خلال الأزمات. ومما هو جدير بالذكر أن تيير، خبير ساسة عصره، لم يخش أن يجاهر برأيه ضد الحرب.

غير أن كل شيء حدث في عجلة خارقة. فبينما أوروبا ترتع في بحبوحة من السلام والطمأنينة، إذ بها في أكثر قليلا من أسبوعين تنزلق إلى سعير حرب مستطيرة شعواء. وفي أوج موسم الإجازات الصيفية، حولت الأسلاك البرقية والصحافة شجارا لم يكن قط مرتقبا إلى نهاية وبيلة، فقذفت بأمتين من أسمى أمم العالم مدنية في جحيم حقد وحشي وكراهية شرسة، قبل أن تتمكن عوامل التعقل

وأواصر الجوار من أن تسمع أصواتها السلمية. وعلا فوقها من كلا الجانبين صليل السيوف، وهدير المدافع[٢٩].

وطاشت ظنون جميع الأنبياء، وكذبت تكهناتهم. فإن جيش فرنسا المنظم ذا الصيت الذائع والانتصارات الكبيرة، بدلا من أن ينقل ساحة القتال إلى جنوب ألمانيا، حطِّم تحطيماً فى شهر واحد. ولم تكن هذه النتيجة بعائدة إلى نقص فى مناقب الجندى الفرنسي الحربية، بل إلى الحقيقة بأن النظم الحربية الفرنسية كانت بالغة أقصى حدود القصور وضعف الكفاية، على حين أن الجيش الألمانى كان قد أكمل استعداداته الحربية الدقيقة، وكانت الأمة الألمانية أعظم أمة شهدها العالم حتى ذلك الحين نظاماً وترتيباً.

ومن ابلغ الدروس التى يمكن استخراجها من هذه الحرب الموازنة بين الدولتين المتحاربتين فى مسألة التعبئة الجليلة الخطر. فبينما الجندى الألمانى عندما دعى إلى القتال، وجد أسلحته وبزته العسكرية على أكمل وجه، كان على الجندى الفرنسى أن يسافر أحيانا بطول فرنسا، بل كان عليه أحيانا أن يعبر البحر إلى بلاد الجزائر لكى يصل إلى مستودع مهمات فرقته. فكانت النتيجة أنه على حين تم نقل الجيش الألمانى إلى الحدود بدقة آلية ونظام مضبوط، سادت أشد ضروب الاختلال السكك الحديدية الفرنسية، بحيث كان الألمان على الحدود بقوة متفوقة قبل أن يستعد الفرنسيون لملاقاتهم. ولما كانت فرصة نابليون الوحيدة لحمل النمسا على الدخول فى هذه الحرب إلى جانبه هى إحرازه نصراً ; اهراً مبدئياً، فقد أسفر العجز الكبير وعدم الكفاية الهائلة لنظام التعبئة الفرنسية، عن نتائج خطيرة كبيرة القدر[٣٠].

---

[٢٩] فشر، المرجع السابق، ص ٢٩٠.

[٣٠] فشر، المرجع السابق، ص٢٩١.

واختص الغزاة بميزة أخرى على خصمهم، هى أنهم كانوا قد درسوا هذه الحرب التى أزمعوا خوضها بإحكام عظيم، على ضوء آخر التطورات التى تمت فى التلغراف ومدفعية الميدان. وعلى حين أن الفرنسيين لم يجل فى خاطرهم البتة الاحتمال بأنهم قد يكرهون على الذود عن أرض وطنهم، فإن الخطة البروسية لغزو فرنسا كانت قد وضعت منذ ثلاث سنين، فرسمت الطرق على الخرائط، وقدرت المقدرة النقلية للسكك الحديدية. ولم تترك هيئة الأركان العامة البروسية فى برلين شاردة أو واردة من التفاصيل الخاصة بتنظيم الجيش الفرنسى، وتسليحه، وتوزيع وحداته، دون أن تحيط بها علما. وكانت تضاف باستمرار إلى المعلومات العديدة التى جمعتها هيئة أركان الحرب البروسية معلومات جديدة، بواسطة سياج متحرك من الخيالة المراقبين الذين كانوا يتقدمون بتقدم الجيوش الألمانية الثلاثة فى فرنسا.

وربما ظن بعض الناس الحربى الألمانى ودقة جزيئاته أخمدا فى أفراد ضباطه روح الابتكار. ولكن الواقع كان غير ذلك. فقد كان مبدأ مبادىء هيئة الأركان العامة الألمانية أن تشجع صغار القواد على الاضطلاع بالمسئولية، ولهذا بينما كانت حركات الجيوش الفرنسية تعاق بخضوع قوادها الفائق لقيادة الجيش المركزية، لم يحدث – حسبما يبدو – أن قائداً ألمانياً تردد فى الزحف إلى حيث تقصف المدافع، أو فى قذف جنوده فى حومة الوغى، حيث يرى الحاجة ماسة إليهم. والحق أن روح الابتداع والابتكار الرائعة التى أظهرها أصاغر القواد الألمان هى مظهر من أبرز مظاهر تلك الحرب.

وفى الحروب يتوقف كل شىء على مقدرة الإدارات المدنية وقيادة الجيش العليا على العمل معا فى تضافر، وعلى بث الثقة فى النفوس، وتوجيه الأمة والجنود إلى مرام واضحة ثابتة مذكية للعزائم. ففى جميع هذه المسائل الجزئية

كانت فرنسا فى مركز عاثر فى صيف عام ١٨٧٠. فلم يكن هناك أى نظام، أو حماس، أو همه؛ لا فى القيادة الحربية العليا، ولا تنظيم المدنيين. فقد كان نابليون مريضاً مهدما تمزقه الآلام المبرحة، وكان لى بيف Leboeuf وزير الحربية وبازين Bazaine خلفه في القيادة العليا، على أكبر درجات العجز وقلة الكفاية[٣١].

وخلف هؤلاء قامت فى باريس حكومة مدنية شديدة الجزع والهلع تتزعمها الإمبراطورة الحسناء المكروهة. وأخذت هذه الحكومة تواجه غمرات من التمرد الشعبى تعلو وتصخب على جناح السرعة. وفى الجهة المقابلة لهذا المشهد من القصور الحربى والفوضى المدنية، وقفت أمة متحدة، وبيت مالك عريق الأصول، وثالوث هائل جبار يتألف من بسمارك، وفون رون وملتكه، يؤازره جيش من الضباط العسكريين والموظفين المدنيين درّبوا فى خير مدرسة من مدارس الخدمة العامة الموجودة يومئذ فى أوروبا.

ويمكن إضافة وجه آخر لهذه الموازنة بين الدولتين، وهو أن الألمان كانوا يسيرون وفق نظام قصير الأجل للخدمة العسكرية. أما الفرنسيون فكانت مدى الخدمة العسكرية عندهم طويلة الأمد. فبينما النظام العسكرى البروسى يحدد عامين للخدمة فى الجيش العامل، وأربعة أعوام فى الاحتياطى، وخمسة أعوام ونصف عام فى الرديف، مما كان مقدرا له أن يخرج جيش ميدان يتألف من خمسمائة ألف مقاتل، وراءهم عرمرم من الوحدات المدبرة، كان النظام الفرنسى الذى يفرض خمسة أعوام للخدمة العسكرية ملائماً إلى درجة ما للحملات الاستعمارية عبر البحار. ولكنه لم يكن يجدى فتيلا فى الحروب الكبرى. ولو أن الجيش النظامى الألمانى هلك فى المراحل الأولى للحرب، لكان من الميسور تعويضه بجنود قضوا المدة الكاملة للتدريب فى الجيش العامل، أما الجيش الفرنسى فإنه حينما أبيد أو فرق

---

(٣١) فشر، المرجع السابق، ص٢٩٢.

شذر مذر، أكرهت البلاد على الاعتماد على جنود كانوا إلى أكبر حد خاماً غير مدربين. ولقد أحست فرنسا بهذا النقص الفادح أشد إحساس في النصف الثاني من الحرب[٣٢].

وكان تاريخ الشطر الأخير من صيف سنة ١٨٧٠ مأساة كبرى متصلة النوائب والكوارث لفرنسا. فإن الألمان جرفوا كل شيء بقوة هائلة لا تقاوم، فدحروا ماكماهون Macmahon في فرت Worth وهزموا فروسار Frossard في إسبيشرن Spichern. وبهذين الانتصارين: الواحد في الألزاس والثاني في اللورين، واللذين أحرزا كلاهما في ٦ أغسطس – أي بعد يومين فقط من بلوغ الجيش الغازي الحدود – بهذين الانتصارين الألمانيين هبت عاصفة عاتية من الاستنكار الشديد، وعمت موجة طاغية من التشاؤم والهلع في طول فرنسا وعرضها، حتى اضطر الإمبراطور إلى أن يتخلى عن منصب القيادة العليا، ويعين فيه بازين، وأقصي ألفييه الأمين الوجل الذرب اللسان المرح الفؤاد من مسرح السياسة الفرنسية إقصاء أبديا وحل محله في ١٠ أغسطس ضابط كهل من ضباط الفرسان هو الكونت دي بالكاو De Palikao وضعت فيه الإمبراطورة المحزونة القلقة المتخوفة في عناد وإصرار آخر آمالها.

بيد أن جميع هذه التغييرات كانت بدون جدوى. فلم يكن بازين بالرجل الذي يوقف الهجوم البروسي الجارف. وكان ارتداده بطيئا، وبطيئا إلى درجة أنه مكن الألمان من أن يلتفوا حوله، ويوقفوه عند مار لاتور Mars la Tour، ثم يردوه بعد فوز دموي في غرافلُتْ Gravelotte في ١٨ أغسطس. وتراجع بازين جنوبا بشرق كي يحتمي بتحصينات معقل متز، حيث سمح لغريمه بأن يطوقه، وحيث ظل دون أن يبذل أي جهد الاختراق خطوط الجيش المحاصر، وحيث استسلم

---

[٣٢] فشر، المرجع السابق، ص٢٩٣.

أخيرا للعدو فى ٢٧ أكتوبر، وأطلق بعمله هذا المنطوى على الجبن والغدر جيشاً ألمانياً مؤلفاً من مائتى ألف جندى لكى يساهم فى إخضاع بلاده.

وكان جيش فرنسى آخر مدرب من الجند النظاميين يتجمع فى الأيام الأولى من أغسطس فى شالون Chalons تحت قيادة مكماهون. وغدا أمراً من الأهمية بمكان عظيم إذا كان فى مقدور هذا الجيش الذى صار آخر قوة نظامية فرنسية غير محصورة أن يوجه حركاته بحيث ينتفع منه انتفاعا كبيرا. وأشار ماكماهون – فى حكمة كما يبدو – بأنه ينبغى أن يجتنب هذا الجيش أى اتصال مباشر بالعدو، وأن يرتد إلى الوراء، وأن تخف إلى نجدته أية قوات حربية مبعثرة تكون باقية فى البلاد، وأن يركز قوته أمام حصون باريس. لكن الإمبراطورة يوجينى ومشيريها أصموا آذانهم عن سماع هذا الرأى القاتل بالتراجع، وحضوا على أن يهرع ما كماهون إلى نجدة بازين، وأشاروا إلى أن باريس فى حاجة إلى انتصار يكسب فى الشرق، وأنه إذا تراجع جيش شالون إلى الوراء، فإن الناس سيهبون لقلب العرش. فاضطر مكماهون على كره منه، وضد رايه الصائب، أن يزحف قافلا إلى ريمس. وإذ نمى إليه أن بايزين ينوى شق طريقه إلى الشمال، أدار وجهته إلى الشمال الشرقى صوب الحدود البلجيكية. بيد أن ملتكه بادر إلى تعقبه وأمكنه أن يطوقه فى البندر الصغير: سيدان Sedan، وان يسلط عليه حمم مدافعه، ويجبره على التسليم. وكان من بين أسلاب ذلك النصر الألمانى المبين نابليون الثالث نفسه.

وقد نشبت هذه المعركة فى الثانى من سبتمبر. وبعد يومين من وقوعها، أعلنت الجمهورية فى باريس. وبينما كان الزعيم الفرنسى جول فافر Jules Favre يعلن للعالم أجمع أن فرنسا لن تنزل عن حجر واحد من قلاعها، أو شبر واحد من أرضها، كانت الإمبراطورة تلوذ بالفرار سراً فى عربة طبيب أسنان أمريكى إلى الحرم

الأمين التقليدى للمنفيين السياسيين: إنجلترا. وبذلك قضى على البونابرتية القضاء المبرم، وانتهى ذلك النوع من النظام الملكى القائم على الاستفتاء الذى يعد أن أوشك على توحيد أوروبا قاطبة تحت صولجان نابليون الأول، ختم أيامه بترك فرنسا مقصوصة الجناح، مهيضة الجانب تواجه خصما عنيداً جباراً.

ولكن ما انتهت الحرب ضد الجيش الإمبراطورى الفرنسى، حتى بدأت ضد الأمة الفرنسية نفسها. أن أريباً وزناً الموقف وزناً هادئاً بعيداً عن الهوى، لأشار بأن أكبر أمل لفرنسا فى الوصول إلى صلح ملائم كان فى الوقت الذى ما برحت متز فيه ممتنعة على العدو، وجيش بازين لم يمسسه أذى. غير أن الأهواء لا تحسب لشىء حساباً. كما أن هناك بلا ريب برهات فى تاريخ كل أمة تكون فيها قواها النفسانية – مهما تكن أهواؤها عمياء جامحة – أثمن لها وأنفس من العناية بتقدير حساب المكسب والخسارة. فإن الحرب القومية التى بدأت فرنسا الآن تخوضها، وإن كانت قد جرّت عليها صلحا أقسى، إلا أنها عاونت بعض الشىء على إعادة الكرامة والعزة واحترام النفس إلى الأمة الفرنسية، وعملت على المحافظة على شجاعة أبنائها وتقوية عزائمهم فى السنين العاثرة التى بدأت تطالعهم.

صحيح أن الأحداث أثبتت أن هذه الحرب كانت حربا يائسة لا رجاء فيها ولكنها كانت ملأى بالمضايقات للعدو الظافر الغازى، مفعمة بصعاب ربما كانت تلك التى واجهته فى الطور الأول من الصراع الذى تطاحن فيه الجنود المحترفون. فإن ميدان عمليات العدو الحربية صار أوسع، وطالت خطوط مواصلاته، وكثيرا ما هدده الجنود الفلاحون الذين هبوا للذود عن أرض الوطن. وكانت الجيوش الفرنسية الجديدة التى نهضت فى كل صقع للقتال، أعصى على العدو فى تقدير قواتها وكشف مواقعها. ولو أن الفرنسيين كانوا قد اتخذوا الحيطة فى إعدام نظام واف لتأليف جيش احتياطى مدرب، فلربما كان فى وسعهم أن يحولوا هذه المضايقة التى عاناها العدو إلى تهديده تهديدا خطيرا.

وكان قطب الرحى فى هذه الحركة الشعبية التى أطالت الحرب هو ليون غمبتا (١٨٣٨ - ١٨٨٢) الخطيب الجمهورى المفوه، الخارج من الجنوب، الذى برز أسمه لأول مرة فى قضية شهيرة كان فيها المكافح العنيد، والمهاجم القوى المراس للإمبراطورية الثانية. ولم تكن العقبات لتثنية عن عزمه، ولا العراقيل لتحول بينه وبين بغيته. مثال ذلك أنه حينما طوق الألمان باريس، فر منها فى بالون إلى روان. وبنشاطه الخارق وهمته القعساء، حشد فى خلال أسابيع ستة جيشاً من مائة ألف وثمانين ألف مقاتل. وتمكن هذا الجيش الجديد من إنزال الإنكسار الأول الذى أصاب الألمان فى هذه الحرب، وذلك فى كولمييه Coulmier بالقرب من أرليان.

ولو أن بازين كان لا يزال ممتنعا فى متز، فلعل الجنرال دورى D'Aurelles الذى أحرز نصر كولمييه كان قد استطاع بمعونة حامية باريس من فض الحصار عن قصبة البلاد. ولكن استسلام بازين فى ٢٧ أكتوبر أثر تأثيرا حاسما فى مجرى الحرب. إذ جعل تحت تصرف الألمان جيشاً كبيراً قوياً كانوا ساعتئذ فى اشد الحاجة إليه. وكانت الكتائب الفرنسية الخام النصف المدربة تقاتل فى كل بقعة من بقاع القتال قوات تفوقها عدداً وقوة ومراناً، مما أسفر عن دحر دورى ثلاث مرات على مقربة من أرليان، وهزيمة شانزى Chanzy- بعد قتال شرس دام أياما ثلاثة - فى لى مان Le Mans فى ١٠ يناير سنة ١٨٧١، وانكسار فيدرب Faidherbe- الذى كان قد ظفر ببعض الانتصارات الابتدائية فى الشمال - فى سان كنتان St. Quentin فى ٩ يناير سنة ١٨٧١.

ثم أخفقت إخفاقا أشد حتى من الاندحارات السالفة الذكر محاولة بلغت حداً من الضخامة، قلل من فرص نجاحها. فقد حاول غمبتا أن يحمس أهل الجنوب الشرقى لفرنسا ضد الغزاة، وأن يوجه غارة على بادن يشغل بها العدو، غير أن جيش بورباكى Boû Baki المؤلف من ٨٥ ألف رجل سيىء العدة، دحر فى مونتبليار

Montbeliard، وسيق وراء الحدود إلى داخل أرض سويسرة المحايدة، حيث نزع سلاحه نزعا مزريا فى أول فبراير سنة ١٨٧١.

وفى هذه الأثناء أخذت باريس تكابد غوائل حصار غير مرتقب. فأفعمت ضغينة ومذلة قلوب أهل تلك المدينة السمحاء: أولئك الذين كانوا قد هللوا للحرب فى خفة وطرب، هاتفين: "إلى برلين، إلى برلين"، والذى حكم عليهم الآن أن يذوقوا طعم الخذلان المرير. وساعد نقص الأطعمة، وإخفاق كل محاولة لاختراق صفوف الحصار، وأهوال رشق المدينة بالقنابل رشقا منظما من ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٠، حينما دنت المدفعية البروسية منها، وأخذت تصب حممها على السكان المدنيين والحصون على السواء – ساعد كل هذا على خلق "حمى الحصار" – كما يدعوها الفرنسيون – فى عقول الجماهير: هذه الحمى التى تحولت فى سهولة إلى جنون السوقة الطغام.

وأخيرا، بعد أن حبطت التجربة اليائسة التى اقدم عليها الباريسيون لشق طريقهم كتلة مرصوصة واحدة، قبلوا فتح المفاوضات مع الأعداء. فمنحوا هدنة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ وأجريت انتخابات عامة فى ٨ فبراير،والتأم عقد الجمعية الوطنية فى ١٢ فبراير فى مدينة بوردو التى كانت الحكومة الفرنسية المؤقتة قد اتخذتها مقرا لها بعد حصار باريس. وانتخبت تلك الجمعية تيير رئيسا للسلطة التنفيذية، وخولته حق التفاوض مع العدو.

معاهدة فرانكفورت:

بدأت المفاوضات بين بسمارك مستشار ألمانيا وتيير رئيس الحكومة الفرنسية فى ٢٦ فبراير إلا أن المفاوضات طالت كثيرا وتعثرت أكثر من مرة بسبب صلابة بسمارك وإصراره على فرض شروط الصلح على درجة كبيرة من الشدة والقساوة. وعلى الرغم مما أظهره الرئيس الفرنسي تيير من عناد ودبلوماسية فإنه قد فشل فى

تغيير موقف بسمارك بشكل جذري. وأخيرا وافق الفرنسيون على شروط الصلح المذلة التي فرضها الألمان بقوة وعناد والتي ستكون في المستقبل وإلى حد كبير أحد ابرز أسباب الحرب العالمية الأولى وفي ١٠ مايو سنة ١٨٧١ تم توقيع الصلح بين الدولتين وهو المعروف بصلح فرانكفورت وأبرز شروط هذا الصلح مايلي:

١- تحتل بروسيا مقاطعتي اللزاس واللورين وكذلك مدينة متز.

٢- تدفع فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك ذهبي خلال خمس سنوات.

٣- تحتل الجيوش الألمانية أراضي فرنسا الشمالية حتى يتم دفع الغرامة المالية، (وقد دفعها الفرنسيون كاملة خلال ثلاث سنوات ليتخلصوا من جيوش الاحتلال البغيضة)[٣٣].

---

[٣٣] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٨٦.

الفصل التاسع

المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين ١٨٧٨

- طبيعة المشكلة الشرقية
- الحرب الروسية العثمانية ومعاهدة سان استيفانو
- مؤتمر برلين ١٨٧٨ ومقرراته.

في أعقاب الانتصارات الكبرى التى أحرزتها بروسيا على كل من النمسا وفرنسا أصبح التوازن الدولي غير واضح الاتجاهات، فألمانيا أصبحت عملاق في قلب القارة الأوروبية ولكن لا تستطيع أن تسيطر عليها، وفرنسا مهزومة، وتعاني من اضطراب سياسي شديد، ومع هذا كانت قادرة على أن تحد من نشاط هذا العملاق، خاصة وأن بريطانيا آثرت – بذكاء سياسي – أن لا تنتهز الفرصة وتنقض على فرنسا حفاظا للتوازن الدولي، وحتى لا تزداد الإمبراطورية الألمانية قوة على قوة. وكانت كل من روسيا والنمسا لا تريدان أن تتطور الأمور إلي ما هو أعقد مما وصلت إليه، وبالتالى كان هناك نوع من التوازن الدولي القائم على القلق من تطورات المستقبل ومن ثم كانت الأمور الدولية في حاجة إلى أزمة كبيرة حتى تكتشف كل دولة الطريق الذى يجب أن تسير فيه من حيث الارتباطات السياسية. خاصة وأن فرنسا كانت تبحث عن قوة تتحالف معها ضد العملاق الألماني وكانت المشكلة الشرقية هي التي كشفت لبعض الدول الطريق التى يجب أن تسلكها.[1]

والأصول الرئيسية للمشكلة الشرقية تتركز في الموضوعات التالية:-

١- الصراع التقليدى بين الشرق الإسلامي و أوروبا الصليبية. حقيقة أن الفكرة الصليبية التقليدية كانت قد اختفت في القرن السادس عشر – أو ما هو حول ذلك – إلا أن شعوب أوروبا بمختلف مذاهبها كانت تنتظر اليوم الذى يتلاشى فيه الإسلام والمسلمون أيا كان عنصرهم تركيا كان أم فارسيا أم عربيا. وكانت هذه المشاعر توجه النشاط الفردى للأوروبى وتوجه الساسة الأوروبيين. ولم تكن الحكومات الأوروبية تتراجع عن هذه الأهداف الصليبية الكامنة إلا إذا تعارضت مع الأطماع التوسعية أو المصالح الخاصة بها. ومن هنا كان التوسع الأوروبى على حساب

[1] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص ٢٩٣.

الدولة العثمانية المتدهورة أمراً محبوباً ومقبولا من المجتمع الأوروبى والساسة الأوروبيين فى حدود المصالح الخاصة للدول.

٢- أن ضعف الدولة العثمانية عسكريا واقتصاديا وسياسيا هو الذى جعل الأطماع الأوروبية فيها تكّون "المشكلة الشرقية" فالأطماع الأوروبية فى الدولة العثمانية قديمة وعميقة الجذور، وكانت قوة الدولة العثمانية تحول دون تكتل أوروبى ناجح ضدها وتحول كذلك دون توسع أوروبى على حسابها. حتى نمت روسيا وقويت ووصلت قواتها حتى باريس فى ١٨١٤/١٨١٥ وحتى وصلت إلى مشارف إلى الآستانة فى ١٨٢٨/١٨٢٩ الأمر الذى كان يثير مخاوف الدول الأخرى، ليس فقط الإمبراطورية الأوربية المجاورة لها: إمبراطورية النمسا، وإنما كذلك إمبراطورية فيما وراء البحار بريطانيا[٢].

كان هناك تسابق روسى – نمساوى على وراثة الدولة العثمانية فى البلقان، خاصة بعد حرب القرم (١٨٥٣ – ١٨٥٦) وبعد سادوا (١٨٦٦) إذ لم يبعد وجه النمسا نحو ألمانيا، وإنما وجدت النمسا مجالها الحيوى فى البلقان فأصبحت أية تطورات فى البلقان العثمانى ذات حساسية شديدة لإمبراطورية النمسا – والمجر. بينما كانت روسيا قد ركزت على تزعم الحركة السلافية، وهى حركة ضارة بكل من الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا – والمجر، حيث ان هذه الحركة كانت تهدف إلى استقلال الشعوب السلافة الواقعة تحت حكم هاتين الإمبراطوريتين وإلى تقوية النفوذ الروسى فى البلقان بجعل البلقان يجعل هذه الشعوب السلافية مخلب قط للسياسة الروسية[٣].

---

[٢] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، المرجع السابق، السابق ص ٢٩٤.

[٣] نفسه، السابق ص ٢٩٥.

ومما كان يزيد المشكلة البلقانية تعقيدا أنها تتضمن عدة مشاكل معقدة فى داخلها:-

١- مشكلة الصراع الصليبى بين الدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية) والشعوب المسيحية.

٢- مشكلة نشوء ونمو الحركة القومية لدى السلاف أنفسهم من صرب وبلغار ومجيار الأمر الذى كان يعَّرض هذه الشعوب نفسها للاقتتال فيما بينها بسبب التعصب القومى.

٣- كانت فى داخل البلقان نفسه وإلى جانب التعصب القومى مشكلة التعصب المذهبى، فبينما غالبية السلافية أرثوذكسية كانت الافلاق والبغدان - نواة رومانيا الحديثة - كاثوليكية. وكانت هناك جيوب كاثوليكية فى الشعوب السلافية إلى جانب الجيوب الإسلامية.

٤- كما ظهر إلى جانب التعصب القومى رغبة فى فصل الكنيسة على أسس قومية، فأراد البلغار إنشاء كنيسة خاصة بهم لا يكون أكليروسها يونانى أو تتبع البطريرك اليونانى وإنما تكون كنيسة بلغارية مستقلة.

٥- كانت هناك مخاوف من أن تضع روسيا يدها على منفذ لأى من خطوط المواصلات العالية عبر آسيا الوسطى أو عبر الشرق الأدنى إلى الهند مستغلة ضعف الدولة العثمانية والحماس الصليبى لدى مسيحى روسيا، ونمو التعصب السلافى المسيحى فى البلقان. ولا شك أن المقاومة الإنجليزية – الفرنسية – النمساوية الشديدة للنمو الروسى على حساب الدولة العثمانية كانت هى السبب فى تأخير تصفية هذه الدولة. ولكن ماذا ستسير عليه الأمور بعد أن تجلت قيمة ذلك الوفاق الروسى – البروسى الذى مكن الروس من ضرب الثورة البولندية فى ١٨٦٣ ومن

تخلص الروس سنة ١٨٧٠ من بنود معاهدة باريس ١٨٥٦ التى كانت تقيد النشاط الروسى البحرى العسكرى فى البحر الأسود؟ مع ملاحظة أنه فى ذلك الوقت أصبحت روسيا تهدد قلب الإمبراطورية العثمانية من جبهتين: جبهة أرمينيا – إرضروم وجبهة البلقان.

ومع ملاحظة أن حاجة بسمارك إلى روسيا بعد ١٨٧١ أصبحت أقل عنها قبل ذلك، ومخاوف روسيا من ألمانيا بعد ١٨٧١ – أصبحت أكثر بكثير عن مخاوفها من بروسيا قبل تلك السنة، كان هناك نمو متزايد فى المصالح الأوروبية فى الدولة العثمانية، فى يد الوقت الذى كانت فيه بريطانيا مطمئنة منذ (حرب القرم) إلى أن يدها هى العليا فى توجيه السياسات الخاصة بمستقبل الشرق الأدنى. وكانت السياسة التقليدية البريطانية إزاء الدولة العثمانية والشرق الأدنى قائمة على الأسس التالية حتى السبعينات من القرن التاسع عشر:

١- المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى وجه أى توسع أوروبى على حسابها.

٢- تقوية الوجود والنفوذ البريطانى فى الدولة العثمانية خاصة فى المواقع الإستراتيجية الهامة على خطوط المواصلات العالمية، وكان أهم ما أقدمت عليه فى هذا الشأن هو:

أ-كان دزرائيلى – أبو الإمبريالية البريطانية – يرى أن الآستانة هى مفتاح الطريق إلى الهند، ولهذا نجده يشترى اسهم الخديوى إسماعيل فى شركة قناة السويس فى ١٨٧٥ تمهيدا للسيطرة البريطانية على القناة، ويتصدى فى نفس الوقت لأى تفوق روسى فى مضايق الدردنيل والبوسفور.

ب-زيادة التحكم البريطانى التجارى والعسكرى فى العراق خاصة بالنسبة لخطوط المواصلات البرية والنهرية فى دجلة والفرات.

ج-وضع حماية على الإمارات العربية العربيـة المطلة علـى المنافذ البحريـة مثل البحرين وإمارات الخليج العربـي ودولـة البوسـعيد فـي مسـقط وعمان وزنجبار ومحميات جنوب اليمن.

د- جعل بعض الأجزاء العربية مثل •عدن مستعمرة بريطانية.

وكانت بريطانيا مستعدة لخـوض حـرب ضـد روسـيا إذا حـاولت الأخـيرة تقويض تلك الأسس ولكن بمرور الزمن أخذت السياسة البريطانيـة نفسها تتحـول مـن سياسـة الحفـاظ علـى كيـان الدولـة العثمانيـة إلى سياسـة احتـلال واقتسـام الدولـة العثمانية وذلك بعد سنوات من الاضطرابات المالية[٤] والتنظيمية اجتاحت الدولة العثمانية ومصر وتونس، واضطرابات طائفية اجتاحت سوريا ولبنان (١٨٦٠).

ثم إن البلقان أصبح فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر منطقـة لا يمكـن السيطرة عليها والتحكم في تطور الأمور بها، ومن ثم كانت هناك مخاوف فـى كافة العواصم الأوروبية من أن المشاكل البلقانية قـد تـورط أوروبا فـى حـرب غير مجدية، وكـان بسمارك - وقـد أدرك أن مفتاح الموقف الدولى فـى طريقـة عـلاج مشـكلات الشرق - يعتقد أن هذه المشكلات الخاصـة بالدولة العثمانية يجب أن لا تـؤدى إلى صدام بين الدول الكبرى، وإن دماء الأوروبيين الزكية يجب أن لا تراق بسبب هـذه المسائل التى يجب أن تحل على مائدة المفاوضات وأنـه إذا أرادت الدول الكبرى إعادة النظر فى التوازن فليتم هذا بتسويات ودية على حساب الدولة العثمانية.

لقد كان بسمارك يريد سلاماً أوروبياً يجعل لألمانيا مكانتها العليـا فـى تصريـف الأمور الدولية، وكان لذلك يرغب مخلصاً فى رؤية السلام ينشر لـواءه علـى العلاقـات الألمانية - الفرنسية البريطانية، بل على العكس مما كانت تردده صحافة تلك الأيام كان لا يرغب فى حرب فرنسية بريطانية، تلك الحرب التى كـانت كثير من المراجـع

---

[٤] عبد العزيز نوار ، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص٢٩٧.

تتوقعها بسبب توالى الأزمات – بعد ١٨٧٥ – بين هاتين الدولتين الاستعماريتين فى عدة أجزاء من إفريقية والبلاد العربية وآسيا.

وفى هذا يقول بسمارك:

"I should certainly to try maintain the peace between the European powers; it is – moreover so essential- that is should be at the expense of Turkey whose present day situation holds no promise of any stability. A rapprochement between England and France would not be disadvantageous to our interests, or for the balance of power in Europe."

هذا الضعف الذى أصاب الدولة العثمانية وأطماع الدول الكبرى فى وراثتها ونشوء حالة من التوازن الدولى غير واضحة تماما بعد هزيمة فرنسا فى حرب السبعين، وتأجج الحركة الوطنية القومية التحررية فى البلقان، وتضارب هذه الحركات فيه وتصادم أهداف كل القوميات البلقانية كل هذا كان يدفع البلقان نحو أزمة كبيرة دولية.

كانت الثورة التى أدت إلى ارتباكات دولية معقدة قد نشبت فى إقليم (الهرسك)، ظهرت أولا على هيئة صدامات مذهبية بين الأكثرية المسيحية والأقلية الإسلامية، واتسع نطاقها ودخلت الصرب والجبل الأسود الحرب وثار البلغار بينما تضاربت آراء الدول الكبرى إزاء هذه التطورات إذ كانت روسيا تريد التدخل مؤيدة للثوار وأعداء الدولة العثمانية فى البلقان بينما كانت بريطانيا تهدد بالتحرك العسكرى المضاد. وكانت روسيا مرتاحة لتطورات الحرب طالما هى ضد مصالح العثمانيين. ولكن لم تلبث القوات العثمانية أن أنزلت هزيمة شديدة بالجيش الصربى، وهددت هذه القوات العثمانية بلغراد نفسها، وهنا تدخلت روسيا وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية. وعبرت جيوشها الولايتين الرومانيتين (الإفلاق

والبغدان)، ولم تلبث أن دخلتا الحرب ضد الدولة العثمانية. وبينما كانت بريطانيا تجتهد في حصر نطاق الحرب وإيقافها – لما في ذلك من مصلحة لها – كانت الجيوش العثمانية تدافع بشجاعة – ترددت في أرجاء أوروبا – عن بلفنا Plevna.

وقد نهجت روسيا أحكم الطرق في هذه الظروف، فوقعت صلحا منفردا مع الدولة العثمانية في سان ستفانو San Sitefanoفي ٣ مارس، وكانت تأمل من وراء هذا أن تحتفظ بجميع مكاسبها دون أن تسيء إلى إنجلترا، لأنها لم تدخل القسطنطينية، كما اقترحت أن تجلو عن أدرنة: أما في آسيا فقد اقترحت روسيا ضم قارس واردهان، أما بالنسبة لفتح أرضروم والجلاء عنها، فلم يكن مطلباً متطرفاً، والواقع أنها تفرض سيطرتها على معظم أرمينيا. أما المكاسب المباشرة في أوروبا فإنها تتمثل في استعادة ذلك الجزء من بسارابيا الذى كان قد ضم إلى رومانيا ١٨٥٦ ، وفي تقدم روسيا إلى منصب الدانوب، وقد اقترحت روسيا تعويض رومانيا عن هذه المنطقة الخصيبة التي حرمت منها بإعطائها ثلثي إقليم دبروجا Dobruja القاحل. ولم تكن هذه معاملة كريمة لحليف مقدام في الحرب ولكن رومانيا كانت دولة لاتينية، وكان هدف روسيا من وراء ذلك تمجيد السلاف.

وفي سبيل هذا الغرض واجهت روسيا متاعب لا يستهان بها. بسبب أن الإسكندر كان قد وعد فرنسيس جوزيف بأن تحتل النمسا والمجر بلاد البوسنة والهرسك[*]، وقد كانت البوسنة إقليما صربيا تحلم الصرب بضمه إليها. وبحرمان إقليم البوسنة وإنكاره عليها تكون روسيا قد تخلت عملياً عن الصرب. حقا لقد ألحت روسيا في سان ستفانو على توسيع حدود الصرب وعلى حصولها على نيش، وما كان الإسكندر ليستطيع أن يفعل شيئا أكثر من ذلك للصرب، بل لقد أوصى بلجوئها إلى النمسا والمجر، لا لتماس العون الدبلوماسي. ويبدو أنه ظن أن الصرب لابد أن تقع

---

[*] جرانت تمبرلي، تاريخ أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ط٢، ص٢١.

تحت نفوذ النمسا والمجر. أما بالنسبة للجبل الأسود فقد فعل أكثر من ذلك، فقد رأى أن هذه الإمارة قد اتسعت رقعتها - ولو أنها لم تحصل على ميناء على البحر أو على حدود ملاصقة للصرب - وأعلن في وضوح أنه سوف يؤيد استقلالها ضد النمسا والمجر.

أما الورقة الرابحة في يد روسيا فهي دولة بلغاريا الجديدة أو "بلغاريا الكبرى" التي وضعت تصميمها في سان استفانو، ومدى الحبل لمطالب العنصرية البلغارية إلى ابعد حد. فبلغاريا لم تشمل الرقعة الحالية فحسب، بل ضمت إليها الخط الساحلي اليوناني الجديد الذى يمتد غربا من ميناء قوله Kavalla إلى قرب ميناء سالونيك، ومعظم الجزء الذى يعرف الآن بمقدونيا الصربية. وكان يمكن على هذا النحو أن تقوم في البلقان دولة جديدة من الفلاحين البلغار الأشداء، فإذا ما تحررت (كما كان مأمولا) ثم سيطرت عليها روسيا في المستقبل أمكنها أن تتحكم في كل المنافذ إلى كل من سالونيك والقسطنطينية، وإذا ما استردت روسيا قوتها البحرية في المستقبل، أمكنها أن تعمل ضد القسطنطينية بمساعد الحليف البرى القوى المرابط على حدود الترك[1]. ومن الواضح أن الخطة وضعت على هدى من مصلحة روسيا، وبنيت على فكرة أن بلغاريا - التي تكلفت حريتها أرواح عدة آلاف من الروس - لابد أن تكون في المستقبل أداة طيعة وخادما لقيصر وروسيا. والواقع - كما أثبتت الحوادث - أن الأمر ما كان لينتهي إلى ذلك وقد أخطأ دزرائيلي والإسكندر الثاني كلاهما، إذا كان هذا في حسابهما، إن اتفاقية سان ستفانو قد ارتكبت في الحقيقة إثما بالإغداق نوعا ما على بلغاريا، ولم تتوخ العدل إلى حد كبير، مع الصرب، أو اليونان، أو ألبانيا، أو رومانيا. لو أن ألبانيا استقلت، وضمت أبيروس وتساليا

---

[1] بقى شمال غرب مقدونيا، أبيروس وألبانيا، وتساليا، في يد الأتراك ولكن "بلغاريا الكبرى" بطبيعة الحال فصلت هذه الأجزاء عن أي اتصال بالقسطنطينية. أما اليونان التي لم تدخل الحرب فلم تتسع حدودها وقد وضع برنامج للإصلاح في تساليا وكريت.

إلى اليونان، وبقى الجزء الجنوبى من بسارابيا مع رومانيا، لو أن ذلك حدث (كما تم فيم بعد)لجاءت التسوية خيرا مما كانت عليه حيث أن يمكن عند ذاك إغراء الصرب بقبول شمال غرب مقدونيا. وربما وجدت لها فى ذلك عزاء عن ضياع البوسنة.

ولم يتدخل فى تقرير وجهة النظر البريطانية أى اعتبار اللهم إلا مقاومتها لروسيا، ولقد تخلص دزرائيلى من المتخوفين فى وزارته، وعين لورد سولسبورى وزيرا للخارجية فى آخر مارس. ولم يكن الوزير على اتفاق تام مع رئيسه، ولكنه كان على أية حال مهيأ لمعارضة خلق (بلغاريا الكبرى) التى يمكن من وجهة النظر الإنجليزية، أن تكون عتبة تخطو عليها روسيا إلى القسطنطينية. وما أن تولى سولسبورى منصب الوزارة. بعد استقالة دربى، حتى أصدر فى أول أبريل منشورا بهذا المعنى[٧]. وبدا يفاوض روسيا. وكانت بريطانيا والنمسا والمجر قد طلبتا بالفعل عقد مؤتمر إعادة النظر فى شروط اتفاقية سان ستفانو. وكان سولسبورى قد وافق نهائيا على البنود الرئيسية فيها شريطة أن تتخلى روسيا فى المؤتمر القادم عن مشروع (بلغاريا الكبرى). ومعنى هذا أن تتقلص بلغاريا الجديدة إلى ثلث الرقعة الموضوعة فى سان ستفانو، فتمتد فقط من الجنوب إلى جبال البلقان. أما مقدونيا وساحلها الجنوبى فيعادان إلى الدولة العثمانية. وهناك قسم ثالث فى جنوب الجبال مباشرة، وهذا يطلق عليه "الرومللى الشرقى" ويتمتع بالحكم الذاتى تحت السيادة الدولة العثمانية مباشرة، وكان الهدف الحقيقى من وراء هذه الترتيبات هدفا حربيا، ذلك استيلاء الدولة العثمانية على الرومللى الشرقى حتى جبال البلقان، يؤمن لها خطا محصنا يدفع عن أدرنة والقسطنطينية خطر تقدم الروس من جهة الدانوب. فما إن وافقت روسيا خاصة على هذا العرض حتى رضيت بريطانيا بالاشتراك فى المؤتمر.

---

[٧] جرانت تمبرلى، المرجع السابق، ج٢، ص٢٣.

ويبدو أن دزرائيلي قد ظن أنه أمن الأتراك في أوروبا بهذه المفاوضات المباشرة السابقة على المؤتمر مع روسيا، تلك المفاوضات التي لم يحط بها الدولة العثمانية علما. كما أمن الدولة العثمانية في آسيا وأمن طريق بريطانيا إلى الهند بمفاوضات مباشرة سابقة على المؤتمر مع الدولة العثمانية، ولم يحط روسيا علما بها. وقد أعلن عند اجتماع الوزارة في ٢٧ من مارس ؛إن النمسا ستعمل على إيجاد تسوية للموقف بالنسبة لبلغاريا، وأن الخطر المنبعث من أرمينيا هو الذي يجب الاحتراس منه. ويجب أن يقابل اقتراح روسيا بالحصول على باطوم وأردهان وقارس باحتلال (جزيرة أو موقع على شاطيء آسيا الصغرى، يوازن وجود روسيا في أرمينيا، وقبرص مفتاح غربي آسيا) ويمكن أن تعد لتكون مخزنا للسلاح وميناء وهي ملائمة كنقطة للوثوب على الإسكندرونة. وقد عقد اتفاق موجز بين إنجلترا والسلطان، فإذا ضمت روسيا قارس وباطوم وأردهان، فإن على إنجلترا أن تحتل قبرص، وتدافع بقوة السلاح عن أملاك الدولة العثمانية الباقية في آسيا ضد روسيا. ووعد السلطان، في مقابل ذلك بإدخال الإصلاحات لحماية المسيحيين وغيرهم من رعايا الباب العالي في هذه الممتلكات (الآسيوية). وفي ٢٦ من مايو عرف أن السلطان سوف يقبل هذا. وفي ٤ من يونيه وقع الاتفاق الرسمي وفي ٢ من يونيه كان دزرائيلي وسولسبوري قد عينا ممثلين لبريطانيا ووافقا على حضور المؤتمر، وكان آخر الأمر أن عقدت مع النمسا والمجر اتفاقية سرية تجيزها احتلال البوسنة والهرسك. وخلاصة القول إنه كان هناك اتفاق سري بين إنجلترا وبين كل من روسيا، والنمسا والمجر، والدولة العثمانية قبل افتتاح المؤتمر، على أن كلا من روسيا والنمسا والمجر لم تعلم شيئا عن اتفاقية قبرص، وأن الدولة العثمانية بدورها لم تعرف شيئا عن اتفاقية البوسنة، وعندما التقى دزرائيلي ببسمارك قبل انعقاد المؤتمر في ١٣ من يونيه، وحصل منه على وعد بالبدء بنظر موضوع بلغاريا، ولم يكن ثمة كبير خوف من

حيث النتيجة، حيث تم بالفعل الاتفاق على الموضوع الرئيسى، وعلى غرار أعظم المؤتمرات نجاحا، كان هذا المؤتمر ناجحاً، نتيجة للاتفاق سلفا على المسائل الرئيسية فيه.

عرض بسمارك أن تكون برلين مقرا للمؤتمر، كما عرض أن يكون هو نفسه وسيطاً أميناً. والحق أن وساطته كانت مثاراً للريبة، لأنه لم يدخر وسعا فى مساعدة النمسا والمجر فى المفاوضات، وضغط فى بعض الأوقات على عدوتها القديمة روسيا. وقد غنم أندراسى مندوب النمسا والمجر أكبر غنم. فقد رفض بالفعل الدخول فى حلف دفاعى مع دزرائيلى : ولكن ما أنفقه من ورق ومداد كان ابلغ أثرا وأقوى مفعولا من أموال روسيا دماء أبنائها، فقد سلمت البوسنة والهرسك إلى أند.اسى Andrassy لاحتلالها سياسيا، وسنجق نوفى بازار لاحتلاله عسكريا. وقد فصل هذا الاحتلال بين الصرب والجبل الأسود، ولما كانت هذه الإمارة الأخيرة شديدة الميل إلى روسيا، فقد تقلصت حدودها كثيرا عما منح لها فى سان ستفانو وقد وضعت الصرب علميا فى منطقة نفوذ النمسا والمجر، وأعلن استقلال الدول الثلاث الصرب والجبل الأسود ورومانيا. أما روسيا التى كانت قد ارتضت إنقاص رقعة بلغاريا إلى الثلث مما وضع لها فى سان استفانو. فإنها شرعت تسعى لتجريد هذا التنازل من أية قيمة له، حيث حاولت أن تمنع الأتراك من وضع حاميات لهم فى الروملل‍ى الشرقى على طول خط جبال البلقان، وكان من الطبيعى أن يرفض دزرائيلى الموافقة على ذلك ومن المحتمل أن تكون محاولة روسيا هذه كيدا، وليست تهديداً بتعكير السلم، وقد أذعنت روسيا. وعلى أية حال، وفى وقت مبكر من المؤتمر شطرت بلغاريا الكبرى إلى ثلاث أقسام، وفق الأسس التى اتفق عليها. واستعادت روسيا بسارابيا من رومانيا، وعوضت حليفتها القديمة عنها بثلثى إقليم دبر وجا، وكان الأصح أن يكون من نصيب بلغاريا.

أما فى آسيا الصغرى فقد عدلت ترتيبات سان اساتفانو تعديلا جوهرياً نتيجة ضربة دزرائيلى فيما يتعلق بقبرص. وعندما أدركت روسيا عزمها على الاحتفاظ بقارس وأردهان وباطوم، كشف دزرائيلي النقاب عن اتفاقية قبرص (٧ يوليه) واصدر الأوامر إلى الأسطول الإنجليزى بالتوجه إلى قبرص وقد أظهرت روسيا الغضب، ويبدو أنها رغم توكيدات دزرائيلى بعكس ذلك فازت عليه عن مسألة الحدود الروسية التركية فى آسيا الصغرى. والحق إن دزرائيلى كان صاحب مران وخبرة كبيرة فى موضع الطريق إلى الهند، وقام بصفة خاصة بتحريات كثيرة فى موضوع الدفاع عن العراق ضد روسيا. ولكن مشروعه للدفاع لم يكن تماما من الوجهة العملية: وعلى هذا انتهى المؤتمر، وهدأت الدول الكبرى: وقدمت الملكة فكتوريا لدزرائيلى دوقية، ومنحته هو وسولسبورى وسام ربطة الساق، وسط الحماسة التى أثارها إحكام المسرحية، ومثلتها عبارة "السلام مع الشرف" ومن الخطأ أن ننكر أن دزرائيلى أظهر شجاعة كبيرة فى هذه الأزمة، ولكن الشجاعة فى الدبلوماسية يجدر أن تقترن بالمعرفة، ومن هذا كان زاد دزرائيلى ضئيلا، وهو لم يحاول الحصول عليهامن لورد سولسبورى الذى كان أكثر منه دراية ومعرفة ويبدو أنه لم يكن يؤمن بقوة الروح القومية الناشئة فى شبه جزيرة البلقان، ولم يكن لديه أية فكرة عن مقاومة روسيا إلا بقوة السلاح. وكان فى إيمانه بفضائل السلطان عبد الحميد، وبرغبة الأتراك فى حماية الرعاية المسيحيين وتحسين أحوالهم سواء فى أوروبا أو آسيا، مخطئا خطأ فاحشا. وسرعان ما انتهت سياسته فى آسيا إلى لا شيء. وقد ثبت أن ذهاب المبعوثين العسكريين البريطانيين إلى أرمينيا لترتيب الدفاع عنها ضد روسيا، كان عديم الجدوى. وفى ١٨٨٠ حين تولى جلادستون الوزارة أحل قناصل سياسيين محل هؤلاء العسكريين، فلما عاد دسولسبورى إلى الوزارة ١٨٨٦ قبل هذا التغيير فى صمت، كأى رجل عاقل. ولكن هؤلاء القناصل السياسيين لم يكونوا أكثر توفيقا فى

وقف المذابح، من العسكريين في تنظيم الدفاع: وتتويجا لهذا كله أعلنت روسيا فى يوليه ١٨٨٦ عن عزمها على إغفال تصريحها المدون فى المادة ٦٩ معاهدة برلين، والذى يعترف بأن "باطوم ثغر تجارى أساسا" وشرعت فى تحصينه. فكأن كلا من روسيا والدولة العثمانية لم تقر سياسة دزرائيلى الآسيوية أو تعبأ أو تتمسك بها. ولم تصبح قبرص يوماً مخزناً للسلاح أو قاعدة بحرية، ويمكن أن تكون أى شىء إلا أن تكون "جبل طارق" آخر في شرق البحر المتوسط. ولم يحاول السلطان قط أن يفى بوعده بالإصلاح فى آسيا، بل إنه بعد فترة من الزمن شرع عمدا فى تدبير المذابح لرعاياه الأرمن، دون أن يلقى بالا لاعتراض بريطانيا واحتجاجها. وقد أتت الكتب الزرقاء البريطانية ١٨٩٦ على ذكر القصة المروعة لهذه الفظائع. أما الكتاب الأزرق الآخر الذى صدر فى ١٨٩٨ فقد عدد ضمانات بريطانيا أو التزامات ومنها التزامها بالدفاع عن الدولة العثمانية فى آسيا "ووعد السلطان بإدخال الإصلاحات اللازمة. لحماية رعاياه المسيحيين". وبعبارة أخرى لا يزال السلطان يطالب بضمان إنجلترا لحماية آسيا الصغرى، بل الظاهر أنه يستطيع أن يضعه موضع التنفيذ، رغم أن الكتب الزرقاء البريطانية أثبتت أنه ذبح رعاياه المسيحيين هؤلاء بطريقة اشد ما تكون وحشية، وكان قد وعد بحمايتهم فى نفس الوثيقة التى ضمنت ممتلكاته ضد الغزو.

ولم تكن سياسة دزرائيلى فى أوروبا - رغم إخفاقها - مستعصية على العلاج. حقا أسلمت مقدونيا إلى حالة حرب فتاكة وعناء كبير، ولكن الخطأ الكبير فى فصل بلغاريا عن الرومللى قد صح نهائيا. وكان جلادستون فى بعض الأوقات تتجلى لبصيرته بعض الحقائق التى يرفضها دبلوماسيون أكثر احترافا. وقد كان له شىء من ذلك قبل مؤتمر برلين بنحو عشرين عاما، فقال "ومن المؤكد أن المقاومة التى يمكن وقوفها فى وجه روسيا تتمثل فى قوة وحرية الدول التى سيكون عليها أن تقاوم، فالمطلوب إقامة حاجز حى بينها وبين الدولة العثمانية وليس ثمة حاجز يعدل

صدور أحرار الرجال. ومن المحقق أن اتحاد ملدافيا وولاشيا فى رومانيا كان ابلغ في مقاومة روسيا من فصلهما. وبنفس الطريقة أدى توسيع بلغاريا إلى تحررها من ربقة روسيا.

وقد أعوزت الحصافة روسيا إلى حد كبير فى تعاملها مع بلغاريا الجديدة، ففى أبريل ١٨٧٩ أصبح الإسكندر باتنبرج Alexander Battenberg أميرا عليها، وكان ابن أخ الإسكندر الثانى قيصر روسيا. وكان قليل الخبرة فى معاملة رعاياه، وكان واقعا تحت تأثير روسيا، كما أصبح أحد القواد الروس رئيسا للوزارة، وآخر وزيرا للحرب. وقد حاولوا اضطهاد البلد وتهديده مما عجل بإثارة الاستياء المرير لدى البلغار. وفى ١٨٨٠ ظهرت مؤامرة الروملى الشرقى وطرد الثوار البلغار هناك حاكمهم العثمانى، وطالبوا بوحدة قسمى بلغاريا، ودعوا الأمير إسكندر بانتبرج ليكون حاكما عليهم، وكانت روسيا تنظر إلى الحركة بعين العداء، ولكن ستمبلوف Stambulov زعيم بلغاريا القوى، أبلغ الأمير إسكندر أنه سوف يطرد إذا لم يقبل الاتحاد، فسلم الأمير إسكندر بشروطه وقبل الاتحاد، فاستشاطت روسيا غضبا وسحبت كل ضباطها من الجيش البلغارى، وما كان أعظم سرور البلغاريين حين رأوهم يرحلون. وتوسلت روسيا إلى الدول الأخرى لمنع اتحاد الروملى مع بلغاريا. ولم تبد النمسا والمجر اعتراضا على أية حال، يقيناً منها بأن بلغاريا القوية سوف تناصب روسيا العداء. وماذا تفعل إنجلترا، وهى التى خلقت الروماللى الشرقى، وخاطرت فى ١٨٧٨ بالحرب لأنها لا توافق على انضمام الروملى إلى بلغاريا؟. لقد كان لورد سولسبورى آنذاك رئيسا للوزارة الإنجليزية وكان يمكن قطعا أن يؤدى روسيا، ولكن كم كانت دهشة الجميع عندما لم يفعل ذلك. لقد تعلم سولسبورى الدرس الذى لم يتعلمه الآخرون، وفى هدوء وافق على اتحاد يوقن أنه سيساعد على إقامة سلام دائم. ومن ثم يكون

"الحاجز الحي المكون من صدور أحرار الرجال" قد قيم في طريق روسيا إلى القسطنطينية.

ومهما كان أمر توحيد بلغاريا، فإنها لن تتخلص نهائياً من غضب روسيا، ومن حقد جارتها السلافية. وقد سعت الصرب الآن للتدخل، فإن من أفدح عيوب مؤتمر برلين إغفال المطالب العادلة للصرب. والمقول إن روسيا طلبت إليها أن تلتمس تأييد النمسا والمجر. وإنها في ١٨٨١ وقعت مع النمسا والمجر ميثاقاً سرياً أصبحت بمقتضاه عالة تعتمد عمليا عليها: والآن فجأة في ١٤ من نوفمبر ١٨٨٥ أعلنت الصرب الحرب على الدولة الجديدة بلغاريا، وانتصر البلغار بعد معركة دامت ثلاثة أيام في سلفنيكا Slivnica، وبدأ يتقدمون نحو الصرب، ولكن الأمير إسكندر تلقى إنذارا نهائيا من النمسا والمجر ينذره بالارتداد، فالتزم جانب الطاعة، وارتد ليحكم شطرى بلغاريا ولكن سرعان ما وجد أنه لن يسود السلام حكمه. وفي أغسطس ١٨٨٦ اختطفت أنصار روسيا الأمير المنكود الحظ وجاوا به إلى الأراضي الروسيةن فكان لهذا رد فعل شديد في بلغاريا لمصلحة الأمير، ولكنه تخاذل واستخذى واساء إلى نفسه في برقية بعث بها إلى القيصر، حتى أرغمه ستمبلوف والوطنيون البلغاريون على اعتزال الحكم. وبعد ذلك في ١٨٨٧ اصبح الأمير فرديناند دي ساكس كوبرج Ferdinand de Saxe Coburg حاكما على بلغاريا، وقد انتهج سياسة قوية معادية لروسيا.

وعلى هذا النحو تمت تصفية واحدة من أسوأ النتائج التي تمخض عنها مؤتمر برلين في السنوات العشر التي أعقبته، ولكن بقيت مساوىء معينة تعذر استئصالها. فقد باتت أرمينيا في شقاء وأهوال، ولكن مقدونيا كانت تعاني البؤس كما كانت مهددة بالخطر، فإن الدول العظمى رخصت للسلطان في أن يذبح ما يشاء في أرمينيا، ولكنها لم تكن في نفس الوقت مستعدة لمنحه مثل هذه الرخصة في

مقدونيا. ففيها رجال يجرى فى عروقهم الدم اليونانى والبلغارى والصربى، وفيها لدسائس روسيا والنمسا والمجر فرص بغير حدود، وكان من المحقق أن هذه المساوىء التى تمخض عنها مؤتمر برلين أن تستمر إلى الأبد ولكن عام ١٨٨٦ يميز بفترة سكون ساد الموقف، ومن ثم سنح للقوم أن يتدبروا الأمر فى سائر المشكلات الكبرى فى أوروبا.

ويقول أحد الكتاب اللامعين "إن الدلالة الحقيقة لمؤتمر برلين ١٨٧٨ تتمثل فى أن بسمارك اتخذ من أندراسى زميلا ومن دزرائيلى أداة له، وأنه كسب النمسا والمجر وسيطر عليها دون أن يجرح شعور روسيا. ويصدق هذا القول تماما بالنسبة لدأب بسمارك على التأييد المطلق للنمسا والمجر، ولكنه بجانب الدقة التامة فيما يختص بروسيا فقد كان إسكندر الثانى فى شدة الضيق من موقف بسمارك فى المؤتمر، حتى أنه فى أبريل ١٨٧٠ كتب إلى وليم الأول إمبراطور ألمانيا يعبر عن شكوكه ومخاوفه فى إمكان الاحتفاظ بالسلام بين روسيا وألمانيا، وقد اشتد هذا الغضب فى ١٨٨٥/١٨٨٦ حين وجدت روسيا أن بسمارك لا يؤيدها فى أزمة بلغاريا، وهكذا نرى فى عام ١٨٧٨ الأصول البعيدة للنفور بين روسيا وألمانيا، مما شطر أوروبا إلى معسكرين: الروسى الفرنسى، والأحلاف النمساوية الإيطالية الألمانية. ولكن قبل أن نستعرض تكوين هذه الأحلاف العظمى التى انتهت آخر الأمر إلى التصارع فيما بينها، يجدر بنا أن نتجه إلى مجالات أخرى. لقد أوضح هذا الفصل كيف أن بسمارك هيأ لروسيا فرصة فى البلقان: وكيف أنها عجزت عن الإفادة منها كل الفائدة، وكيف أنه فى النهاية كان مضطرا إلى كبح جماح نشاطها. أما الفصل التالى فيبين كيف أن بسمارك مكن لفرنسا وبريطانيا من انتهاز الفرصة فى مجال المشروعات الاستعمارية حتى اقتحم هو نفسه هذا المجال فشرع يحد من أطماعهما، والحقيقة التى تقول بأنه حتى بسمارك وجد نفسه فى النهاية قد حد من نشاط إنجلترا وفرنسا وروسيا على السواء — هذه الحقيقة نفسها تفسر كيف أن خلفاءه الذين هم أضعف منه نجحوا فى النهاية فى إثارة هذه الدول.

مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ (٨)

حين تفاقمت المسألة الشرقية اقترحت النمسا عقد مؤتمر من الدول الكبرى في العاصمة الألمانية وشجع بسمارك هذه الرغبة ولما وثقت الروسيا من حياد ألمانيا والنمسا أقدمت على الحرب مع الدولة العثمانية معتقدة أن إنجلترا لن تستطيع التدخل هذه المرة لنصرة الدولة العثمانية.

كان سولسبرى بخلاف رئيسه ديزرائيلى يود الاتفاق مع روسيا على حل المسألة الشرقية ولو أدى الأمر إلى تقسيم الدولة العثمانية. ودخلت الروسيا الحرب وكانت خطتها الإسراع بعبور الدانوب مهاجمة القوات العثمانية ثم اختراق البلقان ومهاجمة القسطنطينية نفسها. وبذا تضع حدا لمسألة الدولة العثمانية. كما تضع الدول أمام أمر واقع. وأخيرا انهارت أمامها القوات العثمانية فى ميدان البلقان والقوقاز.

ودعا الانتصار الروسى إلى التفكير فى شروط الصلح التى تفرض على الدولة العثمانية وفى هذه الأثناء ازدادت العلاقات سوءا وإنجلترا فلقد رأت الحكومة البريطانية أن الآستانة والمضايق قد وقعت فى خطر مباشر وأخيرا فرض الروس معاهدة سان استيفانو على الباب العالى وبها تستقل رومانيا نهائيا عن الدولة العثمانية وتأخذ جزءا من دلتا الدانوب وتضم الروسيا بساربيا كما بضم إقليم الدوبروجا إلى بلغاريا وتضم الجبل الأسود بعض أجزاء من الهرسك وأما بلغاريا فتصبح ولاية كبيرة مستقلة فعليا. واصبح على الدولة العثمانية إرضاء الرعايا الروس فى الدولة وأن تعترف بحرية المضايق وأن تغلق البحر الأسود فى وقت الحرب أمام أعداء الروسيا وأشارت هذه المعاهدة عاصفة فى إنجلترا والإمبراطورية النمساوية ولذا لم تنفذ هذه المعاهدة وانتقل مركز الأهمية من الآستانة إلى فيينا ولندن وبرلين وكان كل من النمسا وإنجلترا ألا يرضى عن زيادة النفوذ الروسى فى بلغاريا

---

(٨) محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين وأثره على البلاد العربية.

دون أن يكون للنمسا نفوذ معاد في غربي البلقان. ولقد طلب أندراسي المستشار النمساوي عرض معاهدة سان استيفانو على مؤتمر برلين وأيدت إنجلترا الطلب النمساوي وكذلك ألمانيا واستطاعت روسيا أن تعترف بحق النمسا والمجر في احتلال البوسنة والهرسك وبذا زالت المعارضة النمساوية.

وأما المفاوضات بين إنجلترا وروسيا فقامت بين سولسبري والسفير الروسي في لندن شوفالوف وبينت الحكومة الإنجليزية أن معارضتها لمعاهدة سان استيفانو قائمة على جملة أسس:

أولا: أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هي بلغاريا.

ثانيا: أنها وضعت الباب العالي تحت رحمة روسيا. وفعلا قبلت الروسيا تعديل شرط معاهدة سان استيفانو على أساس هذه المقترحات البريطانية.

وفي هذه الأثناء عملت إنجلترا على عقد معاهدة دفاعية مع الباب العالي تحتل بها إنجلترا قبرص.

وعقد مؤتمر الدول الكبرى في برلين العاصمة الألمانية برئاسة بسمارك المستشار الألماني لإعادة النظر في معاهدة سان استيفانو ولكن في الواقع لتسجيل الاتفاقات التي تمت بين روسيا وإنجلترا وبين روسيا وإنجلترا وبين روسيا والنمسا والمجر بخصوص معاهدة سان ستيفانو.

هذه هي القرارات الملية لمؤتمر برلين والتي تضمنتها، معاهدة برلين وهذه القرارات تتكون من أربع وستين مادة هي:

١ – الديباجة:

"صاحب الجلالة القيصر الألماني، وصاحب الجلالة قيصر النمسا والمجر ورئيس الجمهورية الفرنسية، وصاحب الجلالة ملكة المملكة المتحدة وإمبراطورية الهند وصاحب الجلالة ملك إيطاليا، وصاحب الجلالة إمبراطور الروسيات كلها،

وصاحب الجلالة إمبراطور الدولة العثمانية رغبة منهم فى تقرير فكرة للنظام الأوروبى تبعا لنصوص معاهدة باريس (٣٠ مارس ١٨٥٦) ولجميع المسائل التى ظهرت فى الشرق نتيجة لأحدث السنوات الماضية للحرب التى وضعت نهاية لمعاهدة البداية فى سان استيفانو. على اتفاق تام بأن عقد مؤتمر هو خير وسيلة لتسهيل التقارب بينهم ولذا عين جلالتهم ورئيس الجمهورية الفرنسية ممثليهم ٠الاسماء) الذين اجتمعوا وفقا لاقتراح بلاط النمسا والمجر ودعوة ألمانيا وخولوهم كل السلطات .. وفقا للعرف الدولى".

وقد اتفقوا فيما بينهم على الشروط الآتية:

٢- تشمل ولاية بلغاريا كل الأراضى الآتية: (حدودها) .... ويكون تعيين هذه الحدود عن طريق لجنة أوروبية تمثل فيها الدول الممثلة وتهتم هذه اللجنة بمسألة ضرورة دفاع السلطان عن الحدود البلقانية للروملى الشرقية.

٣- أمير الولاية ينتخبه السكان ويثبته الباب العالى بموافقة الدول ولا يمكن لأحد إعفاء الأسرات الحاكمة فى أوروبا أن ينتخب أميرا لبلغاريا.

٤- يضع مجلس أعيان بلغاريا مجتمعا فى سير نوفود دستورا للولاية قبل انتخاب الأمير.

٥- تأكيد حرية الاعتقاد الدينى والمساواة بين السياسيين والمدنيين من البلغاريين.

٦- الإدارة المؤقتة لبلغاريا بير مندوب قومسير روس قيصرى ويساعده قومسير عثمانى والقناصل الذين تثبتهم الدول الموقعة على هذه

المعاهدة ويفصل فى المنازعات التى تقوم بين القومسيرين قناصل الدول.

٧- لا يمكن للفترة المؤقتة أن تستمر أكثر من تسعة أشهر من وقت موافقة الدول على هذه المعاهدة.

٨- يحافظ على كل المعاهدات التجارية والبحرية المعقودة بين الدول الأجنبية والباب العالى والتى لا يزال معمولا بها فى الوقت الحاضر فى بلغاريا.

٩- (خاصة بالجزية التى تدفعها بلغاريا للباب العالى وتحديد الدول ومقدارها ومقدار الدين العثمانى الذى يخص بلغاريا).

١٠- (خاصة ببعض واجبات بلغاريا).

١١- لا يقيم الجيش العثمانى فى بلغاريا وتهدم جميع الحصون القديمة على حساب الولاية البلغارية فى مدى عام ولا يمكن بناء حصون جديدة.

١٢- (خاصة بحقوق المسلمين فى بلغاريا).

١٣- فى جنوب البلقان (جبل) تقوم ولاية الرومللى الشرقية وتكون تحت سلطان الباب العالى السياسى والحربى المباشر وتعطى استقلال إدارى.

١٤،١٥،١٦- (خاصة بحدود الرومللى الشرقية وحدود السلطان فيها).

١٧- يعين الباب العالى الحاكم العام للرومللى الشرقية بموافقة الدول لمدة خمس سنوات.

١٨،١٩،٢٠،٢١- (تختص بالروملى الشرقية وتنظيمها الإدارى والمالى وحقوقها الدولية وحقوق لا تتعدى خمسين ألف جندى).

٢٢- قوات الاحتلال الروسية فى بلغاريا والروملى الشرقية تتكون من ثمان فرق لا تتعدى خمسين آلاف جندى.

٢٣- يتعهد الباب العالى بأن تطبيق دقة الدستور الذى أعطى لكريت فى سنة ١٨٦٨ مع إدخال التعديلات الضرورية.

٢٤- فى حالة ما إذا لم يتفق الباب العالى مع الدولة الإفريقية على مسألة تعديل الحدود الإفريقية تعرض الدول الكبرى وساطتها.

٢٥- مناطق البوسنة والهرسك تحتلها وتديرها النمسا والمجر تظل الإدارة العثمانية باقية فى سنجق نوفى بازار.

٢٦- يعترف الباب العالى باستقلال الجبل الأسود، ٢٧.

٢٨- خاصة بحدود الجبل الأسود.

٢٩- يضم الجبل الأسود انتيفارى والساحل الملحق بها .. ولا يجوز أن يكون للجبل الأسود قوية بحرية.

٣٠- تتعلق بحقوق المسلمين فى الجبل الأسود.

٣١- خاصة بممثلى الجبل الأسود فى أملاك الدولة العثمانية فى البلقان.

٣٢،٣٣- خاصة بما يتحمله الجبل الأسود من الدين العثمانى.

٣٤- تعترف الدول باستقلال الصرب.

٣٥، ٣٦- تختصان بعلاقة الصرب مع الدول الخارجية ومع الدولة العثمانية ومع النمسا والمجر.

٣٩- تختص بالمسلمين فى الصرب.

٤٠،٤١- تختصان بإخلاء كل من الصربيين والعثمانيين الأراضى التى يحتلها كل فريق منهم من ممتلكات الآخر.

٤٢- خاصة بتحمل الصرف جزءا من الصربيين والعثمانيين والأراضى التى إضافتها إلى ممتلكاتها.

٤٣- تعترف الدول باستقلال رومانيا.

٤٤،٤٥- تتخلى رومانيا عن بسارابيا التى كانت قد أخذت من روسيا وفقا لمعاهدة باريس سنة ١٨٥٦ .

٤٦- تمتلك رومانيا الجزء المكونة لدلتا الدانوب وتأخذ جزء من جنوب الدوبرجا.

٤٧- تختص بمسألة وحقوق الصيد فى دلتا الدانوب.

٤٨- لا تفرض رومانيا ضرائب مرور على التجارة المارة بها.

٤٩،٥٠- خاصة بحقوق رومانيا وواجباتها.

٥١،٥٢- لصيانة الملاحة فى الدانوب وهى مصلحة دولية تقرر الدول ألا يتبقى حصون على النهر من البوابة الحديدية إلى المصب ولا توضع فى هذا الجزء سفن حربية.

٥٣- تمثل رومانيا فى لجنة الدانوب.

٥٤،٥٥،٥٦- خاصة بحقوق هذه اللجنة وشروط بقائها.

٥٧،٥٨- يتنازل الباب العالى للروسيا فى آسيا عن أراضى أردهان وقارص وباطوم.

٥٩، ٦٠- تسترد تركيا وادى الأكرو ومدينة بايزيد وتنازل تركيا لفارس عن مدينة وإقليم ختره.

٦١- يتعهد الباب العالى بأن يحقق سريعا التحصينات والإصلاحات التى تستلزمها حالة أرمينية وحمايتها ضد الشركس والكرد يقدم للدول فى فترات مختلفة تقريرا عن الإصلاحات (فى هذه المنطقة).

٦٢- يعلن الباب العالي رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني ولا يجب أن يقف الاعتقاد الديني عقبة في سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القناصل في حماية رعاياها.

٦٣- المحافظة على معاهدتي ١٨٥٦ ولندن ١٣٤ مارس سنة ١٨٧١ في كل شروطهما التي لا تتعارض مع هذه المعاهدة.

٦٤- (خاصة بموافقة الدول على هذه المعاهدة - التاريخ ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ إمضاءات ممثل الدول).

"لانعقاد المؤتمر والخطة التي سار عليها ومناقشاته وجلساته يحسن قراءة تقارير وزير الخارجية الفرنسية وانجتون المؤرخة ١٤،١٨،٢١،٢٤،٢٦ يونيو وأول يوليو، ٦، ٨، ١٤ يوليه في الوثائق السياسية الفرنسية الجزء الثاني المجموعة الأولى.

ويلاحظ في مواد معاهدة برلين أنها تشمل المملكة البلغارية واعتراف الدول باستقلال الدولة العثمانية وكذلك الصرب ولم تحاول معاهدة برلين إيجاد حل للنزاع الذي أصبح شبه دائم بين الدولة العثمانية واليونان بخصوص الحدود بين الدولتين وأكدت استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود وأنشأت بلغاريا التي كانت منقسمة في أول الأمر وموزعة.

حاولت معاهدة برلين قبل كل شيء التوفيق بين مصالح الدول الكبرى في البلقان ونفذت إلى حد كبير سياسة الاستصلاح والتعويض. فلقد امتد النفوذ الروسي في آسيا بعد إخضاع القوقاز، وأصبحت حدود الروسيا متاخمة لارمينية العثمانية.

ولكي تعيد إنجلترا التوازن في شرقي البحر المتوسط لصالحها احتلت جزيرة قبرص ثم الدفاع عن تركيا الأسيوية ومن ثم وقف النفوذ الروسي من أن يمتد إلى الشرق الأدنى.

ونجح بسمارك في توطيد دعائم السلام الذي كان يهدف إليه وسجل تفوق ألمانيا في أوروبا وعاد في فرنسا إلى لعب دورها في حياد أوروبا السياسية كدولة عظمى. وأما الدولة العثمانية طرد الأتراك من أوروبا. فسجلت نمو نفوذ القناصل ذلك النفوذ الذي سيعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو تشريعي في الدولة العثمانية وسيعمل أخيرا على تدهورها النهائي ثم سقوطها.

وإذا كان لمعاهدة برلين من اثر على روسيا فهي ستوجه اهتمامها إلى الإمبريالزم في شمال آسيا ووسطها وشرقها حيث أخذت تصطدم بالشعوب الأسيوية الشرقية وبالدولة اليابانية التي بدأت في الظهور على مسرح السياسة الأسيوية والعالمية كما أخذت تصدم بالمصالح الأوروبية الإنجليزية والفرنسية في الصين.

حافظت معاهدة برلين على السلام الأوروبي وعمل التفوق الألماني في أوروبا على توجيه نصر الدول الكبرى إلى إتباع مهمة سياسة الامبريالزم السياسي والاقتصادي في سياسة التوسع في إفريقيا وآسيا. على حساب الشعوب الإفريقية والعربية والإسلامية وشعوب الهند والشرق الأقصى. يحسن بنا أن نعرف شيئا مما كان يدور في الطرقات للمؤتمر وفي غرفة الخلفية من اتفاقيات سيكون لها أثرها الخطير على مصير الدولة العثمانية ومصير البلاد الإسلامية التابعة لها وقرب نهاية المؤتمر في إحدى الطرقات الجانبية في ٧ يوليو تراوى لسولسبري وزير الخارجية أن يخبر زميله وزير الخارجية الفرنسية بهذه الاتفاقية اتفاقية ٢١ مايو فثارت ثائرة الوزير الفرنسي ولم يحاول إخفاء استيائه وسارع إلى إنذار حكومته – ثم نشرت الصحف هذه الاتفاقية. وهاجم الملكيون والجمهوريين هذه الاتفاقية هجوما عنيفا ثم تغير موقف الرأى العام في فرنسا فجأة وأخذت الصحافة الفرنسية تنافش سياسة إنجلترا باعتدال

وتنتحل لها الأعذار وتجد لها المبررات فى عقد مثل هذه الاتفاقية وسرعان مانى الرأى العام فى فرنسا اتفاقية قبرص. ما السر فى هذا الموقف الجديد.

وحين أخبر سولسبرى وادنجتون باتفاقية قبرص عن أمان الأخير عن أن فرنسا لن تقبل أبدا الإخلال بالتوازن الدولى فى شرق البحر المتوسط والانتقاص من نفوذها فى هذه الناحية ووضع إذلال جديد لفرنسا وهزيمة للنظام الجمهورى، ولذا فوادنجتون لن يستطيع فرض فرنسا الموافقة على ذلك الموقف الجديد وأن ليس أمام ممثلى فرنسا سوى الانسحاب من المؤتمر.

وكان كل من بسمارك وسولسبرى مستعدا لقبول ذلك ولذا أخبر سولسبرى وانجتون أن الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعترف بصفة عامة بمصالح فرنسا فى البحر المتوسط فى لبنان وفى الأراضى المقدسة لا سيما فيما يختص بحماية الدولة الكاثوليكية فى هذه المناطق وهى على استعداد للاعتراف بان المصالح الفرنسية فى مصر على قدم المساواة مع المصالح الإنجليزية. فالحكومة الإنجليزية موافقة على إعطاء فرنسا حرية التصرف فى تونس وأن إنجلترا لم تقدم على أى تعديل فى الموقف السياسى فى الشرق الأدنى. دون موافقة فرنسا إذا كان للنمسا والمجر أن تقوم بمهمة حضارية فى غربى البلقان وإنجلترا فى آسيا الصغرى ففرنسا أمامها خدمة الحضارة فى شمال إفريقيا.

قبلت الحكومة الفرنسية العرض الإنجليزى الألمانى وكانت الحكومة الفرنسية ترى أن إنجلترا خرجت من الميدان فلم يبق من يهتم بأمر تونس غير إيطاليا والدولة العثمانية فلقد بينت لها فرنسا فى مواقف عديدة أنها لا تعتبر تونس جزء من الإمبراطورية العثمانية، ولم تعترف بفرمان سنة ١٨٧١ الذى اعترف فيه بأن تونس بالسيادة العثمانية على بلاده.

ولما اطمأنت الحكومة الفرنسية إلى موقف إنجلترا عملت على تكشف الموقف فى تونس فكلفت قنصلها الجنرال روسيتان بالاتصال شخصيا بالباى وعرض مشروع حماية فرنسية عليه بصفته الشخصية لا بصفته الرسمية.

وأسرع الباى سيدى محمد الصادق إلى القنصلين الإنجليزى والإيطالى يستشف رأيهما وموقف حكومتهما بازاء هذا الموضوع وحاول القنصلان بطبيعة الحال تكذيب روسيتان وأيدا الباى فى رفضه لمشروع القنصل الفرنسى، ولذا وجدت فرنسا ضرورة التخلص من عدوها العنيد القنصل ريتشارد ود وطلبت من حكومته سحبه من تونس حتى لا يقف عائقا أما تقدم النفوذ الفرنسى فى هذه البلاد ووجد وادنجتون كل تعضيد من ناحية بسمارك مما اضطر سولسبرى فى أخر الأمر إلى سحب قنصله من تونس وأنهى عمل القنصلية البريطانية من الناحية السياسية وبذلك وضع حدا للتنافس الفرنسى البريطانى فى تونس وكانت تعليمات سولسبرى إلى قنصله الجديد بألا يقوم بأى نشاط سياسى فى تونس.

وبذلك لم ينقض صيف ١٨٧٩ إلا وقد اطمئن الفرنسيون تماما من ناحية إنجلترا بخصوص موضوع تونس.

وكانت إيطاليا هى العقبة الكبرى فى سبيل الفرنسيين وكانت فرنسا على علم بأن إيطاليا حاولت محاولتين لفرض سيطرتها على تونس. المحاولة الأولى قبل مؤتمر برلين سنة ١٨٧٠ حين سقطت فرنسا أمام الألمان.

والمحاولة الثانية كانت عقب برلين نتيجة لازديان النفوذ النمساوى فى الأدرياتى والبلقان بعد احتلال الجيوش النمساوية للبوسنة والهرسك، فحاولت إيطاليا عن طريق مبعوثها مورس فى فرض حماية على تونس ولكنها فشلت فى المرة الأولى. ولم تكن إيطاليا ولا روسيا تدرى ما حدث من وراء الستائر مناقشات مؤتمر

برلين – حقيقة أنه وصل إلى علم الحكومة الإيطالية الشائعات ولكن الحكومة الإنجليزية لم تشف عليها ولم تعد إيطاليا ردا واضحا.

حاولت إيطاليا بعد فشلها فى فرض الحماية الإيطالية على تونس أن توجه نشاطها إلى مصر . فحاولت أن يكون لها نفوذ فى مصر مماثل لنفوذ إنجلترا وفرنسا ولكن إنجلترا رفضت هذه المرة قبول وجهة النظر الإيطالية فهى لا تسمح بوضع مصر تحت حماية دولية – وحين حاول إسماعيل الاستفادة من نمو الوعى القومى وضمه إلى جنبه ثارت الدولتان تؤيدهما الحكومة الألمانية على سياسة الخديوى إسماعيل من الباب العالى خلفه فى السنة التالية لمؤتمر برلين ووضع توفيق محل أبيه وسيطرتا عليه فلقد أعادت الدولتان نظام المراقبة الثنائية.

وأجاب بسمارك بأنه غير مؤيد مطالب فرنسا وأنه:

(خير للإيطاليين أن ينصرفوا إلى معالجة مصائبهم).

وكانت مهمة بسمارك بالنسبة للإيطاليين ساخطة حازمة ولكنه بالرغم من ذلك النزاع القائم بين فرنسا وإيطاليا نتيجة لمعاهدة برلين وبالرغم من ثورة الرأى العام الإيطالى على هذه المعاهدة خرجت إيطاليا من برلين "نظيفة اليدين" كما يقول وزير خارجيتها كورتى.

ولقد صرح خليفة وادنجتون وهو دى فرسنيه بموقف فرنسا حيث ذكر للسفير الإيطالى: "فى كل ما يختص بتونس نرى أن مصلحتنا السياسية والاستراتيجية تقتضى ألا يعرقل العلاقات بين تونس والجزائر أى نفوذ وأنا نرى أن تونس ما هى إلا امتداد لمستعمراتنا الإفريقية. وأن حريتنا فى العمل فى الجزائر تجعلنا نهتم بكل ما حدث فى تونس وأن سياسة الباى يجب أن تكون مرتبطة بسياستنا".

وأخيرا رأى الفرنسيين سرعة التدخل الحربى فى تونس وخاصة بعد أن جاءت وزارة الأحرار إلى الحكم فى إنجلترا ولم تكن راضية عن تصرفات وزارة

المحافظين التى سبقتها وكان من أكبر العاملين على سرعة الإقدام على غزو تونس السفير الفرنسى فى برلين سان فاليير فلقد بذل بإقناع ولاة الأمور فى فرنسا بالتدخل قبل أن تقفز دولة أخرى فتحل محل الفرنسيين فى هذه البلاد وأمام هذه القدر رأت فرنسا ألا مفر لها من استخدام القوة ضد تونس لتأديب تونس وإيطاليا معالجة إخضاع القبائل التى تقيم على الحدود بين تونس ومراكش وعملت إنجلترا على تقرير الفرنسيين من الاستمرار فى عملياتهم الحربية ضد طرابلس وبينت أنه لن تسمح بذلك فطرابلس فى نظرها جزء من الدولة كانت إنجلترا تخشى أن يصبح البحر المتوسط بحيرة فرنسية وترنو ببصرها إلى مصر كتعويض لإنجلترا من احتلال الفرنسيين لتونس ولذلك لم يمض أكثر من عام إلا وكانت إنجلترا قد ضربت الإسكندرية واحتلت مصر بعد عام. وبدأت المناقشة بين الدولتين تأخذ دورا خطيرا يكاد ينتهى بوقوف الحرب حتى تم الوفاق سنة ١٩٠٤.

وأما إيطاليا فلقد نظرت إلى احتلال الفرنسيين لتونس كإذلال جديد لها وسقطت وزارة كيرولى التى كانت تتولى الحكم آنذاك وعرفت أنها لا تستطيع الدفاع عن كرامتها بمفردها ورأت الانضمام إلى ألمانيا ولكن بسمارك ذكر أن الطريق إلى برلين لابد أن يمر على فيينا وعلى إيطاليا أن تحس علاقتها بالنمسا وأذعنت إيطاليا للأمر وعقد الحلف الثلاثى فى سنة ١٨٨٢.

ووجهت إيطاليا نظرها على أنه المكان الوحيد فى شمال إفريقيا الذى تستطيع الذهاب إليه وبدأ القرن العشرين وقد صممت إيطاليا على انتهاز فرصة تداعى الدولة العثمانية لغزو هذه البلاد – وبهذا تحققت فى أخذ الأمر سياسة بسمارك بحذافيرها من حيث تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية.

وكان من آثار مؤتمر برلين زيادة توثيق العلاقات بين ألمانيا والنمسا لا سيما بعد عقد معاهدة التحالف سنة ١٨٧٩ أن اتجه نظر روسيا القيصرية إلى تثبيت دعائم

نفوذها فى آسيا الوسطى الإسلامية وإيران والشرقى الأقصى، فاصطدمت مع إنجلترا فى أفغانستان وتصطدم مع اليابان فى الشرق الأقصى.

وكان من آثار مؤتمر برلين زيادة اهتمام العثمانيين وخاصة السلطان عبدالحميد بفكرة الجامعة الإسلامية وبالتقارب مع ألمانيا لتستطيع الوقت أمام مطامع الفرنسيين فى تونس ومطامع الفرنسيين والإنجليز فى مصر وزاد النفوذ الألمانى فى ممتلكات الدولة العثمانية إلى حد أخذت تستغله المطامع الاستعمارية الألمانية الناشئة فحاولت بعد سقوط بسمارك فوضعت مشروع سكة حديد بغداد لتربط بين برلين وإستامبول وبغداد.

وكان نجاح الامبريالزم الأوروبى ونموه بعد مؤتمر برلين عاملا على القضاء على ما بقى من الدولة العثمانية نفسها. بسقوط السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى سقطت الخلافة من الناحية العملية وأخذ العثمانيون يتمسكون بأهداب مبادىء أخرى كالفكرة الطورانية التى ترمى إلى إحياء لغة الترك وتقاليدهم التركية الصميمة فانقسمت الدولة إلى عنصريها الأساسيين العنصر التركى والعنصر العربى.

الفصل العاشر

التحالفات الأوروبية

(١٨٧٩ - ١٩١٤)

محالفات بسمارك

(١٨٧٩ - ١٨٨٢)

الموقف بعد مؤتمر برلين:

يمثل مؤتمر برلين حداً فاصلا فى تاريخ أوروبا إذ سبقته ثلاثون عاما من الصراع والتغيير المفاجىء، وأعقبه أربعة وثلاثون عاما من السلم. ولم تتغير أى حدود أوروبية حتى عام ١٩١٣ كما لم تطلق طلقة واحدة فى أوروبا حتى عام ١٩١٢ اللهم إلا فى حربين تافهتين حدثتا بطريق الخطأ، ولن يجدى الأمر فتيلاً أن يغرى هذا الإنجاز الهائل لحذق الساسة الأوروبيين بمفردهم أو حتى بشكل أساسى ولا ريبة فى أن السبب الحاسم لذلك كان اقتصاديا، فإن السر الذى جعل بريطانيا دولة عظمى لم يعد سرا فى ذلك لأن الفحم والصلب قد وفروا الرخاء لجميع أنحاء أوروبا وإعادة صياغة الحضارة الأوروبية وبدا أن حلم كوبدن قد تحقق وشغل الناس كثيرا فى تجميع الثروة فلم يعد أمامهم وقت للحرية ورغم أن التعريفات الحامية ظلت فى كل مكان باستثناء بريطانيا العظمى. إلا أن التجارة الدولية كانت مرة بشكل آخر. فلم يكن تدخل من جانب الحكومات ولم ينكر وجود خطر للديون. وكان مستوى الذهب. عالياً واختفت جوازات السفر إلا فى روسيا وتركيا. وإذا ما عزم أحدهم فى لندن – على التوجيه إلى روما أو فيينا فى التاسعة صباحا فكان فى مقدوره أن يرحل فى العاشرة صباحا بدون جواز سفر أو دفاتر شيكات ويكتفى بكيس من النقود فى جيبه. ولم تكن أوروبا قد عرفت مثل هذا السلم والوحدة من قبل من عصر أنطويس ولم يكن عصر مترنيخ شيئا يقارن ذلك. وعليه فقد عاش الناس فى هلع متأصل من الحرب والثورة وبدأوا يعتقدون وقتئذ أن السلم والأمن شيئان طبيعيان وما عداهما حادث وانحراف.

ولسوف ينظر الناس – ولقرون مقبلة – إلى الماضى حيث عصر السعادة الطاغية ولسوف يدهشون حول السهولة التى لم تبذل بها جهود والتى تحققت بها تلك السعادة وليس أمرا محتملا اكتشاف السر فى ذلك. وعلى وجه اليقين لن يمكنهم محاكاته.

ولا تزال توجد إلا العواطف الوطنية والتنافس بين الدول وفى واقع الأمر تحدث الساسة بكبرياء عظيم وبشكل أكثر عمومية واصطكت السيوف بمشكل أكبر لازدياد الاعتقاد فى أنها لن تستعمل مطلقاً. ووجدت كل الدول العظمى باستثناء إمبراطورية النمسا والمجر مجالا أمنا لتوسعهم خارج أوروبا. واصطدمت عند هذا الحل بطريق المصادفة بدون بصيرة. ولقد افتتح ليوبولد الثالث ملك البلجيك بشكل كله غرابة (عصر الاستعمار) لا حاكم أى دولة عظمى وقامت الإمبراطوريات بطريق المغامرين أكثر منها بالعمل الرسمى.

وبذا أيضا دليل على أن السادة لا أهمية لها – وهم قلة كما صورهم هج ويلز ولا يعطون تعليقات متصلة على هامش الأحداث واستمر عمل الدبلوماسية ولا زال الدبلوماسيين يأخذون الأمور بجدية وفى عام ١٨٧٩ بدأ بسمارك إقامة تحالفات قدر لها أن تشمل بريطانيا العظمى فى أوروبا ومعظم الدول الصغرى. وأعد رؤساء الأركان خطط الحرب لزيادة المشكلة وتحدثوا بجدية عن الصراع الذى سينشب عندما يذوب الجليد على جبال البلقان وبنيت الأساطيل وأعيد بناء أساطيل أخرى وتم تدريب ملايين الرجال للحرب.

ولم يحدث شيء كان الجليد يذوب كل عام ويتحول إلى صيف والصيف يتحول إلى خريف وسقط الجليد من جديد. وبالنظر إلى الوراء فإنه لمن الصعوبة بمكان أن نصدق أنه كان ثمة جدى من الحرب فى أوروبا على نطاق واسع فى الأوقات بين عامى ١٨٧٨، ١٩١٣ وربما كانت عقدة الدبلوماسية لهذه الفترة لم ترد

عن كونها لعبة هائلة وهو نظام الإعانة الخارجية كما أطلق عليها لشغل الأرستقراطيين فى أوروبا بما يعود عليهم بالنفع، وكانت الدبلوماسية أمرا حتميا خلال السنين الثلاثين السابقة فقد شكلت مصائر الناس.

ولو صار كافور أو نابليون الثالث أو بسمارك وفق سياسة مخالفة لم كانت هناك إيطاليا أو ألمانيا متحدة، ولكن هل كان الأمر يختلف فى جيل بعد ١٨٧٨ وأن لم يكن هناك تحالف نمساوى ألمانى أو تحالف فرنسى روسى؟ يتعين على عمل التاريخ الدبلوماسى أخذ الدبلوماسية بشكل جادى وربما يكون الأمر كافيا أن نقول أن الدبلوماسية ساعدت رجالا ليصلوا فى سلام طالما أن هذه كانت إرادتهم.

العلاقات بين الدول العظمى :

لم يكن هناك أهمية للعلاقات بين الدول العظمى. وكان بسمارك يصوغها طالما أن لها أهمية بالمرة - ولم يكن هذا هو الوضع فى سنتى ما قبل مؤتمر برلين أو حتى أبان المؤتمر. وحاول بسمارك من حين لآخر أن يخفف من التوتر بين الدول العظمى أو أن يقوم بدور "السمسار الشريف" ولم يكن قد ساد المسرح البريطانى. أنهم البريطانيون الذين كانوا السبب فى أزمة ١٨٧٨ بعزمهم على مناهضة الروسيا وانهوها بسلام البريطانيون باستخلاص اتفاقات مرضية من الروسيا وسارت الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا فى أعقاب بريطانيا العظمى كل بطريقتها المختلفة وبعد المؤتمر كان لا يزال للبريطانيين القيادة فقد سيطروا على البعثات التى تقرر أن تطبق شروط المعاهدة وبتأييد من النمسا والمجر وفرنسا فقد شجعت المفاوضات التى أدت إلى سحب القوات الروسية من البلقان فى يوليو ١٨٧٩ ولم يقصر لإخراج الروس من تركيا إذ أنهم أبوا أن يدخلوا هم أنفسهم إلى تركيا، وأعلن وزير خارجية بريطانيا سولسبرى بإمكان إعادة الإمبراطورية العثمانية دولة عظمى وإنما فكر فى نظام المحميات المقنعة فالنمسا والمجر من خلال احتلالهما للبوسنة

والهرسك ينبغي أن تكون مسئولة عن غربي البلقان وعلى بريطانيا العظمى إصلاح أو حراسة آسيا الصغرى كما ورد فى اتفاقية قبرص وربما ألقى لفرنسا بدور مماثل فى شمال إفريقيا لتشجيعها على أن تأخذ تونس وكان هناك شرخ فى هذا النظام وكانت القسطنطينية عاصمة إمبراطورية لا تزال قائمة ولم يفعل سولسبرى بأى شيء للحفاظ عليها. وكان ابسط حل هو تحالف بريطانيا مع النمسا والمجر ولم يكن ذلك ميسورا حتى عندما كانت الجيوش الروسية عند أبواب القسطنطينية وظل ذلك مخادعا فى الشهور التالية أضف إلى ذلك لم يكن لدى سولسبرى إيمان فى ذلك الحين بالنمسا والمجر بصورة أكبر من إيمانه بالإمبراطورية العثمانية – وآثر أن تتصرف بمفرده ولذا أن تصريحه فى المؤتمر حول الحكم فى المضايق يوضح الطريق وكانت للبريطانيين حرية المرور فى المضايق حينما يحلو لهم ذلك. وفى عام ١٨٧٨ لم يكن فى وسع الأسطول البريطانى إنقاذ القسطنطينية والروس خارجها فعلاً لكن بانسحاب القوات الروسية أمكن للبريطانيين حماية القسطنطينية بالمرور فى المضايق ومهاجمة الروس فى البحر الأسود. وكان هذا هو الافتراض وراء السياسة البريطانية فيما بين مؤتمر برلين وسقوط حكومة المحافظين فى أبريل عام ١٨٨٠. ولا ريب فى أن السياسة كانت دفاعية ولكن إذا ما دعت الحاجة فسوف تدافع عن تركيا بضرب أوركرانيا وهى أغنى وأكبر جزء من الإمبراطورية الروسية عرضة للضرب.

سياسة الروسيا تجاه بريطانيا العظمى:

وكان الافتراض البريطانى واضحاً أمام الروس. وفى الواقع كان الخوف من الهجوم فى البحر الأسود هو الدافع الرئيسى لسياسة الروسيا فى الشرق الأدنى فى السنوات الثمانى عشر التالية. ولم يفعل الروس شيئا لاستعادة أسطول البحر الأسود الذى تم تدميره خلال حرب القرم. ولهذا السبب احتاجوا إلى ترابط دولى من نوع معين لابدال معاهدة لندن عام ١٨٤١ التى فتنتها تصريحات سولسبرى فى برلين.

وكان يمكن لتحالف البحر المتوسط أن يفعل لإعاقة الأسطول البريطاني. وحاول الروس اكتساب إيطاليا إلى صفهم وعلى الرغم من أن الإيطاليين الذين لم ينالوا شيئا من المؤتمر وكانوا كارهين وغير راضين إلا أنهم لم يجرأوا على العمل ضد بريطانيا فتحدث بعض في الخلاف عن التحالف مع فرنسا – وكانت هذه الفكرة حمقاء كذلك. وكان التحالف الليبرالي (للقوى الغربية قد أعيد إلى درجة كبيرة وأيدت فرنسا النمسا والمجر البريطانيين في اللجان البلقانية. وفي واقع الأمر بينما في مؤتمر باريس على تحالف القرم) فإن مؤتمر برلين كاد أن يعيده. وكان آخر ورقة للروسيا كما كانت دائما هي الصداقة التقليدية مع ألمانيا وهي صداقة قوتها روح الكراهية لبولندا.

الروسيا وألمانيا:

ولما لم يكن لألمانيا مصالح في البلقان فالواجب عليها كما قال الروس أن تؤيد الروسيا في البلقان وفي المضايق. زد على ذلك لم يتخل الروس عن الحلم القديم بأن يجب استغلال ألمانيا بطريق ما لدفع النمسا والمجر نحو نهيج يميل للروسيا. وكان الروس لا يزالون يفكرون في ألمانيا على أنها تابعة معترفة بالعرفان، وافترضوا إمكان دفعها إلى تحالف وذلك بإظهار حدة المزاج وكان ذلك في الواقع الطريقة الوحيدة التي عرفوها.

وكان هذا هو الموقف الذي حدا بسمارك للعمل. فقد كان تحالف الروسيا ضد تحالف القرم قد رفضه مرارا الساسة البروسيون وكان التحالف ضد الروسيا مكروها بالمثل. وفي خلال حرب القرم تهربت بروسيا من الالتزام بموقف معين مع أي طرف ودفعت ببشاشة ثمن كونها مجهولة كدولة عظمى. وكان نشاط بسمارك كما آخر محاولة للحفاظ على هذا الموقف. وفي ذلك الحين انخرط في المحالفات الأوروبية وحتى في المسألة الشرقية. ومما لا ريب فيه فقد كان هدفه شخصياً من

ناحية وهو نفاذ صبر السيد عند أخطاء دبلوماسية يقوم آخرون بها وبشكل عمقا وأتت الفرصة عندما قبلت ألمانيا المسئوليات كاملة كدولة عظمى. وكان بسمارك قد شكل أوروبا الجديدة وتعين عليه أخذ أن يحافظ عليها. وكف عن القيام بدور كافور وصار مثل مترنيخ ومن ثم فقد كان أيضا "صخرة النظام".

سياسة بسمارك الداخلية:

وكان نفس الأمر ساريا في سياسته الداخلية التي تغيرت كذلك وبشكل حاسم في عام ١٨٧٩ واختلف بسمارك مع الليبراليين الوطنيين وبدا يعتمد إلى حد بعيد على الأحزاب المحافظة ولقد امتدت الثورة بشكل كبير وتعين إنهائها في ذلك الجين ومع ذلك في نفس الوقت فإن التحالف الذي كان قد أقامه مع النمسا والمجر كان تهدئة لليبراليين الذين نبذهم في الشئون الداخلية وعلى الرغم من أنه لم يعطهم ألمانيا العظمى إلا أنه أعطاهم اتحاد دولتي ألمانيا القائم على الشعور الوطني، غير أن موضوعه هذا فاق السياسات الألمانية إذ أنه أراد الحفاظ على توازن القوى في أوروبا والأكثر من ذلك النظام الملكي وضم نظامه المحافظ المتأصل في اهتمامه بطبقته كلا من أسرة الهاسبرج والنظام القيصري في الروسيا. وفي الحقيقة أراد أن يعيد التحالف المقدس على عصر مترنيخ وكان الشرط الوحيد لذلك هو كبح جماح الروسيا في الشرق الأدني ولقد ظهر هذا على وجه اليقين بعد عام ١٨٧٨ كانت العقبة الجديدة، هي طموح النمسا والمجر أو بالأحرى شكلها الراسخ حول مخططات الروسيا في البلقان ولم يتخلص بسمارك مطلقا من هذه العقبة وفي نهاية الأمر قضت على نظامه.

سياسة بسمارك تجاه الروسيا والنمسا:

فقد كان الأمر دائما لعبة سحرية لمنع صراع نمساوي روسي. ولقد قام مترنيخ بذلك برفع الخوف من الثورة أمام عين القيصر وكانت طريقة بسمارك أكثر

إتقانا. بذا ينزع النمسا والمجر من اتحاد القرم وذلك بتقديم ضمان التحالف مع ألمانيا فإذا ما منعت من الحركة فقد جعل هذا التحالف شرطا لتسوية أمورها مع الروسيا وكان خوفه الحقيقى من عدم استقرار النمسا والمجر من اتحاد القرم وذلك بتقديم ضمان التحالف مع ألمانيا فإذا ما منعت من الحركة فقد جعل هذا التحالف شرطا لتسوية أمورها مع الروسيا وكان خوفه الحقيقى من عدم استقرار النمسا والمجر لا من العدوان الروسى ولكنه لم يستطع أن يصرح بذلك إلى أن تم التحالف النمساوى الألمانى وكانت مثل هذه الأمور المعقدة، تفوق قدرات وليم الأول. وعندما كان الإمبراطور أمير الروسيا كان مؤيدا للتحالف الليبرالى وكان فى الإمكان شغله بتحالف مع النمسا والمجر وذلك بدفعه أن ألمانيا كانت فى خطر محدق من أن تهاجمها الروسيا. ولم يكن ثمة ضرورة لأن تفرض أن بسمارك اعتقد فى هذا الرأى على الرغم - كمعظم الرجال من أنه فى غالب الأمر اخفى أسطورة من صنعه الخاص طالما أنها تفى بالغرض. وكان يمكن للحاكم المسن جدا أو ضيق الأفق أن يعتقد أن ألمانيا مهدد بحرب أو حتى بحصار ولكن بسمارك لم يكن لديه رأى طيب عن مقدرة سيده واستعمل حججا وأسانيد - نتيجة للتأثير عليه رغم كل شىء كان الأمير يسيرا لإقناعه فى عام ١٨٦٦ أن النمسا تهدده. ولم يكن الحكام المطلقين فقط هم الذين يجب إرغامهم ودفعهم سياسة الأمن عن طريق أخطار وهمية تخطط على الجدران بالرأى العام فى البلدان الديمقراطية ينال نفس المعاملة وكان لدى بسمارك غرض ثان - فقد تمنى إقناع الفرنسيين أن التحالف النمساوى الألمانى سيوجه أساسا ضد الروسيا ليس بها من يجذبها كحليف وفى عام ١٨٧٩ كان الفرنسيون لا يزالون على استعداد لتقبل هذا النمط من المناقشة وليس هناك ضرورة للمؤرخ أن يفعل ذلك.

التحالف الثنائى سنة ١٨٧٩

ويوضح شعور بسمارك نحو فرنسا سياسته الخارجية برمتها فقد أبصر ذلك السياسى الكبير فى فرنسا عدو بلاده العنيد الخطر، الذى يأكل الغل قلبه، والذى يجب عدم الركون إليه قط، وينبغى إضعافه وإقصاؤه على الدوام من حظيرة جيرانه الأوروبيين. وقد خدمت منطقة ساحل إفريقية الشمالى، التى غدت فى وقت سريع مطمعا للاستعمار الأوروبى - خدمت هذه المنطقة أغراضه كأداة لدبلوماسيته المعادية للأمور الفرنسية.

فإن شجع فرنسا على امتلاك تونس، كى تتشاجر مع إيطاليا. وشجع إنجلترا على أمتلاك مصر، كى تتشاجر مع فرنسا. وكذلك كانت الاتفاقات البحرية الإنجليزية الإيطالية التى أبرمها اللورد سالسبرى سنة ١٨٨٧ ثمارا لنفس السياسة السيئة المقصد البعيدة النظر، التى كانت ترمى إلى عزل فرنسا، وحرمانها من أن يكون لها صديق فى أوروبا. كما أن بسمارك لم يغفل مراقبة مجرى القوى السياسية المختلفة فى باريس نفسها. فمع أنه كان ملكياً فى ألمانيا، فقد كان محبذا للنظام الجمهورى فى فرنسا. وإذ كانت الجمهورية فى نظره أضعف جميع أشكال الحكم وأسوأها.

أما فى شرق أوروبا، قد كانت أهم وسيلة من وسائل الدفاع الدبلوماسى التى لجأ بسمارك إليها لمنع تأليف تحالف دولى قد تنظمه فرنسا الحاقدة على بلاده، هى تكوينه ذلك التحالف الإمبراطورى الثلاثى السالف الذكر، الذى تألف فى يونيو سنة ١٨٧٢، وكان لا يزال حيا سنة ١٨٧٨، حين عرضه مؤتمر برلين لأزمة شديدة - وهو المؤتمر الذى وصفه قيصر روسيا بأنه "تحالف أوروبى تحت زعامة الأمير بسمارك ضد روسيا". ولكن تحالف الأباطرة الثلاثة خرج من هذه الأزمة دون أن يقضى عليه. فجبرت صدوع الصداقة، وجدد التحالف مرة أخرى، وأعلنت أوروبا كل أعوام ثلاثة

بأن عواهل الإمبراطوريات الحربية الكبرى فى شرقها قد ارتبطوا معا بعرى متجددة من الصداقة والتضافر[1].

بيد أنه برغم المزايا الجلية التى ترتبت على حسن تفاهم ألمانيا مع روسيا، فإن بسمارك لم يطمئن قلبه قط إلى جانب روسيا. بل كان يرى صداقتهم متقلبة لا يركن إليها ودبلوماسيتهم ماكرة خادعة. وكان يفصله عن جورتشاكوف كبير وزراء روسيا بغضاء شخصية قوية تقوم على عدم التقدير وقلة الاحترام وكان يرى أنه إذا اضطر إلى الاختيار بين روسيا والنمسا، فإنه سيؤثر على الدوام اختيار النمسا: من جهة لدواعى القرابة، ومن جهة أخرى لأنه إذا استأنفت النمسا لأية علة من العلل شجارها القديم مع بروسيا. فإنها تستطيع أن تتقدم بمطالب ضدها تقوم على أسس تاريخية، كحقوقها فى سيليزيا، وفى الآلزاس وفى الدوقيتين الدانماركيتين بل فى نظام الريخ الألمانى نفسه – تلك المطالب التى تعرض للخطر جميع الانتصارات الغالية الثمن التى أحرزها بيت هوهنتزولرن منذ اعتلاء فردريك الأول أريكة الملك.

ولهذا السبب وطن بسمارك النية، عندما سويت الخلافات البلقانية سنة ١٨٧٨، على إبرام معاهدة سرية مع النمسا، ومن وراء ظهر حليفته الروسية. ولقد كان هذا العمل عاملا حاسما فى تاريخ أوروبا، فإن بسمارك وضع بلاده بهذه المعاهدة السرية فى صف النمسا فى نضالها القادم المرتقب ضد جامعة الأمم السلافية[2].

ولقد ابرم هذا التحالف الثنائى بين النمسا وألمانيا سنة ١٨٧٩. ثم صار بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ "التحالف الثلاثى": وهو التحالف الذى دام حتى نشوب الحرب العظمى سنة ١٩١٤. وإن دراسى العوامل الدبلوماسية السابقة لهذا الحدث الخطير، عندما يرجع بصره القهقرى فى مجرى التاريخ، يبين له هذا

---

[1] فشر، المرجع السابق، ص٣٨٨، ٣٨٩.

[2] فشر، المرجع السابق، ص٣٨٩، ٣٩٠.

التحالف الذى عقده بسمارك وأندراسى Andrassy (وزير خارجية النمسا وقتئذ) بأنه كان حجر الزاوية لقيام الحرب العظمى. فقد قسمت الأقدار من لحظة إبرامه، بأنه إذا حدث أن تشاجرت النمسا وروسيا فى البلقان، فإن الجيش الألمانى سيقف جنبا إلى جنب مع حليفه النمساوى. فقد نصت أهم مادة من مواد تلك المعاهدة الخطيرة الشأن على أنه "إذا هاجمت روسيا أحد الطرفين الموقرين المبرمين للمعاهدة، وهو عكس ما يرجوان، وضد رغبتهما الخالصة، فإن الطرفين ملزما بأن يتقدما لمساعدة أحدهما الآخر بكل ما لدى إمبراطوريتيهما من قوة حربية، ويتعهدان بألا يبرما الصلح إلا معا، وبمقتضى اتفاق متبادل". ولذا كان تناقض هذه المعاهدة مع تعهدات ألمانيا العامة لروسيا عذرا يبرر العناية الخاصة التى اتخذت لإخفاء أمرها.

ذلك أن بسمارك لم يكن يروم حربا بين روسيا والنمسا. بل كان مطمحه الأعظم هو أن تتجنب مثل هذه الحروب. إذ تجلت لذهنه الحاد القوى هذه الحقيقة، وهى أنه ليس ثمة ما هو أخطر من هذه الحرب على ألمانيا، وعلى أوروبا. غير أنه لم يكن هناك ما هو أسهل من قذف شرارة بين هشيم الدول البلقانية السريع الالتهاب، فتتقد نار حرب شعواء تتأجج فى ربوع أوروبا، وتمتد من نهر النيفا شمالاً إلى بحر إيجه جنوباً. وقد كادت تقذف هذه الشرارة، حينما أعلنت ولاية الروملى الشرقية انضمامها إلى بلغاريا عام ١٨٨٥. فقد أكل الحسد قلوب جيرانها الصربيين، لاتساع أملاك عدوهم اللدود فجأة. واستلوا سيوفهم، وخرجوا للقتال. ولكن إسكندر أمير بلغاريا هزمهم فى معركة سليفتزنا Slivitzna.

وكانت أوروبا على قاب قوسين أو أدنى من نشوب الحرب بين دولها أثناء هذا القتال البلقانى. فقد عرف الجميع - أو إن لم يكونوا عرفوا، فقد اشتبهوا - بأن الصربيين كانوا يعملون بإيعاز من النمساويين، وكان الجميع على دراية بأنه مهما

كان شخص إسكندر (وهو بالمولد أمير من أمراء بيت باتنبرج الألماني) مقيتاً في عين قيصر روسيا، فإن البلغار كانوا خاصة اتباع الإمبراطورية الروسية. فإذا سمح لهذا الشجار بين بلغاريا والصرب بأن يطول أكثر مما يجب، فمن اليسير أن يرى، انه لا محالة من تولد الاحتكاك بين النمسا وروسيا وليتي نعمهما، وأنه قد يعقب احتكاك كهذا نشوب القتال بينهما. وأن الطلقات الأولى المتبادلة بين النمساويين والروسيين ستجر ألمانيا إلى حومة الوغى[٣].

ولهذا بذل بسمارك قصارى جهده ليتجنب حرباً كهذه. وإذ رأى أنها لا تساوي حياة فارس ألماني واحد، أفلح في الواقع في تجنبها. فقد بعث إلى فينا يخبرها بضرورة تفادي القتال، ولم يسمح للنمساويين بالاندفاع والتهور. وفي الوقت نفسه عمل على تهدئة ثورة الروس. فمرت الأزمة البلغارية بفضل براعته ودهائه دون أن تحدث انفجاراً عاماً. وأنهيت على جناح السرعة تلك الحرب الصغيرة بين بلغاريا وصربيا. وعقد بين الدولتين البلقانيتين صلح بوخارست (في ٣ مارس سنة ١٨٨٦) الذي قضى بإبقاء الحال على ما كانت عليه قبل الحرب.

غير أن الأمير إسكندر، الذي كان شخصه موضع حقد الحكومة الروسية، أكره على التنازل عن عرشه في سبتمبر ١٨٨٦. فاختارت الدول من البيوت المالكة الألمانية، التي لا ينضب لأمرائها معين، أميراً تقبله النمسا، ولا تمجه سان بطرسبرج. وكان هذا الأمير هو الملك فرديناند، الطويل الأنف، المديد الرأس، المحب للطيور، الملقب "بثعلب البلقان"، الذي رغم حذقه أفانين السياسة وأساليب الدهاء، ضم الشعب البلغاري في الحرب العظمى إلى الجانب الخاسر.

ووقفت إنجلترا إزاء شباك المحالفات المضادة للأمة الفرنسية حرة طليقة، وفي "عزلة مجيدة". فلم تجرؤ حكومة إنجليزية، حرة كانت أو محافظة، على أن

---

[٣] فشر، المرجع السابق، ص ٣٩٠-٣٩١.

تربط الشعب الإنجليزى بحبائل السياسات الأوروبية الماكرة. وبقيت تلك الجزيرة بمنأى عن المؤامرات، لا يحسب لها حساب. أما فى نظر أهل القارة، فقد وقفت هذه البلاد وقفة غامضة، تكتنفها الألغاز، وتحوطها الأسرار.

ولكن إنجلترا كانت دءوبة فى تلك البرهة على تحقيق أطماعها فى جهات قصية نائية عن المراكز الرئيسية للحياة الأوروبية. فقد كانت زمرة من رجالها تحكم فى الهند. وانتثرت حفنات من المستعمرين من أبنائها فى أراضى القارة الأسترالية ومستعمرة رأس الرجاء الصالح. ولم يكن فى مقدور ألمانى أن يحزر على وجه الضبط مدى تماسك أجزاء ذلك البنيان الذى شيده وقتئذ بنو التاميز[٤]. غير أنه كان يضطر إلى التسليم بتفوق الإنجليز فى التجارة، وفى قوة الأسطول، واتساع الإمبراطورية: تلك الأمور التى ظفر بها صدفة واتفاقا ذلك الشعب من أبناء القرصان المرحين المجدودين.

ولكن شيئا واحدا بدا يومئذ للألمان مؤكدا لا ريب فيه: وهو أن صداقة الإنجليز معناها عداوة الروس. فلاح لبعض ساستهم أن إبرام معاهدة سرية مع إنجلترا تبعدها عن فرنسا فكرة جذابة. وقد حاول بسمارك تحقيقها، أولا مع دزرائيلى، ثم مع سالسبرى. ولكن الساسة الإنجليز أعلنوا أنهم يكرهون الدخول فى معاهدات سرية، وقالوا إنه لابد لهم من اطلاع البرلمان والملكة فيكتوريا على كل شىء. كما تساءل أيضا الألمان بدورهم: أى ضمان هذا الذى يمكن لهم أن يعتمدوا عليه فى مواثيق الحكومات الإنجليزية التى تجلس اليوم فى دست الحكم، ثم تذهب غدا، والتى هى على الدوام ألعوبة فى مهب أهواء الناخبين ؟ فهل تستطيع وزارة محافظة مثلا أن تضمن لهم عدم تغير سياستها إذا ما خلفتها وزارة حرة؟ إن سالسبرى أظهر فى عبارة دبلوماسية شكوكه فى ذلك. كذلك كان بسمارك يميل إلى الاعتقاد بأن الديمقراطيات عاجزة عن "تسليم البضاعة".

---

[٤] فشر، المرجع السابق، ص ٣٩١-٣٩٢.

ولهذا لم تبرم معاهدة بين ألمانيا وإنجلترا خلال حياة بسمارك. ومع أن المستشار الإمبراطورى العظيم كان يقدر صداقة إنجلترا، ويرغب - دون أن يعلن جليًا هذه الرغبة - فى أن يجر إنجلترا إلى داخل حلقة شركائه، إلا أنه لم يستطع قط أن يظفر حتى من حكومة محافظة، بالتعهدات الصريحة أو السرية، التى كانت وحدها تستطيع أن تشبع مطالبه، وتهدىء من روعه[٥].

أضف إلى ذلك أن ألمانيا بدخولها حلبة الاستعمار، ضاعفت كثيراً من فرص الاحتكاك بينها وبين إنجلترا. فقد كان هناك احتكاك بين الدولتين بصدد فيجى وغيانا الجديد، وبصدد إفريقية الجنوبية الغربية وإفريقية الوسطى، وبصدد جميكا وزنجبار. وكانت العلاقات الألمانية حينما تغدو طيبة مع روسيا، كان فى وسع بسمارك أن يتشاجر مع إنجلترا، ويحاول إرهابها - الأمر الذى كان يثير طرب الحكومة القيصرية الروسية، وسرور الشعب الألمانى. غير أن لعبة إثارة إنجلترا وتحديها لم تكن بمأمونة المغبة، إلا حينما تكون علاقاته مع روسيا ودية. ولكن عند ظهور أول بادرة لتكدر العلاقات الروسية الألمانية، كانت إنجلترا ترجع إلى حظوته ورضاه.

ومع هذا ظل بسمارك لا يشعر باطمئنان. فإنه برغم تحالف العواهل الثلاثة، وبرغم التحالف الثلاثى، والتفاهم بين إيطاليا وإنجلترا، وبرغم محالفات النمسا والمجر الأخرى مع الصربيين والرومانيين، وبرغم معاهدة سرية تأكيدية أبرمها مع روسيا سنة ١٨٨٧ - برغم هذا كله بقى بسمارك خائفاً يجثم فوق صدره شبح نشوب حرب تجبر فيها ألمانيا على القتال فى جبهتين. والحق إنه لتعقيب محزن على سياسة القوة التى اتبعها بسمارك أن يحس نفسه مكرهاً فى سنة ١٨٨٧ - بعد أن مارس الحكم الأوتقراطى خمسا وعشرين سنة - أن يحس نفسه مكروها على التقدم إلى الريشستاخ بطلب الموافقة على زيادة الجيش الألمانى إلى زهاء سبعمائة ألف جندى.

---

[٥] فشر المرجع السابق، ص٣٩٣.

التحالف الإنجليزى اليابانى

والوفاق الفرنسى البريطانى ١٨٩٥ - ١٩٠٥

لقد شهد عام ١٨٩٥ قرارا حاسما، إذ شنت اليابان الحرب على الصين، وما كان أعظم دهشة الغرب حين رأى المصارع الصغير قد هزم خصمه الجبار هزيمة منكرة. وقد نشرت مجلة Bunch رسميا كاريكاتوريا تحت عنوان "اليابان قاتلة الشيطان" يمثل قزماً صغيراً يطأ بقدميه مارداً جباراً، ويوجه إليه ضربة قاضية بحد السيف، وبمقتضى معاهدة شيمونوسيكى Shimonoseki فى ١٧ أبريل ١٨٩٥ حصلت اليابان من الصين على الاستقلال لكوريا، على حين استولت هى على جزيرة فورموزا وشبه جزيرة لياوتونج بما فيها بورت آرثر. هى ميناء فى المياه الدافئة، قريبة من بكين. وكانت روسيا تتحرق طمعا فيها. وقد اعتزمت الدول الكبرى أن تلقن هذه الدولة الطفيلية الناشئة فى الشرق درساً، وفى ٢٣ من أبريل أرسلت روسيا وفرنسا وألمانيا إلى اليابان طلبا جماعيا للجلاء عن شبه جزيرة لياوتونج وبورت آرثر [١] وانصاعت اليابان لهذا الطلب فى هدوء؛ ولكنها لم تنس هذا الدرس، بل وعته فى ذاكرتها، ولم تشعر بأى ضغن نحو فرنسا لأنها ما فعلت إلا أن عملت مع حليفتها، ولكنها استنكرت عمل ألمانيا أشد الاستنكار. وكانت الحكومة الألمانية قد حصلت من روسيا بالفعل على وعد بتأييد طلبها فى المستقبل فى الحصول على ثغر فى الصين، فوجهت إلى اليابان كلاما غاية فى الغلظة غير العادية تعبر فيه من عزمها على القضاء على اية تهديدات للسلم فى الشرق الأقصى، وبعد ٢٠ سنة من ذلك طلبت اليابان الجلاء عن هذا الثغر الذى كانت قد حصلت عليه، بنفس ألفاظ الإنذار النهائى الذى كانت قد تلقته. أما الانتقام من روسيا فكان أسرع، فقد اعتقد

---

[١] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ج٢، ص٦٩.

ذو الصلة الوثيقة بالساسة اليابانيين أن أحداث ١٨٩٥ لابد أن تحمل حكومة اليابان على إذلال روسيا واستعادة بورت آرثر، وقد تحقق الهدفان في عشر سنين. وقد تورعت دولة كبرى واحدة عن الاشتراك في الطلب الذى تقدمت به روسيا وفرنسا وألمانيا إلى اليابان، تلك هى إنجلترا، وربما كان تورعها وليد الحرص والحذر أو وليد الصدفة، ولكن تأثيره كان طيبا على اليابان. ومنذ تلك اللحظة رأت اليابان في الجزائر البريطانية في الغرب حلفاً ممكناً ضد الحكومة العسكرية في أوروبا[٧].

وبدأت تظهر في العام الجديد ١٨٩٦ أولى علامات التصدع بين إنجلترا وألمانيا، ففي أواخر ١٨٩٥ قام جيمسون Jameson بحملته المشهورة على جمهورية الترنسفال. وفي ٣ من يناير ١٨٩٦ أرسل عاهل ألمانيا برقيته الشهيرة إلى الرئيس كروجر Kruger يهنئه فيها هزيمة العصابات المسلحة التى اجتاحت أراضيه وقد فسر هذا في إنجلترا بأنه محاولة من ألمانيا للتدخل معها في الترنسفال، وأثار استياء كبيراً خاصة بين الشعب البريطاني. وقد تقهقرت الحكومة الألمانية عن موقفها تقهقرا سريعاً، ولكنها خلفت وراءها ذيولاً من الريب والشكوك.[٨]

وحدث في خريف ١٨٩٧ عدة تطورات شائقة في السياسة الخارجية الألمانية، ففي يونيه عين أمير البحر تريبتز Tirpitz وزيرا للبحرية وفي أكتوبر عين الكونت (الأمير فيما بعد) بيلوف Bulov وزير للخارجية (ثم مستشارا في أكتوبر ١٩٠٠)، وأعلن في نهاية السنة الأولى برنامج توسعى بحرى لألمانيا. وفي ١٤ من نوفمبر استولت ألمانيا على كياوشار" وبذلك حصلت على قاعدة بحرية عظيمة في الشرق القصى، تكون حافزا على طلب المزيد في المستقبل.

---

[٧] جرانت، تمبرلي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٨-٦٩.

[٨] نفسه، ص٦٩-٧٠.

أما روسيا، التى قبلت مكرهة حصول ألمانيا على تلـك الغنـائم، فهى تتلفت الآن حولها بحثا وراء ما يعوض عليها خسارتها علما منها بأن فرنسا وألمانيا كليهما لن تعارضاها. واتصلت إنجلترا بروسيا فى ينـاير ١٨٩٨ حاملة بعض المقترحات للتفاهم مع إشارة خاصة إلى الصين وتركيا، ولكن روسيا بعد شىء من التأمل رفضت هذا العرض. وتقدمت وحدها فاستولت على بورث آرثر، وكشفت إنجلترا عن موقف عدائى مرير، وأرسلت احتجاجا شديدا، "واحتفظت بحريتها كاملة فى العمل" وتعويضا عن ذلك استولت إنجلترا على ميناء واى هاى واى Wei – Hai- Wei، وفرنسا على ميناء كوانج تشوان Kuangtchouan، ولو أن ايا منهما لم يكن تعويضاً مذكوراً، وكانت ألمانيا وروسيا أول من دخل الميدان، وحصلت روسيا أخيرا على ميناء فى المياه الدافئة[٩].

ورغبة إنجلترا فى الاحتفاظ بوادى يانج تسى كيانج Yang-Taze-Kiang كمجال اقتصادى لها، ولكنها أحست أن الضرورة تقتضى حتما وقبل كل شىء بوقف الضغط الروسى على الصين. وكانت روسيا مع تقدمها السياسى المستمر، ترهق الحكومة الصينية التعسة بكل ألوان الإلحاح فى طلب الامتيازات الاقتصادية والمالية، مما لا قبل لها برده إلا بمساندة دولة أوروبية كبرى. ولم تكن اليابان تبدو بعد شيئاً هاماً، وبدا أن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى تقوى على المساعدة. وبدأ لأسباب أخرى كذلك أن إنجلترا بدأت تحس أن "عزلتها"، لم تعد مثل روعتها. وعلى ذلك رضى لورد سولسبورى آخر الأمر بإجراء اتصالات غير رسمية بألمانيا. وقد قام بها جوزيف تشمبرلن خلال ١٨٩٨، وقد أخفقت، من جهة، لأن ألمانيا اشتطت فى مطالبها، ومن جهة أخرى، لأنها لم تزد أن تذهب مذهب إنجلترا فى قمع روسيا. والواقع أن هذه أول مرة تقدم فيها مثل هذه العروض لألمانيا. وربما كان عليها أن

---

[٩] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ج٢، ص٧١.

تقبل التحالف مع بريطانيا بثمن ما ولكنها أبت: وعقب إخفاق المفاوضات مباشرة وقع حادث سيىء الطالع: ذلك أن الإمبراطور، وهو فى طريقه إلى بيت المقدس للحج، ألقى فى دمشق خطابا أكد فيه لثلاثمائة مليون مسلم، أنه سيكون على الدوام صديقا لهم: وقد أثار هذا الخطاب اهتماما بالغا، لأن كثيرا من ملايين المسلمين كانوا تحت الحكم البريطانى والفرنسى والروسى[10].

وكانت إنجلترا تفاوض ألمانيا، على حين أنها كانت فى نزاع مع فرنسا، ذلك أن سير (لورد فيما بعد) هربرت كتشنر كان قد شرع جدياً ١٨٩٨ فى إعادة فتح السودان، وفى الثانى من سبتمبر هزم جيش الخليفة فى أم درمان، ودخل الخرطوم بعدها مباشرة، ثم سمع بأن حملة فرنسية قوامها ١٢٠ شخصا تحت إمرة كابتن مارشان Marchand وصلت فاشودة ورفعت عليها العلم الفرنسى المثلث الألوان، وفى١٩٠ من سبتمبر شخص كتشنر بنفسه إلى فاشودة، ولكنه لم يستطع أن يحمل مارشان على إنزال العلم أو التخلى عن مزاعمه، وانتقل النزاع من الخرطوم وفاشودة إلى لندن وباريس، وهنا وقعت الأزمة: وكان هانوتو وزير الخارجية الفرنسية (الذى استقال فى آخر يونية) قد بعث بحملة مارشان لتثبيت حق فرنسا فى الأراضى الداخلية الاستوائية فى السودان وفى أعالى النيل، وفى الأصل فى مديرية بحر الغزال، ومن العسير أن نتوقع من إنجلترا التى ضحت بالدم والمال لإعادة فتح السودان بقوة الجيش أن تنزل عن واحدة من أغنى المديريات لمرتاد فرنسى وفصيلة صغيرة، ومن ناحية أخرى كان من العسير على الفرنسيين أن يطووا العلم المثلث الألوان. ولم يكن يحسم القضية الآن إلا القوة أو التهديد بالقوة، فألقى لورد روزبرى Rosebery خطابا أوضح فيه أنه أثناء رياسته للوزارة، أعلنت إنجلترا أن أية دعوى من هذا القبيل تعتبر عملا غير ودى من جانب فرنسا، وقد كان هذا –

---

[10] جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ج٢، ص٧١-٧٢.

بالإضافة إلى الموقف الصلب الذي اتخذه لورد سولسبوري، أمرا قاطعا. وفي ٤ من نوفمبر أعلن السفير الفرنسي رسميا الجلاء عن فاشودة.

ومرت الأزمة، ومن الأهمية بمكان أن الخلاف قد أدى إلى وفاق. كانت روسيا وألمانيا قد رفضتا العرض الذي تقدمت به إنجلترا للتحالف ولكن فرنسا تجنبت الحرب معها. لقد كان هانوتو Hanotaux يكره إنجلترا، أما دلكاسيه Delcasse الذي كان مع ذلك يختال وسط الذل والمهانة، فقد كان لديه الشجاعة ليتحدث عن الحاجة إلى اتفاق ودي مع إنجلترا، واعترفت فرنسا - في منطق لا يلين - أنها لن تتدخل في أعالي النيل، وأنه من الأفضل تسوية خلافاتها مع إنجلترا. وأعرب دلكاسيه عن رغبته بالقول والفعل معا، فرقى إثنين من الدبلوماسيين الموالين وممن يكرهون ألمانيا: باربر Barrere الذي أرسله إلى روما، وكامبون Cambon الذي أرسله إلى لندن وكان على كامبون في ست سنوات، أن يكون المهندس الفرنسي في وضع تصميم الوفاق[11].

وفي أواسط ١٨٩٨ كان القيصر قد أصدر نداءه المشهور للسلام، الذي انتهى إلى مؤتمر لاهاى الأول للسلام ٠مايو - يوليه ١٨٩٩). وقد كان إخلاص القيصر نفسه أمراً مسلماً به عادة، ولو أن الساخرين ذهبوا إلى أن سوء حالة المدفعية الروسية جعلت من الأسلم التريث في التسليح، ولم تكن هناك على أية حال محاولة جدية للحد من التسليح، ذلك أن ألمانيا عارضته معارضة جبارة عندما اقترح هذا الحد، وبذلك أبطلت أي احتمال النجاح، ولكن إنجلترا بذلت في النهاية مسعى جباراً موفقاً لإنشاء هيئة للتحكيم. وقد عارضت ألمانيا ذلك حتى آخر لحظة، ولكن الإمبراطور بعد أن سلم في ا لنهاية، أشار إلى أنه لابد أن يعتمد - لا على التحكيم - ولكن على سيفه الحاد، في توفير الأمن لنفسه.

---

[11] جرانت، تمبرلي، المرجع السابق، ج٢، ص٧٢-٧٣.

وما كاد مؤتمر لاهاى يلتئم، حتى بدأت الحرب (اكتوبر) بين إنجلترا وبين جمهوريات البوير فى الترنسفال وولاية الأورنج الحرة، وكانت الحرب بين متصارعين غير متكافئين فى الموارد بحال من الأحوال، وقد بدا أن خسائر إنجلترا الفادحة فى ديسمبر ١٨٩٩ جعلت النجاح أمرا مشكوكا فيه. وكم ظهر من الكراهية لإنجلترا فى القارة، وبخاصة فى صحف هولنده وبلجيكا وفرنسا وألمانيا، ولكن المشكلة الأشد خطرا هى: هل تتدخل الآن ضد إنجلترا فى ١٨٩٩، ١٩٠٠ الدول الثلاث التى كانت تدخلت ضد اليابان ١٨٩٥؟ وكانت روسيا أشد عداوة، على العموم، وربما كان فى وزارة خارجيتها أفراد أمعنوا النظر فى التدخل. أما فرنسا فلا تستطيع التصرف بمفردها. وألمانيا، ولو أنها ترغب رغبة قوية فى الإفادة من مصائبهم إلا أنها من المؤكد لم تفكر فى أى عمل عدائى، وكانت تثنى من عزم الدول الأخرى على أية محاولة من هذا النوع[١٢].

وقام العاهل الألمانى بزيارة شخصية لإنجلترا فى نوفمبر ١٨٩٩، فألح عليه تشمبرلين مرة أخرى فى مشروع للتحالف، مقترحاً الولايات المتحدة طرفا ثالثا، ورفض الإمبراطور، وبالتالى أثار غضب الأمير ولى العهد (الملك إدوارد السابع فيما بعد). وكان الإمبراطور متقلبا لا يثبت على حال، فهو تارة يمد الحكومة البريطانية بخطة عسكرية لإخضاع البوير، وتارة يقول إن الوقت قد حان لعقد صلح معهم. ولا يكاد يكون من العدل القول بأنه كان يمثل السياسة الألمانية التى لم تكن عدائية ولا ودية حتى يتبين أن النصر حليف إنجلترا، وكان الجمهور فى ألمانيا فى صف البوير بشكل عام، وكانت الحكومة أحياناً تميل بأشرعتها فى اتجاه الريح الشعبية. ولكنها لم تأت عملا عدائيا سافراً. ومنذ أواخر ١٩٠٠ إلى ما بعدها كان شعور الإمبراطور نفسه ودياً، وعقد الصلح مع البوير فى مايو ١٩٠٢، وبذلك زال خطر التدخل.

---

(١٢) جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ج٢، ص٧٣-٧٤.

وكانت الحوادث فى الصين فى ١٩٠٠ سبباً فى عرض جديد تقدمت به إنجلترا لألمانيا. فقد قتل القنصل الألمانى فى الصين فى شهر يونيه،وكان ذا مقدمة لحصار المفوضات الأجنبية فى بكين، ثم حركة عداء سافرة ضد الأجانب (تشجعها الحكومة سرا) تعرف بثورة "المصارعين Boxer" وبعد طول عناء تقدمت قوة دولية وخلصت المفوضيات الأجنبية فى بكين. وقد عين قائدا عاما لهذه القوة الكونت والدرسى Waldersee الألمانى، وفرض على الصينيين تعويضات وإهانات كثيرة. وكان إمبراطور ألمانيا أشبه شيء برجل يدبر عملية انتقام حين كان يحرض الفرقة الألمانية على الانقضاض، انقضاض الوحوش على الصينيين[١٣].

أما إنجلترا، التى تبدو أن نظرتها إلى الموقف كانت هادئة، فقد سعت إلى توجيه لمصلحتها بعقد اتفاقية مع ألمانيا، وقد مهدت هذه الاتفاقية (التى وقعت فى ١٦ من أكتوبر ١٩٠٠) للعمل المشترك للدولتين للإبقاء على "أوضاع الأرض" فى الصين، وعلى سياسة "الباب المفتوح" فى التجارة، حيثما يمكن استخدام نفوذهما. ولم تكن بنود الاتفاق واضحة. ولكن يبدو أن إنجلترا قد وقع تفكيرها أنها بذلك قد أمسكت آخر الأمر بألمانيا لتساندها ضد العدوان الروسى فى شمال الصين. وإذا كان هذا مبلغ تفكيرها، فقد أفاقت على الحقيقة التى تكشفت لها حين أعلن بيلوف بصراحة فى ١٥ من مارس ١٩٠١ أن الاتفاق الإنجليزى الألمانى يطبق على وادى نهر يانج تسى كيانج لا على منشوريا.

ولم يكن هذا التصريح ليساعد على تقدم المفاوضات التى كانت قد جرت مرة أخرى بين إنجلترا وألمانيا. وكان يتولى لورد لانسدون Lansdowne (الذى خلف سالسبورى فى الخارجية) وجوزيف تشمبرلين الذى لا يكل ولا يمل، ويبدو أن

---

[١٣] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ج٢، ص٧٤-٧٥.

ألمانيا كانت ترغب فى ضم إنجلترا إلى التحالف الثلاثى القائم فعلا (ألمانيا، النمسا، إيطاليا) ولكن لا نسدون من جهة أخرى كان يفضل اتفاقية أضيق حدودا. وكانت إنجلترا عند ذلك قد ضاقت ذراعاً، فأوضحت لألمانيا تمام الإيضاح أنها فى حالة فشل هذه المفاوضات لابد أن تولي وجهها شطر فرنسا وروسيا، ولكن هذا الإنذار اعتبر "خدعة". ورفضت ألمانيا مرة أخرى العرض السحرى. وما جاء شهر ديسمبر ١٩٠١ إلا وقد تبددت كل فرصة حقيقية لنجاح المفاوضات[١٤].

ولما كان قد ثبت لإنجلترا أن ألمانيا كالقصبة المرضوضة لا يمكن الاعتماد عليها، بات على إنجلترا أن تفتش من جديد عمن يستطيع موازنة النفوذ الروسى شمال الصين. وفى تلك الآونة جددت اليابان رغباتها وتوسلاتها إلى إنجلترا، وقد سخرت ألمانيا من المفاوضات. وفى سبعة شهور انتهى الدبلوماسيون الشرقيون إلى الفوز، ودون علم البرلمان أو الشعب وقع لورد لانسدون فى ٣٠ من يناير ١٩٠٢ معاهدة التحالف مع اليابان. وقد نشرت على الفور، وها هى ذى شروطها يعترف كل من الطرفين بالأمر لواقع فى شرق آسيا وخاصة فى كوريا والصين، وتتعهد بريطانيا بالتزام الحياد إذا وقعت الحرب بين روسيا واليابان، ولكن إذا تدخلت دولة أخرى (يقصد فرنسا) لمساعدة روسيا (أو أية دولة أخرى فى حالة حرب مع اليابان) فقد تعهدت إنجلترا بالتدخل لمساعدة حليفتها بقوة السلاح. على أن يظل هذا الترتيب سارى المفعول لمدة خمس سنوات.

وقد بدأت بهذه المعاهدة فترة تاريخية بالغة الأهمية فى مختلف النواحى. أما فى ما قصدته اليابان من ورائها فلا بد أن يظل سراً غامضاً إلى حد ما، ولكن يبدو أن الدبلوماسيين الإنجليز ظنوا أنهم قادرون على وقف اليابان عند حد ومنعها من الاعتداء على روسيا، وما أيسر أن نرى الآن أن هذا كان خطأ فاحشا. ولسوف

---

[١٤] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ج٢، ص٥٧٥-٦٧٦.

تستكمل اليابان تنظيم جيوشها وبحريتها فى أواخر ١٩٠٢، وكان على التحالف مع إنجلترا أن يكون- وقد كان - سبيلا لتمكينها من مهاجمة روسيا حين تسنح الفرصة الملاءمة لها. ولم يكن هذا خطأ بريطانيا الوحيد، ويبدو أن مفاوضيها اعتقدوا أن أثر هذه المعاهدة محصور لن يتخطي الحدود المحلية للصين. ولكن دبلوماسية الدول الكبرى تنتظم العالم كله فى عملها ومداها، وقد ظهر أن تحالفا بشأن بحر اليابان قمين بأن يثير المتاعب فى البحر المتوسط وبحر الشمال. ومهما يكن من أمر فإن موقف إنجلترا لم يكن محفوفاً بالخطر، كما كان يبدو. حقاً أنها لم تكن على علاقات طيبة مع روسيا ومع فرنسا، ولكنها لم تكن كذلك مع ألمانيا حينذاك: وحتى بعد التحالف مع اليابان كانت إنجلترا تستطيع الانضمام إلى أى من الحلفين الثلاثى أو الثنائى. ويبدو أن ألمانيا كانت لا تزال تتوقع أو تأمل فى انضمامها إلى الحلف الثلاثي، ولكن الذى حدث فعلا أن إنجلترا انضمت نهائية إلى كل من روسيا وفرنسا فى وفاق، لا حلف.

وتبين الساسة الإنجليز، عند توقيع التحالف الإنجليزى اليابانى، شيئاً واحداً على الأقل من وضح النهار، لقد تبينو أنهم خرجوا على أسلوب "العزلة المجيدة"، وأدركوا انهم حطموا تقليد كاننج القديم الذى قال بالابتعاد عن الأحلاف وتجنب الضمانات. وقد تجاسروا على الإقدام على هذا العمل ولذلك استحقوا تقدير بلادهم، ومن الحمق أن نؤاخذهم على قصر نظرهم، فهذا نقص يعانى منه كل الساسة. ويجب أن يحمدوا على اتخاذهم خطوة عرفوا أنها خطوة جريئة وأنها انسلاخ عن الماضى. فما أجرأ الخطوة وما أعظم التحلل من الماضى الذى لم يعملوا به قطعاً. واقل ما يقال إنهم أوتو الجراءة وإنهم فعلوا شيئا[١٥].

---

[١٥] جرانت، تمبرلى، المرجع السابق، ص٧٧-٧٨.

الوفاق الودى البريطانى الفرنسى ١٩٠٤

حقيقة كان الحلف اليابانى – البريطانى، كما كانت حادثة فاشودة إذلالا لهذا الطرف من الحلف الثنائى أو ذاك. إلا أن نتائجها أدت إلى اقتراب بريطانيا من الحلف الثنائى. وذلك يرجع إلى عدة أسباب وتطورات:[١٦]

١-كان واضحا أن ألمانيا تثير الكثير من المتاعب والمخاوف والارتباك فى الدوائر السياسية البريطانية بسبب الجهود الضخمة التى كان يبذلها القيصر ولهلم الثانى لإنشاء أسطول ألمانى حربى قوى يضارع – إن أمكن – الأسطول البريطانى، الأمر الذى يهدد بتحطيم نظرية التفوق البريطانى البحرى الساحق.

٢-كانت الدبلوماسية الألمانية – رغم المعاهدة البريطانية الكويتية لسنة ١٨٩٩ – نشطة للغاية من أجل تنفيذ خط حديد برلين – بغداد ذلك الخط الذى كان فى نظر الإنجليز رأس حربة مصوبة إلى الهند البريطانية.

٣-تصاعدت المضايقات الألمانية لحكومة الاحتلال البريطانى فى مصر للدرجة التى جعلت الإنجليز مضطرين إلى الحصول على تأييد فرنسا لمشروعات بريطانيا الاستعمارية فى مصر والسودان.

٤-كانت بريطانيا تريد أن تتجنب صداماً مع فرنسا فى المناطق التى كانت تعتبرها الأخيرة مجالا حيويا لها، مثل (المغرب)، فمع أن النفوذ البريطانى كان ينمو بسرعة هناك – أى فى المغرب – كانت الدوائر السياسية البريطانية تتحفظ فى الاندفاع فى هذا التيار توقعا لمطالبات شديدة فرنسية فى (المغرب).

٥-انعكست مشاعر التقارب بين الطرفين على طبيعة العلاقات الودية بينهما، فقد ساعدت الزيارة التى قام بها ملك إنجلترا (إدوارد السابع) لفرنسا فى خلق جو من الألفة والتعاطف بين الصحافة الفرنسية والبريطانية وبين الشعبين.

---

[١٦] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، ص٣٤٩.

٦-كان هانوتو Hannotaux – وزير فرنسا – معارضاً للتقارب الفرنسي البريطاني، ولم يلبث التعديل الوزارى أن أبعده وتولى الوزارة (ديلكاسيه) Delcasse الداعية الأول للتقارب مع بريطانيا. وما كان ليتمكن من تحقيق هذا التقارب وقطف ثماره إذا كانت فى الوزارة البريطانية معارضة لمثل هذا التقارب ولكن وزارة بلفور Balfour كانت مقتنعة جداً بقيمة هذا التقارب فى هذه الظروف.

اتجه الطرفان الفرنسى والبريطانى إلى الدخول فى مفاوضات تمهيدية حددت المشكلات الرئيسية المعلقة، وانتهت هذه المفاوضات بعقد الوفاق الودى فى ٨ إبريل نيسان ١٩٠٤[١٧].

تضمن هذا الوفاق مواد علنية، وأخرى سرية. وكان هناك اعتقاد عام بأن الدول الأوروبية الكبرى الديمقراطية مثل بريطانيا لا تجيز برلماناتها مثل هذه الاتفاقات السرية. ولكن الحكومة البريطانية والبرلمان البريطانى كانا من المرونة واتساع الأفق وبعد النظر السياسى للدرجة التى تمكنهم من الإفتيات على القانون الدولى من أجل الدفاع عن مصالح بريطانيا الذاتية.

نصت المادة الثانية من هذا الاتفاق على اعتراف الحكومة البريطانية بان "لفرنسا – بصفة خاصة ولكونها دولة متاخمة للمغرب ... أن تسهر على الاستقرار فى هذا البلد، وأن تقدم له مساعدتها بالنسبة لكل الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تحتاجها". وتعلن أنها لن تعرقل عمل فرنسا فى هذا الصدد ووافقت الدولتان على احترام حقوق أسبانيا فى ما عرف فيما بعد باسم (الريف) الأسبانى، وعلى عدم تسليح الساحل المغربى المواجه لجبل طارق.

وبالنسبة لمصر. أعلنت بريطانيا أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسى وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لن تعرقل عمل إنجلترا فى مصر ولن تطلب تحديد أجل الاحتلال الإنجليزى.

---

[١٧] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، المرجع السابق، ص٣٥٠.

وسويت كذلك المشكلات بين الدولتين في كل من سيام ومدغشقر وغمبيا والنيجر ونيوفوندلاند، واتفق على أن يكون وادى نهر ميكونج وجبال رانج حدا فاصلا بين الهند الصينية الفرنسية وبورما والملايو البريطانيين.

كانت الحكومة الألمانية قد أدركت خلال ١٩٠٤ - ١٩٠٥ أن شيئاً خطيراً ضدها يدبر بين فرنسا وبريطانيا وعمل القيصر فى اتجاهين:-

أ- محاولة كسر الحلف الثنائى الفرنسى الروسى ومنتهزا فرصة الهزيمة التى منيت بها روسيا أمام اليابان.

ب- إحراج فرنسا فى أزمة دولية حتى يكتشف مدى قوة العلاقة الجديدة بينها وبين بريطانيا، ولقد أعطته المشكلة المغربية فرصة لذلك.

فبالنسبة لروسيا عمل القيصر ولهلم الثانى على إقناع القيصر (نقولا الثانى) بقيمة عقد معاهدة دفاعية بين روسيا وألمانيا. وحيث أن ولهم الثانى يدرك أن الوقت ضد خطته أسرع بزيارة القيصر الروسى فى (بيوركو) Bijrko[١٨] فى يوليو تموز ١٩٠٥، وحصل على توقيعه على المعاهدة. إلا أن سياسى روسيا رفضوا هذه المعاهدة التى عقدت من وراء ظهورهم، للأسباب التالية:

١- أن هذه المعاهدة تقتضى على الحلف الثنائى مع فرنسا وتفقد روسيا بالتالى قوة الضغط على الحلف النمساوى - الألمانى.

٢- ستصبح كلمة روسيا فى البلقان أضعف من كلمة النمسا.

٣- ستنطلق ألمانيا بقوة أكبر فى مشروعاتها شبه الاستعمارية فى الدولة العثمانية تلك الدولة التى تعتبرها روسيا مجالها الحيوى.

---

[١٨] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، المرجع السابق، ص٣٥٢.

كانت الحكومة الألمانية خلال عام ١٩٠٤/١٩٠٥ قد أدركت أن شيئا يدبر في اتجاه المغرب إذ كانت مخططات فرنسا تؤكد أنها تعمل على إبعاد ألمانيا عن المغرب، رغم تأكيدات فرنسا الملتوية لألمانيا بأن سياسة "الباب المفتوح" ستظل سارية المفعول في المغرب. والحقيقة هي ان فرنسا كانت تسير حثيثاً في سياسة احتكار النفوذ والتسلط على المغرب والتفوق على التجارة الألمانية هناك. وأرادت الحكومة الألمانية أن تضع فرنسا في موقف حرج تضطر فيه إلى كشف نواياها بالنسبة للمغرب وطبيعة علاقاتها الأكثر من ودية مع بريطانيا. لعلها تكسب من وراء ذلك استمرار سياسة الباب المفتوح أو موضع قدم ألماني في المغرب الواقع على الطريق إلى المستعمرات الألمانية في إفريقية. وذهب القيصر ولهلم الثاني في هذا الصدد إلى القيام بزيارة لطنجة (مارس ١٩٠٥)، وهناك أعلن رغبته في أن يظل السلطان مستقلا في نفس الوقت الذي يظل فيه باب المغرب مفتوحا أمام جميع الدول. ثم طالبت الحكومة الألمانية بعقد مؤتمر دولي لبحث المغرب (أبريل – ١٩٠٥) وأدت معارضة (دلكاسيه) لفكرة عقد المؤتمر – التي لقيت ترحيباً في معظم الدوائر السياسية الأوروبية وفي واشنجتن أيضا – إلى استقالته ولكن بعد أن أنجز الوفاق البريطاني الفرنسي الذي استمر الذي بشكل أو بآخر حتي وقتنا هذا[١٩].

دارت مفاوضات متعددة الأطراف قبل عقد المؤتمر بين فرنسا وألمانيا، وفرنسا وأسبانيا، وفرنسا وإنجلترا. وواضح من هذا أن الدبلوماسية الفرنسية نشطت إلى أقصى قدراتها لمواجهة الضغوط الدولية والألمانية على فرنسا.

لقد كان هذا أول اختبار لمدى صلابة الوفاق الو، ي الفرنسي البريطاني فوقفت بريطانيا بقوة إلى جانب فرنسا، في وقت كانت فيه التهديدات الألمانية وصلت إلى الحد الذي قال فيه مسئولون ألمان أنه لو عبرت الجيوش الفرنسية الحدود الجزائرية – المغربية فستعبر الجيوش الألمانية الحدود الفرنسية.

---

[١٩] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٣٥٢.

استطاعت الدبلوماسية الفرنسية – قبل عقد مؤتمر الجزيرة – أن تحصل من ألمانيا على اعتراف بمصالح خاصة فرنسية في المغرب في مقابل اعتراف فرنسا باستقلال المغرب، واتخاذ التدابير اللازمة لإدخال الإصلاحات إلى الحكومة المغربية، وخاصة فيما يتعلق بالشروطة والمالية.

واخيرا اتفق على عقد المؤتمر في أوائل ١٩٠٥ وتحدد يوم الافتتاح في ١٦ يناير.

وتضمنت الكلمة التي ألقاها رئيس المؤتمر الدوق دالمودوفار – عند افتتاح المؤتمر الأهداف الثلاثة التالية[٢٠]:-

١- سيادة السلطان.

٢- عدم الافتيات على أرض الدولة المغربية.

٣- سياسة الباب المفتوح في المغرب أمام كافة الدول الأوروبية ومع هذا انتهى المؤتمر إلى نتائج معاكسة وضد مصالح ألمانيا وأهدافها بالذات:

أ. فقد دفع السلطان عرشه ثمنا لهذا التدخل الدولي في أمور بلاده.

ب. احتكرت فرنسا التسلط العسكري والاقتصادي في المغرب تاركة الريف (لأسبانيا)، ومهد كل هذا لفرض الحماية الفرنسية على المغرب في ١٩١٢.

والسبب في خروج ألمانيا مهزومة من هذا المؤتمر يرجع إلى أن حلفاء ألمانيا لم يقفوا إلى جانبها بالصلابة اللازمة فقد كانت حكومة النمسا مترددة، وكانت إيطاليا تحث على السلام والتفاهم، وبالتالي خرجت دولتي الوفاق الودي – أقوى مما كانتا عليه قبل المؤتمر.

---

(٢٠) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٣٥٢.

كما كان الاتجاه العام فى أوروبا الغربية ضد ألمانيا حتى بدت هذه شبه معزولة سواء قبل المؤتمر أو خلاله أو بعده. وكان انضمام بريطانيا – على أساس الوفاق الودى – إلى دولتى التحالف الثنائى (روسيا وفرنسا) قد جعل حكومة بريطانيا تدرك ذلك – تشتطان فى العمل ضد ألمانيا.

ولم تتورع بريطانيا عن تقديم المغرب إلى فرنسا بعد أن رفضت ألمانيا هذا العرض من قبل. فى وقت كانت فيه أوروبا تقبل – وبكل بساطة – تسوية مشكلاتها الدولية على حساب البلاد العربية حتى لا تتورط فى حرب لا تعرف عواقبها.

وأدى ذلك كله إلى نتائج ستكون خطيرة على مستقبل أوروبا ومسئولة عن الإسراع فى وقوع الحرب العالمية الأولى:

١–لقد سبق أن عقدت عدة مؤتمرات دولية – وبالأخص مؤتمر برلين ١٨٧٨ – لعلاج الصدمات الأوروبية الناتجة عن التنافس فى اقتناص أجزاء من الدولة العثمانية، ولكن ظهور التكتلات الأوروبية جعل قرارات توصيات هذا المؤتمر لا يعتد بها إلا إذا سارت وفق الأهداف الخاصة لدول هذه التكتلات وحيث أن مصالح الكتلتين كانت متضاربة سارت الأمور نحو فكرة استخدام التهديد باللجوء إلى القوة عند العمل على تغيير الوضع الراهن Status quo فى أية بقعة من العالم لمصلحة إحدى التكتلات[٢١].

وفى مثل هذه الظروف يصبح تغيير الوضع الراهن انتصارا لطرف وهزيمة لطرف آخر، وقد تتكرر مثل هذه الأحداث، وقد يتحمل هذا الطرف أو ذاك نموا استعماريا أو اقتصاديا فى هذه المنطقة من العالم أو استعماريا أو اقتصاديا فى هذه المنطقة من العالم أو تلك، ويمكن أن يتقبل هزيمة سياسية مرة أو أكثر من مرة. إلا أن التطورات تسير فى اتجاه تصعيد الأزمات وبالتالى فى اتجاه الحرب. ولقد كانت

---

[٢١] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٣٥٥.

فرنسا تعمل لهذا الهدف النهائي الذى كان فى نظرها الوسيلة الوحيدة لاسترداد الألراس واللورين، وكانت بريطانيا عندما عقدت وفاقها مع فرنسا فى ١٩٠٤ ندرك أن ميزان القوى قد اختل بشكل صارخ ضد ألمانيا. وأن التطورات ستؤدى إلى حرب إذا استمرت ألمانيا في سياسة الحصول على مكانة استعمارية وعسكرية موازية على الأقل لبريطانيا، وكسر احتكار التفوق البحرى والاستعمارى البريطانى. وكانت الحكومة والشعب البريطاني يرى – عن إيمان حقيقى بمصلحته – أن لا حق لأية دولة في الوصول إلى قوة بحرية مماثلة لها، وكان القيصر الألماني وحكومته يدركون أن الشعب الألمانى صاحب رسالة فى هذا العالم ويجب أن يصبح ذروة القوة لا دفاعاً عن نفسه وكسرا للاحتكار البحرى والاستعمارى البريطانى فقط بل كذلك لإعطاء الشعب الألماني حقه في توجيه تاريخ العالم.

٢–حصلت ألمانيا على مشاركة فى توجيه أمور المغرب الاقتصادية إلا أن الأمور كانت تسير نحو انفراد فرنسا بالمغرب، دون أن تتمكن ألمانيا من منعها من ذلك إلا بالحرب ولكن كانت كفه فرنسا هى الراجحة إذ كان وقوف بريطانيا إلى جانبها قد قلب موازين القوى ضد ألمانيا وجعل الأخيرة هى المعزولة لا فرنسا[٢٢].

وكانت محاولة ولهلم الثانى كسر الحصار الذى ضرب على ألمانيا عندما زار القيصر الروسى فى (بيوركو) هى الأخيرة، فى هذا الصدد، وانتهت بفشل ذريع وبتماسك اشد بين روسيا وفرنسا خاصة وأن الأخيرة. قدراتها المالية فى سد حاجات روسيا إلى رءوس الأموال الملحة. واستخدمت قدراتها الدبلوماسية فى التقريب بين روسيا وإنجلترا. الأمر الذى مهد للوفاق الروسى – البريطانى فى ١٩٠٧[٢٣].

---

[٢٢] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٣٥٦.

[٢٣] عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٣٥٧.

الفصل الحادى عشر

الأزمات السياسية فى أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى

(١٩٠٥ - ١٩١٣)

الأزمات السياسية فى أوروبا
قبل قيام الحرب العالمية الأولى
(١٩٠٥ - ١٩١٣)

تميزت السنوات العشر التى مضت بين عقد الوفاق الودى سنة ١٩٠٤ وقيام الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ بقيام سلسلة من الأزمات الخطيرة، كادت كل واحدة منها تجر الدول الكبرى جميعا إلى الاشتباك فى الحرب، وقد قامت هذه الأزمات على التوالى فى سنة ١٩٠٥ و١٩٠٨و١٩١١و١٩١٤ بين كل أزمة وأخرى ثلاث سنوات تقريبا. وقد ثارت الأزمتان الأولى والثالثة من أجل مشكلة مراكش، وثارت الثانية والرابعة من أجل البوسنة.

١- أزمة مراكش الأولى:

كانت فرنسا قد اطمأنت إلى أن الوفاق الودى بينها وبين إنجلترا سوف يطلق يدها لإتمام مشروعاتها بضم مراكش إلى إمبراطوريتها الإفريقية، وكان دلكاسيه، وزير الخارجية الفرنسية، قد سبق له أن فاوض أسبانيا بشأن تقسيم مراكش، وقنعت أسبانيا بالاستيلاء على الشريط الساحلى من مراكش الذى يواجه الساحل الأسبانى عند جبل طارق وهو إقليم الريف، كذلك اتفقت فرنسا مع إيطاليا على ألا تعارضها فى نظير ألا تقف فرنسا فى سبيلها إن دخلت إيطاليا فى حرب مع تركيا تنتزع طرابلس. ولم يبق أمام فرنسا سوى معارضة ألمانيا التى كانت تهتم بمراكش، وتعمل على منع فرنسا من بسط سيطرتها عليها، وبينما كان الإمبراطور ولهلم الثانى، فى رحلته البحرية فى مياه البحر المتوسط، إذا به يقطع رحلته، وينزل فى ميناء طنجه ويخطب هناك خطبة خطيرة تناقلتها صحف العالم فى الحال، خاطب فيها سلطان مراكش مؤكدا له أن ألمانيا تعتبره سلطانا مستقلا ثم أضاف قوله "إنى أمل أن

تحافظ مراكش فى ظل هذا الاستقلال على سياسة الباب المفتوح لجميع الأمم على السواء، فلا يكون لدولة فيها امتياز على أخرى، فلا احتكار ولا استعمار. ولتكن السياسة التى تتبعها مراكش مع الدول أساسها المساواة المطلقة".

وهكذا كانت كلمة الإمبراطور الألمانى نذيرا بان ألمانيا لا تعترف بما جاء فى اتفاقية سنة ١٩٠٤، وعلى الأخص فيما يختص بإطلاق يد فرنسا فى مراكش. ثم اقترح الإمبراطور بعد ذلك رسميا، عقد مؤتمر دولى لبحث مسألة مراكش، إلا أن "دلكاسيه" وزير الخارجية الفرنسية عارض ذلك الاقتراح، مطمئنا إلى تأييد إنجلترا، ومع ذلك فلم تبد إنجلترا أى اعتراض على عقد المؤتمر ورأى دلكاسيه أن رئيس الوزارة الفرنسية – المسيو روفيير Rouvier- وبقية الوزارة الفرنسيين قد رضخوا للاقتراح الألمانى، فاضطر إلى الاستقالة. وكانت قبول الدول عقد ذلك المؤتمر انتصارا سياسيا لألمانيا، ومرد ذلك إلى ضعف دول الوفاق فى ذلك العام بالذات، إذ كانت روسيا قد منيت بالهزيمة فى حربها ضد اليابان، وخرجت من حربها عاجزة كل العجز على أن تقوم بتقديم أى معونة لحليفتها فرنسا وكانت إنجلترا فى الوقت نفسه لا ترغب فى قيام الحرب من أجل مراكش، أما فرنسا ذاتها فلم تكن من القوة الاستعداد بحيث تعتمد على نفسها.

مؤتمر الجزيرة: Algeciras (١٩٠٦):

تقرر عقد المؤتمر فى الجزيرة، هى بلدة فى أسبانيا بالقرب من جبل طارق، ولم يكن غرض ألمانيا من عقد هذا المؤتمر، إبعاد فرنسا عن مراكش فحسب، بل كان غرضها أيضا جس نبض الوفاق الودى الذى عقد بين إنجلترا وفرنسا، ولكن تبين لها أن إنجلترا قد وقفت إلى جانب حليفتها فرنسا، كذلك أيدتها حليفتها روسيا،وجارتها وشريكتها أسبانيا، كذلك أيدتها إيطاليا لأنها كانت قد عقدت مع فرنسا معاهدة الحياد، ولم يقف فى صف ألمانيا فى المؤتمر سوى حليفتها النمسا.

وقد انتصرت فرنسا سياسيا فى هذا المؤتمر، إذ تقرر إنشاء قوة بوليسية فى مراكش، يعهد بأمر تنظيمها إلى فرنسا وأسبانيا، كل فى نفوذها وأن تعمل كل منهما على تنفيذ ما تراه من الإصلاحات. وتأسيس بنك تشرف عليه الدول الأربع: فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وألمانيا، وأن تدير فرنسا وحدها شئون الجمارك فى الجزء المجاور لبلاد الجزائر، وتدير أسبانيا ما يقع منها فى منطقة (الريف).

وهكذا خرجت ألمانيا من ذلك المؤتمر فاشلة حانقة، ولم تنجح السياسة التى رسمها المستشار الألمانى (بيلوف Bulow) الذى حاول حل الوفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا، بما أشار به على الإمبراطور ولهلم الثانى من النزول فى طنجه وتصريحه بأن ألمانيا لا تستطيع أن تحتمل اتفاق الدولتين على إطلاق يد فرنسا فى مراكش. ثم فشلت ألمانيا فى مؤتمر الجزيرة الذى دعت إلى عقدة ظنا منها أن تلك الدول لم تصل إلى اتفاق يؤيد بسط النفوذ الفرنسى على مراكش.

فشل معاهدة بجركو Bjorko (يوليو ١٩٠٥):

وأخيرا فشلت ألمانيا فى محاولة الاتفاق مع روسيا لتبعدها عن حلف الوفاق، وقد قامت بتلك المحاولة عندما تقابل إمبراطور ألمانيا ولهلم الثانى، وقيصر روسيا نيقولا الثانى على يخته الذى كان يرسو أمام بلدة (بجركو) Bjorko الواقعة على خليج فنلنده واعتقد ولهلم الثانى أن تحطيم الأسطول الروسى فى مياه الشرق الأقصى وخروج روسيا منهزمة أمام اليابان سيضطرها إلى التقرب من ألمانيا، وبالتالى تستطيع الأخيرة أن تحل التحالف الثنائى بين روسيا وفرنسا، وفعلا أمكن لإمبراطور ألمانيا أن يقنع القيصر بتوقيع اتفاق تتعهد فيه روسيا وألمانيا أن تضع كل منهما جيشها وأسلحتها تحت تصرف الأخرى إن تعرضت إحداهما لهجوم إحدى الدول الأوروبية، وألا تعقد إحداهما صلحا منفردا.

وظنت ألمانيا أنها كسبت روسيا، وأبعدتها عن دولتى الوفاق، إلا أن أملها سرعان ما خاب، إذ ما لبث وزراء قيصر روسيا أن أقنعوه بأن يعلن إلغاء معاهدة Bjorko، ثم طلبت وزارة الخارجية الروسية من سفيرها فى برلين أن يبلغ الحكومة الألمانية استحالة تنفيذ تلك المعاهدة لمناقضتها للمعاهدة الروسية الفرنسية.

وقد اعترفت فرنسا لروسيا بجميلها هذا، فأقرضتها ما كانت تحتاج إليه من المال، لتستعين به على إصلاح شئونها الاقتصادية وانتهزت الفرصة للتقريب بين روسيا وإنجلترا، فتم بينهما -الاتفاق المعروف فى سنة ١٩٠٧ بشأن إيران على أن يكون لروسيا منطقة نفوذ فى الشمال، ولإنجلترا منطقة نفوذ فى الجنوب.

٢- أزمة البوسنة سنة ١٩٠٨:

أشرنا من قبل إلى إقدام النمسا على ضم البوسنة والهرسك نهائيا إلى الإمبراطورية النمساوية فى سنة ١٩٠٨، وهما الولايتان اللتان كانت تديرهما بناء على ما قرره مؤتمر برلين ١٨٧٨. وقد أثار الحادث غضب الصربيين الذين رأوا نحو مليون من بنى جنسهم تضمهم النمسا بجرة قلم، فى الوقت الذى كانوا يؤملون فيه ضم البوسنة والهرسك إلى صربيا لإقامة الوحدة اليوغسلافية المنشودة. على أن صربيا لم تكن فى ذلك الوقت تستطيع أن تمنع الكارثة، فهى لا تستطيع الاستنجاد بروسيا التى تدعى زعامة السلاف، لأن روسيا كانت لا تزال فى أعقاب هزيمتها فى الحرب اليابانية، كذلك أعلنت إنجلترا أنها لا تفكر فى احتمال نشوب حرب عامة من أجل المسألة البلقانية. وكانت ألمانيا- فى الوقت نفسه - قد أعلنت أنها تؤيد حليفتها النمسا وأنها لا تتأخر عن معاونتها عسكريا فى حالة الحرب. ولم يستطيع الصربيون أن يواصلوا معارضتهم أمام ما سمعوه من عزم النمسا على تنفيذ قرارها بكل ما فى وسعها من قوة، حتى اشتهر عن الأرشيدوق فرانز فرديناند Franz Ferdinand ولى عهد النمسا وكونرادفون هو تزندورف Hotzendorf قائد

القوات النمساوية، بأنهما يفضلان الإسراع في مهاجمة صربيا "ومحوها من الخريطة الأوروبية".

سكتت صربيا على مضض ولكن روح القومية ازدادت اشتعالا، نشأت الجمعيات السرية للعمل على تحقيق مشروع صربيا الكبرى، واستحكم العداء بين الصربيين والنمساويين. وعزمت النمسا على التخلص من صربيا عندما تسنح الفرصة، ونشط سفيرها في بلغراد – عاصمة صربيا – لجميع الوثائق التى تبرر القيام بالهجوم ولكن لم يتم العدوان فى ذلك العام، ولعل ذلك مرده إلى ما تبين من أن ألمانيا – على الرغم من تصريحها بتأييد حليفتها – أظهرت أنها لا تتحمس لدخول الحرب من أجل مسألة صربيا.

السباق البحرى:

وفى أثناء تلك الحوادث التى كانت تجرى فى البلقان كان السباق البحرى والتنافس العسكرى قد بلغ أشده بين بريطانيا وألمانيا، بعد أن فشلت الأولى فى الوصول إلى اتفاق مع الثانية للحد من التسلح، لأن ألمانيا كانت تعمل على إتمام برنامجها البحرى فى سرعة وعزم. وبلغ انزعاج الإنجليز مبلغه فى سنة ١٩٠٩ عندما نادى كثير من الكتاب بضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة قبل أن يصبح الأسطول الألمانى أقوى من الأسطول الإنجليزى. ولم تجد الحكومة بدا من الإستجابة لهذا النداء على الرغم من معارضة رجال الاقتصاد والزعماء الاشتراكيين الذين كانوا يريدون توفير المال للإصلاح الداخلى المطلوب، ولكن الحكومة رأت أن تتخذ خطوة حاسمة لتقوية الأسطول الإنجليزى، واستطاعت أن تصل إلى تقويته أيضًا من الناحية الفنية فصنعت عددا من المدرعات التى يطلق عليها الدردنوت وهو ذلك النوع من السفن الحربية الكبيرة التى كان من الصعب على ألمانيا أن تستفيد منه فى مياهها، إذ كان لابد من مرورها فى قناة كييل، والواقع أن قوة الأسطول الألمانى

كانت تتوقف على سهولة انتقال سفنه بسهولة من البحر البلطيقى إلى بحر الشمال، فكان على ألمانيا إذا أن تقوم بعملية توسيع تلك القناة مما استغرق عدة سنوات، ولعل ذلك كان سببا فى أن ألمانيا لم تشجع النمسا على مهاجمة صربيا قبل الاستعداد الكامل ولم يتم توسيع قناة كييل إلا فى يونيه سنة ١٩١٤، وفى الشهر الثانى مباشرة أرسلت النمسا إنذارها إلى صربيا، وكان ذلك بداية قيام الحرب.

ولم تكن إنجلترا بغافلة عما يحدث فى البحرية الألمانية، ولذلك قررت سنة ١٩٠٩ بناء أربع مدرعات كبيرة، وأخذت الصحافة والرأى العام فى حث الحكومة على مضاعفة العدد. فاستجابت لطلب الشعب.

وفى سنة ١٩١١ حدثت الأزمة الثالثة:

حادث أغادير Agadir سنة ١٩١١:

ظهرت فى جو السياسة الأوروبية أزمة أخرى بسبب ازدياد التدخل الفرنسى فى مراكش، وذلك على إثر قيام حروب داخلية بسبب ثورة أحد الأمراء على مولاى عبد الحفيظ سلطان مراكش، فقد استنجد السلطان بفرنسا لترسل إليه نجده فرنسية، فانتهزت فرنسا الفرصة وأرسلت حملة حربية فرنسية إلى "فاس" وكان ذلك فى ربيع عام ١٩١١م.

ولما سمعت ألمانيا بإيفاد تلك الحملة هاجت وأرسلت فى يوليه سنة ١٩١١ طرادا ألمانيا إلى أجادير على ساحل مراكش المواجه للمحيط الأطلنطى بحجة حماية المصالح الألمانية التجارية من عدوان العصابات الا راكشية المسلحة ولكنها كانت فى الواقع تقصد من إرسال الطراد الحربى إلى القيام بمظاهرة بحرية ردا على أطماع فرنسا فى مراكش.

وكان لتلك المظاهرة الألمانية البحرية رد فعل عاجل فى باريس، ولندن وروما. وظل شبح الحرب ماثلا عدة أسابيع، وقفت خلالها إنجلترا تؤيد فرنسا، وألقى

لويد جورج خطبة خرج عنها عن حدود وظيفته كوزير للمالية لا الخارجية. وأنذر فيها الحكومة الألمانية، بأن إنجلترا لن تقف ساكنة إن وقعت الحرب، وإنها لن تتخلى عن حليفتها فرنسا. وبعد المساومة اكتفت ألمانيا بأن ترضى بضم جزء صغير من الكونغو الفرنسى إلى أملاكها فى أفريقيا فى مقابل وضع مراكش تحت نفوذ فرنسا وحدها دون سائر الدول وبعد مضى عام واحد اتفقت فرنسا مع السلطان مولاى عبدالحفيظ على أن يقبل حماية فرنسا لمراكش، ماعدا طنجه والمنطقة الأسبانية فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢.

بهذا انتهت مشكلة مراكش وخرجت ألمانيا منهزمة إنهزامًا سياسيا آخر معتقدة أن الحرب هى الميدان الوحيد الذى تستطيع أن تنتصر فيه وأصبحت مراكش تحت الحماية الفرنسية يحكمها الجنرال ليوتى Lyautey الذى عين مقيمًا عامًا.

إيطاليا وطرابلس:

وكانت مشكلة أغادير فرصة ملائمة لإيطاليا لتحقيق أمنية قديمة وهى الاستيلاء على طرابلس، ورأى جيولى Gioitti رئيس وزراء إيطاليا أن يعلن الحرب على تركيا، وأرسل أسطولا استولى على سواحل طرابلس كما أرسل جيشًا كبيرًا إلى هناك للإستيلاء على برقه وطرابلس، وقد قررت حكومة تركيا الفتاة إرسال جيش تركى تحت قيادة أنور باشا للدفاع، ولكن الحرب انتهت بانهزام الأتراك، وتنازلت تركيا عن طرابلس بموجب معاهدة لوزان أكتوبر سنة ١٩١٢ وكذلك عن جزر الدوديكانييز فى بحر إيجه، وقبل أن تنتهى تلك الحرب الإيطالية التركية بدأت حروب البلقان (١٩١٢ – ١٩١٣)، حيث كانت الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار.

الحروف البلقانية (١٩١٢ – ١٩١٣):

أثار ضم النمسا للبوسنه الشعور القومي في بلاد البلقان، وتبين للبلقانيين مبلغ ضعف تركيا بعد حرب طرابلس، ورأوا أن ساعة الخلاص من الحكم التركي قد حانت، وعلى الأخص أنهم كانوا يطمعون في أن تعاونهم روسيا بعد أن توترت العلاقات بينها وبين النمسا وتضارب مصالحهما في البلقان وفي الوقت ذاته قد تتخير روسيا تلك الفترة التي ضعفت فيها تركيا لكي تسوى مسألة المضايق لمصلحتها فيقع النزاع بين الدولتين.

وفي مارس ١٩١٢ شجع الروس كل من صربيا وبلغاريا على توقيع معاهدة تضمن تعاونهما المشترك في حالة اعتداء أية دولة أوروبية كبرى على حدودها وجاء في إحدى مواد تلك المعاهدة "يتعهد الطرفان الموقعان على المعاهدة أن يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته في حالة محاولة إحدى الدول الكبرى ضم أو احتلال أية حدود من بلاد البلقان الواقعة حاليا تحت الحكم التركي"، وفي مادة سرية أخرى ملحقة بتلك المعاهدة أعلن الطرفان أنه "في حالة حدوث أية إضطرابات داخلية في تركيا مما يعرض المصالح القومية أو الوطنية للدولتين المتعاقدان أو إحداهما للخطر، أو في حالة قيام مصاعب داخلية أو خارجية في تركيا مما يعرض الحالة الراهنة في شبه جزيرة البلقان للخطر وجب على الدولتين المتعاقدتين أن تسارعا في تبادل الآراء لاتخاذ الخطوات العاجلة لمنع الخطر".

وأول ما يلاحظ على تلك المعاهدة السرية التي اشترك ممثلو روسيا في العاصمتين البلقانيتين – صربيا وبلغاريا – في مفاوضاتها أنها كانت موجهة ضد دولة النمسا والمجر حتى لا تتكرر مأساة ضم البوسنه، وثانيًا كانت تلك المعاهدة موجهة ضد تركيا حيث يفهم من ذلك الاتفاق أن كلتا الدولتين تريد نصيبًا في ميراث الامبراطورية العثمانية المنحلة.

وقد عقدت معاهدة مشابهة بين بلغاريا واليونان، وكانت تلك المعاهدة موجهة ضد تركيا.

وبعد إتمام تلك المعاهدة البلقانية أصبح الموقف ينذر بقيام الحرب حتى أن روسيا نفسها التى عاونت على إتمام تلك الإتفاقيات البلقانية بدأت تنزعج من توتر الموقف فى البلقان، ولم يطل انتظار الحرب بعد ذلك، إذ أعلنت كل من بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود الحرب على تركيا (٨ أكتوبر ١٩١٢)، لطردها من أملاكها الأوروبية فى البلقان، واستطاع المتحالفون البلقانيون أن يحرزوا انتصارات خاطفة سريعة. وأنزلوا الهزائم المتعاقبة بالجيش التركى ووصلت بعض الفرق البلغارية قرب القسطنطينية، واحتل اليونانيون سالونيك، واكتسح الصربيون أعالى وادى نهر الوردار واستولوا على (اسكوب Uskub) العاصمة القديمة لصربيا (وموناستير Monastair) مفتاح مقدونيا الوسطى والجزء الشمالى من ألبانيا حتى ساحل الأدرياتيك وهكذا استطاعت دول (الجامعة البلقانية Balkan League) التى أرسلت إلى ميادين القتال أكثر من ستمائة ألف مقاتل أن تنتزع معظم أراضى تركية أوروبا.

ولم ترحب الدول الأوروبية الكبرى بتلك الانتصارات البلقانية على تركيا، بل أن روسيا من جانبها كانت وجلة من نتائج ذلك الاتحاد البلقانى. ولكن النمسا كانت أشد الدول إنزعاجًا من إطراد نمو صربيا التى تضخمت مساحتها وتضاعف عدد سكانها حتى زادوا من مليونين إلى ما يقرب من أربعة ملايين ونصف. وأصبح من الواضح أن صربيا سوف توجه اهتمامها بعد ذلك نحو تصحيح وضعها مع النمسا.

أمام ذلك الخطر الذى يهدد السلام فى البلقان رأت الدول الكبرى أن تتكاتف للوصول إلى حل يطمئن له الجميع، فعقد فى لندن مؤتمر السفراء فى ديسمبر سنة ١٩١٢ تحت رئاسة سير أدوارد جراى، لإقرار الحدود الجديدة على ضوء الانتصارات البلقانية على تركيا.

وكانت النقطة الشائكة فى الموضوع هى مستقبل الساحل الشمالى لبحر الأدرياتيك بما فى ذلك ميناء دوارزو Durazzo، إذ ليس من السهل على الصربيين أن ينتزع منهم ذلك الميناء بعد أن استولوا عليه بالقوة، ولاسيما أنه يعطيهم بابا ينفذون منه إلى البحر، وكانت النمسا تعارض كل المعارضة فى أن يظل ذلك الميناء فى حوزة الصرب. سياستها كانت تتجه إلى إنشاء دولة البانيا وتقويتها حتى تتوازن قواها مع قوى الصرب.

أما ألمانيا فلم تكن على استعداد لأن تقحم نفسها فى حرب من أجل تلك المشكلة، وقد قال قيصر ألمانيا "لست أعتقد أن هناك خطرًا على كيان النمسا أو على مركزها من وجود ميناء لصربيا على البحر الأدرياتيك" ولذلك قرر القيصر ألا يؤيد النمسا فى القيام بأية حركة عسكرية ضد صربيا ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة "لن أحمل على باريس أو موسكو من أجل خاطر ألبانيا ودرازو" وهكذا احتفظت ألمانيا لنفسها مؤقتًا بالاستقلال فى سياستها الخارجية وأخرت قيام الحرب فترة من الوقت.

وعلى الرغم من أن روسيا كانت مسرورة بانتصار حلفائها السلاف فى الحرب البلقانية الأولى، ولا أنها كانت تخشى أن تقع القسطنطينية فى قبضة إحدى دول البلقان المنتصرة، فيتبدد بذلك حلمها القديم فى إستيلائها عليها وقد عرف عن فردناند ملك بلغاريا أنه كان يطمع فى أن يتوج يوما ما فى كنيسة سانت صوفيا (مسجد أيا صوفيا الحالي). وفي الوقت نفسه كانت سياسة سازونوف Sazonov وزير خارجية روسيا تتجه إلى تقوية ولايات البلقان ضد النمسا، ولنه كان يفضل أن تظل القسطنطينية والمضايق تحت الحكم التركى، حتى تسنح الفرصة لروسيا للإستيلاء عليها.

وقد قدم سازونوف فى ديسمبر سنة ١٩١٣ مذكرة إلى القيصر ذكر له فيها "أن روسيا لا ترغب فى الحرب ولا ضم أية حدود جديدة، ولكنها لا تستطيع أن

تسمح بسقوط المضايق أو القسطنطينية فى أيدى دولة أخرى ولو كانت إحدى دول البلقان الصغرى أمثال بلغاريا". وأضاف إلى ذلك قوله "إن تأمين المضايق لمصلحة روسيا هو فى الحكم الواقع الآن فتركيا ليست بالدولة القوية غاية القوة، ولا بالضعيفة غاية الضعف. وهى لا تستطيع إذن أن تكون خطرا علينا ولكنها فى الوقت نفسه مضطرة إلى أن تقف من النمسا موقف الحذر لأنها أقوى منها. إن ضعف الامبراطورية التركية وعدم قدرتها على التطور مع الحضارة هو فى مصلحتنا إذ أنه خلق بين الشعوب المسيحية الخاضعة لها شعورا بالولاء نحو روسيا الأرثوذكسية مما يقوى مركزنا الدولى فى أوروبا الشرقية.

مسألة ألبانيا:

غضبت صربيا أشد الغضب لإنشاء دولة ألبانيا التى ألحت فى تأسيسها كل من النمسا وإيطاليا، فقد كانت النمسا تخشى من إمتداد نفوذ صربيا ووصولها إلى تلك الجهات وتحرص على عد إعطائها الفرصة لتصبح دولة بلقانية كبرى على ساحل البحر الأدرياتيك فى يد دولة منافسة قوية. والحقيقة أن إيطاليا كانت تأمل أن تضم ألبانيا عندما تسنح لها الفرصة إلى الحدود الإيطالية وظل الأمل يراودها حتى أقدم على غزوها موسولينى سنة ١٩٣٩م.

حرب بلقانية ثانية (١٩١٢ – ١٩١٣):

كان تأسيس ألبانيا كانت ضمن الدائرة التى فكرت صربيا فى ضمها إلى صربيا الكبرى، وعندما ضاع هذا الأمل وجهت أنظارها نحو الحدود البلغارية الشرقية وأحتلت رقعة واسعة منها. فأثار ذلك بلغاريا، فأقدم جيشها على مهاجمة القوات الصربية دون إنذار، فكان ذلك إيذانًا بقيام حرب بلقانية ثانية اشترك فيها الصربيون واليونانيون ضد البلغار، وانتهزت رومانيا الفرصة فهاجمت بلغاريا من الخلف، وانتزعت لنفسها منطقة دبروجا جنوب مصب الدانوب، ودخلت تركيا تلك الحرب،

واستعادت أدرنة الحرب من بلغاريا والواقع أن بلغاريا هزمت هزائم منكرة فى كل مكان وانتهت الحرب بمعاهدة بوخارست سنة ١٩١٣، واستطاعت صربيا واليونان أن تضم كل منهما جانبا من أراضى تركيا الأوروبية ورضيت بلغاريا بصلح حرمها نصف أملاكها.

وقد كانت الحروب البلقانية نذيرا للنمسا بفشل سياستها في البلقان فقد كان من نتائج تلك الحروب إزدياد قوة صربيا، حتى أصبحت الدولة الأولى فى البلقان، وإضعاف تركيا التى كان حلفاؤهم الألمان يعلقون أملا كبيرا على صداقتها. ولم يعد أمام النمسا إلا أن تأخذ برأى العسكريين الذين كانوا ينادون فى ذلك الوقت بضرورة البطش بصربيا قبل أن يستفحل أمرها. إلا أن ساسة النمسا كانوا لا يرتبطون برأى قوادهم العسكريين بقدر ارتباطهم بسياسة حليفتهم الكبرى ألمانيا.

سياسة ألمانيا الحربية:

كانت النمسا أضعف من أن تتخذ أية خطوة عسكرية بدون أن تسندها ألمانيا، ولكن ألمانيا كانت إذ ذاك تخشى على حليفتها أن تقحم نفسها فى حرب تمزقها كل ممزق، ولا سيما أنها عانت كثيرا من جراء انهزام تركيا التى كانت تعتبرها ألمانيا حليفة طبيعية لها، حتى أنها اضطرت بعد الهزيمة التركية فى البلقان أن ترسل فى الحال أحد قوادها – ليمان فونساندرز Liman Von Sanders – لكى يعيد تنظيم الجيش التركى على الرغم من الاحتجاجات الشديدة التى وجهتها روسيا إلى ألمانيا.

ومنذ بداية عام ١٩١٣ اصبح القواد الألمان يعتقدون أن الحرب لا مناص منها، وأن من مصلحة ألمانيا أن تبدأ سريعا قبل أن يكمل استعداد أعدائها، وكان نفوذ هؤلاء القواد قد ازداد حتى خضع لهم الإمبراطور نفسه ولم يكن للمستشار الألمانى بتمان هولوج Bethman Hollweg الكلمة العليا التى كانت لسلفه

بسمارك، وكانت أول خطوة للاستعداد فى سنة ١٩١٣ أن فرضت الحكومة الألمانية ضريبة جديدة للأغراض العسكرية، وما وافى صيف ١٩١٤ حتى شعرت ألمانيا أنها قد استكملت قواتها، وخاصة أنها قد أتمت توسيع قناة كييل Kiel لتسهيل انتقال الأسطول الألمانى من بحر البطليق إلى بحر الشمال. بينما لم تكن فرنسا تقدر لنفسها استكمال استعدادها إلا فى عام ١٩١٥، وأما روسيا فلم يكن مقدرا لها أن تكون على أهبة الاستعداد قبل عام ١٩١٧.

ومن الغريب أن ألمانيا لم تفكر فى ذلك الوقت فى استثارت بريطانيا بل على العكس نجد أنها تحاول أن تضمن حياد البريطانيين، ولو فى المرحلة الأولى من مراحل الحرب ضد فرنسا أو ضد غيرها، وكانت بريطانيا فى الوقت نفسه على استعداد للمفاوضات لتسوية أية مشكلة تهدد السلام بينهما. ولعل أهم منطقة للصراع بين ألمانيا وإنجلترا فى ذلك الوقت كانت فى منطقة الخليج العربى، وهو الصراع الذى نجم عن ازدياد نفوذ ألمانيا فى تركيا، وقيام المهندسين الألمان فى ذلك الوقت بإقامة سكة حديد برلين – بغداد. وهو الخط الذى كان مقدرا له أن يصل إلى البصرة على الخليج العربى، والبصرة هى الميناء الذى يعتبر مركز للبترول الإيرانى الذى تتحكم فيه شركة البترول الإنجليزية الإيرانية، وكان غريبا أيضا أن تسلم ألمانيا فى ذلك الوقت بوجهة النظر البريطانية حتى وضع صيغة لمعاهدة ألمانية إنجليزية بخصوص تلك المشكلة ولم يبق سوى توقيعها. وإذا بالحرب الكبرى تعلن وتبقى المعاهدة بغير توقيع.

الشرارة التى أشعلت الحرب:

كانت العلاقات بين النمسا وصربيا تسير من سيىء إلى أسوأ، والولايات اليوغسلافية المتفرقة لقتل كبار الموظفين النمساويين، وقد نفذ صبر النمساويين على ما كان يوجهه إليهم من إهانات واعتداءات، وأخذ "برشنولد Bershtold" وزير

خارجية النمسا فى يونيه ١٩١٤ يدبر الوسائل السريعة التى تستطيع بها النمسا القضاء على صربيا. وفى ٢٨ من ذلك الشهر قتل أحد الطلبة الصربيين الأرشيدوق فرانز فردناند ولى عهد العرش الإمبراطورى النمساوى أثناء زيارة رسمية فى "سيراجيفو Savajevo" عاصمة البوسنه. وكانت الحادثة فرصة ملائمة للنمسا وألمانيا لكى تتخذاها ذريعة إعلان الحرب.

ومر شهر حدثت خلاله اتصالات سرية بين النمسا وألمانيا أكدت الأخيرة لحليفتها أنها تؤيدها فى كل خطوة تخطوها، ولم تكن الحكومة الفرنسية تقدر عواقب تلك الحادثة، حتى أن بوانكاريه Poincare رئيس جمهوريتها وفيفيانى Viniani رئيس وزرائها ذهبا إلى بطر سبرج فى زيادة رسمية لروسيا وانتظرت حكومة النمسا حتى بدا الرئيس الفرنسي ورئيس وزرائه يعودان من الرحلة الروسية، ثم ألقت قنبلتها السياسية بإرسال الإنذار المشهور إلى صربيا فى ٢٣ يوليو. ومع أن صربيا خضعت وقبلت المطالب النمساوية التى تكاد تنتزع منها استقلالها، إلا أن النمسا اعتبرت ردها رفضا للإنذار وأعلنت عليها الحرب فى ٢٨ يوليه.

وقد حاول القيصر الألمانى التخفيف من حدة النمساويين قبيل إعلان الحرب إلا أنه لم ينجح فى محاولته. أما روسيا فقد استعدت لتقف فى جانب صربيا ضد النمسا، وأعلن القيصر التعبئة العامة فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى أول أغسطس سنة ١٩١٤، وانضمت فرنسا إلى حليفتها روسيا، فأعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا فى ٣ أغسطس، وأخذت ألمانيا تستعد لتنفيذ مشروعها الذى وضعه العسكريون، وهو غزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولكسمبرج لاكتساح فرنسا قبل أن تستعد روسيا للقتال كذلك أخذت الحكومة الألمانية تتصل بالحكومة البريطانية تطالبها بأن تقف على الحياد فى نظير أن تتعهد ألمانيا بضمان استقلال بلجيكا وهولندا بعد الحرب، ولكن بريطانيا رفضت ذلك التعهد الألمانى، واعتبرت أن خرق حياد بلجيكا

مبرر لإعلان الحرب على ألمانيا، وأرسلت إنذار إلى ألمانيا فى ٤ أغسطس تطالبها فيه بسحب قوتها من بلجيكا فى الحال ولما لم يصلها الرد أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا وفى ٦ أغسطس أعلنت النمسا والمجر الحرب على روسيا وانضمت منتجر وإلى صربيا ضد النمسا، وفى ٩ أغسطس قطعت كل من صربيا ومنتجرو علاقتهما بألمانيا وفى اليومين التاليين أعلنت فرنسا وإنجلترا الحرب على النمسا.

وسرعان ما أصبحت الحرب عالمية بانضمام معظم الدول إليها، ودخلت اليابان الحرب في صف الحلفاء لأنها كانت ترمى من وراء ذلك إلى بسط نفوذها على الصين، وانتهزت الفرصة لاحتلال المنطقة التى كانت تحتلها ألمانيا فى شبه جزيرة شانتونج والصين.

المرحلة الأولى من الحرب العالمية الأولى:

بدأت التحركات العسكرية بحركة التفاف ألمانية واسعة النطاق عبر بلجيكا فى اتجاه فرنسا بقصد توجيه ضربة حاسمة لها تخرجها من الحرب، ولكى تعرقل الزحف الألمانى حوالى أسبوعين بسبب مقاومة الجيش البلجيكى وحصون ليبج ونامور الشهيرة وهناك اكتشف القائد الفرنسى بوفر خطأه فى تركيز قواته على جبهة اللورين، الأمر الذى أتاح للألمان زحفا سريعا إلى قلب فرنسا. واضطرت فرنسا إلى حرب التراجع فى مختلف الميادين حتى خطوط نهر المارن. ولم يخفف من العبء الشديد الملقى على الجيش الفرنسى فى هذه الجبهة سوى اضطرار فون مولتكه إلى نقل بعض من فرقه من الجبهة الفرنسية إلى بروسيا لإنقاذها من الاجتياح الروسى. إلا أن روسيا كانت قد منيت بهزيمة ساحقة فى موقعة تاننبرج قبل اشتراك الفرق المنقولة إلى بروسيا أضعف نقل تلك الفرق من قوة الجيش الألمانى فكان فرصة انتهزها (بوفر) فشن هجوما مضادا أرغم الجيش الألمانى على أن يتخذ موقف الدفاع، وكان هذا فى حد ذاته نصر الدول الوفاق، حيث أن خطة الحرب الخاطفة

قد فشلت فعلا، وكلما طالت الحرب سارت الأمور ضد مصالح دولتى الوسط. ومنذ سبتمبر ١٩١٤ ساهمت الخطة الدفاعية لدى الطرفين فى فرنسا إلى أن تتحصن فرق المشاة فى الخنادق وأن تتراشق المدفعية بالقنابل على جبهة طويلة للغاية تمتد من جبال فوج في الشرق إلى بحر الشمال فى الغرب. وفى محاولة لزحزحة العدو من مكانه تبادل الطرفان الهجمات، وكانت نتائجهما متعادلة ففى فردون Verdun تحمل الفرنسيون عبء هجوم ألمانى شديد الوطأة كان هدفه إبادة فرق فرنسية عديدة.

ونجحوا فى منع الألمان من الاستيلاء عليها، وكبدوهم خسائر تعادل تقريبا خسائر هم الفادحة (فبراير - يونيه ١٩١٦) وفى معركة السوم (يوليو ١٩١٦) كان الفرنسيون هم المهاجمون وكبدوا الألمان خسائر أخرى فادحة.

أما وقد فشلت خطة كسب الحرب بحرب خاطفة فى الجبهة الفرنسية فى ١٩١٥ بسبب صلابة الجيش الفرنسي والمعاونة العسكرية الإنجليزية له، اتجه القادة الألمان إلى العمل على إخراج روسيا من الحرب عن طريق حرب خاطفة.

وكانت المظاهر العامة توحى بأن مثل هذه الخطة ستلاقى نجاحا كبيرا فى روسيا لما كان يعوزها من ذخائر ووسائل نقل حديثة. ولقد أحرزت الحملة الألمانية على روسيا انتصارات كبيرة جعلت بولندا ولتوانيا وأجزاء عزيزة وغنية وواسعة من روسيا تقع تحت يد جيوش دولتى الوسط فضلا عن حوالي مليونين من الروس ذهبوا بين قتيل وأسير وجريح.

وزاد من حرج الموقف العسكرى العام لدول الوفاق، وخاصة روسيا، أن الحملة الإنجليزية إلى الدردنيل سبتمبر ١٩١٥ باءت بالفشل. سواء فى معارك البر أو البحر واضطرت إلى الانسحاب وضاع أمل روسيا فى فتح المضايق لتوصيل المواد العسكرية اللازمة لها. بينما اجتاحت فى أكتوبر ١٩١٥ القوات الألمانية - النمساوية -

البلغارية الصربية، ووصلت حتى تيرانا عاصمة ألبانيا، دون أن تسهم إيطاليا – التى دخلت الحرب منذ وقت قصير – بشىء يذكر فى حملة الدردنيل أو فى القتال فى البلقان. حتى تعرضت إيطاليا نفسها إلى حملة مظفرة نمساوية ألمانية أنزلت الهزيمة القاسية بالجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٧.

وفى الجبهة الشرقية الألمانية توقف الزحف البريطانى من البصرة فى اتجاه الشمال عند كوت العمارة، وهناك أرغم الأتراك جيشا إنجليزيا حصروه فيها على الاستسلام فى أوائل ١٩١٦. أما فى الجبهة المصرية فكانت مبادرة الهجوم والتقدم من جانب جمال باشا حتى وصل إلى قناة السويس، إلا أن الجيش الإنجليزى والثورة العربية (١٩١٦) أرغمت الأتراك على التراجع إلى ما وراء يافا والقدس.

وكما كانت قوى المتحاربين فى ١٩١٥/١٩١٦ فى الجبهات البرية متعادلة تقريبا، كانوا نتيجة المعركة الحربية البحرية الكبرى فى جوتلاند (٢١مايو ١٩١٦) بين الأسطولين متعادلة، وإن سارت موازين القوة البحرية بعد ذلك لصالح التفوق البريطانى، حيث ن الخسائر فى الأسطول الألمانى كان من المتعذر تعويضها، وحيث أن التفوق العددى لأسطولى بريطانيا وفرنسا منع قطع الأسطول الألمانى من الخروج من موانيها فقبعت فيها.

وحاولت ألمانيا أن "تجوع" بريطانيا وتمنع عنها إمداداتها من الدول المحايدة وخاصة من الولايات المتحدة لأمريكية عن طريق إغراق سفن بريطانيا وسفن الدول المحايدة المتعاملة معها بواسطة أعداد كبيرة من الغواصات بنتها على عجل ولكن فشلت الخطة فى النهاية بسبب استخدام الإنجليز نظام قوافل السفن التى تسير فى حراسة الأسطول، ولأن عددا كبيرا من هذه الغواصات دمرت قطع الأسطول الإنجليزى.

لقد كانت قوى الطرفين المتصارعين قد استنفذت طاقاتها التى عبأت لخوض حرب قصيرة، وبدأت تعانى من متطلبات حرب طويلة المدى. ووقعت عدة

حوادث فى داخل الدول المتحاربة دلت على مدى توتر الأعصاب بسبب هذا التطور غير المنتظر.

١-ففى بريطانيا كانت وزارة اسكويت تواجه أزمة تموين قاسية. إذ كانت الذخائر تعوز الجيش الإنجليزى العامل فى فرنسا، وكان من أسباب اشتداد هذه الأزمة وجود كتشنر وزيرا للحرب فى وزارة اسكويت، وكان كتشنر محبوبا جدا من الشعب الإنجليزى، ولكن لم يكن الرجل صاحب خبرات فى مثل هذه المشكلات التموينية وإن كان صاحب خبرة لا تبارى فى وضع المخططات السياسية الإنجليزية نحو المستعمرات. وتضاعفت المشكلة التموينية عندما أصبحت متطلبات حرب الخنادق فى فرنسا تحتاج إلى كميات أكبر من الذخائر.

وعندما أقدم اسكويب على تعديل وزرائه ادخل لويد جورج وزيرا للتموين (مايو-١٩١٥)، وأبدى لوريد جورج مهارة كبيرة فى سد النقص فى حاجات الجيش من الذخائر، واستطاع أن يخطط لسياسة حرب طويلة الأمد مرهقة فأعد لها جيشا جديدا مؤلفا من ٧٠ فرقة واستخدم لويد جورج سلطات واسعة - أقرب إلى الديكتاتورية - من أجل توجيه قدرات بريطانيا البشرية والإنتاجية نحو الحرب. وفى ديسمبر-١٩١٦ تولى لوريد جورج رئاسة وزارة حرب مؤلفة منه ومن ثلاثة آخرين هم: لورد كيرزون ولورد ملنر (وكلاهما من المحافظين) وآرثر هندرستون من (العمال).

٢-فى فرنسا، كانت وزارة أرسطو برياند وهى التى عاصرت الصمود الفرنسى الرائع فى فردون ولم يلبث بriاند أن عد لها مسندا وزارة الحربية إلى الجنرال ليوتى الذى اشتهر بمذابحه فى المغرب. ولم يلبث أن استقال بriاند وخلفته عدة وزارات ضعيفة قصيرة العمر حتى تولى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٧ رئاسة الوزارة جورج كلمنصو الذى أعاد إلى البلاد وحدتها الوطنية وانتهت حركة لتمرد التى برزت فى مطلع ١٩١٧، ووقف الرأى العام الفرنسى خلف كلمنصو، واستعادت

فرنسا معنوياتها وقدراتها على التضحية الكبرى من أجل النصر النهائى. ولخص سياسته فى العمل على الإفادة من كافة طاقات فرنسا وشعبها، أما بشأن الحرب فقد أبدى صلابة شديدة إزاء العدو وإصرارا على كسب الحرب وقال:

"إن سياستى الخارجية وسياستى الداخلية واحدة. سياستى الداخلية أن أحارب وسياستى الخارجية أن أحارب وأن أحارب دوما".

٣-وكانت إيطاليا تضم عددا كبيرا من الزعامات والأحزاب والهيئات المعارضة للحرب بشكل لا مثيل له فى أى من الدول المتحاربة الأخرى. ونظرا لعجزها عن إحراز نصر ما حتى ١٩١٦ أوجد قلقا مريرا بين الشعب، وضاعف من ذلك أن المحاصيل الزراعية ١٩١٦ كانت أقل مما سبق، وأدى نقص الفحم إلى تعطيل كثير من المصالح وتركت كثير من الحقول دون إنتاج وترتب عن هذا اضطرابات فى تورين، وفرار الجند من الجبهة، ثم أدت هزيمة الجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو إلى سقوط وزارة بوزيللى، وتولى أورلاندو رئاسة وزارة ائتلافية.

ويمكن أن نعتبر (أورلاندو) كلمنصو إيطاليا حيث أنه استهدف الوحدة الوطنية على اعتبار أنها مفتاح النصر النهائى. فدعا الأحزاب السياسية المختلفة للتعاون فى الجهد المشترك من أجل توجيه طاقات إيطاليا نحو الحرب ومسح عار كابوريتو. ومع أنه لقى معارضة من الغزو النمساوى - الألمانى، وتأييدا لدولتى الوفاق وإصرارا على النصر.

٤-وفى ألمانيا زادت معارضة الاشتراكيين لقروض الحرب الأمر الذى سيؤدى إلى أزمة داخلية فى يوليو -١٩١٧.

٥-إمبراطورية النمسا والمجر: كانت أكثر البلاد معاناه من طول الحرب ونفقاتها ومشاكلها. حتى لقد ظهرت أزمات اقتصادية بين النمسا من جهة والمجر من جهة أخرى. وفى نوفمبر - ١٩١٦ توفى الإمبراطور فرانسيس جوزيف وخلفه ابنه

شارل الأول الذى أخذ يغير فى الوزراء، ودعا مجلس الريخسرات، ولم يكن قد دعى منذ ١٩١٤، وجاءت هذه الخطوة الديمقراطية بالوبال على الإمبراطورية حيث جاء ممثلو القوميات إلى هذا المجلس ليطالبوا فقط بحرية قومياتهم، وبوجه خاص التشيك والبولنديين والسلاف، وزاد من قدرات هؤلاء على العمل تخلى المقاتلين من هذه القوميات عن وحداتهم وعادوا إلى أقاليمهم، فضلا عن أن حكومات فى المنفى بولندية ويوغسلافية كانت قد تكونت برعاية دولتى الوفاق فرنسا وبريطانيا.

٦-وفى روسيا بدأت مقدمات الثورة الشيوعية تظهر منذ ديسمبر ١٩١٦.

وبالرغم من مثبطات الهمم هذه، أصرت الدول المتحاربة، ومنها روسيا المهيضة الجناح – على متابعة الحرب رغم نداءات ودرو ويلسون – رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - لقبول صلح مرض لكافة الأطراف (١٩١٦)، ومثل هذا الصلح كان يتطلب تنازلات جوهرية من الطرفين ولقد رفضا الإقدام على مثل هذه التنازلات. بل لقد اتهمت الحكومةُ الألمانية ويلسون بأنه يريد صلحا لصالح دول الوفاق فقط. فاستمرت الحرب دون أن يكون هناك فى ١٩١٦ من يستطيع أن يدرك من سيكسبها إلا أن تطورات عميقة حدثت جعلت من عام ١٩١٧ عاما حاسما فى هذه الحرب.

يعتبر عام ١٩١٧ من أهم أعوام الحرب، حيث وقعت فيه عدة أحداث وتطورات كانت عميقة الأثر إلى حد بعيد على الشكل الذى انتهى إليه هذا الصراع المرير.

وكانت هذه التطورات الكبرى:

١-الثورة الروسية ابتداء من مارس ١٩١٧.

٢-دخول الولايات المتحدة الحرب فى أبريل١٩١٧.

٣-تدهور الجبهة الداخلية فى ألمانيا (١٩١٧) ثم فشل الهجوم الكبير فى ١٩١٨.

٤-استسلام بلغاريا (سبتمبر ١٩١٨)ز

٥-تصدع المملكة الثنائية.

٦-فقدان تركيا للبلاد العربية (١٩١٧ - ١٩١٨).

كانت روسيا أول الدول خروجا من الحرب وذلك بسبب تدهور جيوشها معنويا وفنيا وأصابتها النكبات والمذابح المتتالية بسبب جهل القيادة ونقص الذخيرة المريع والمتاجرة فى تزويد الجيش بالأسلحة، وانتشار المجاعة فى الريف ونقص قاتل فى تموينات الجند، عجز من جانب الحكومة القيصرية ودولتى الوسط عن إنقاذ الموقف المتهور بسرعة. وقامت الثورة فى بترجراد ضد القيصر، ورفض الجيش التحرك ضد الثوار وأرغم القيصر علــى التنــازل عـن عرشـه، وانتهت بذلـك أسـرة رومانوف من الحكم، وتولى الحكم، حكومـة مؤقتة برئاسة كيرنسكى، وأرادت متابعة الحرب، ولكن الانقلاب الذى قاده لنين - زعيم البلشفيك - وضع الحكم فى يد هؤلاء، وسرعان ما سعوا إلى الوصول إلى صلح مع ألمانيا وتم ذلك فى معاهدة برست ليتوفسك فى ٣ مارس ١٩١٨.

نصت معاهدة برست ليتوفسك على ما يلى:

١-التخلى عن دويلات البلطيق وفنلندا وبولنده.

٢-الجلاء عن أكرانيا والاعتراف بمعاهدتها مع ألمانيا.

٣-التنازل لتركيا عن أردهان وقارس وباطوم.

٤-الامتناع عن نشر الدعاية.

وهكذا خرجت روسيا من الحرب بعد أن فقدت مساحات شاسعة من أراضيها ومن الأراضى التى تسيطر عليها.

حيث أن الولايات المتحدة كانت قد أعلنت الحرب فى ٦ أبريل ١٩١٧ على ألمانيا، وكانت فى حاجة إلى عام تقريبا للمشاركة الفعلية فى ميادين القتال فى أوروبا، سؤال خطير:

هل فى استطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب خلال الفترة الواقعة بين توقف القتال على الجبهة الروسية ووصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال بكثافة كبيرة؟ لقد كان أمام الألمان حوالى أربعة اشهر كى يفرضوا على فرنسا الاستسلام قبل وصول القوات الأمريكية وقبل أن تتمكن القوات الإيطالية من العودة إلى الهجوم بعد نكبتها فى معركة كابوريتو (أكتوبر١٩١٧).

وكان من المفهوم أن القيادة الألمانية - بعد أن وقعت الهدنة مع روسيا - ستنقل كافة الفرق العاملة على الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية والقيام بهجوم كبير يرغم فرنسا على الاستسلام. ولكن الذى حدث هو أن القيادة لم تنقل إلا جزءا قليلا من قواتها تلك إلى فرنسا حيث أن (الهدنة) يمكن نقضها فى أى وقت وبسهولة، ثم أن الحكومة الألمانية والقواد الألمان كانوا لا يثقون فى الحكومة البلشفية الجديدة ويعتقدون أن الروس لن يتورعوا عن الانقلاب ضد ألمانيا إذا سنحت لهم الفرصة، خاصة وأن عملاء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا كانوا يعملون على إبقاء روسيا فى المعركة.

وإلى جانب هذا وذاك من العوامل التى جعلت القيادة الألمانية تبقى على الجزء الأعظم من قواتها على الجبهة الروسية، اشتداد النقص فى المواد الغذائية الذى كانت تعانى منه ألمانيا تصاعديا بسبب الحصار البحرى المضروب على سواحلها. فقد وجدت الحكومة الألمانية فى أوكرانيا مصدرا كبيرا لتموين الشعب الألمانى وجيشه بما يلزمه من هذه المواد. ولكن كان لابد من وجود عشرين فرقة عسكرية على الأقل لضمان جميع المحاصيل والمؤن اللازمة فى أوكرانيا، حيث كان الاحتلال العسكرى لها هو ضمان استغلالها.

ومن هذا كله يتبين لنا أن الألمان لم ينقلوا إلا القليل جدا من فرقهم من الجبهة الروسية إلى الجهة الفرنسية، وبالتالى لم يحدث تغير جوهرى فى ميزان القوة

فى الجبهة الفرنسية عقب انهيار الجبهة الروسية. خاصة وأن حلفاء ألمانيا كانوا فى حاجة إلى قواتهم لمواجهة الجبهات المسئولين عنها.

وفى هذه الظروف كانت القيادة العليا الألمانية قد أدركت أن قوى ألمانيا قد استنزفتها المعارك خلال السنوات الأربع السابقة. وأنه إذا قيض لها أن تكسب الحرب فذلك لن يتم إلا بتوجيه ضربات شديدة الوطأة على الجيوش الفرنسية والبريطانية الصامدة فى شمال فرنسا وتمزيقها والاستيلاء على باريس وعلى الساحل الشمالى الفرنسى.

ولقد صور لودندورف القائد الألمانى الموقف من وجهة نظره فى ذلك الوقت فقال أن ألمانيا "نزفت دماء ....إلى حد الموت طيلة سنوات أربع. ولا يمكن أن يستمر الجهد لسنة خامسة، وكاد ينضب عندنا معين الرجال، بل معين كل شيء. الخيول والبضائع والكيماويات والمعادن والمطاط. ولا تزال النمسا والمجر فى حالة أسوا من العوز والحاجة، وهى تسير فى طريق الهلاك بشكل واضح، وأخفقت حملة الغواصات العاتية، وفى أمريكا كميات لا تنفذ من المؤن والذخيرة، ورجال يغمرون وجه الأرض، وغواصاتنا لا تملك سبيلا للحيلولة بينهم وبين أوروبا فى أعداد ومقادير متزايدة. ولكن باب النصر لا يزال مفتوحا أمامنا، فإن روسيا قد خرجت أخيرا من الميدان، ويمكن توجيه قوات ألمانيا بأسرها نحو فرنسا، ويمكن تعزيز الجبهة الغربية نحو أربعين كتيبة وأربعمائة ألف جندى، وبهذه القوة يكون لنا التفوق فى النهاية لقرابة أربعة اشهر. وسنحاول انتزاع النصر فى نقطة التقاء القوات الفرنسية بالإنجليز، ونفرق بين جيوشها، ونكسب الحرب. فإذا وفقنا فى هذا كله فلن تستطيع أية إمدادات من أمريكا أن تؤثر فى الموقف".

وفعلا شنت القيادة الألمانية هجماتها خلال الفترة الواقعة بين (مارس – يوليو) ١٩١٨ فى أربع اتجاهات فى الجبهة الفرنسية:

١-فى منطقة سان كانتين قام لودندورف - القائد الألمانى الكبير بشق وفصل الجيشين الفرنسى والإنجليزى عن بعضهما، وكانا بقيادة بيتان وهيج وكان التنسيق بينهما ضعيفا جدا الأمر الذى أعطى للوندورف فرصة طيبة لتوجيه الضربات إلى الجيشين. إلا أن القيادة العليا للحلفاء أدركت الخطورة الكامنة وراء تعدد القيادات الفرنسية والبريطانية فى الجبهة الواحدة، خاصة فى حالة تعرض الجبهة لهجوم عام يستهدف الجيوش الموجودة فيها بغض النظر عن تابعيتها. وفعلا توحدت القيادات وتولاها الجنرال فوش. (مارس ١٩١٨) وأتت هذه الخطوة أكلها بعد وقت قصير غد أعد فوش جيوشه فى تخطيط عسكرى موحد، وتمكنت من مقاومة ثم صد الهجوم الألمانى الذى توقف فعلا فى أوائل إبريل١٩١٨. حقيقة أحرز الألمان تقديماً كبير نسبيا، ولكن الحقيقة هى ان الجيش الألمانى فى هذه الجبهة فقد منذ ذلك الوقت القدر على شن هجوم حاسم على جيوش الحلفاء.

٢-فى أوائل أبريل ١٩١٨ شن الألمان هجوما كبيرا فى جبهة أرمنتير - لاباس، ومع أن الهجوم الألمانى أرغم الجيش الإنجليزى هناك على التراجع إلا أن قدرات الألمان على متابعة الهجوم وهنت بسبب النقص فى التموين وعدم كفاءة الجندى الألمانى فى هذه الجبهة. ثم أن هذا الهجوم وقع بعد أن كانت القيادة الموحدة فى يد فوش قد أصبحت قادرة على مواجهة الهجمات بالنظرة الشاملة للقدرات المتوفرة المتجمعة للفرنسيين والإنجليز ولم تلبث القيادة الألمانية أن أوقفت هجوما فى هذه الجبهة.

٣-شن الألمان هجومهم فى مايو وزحفت جيوشهم حتى وصلت إلى (المادن)، ولكن استنفذ الهجوم جزءا كبيرا من طاقة الألمان، وتمكن (بيتان) من وقف التقدم الألمانى، ومع أن الألمان كسبوا مساحة واسعة من الأراضى الفرنسية إلا أن ذلك كان أقصى ما تستطيعه، ومن بعد ذلك لم تكن الجيوش الألمانية قادرة حتى على الدفاع عما كانت تحت يدها.

٤-وجه لودندروف هجومه الرابع فى منتصف يوليو ١٩١٨ فى منطقة شمبانى، وشنت القوات الألمانية على المادن هجوما كذلك. إلا أن فوش قام بهجوم مضاد أوقف الزحف الألمانى قم أرغم أعداءه على التراجع، كما أن الإنجليز شنوا هجوما مفاجئا أجهز على قدرة الألمان على الثبات فى مواقعهم فشرعوا فى التراجع، وفقدوا عشرات الألوف بين أسير وقتيل.

النتيجة العامة والجوهرية لهذه الهجمات الألمانية والمقاومة الناجحة لجيوش الحلفاء وقدرتها على امتصاص الهجمات المتعددة:

١-استنفذت الجيوش الألمانية طاقتها على معاودة الهجوم، بينما كانت قدرات الحلفاء العسكرية تتصاعد.

٢-اصبح عنصر الزمن ضد الألمان، حيث أخذت القوات الفرنسية والإنجليزية تستعد لشن الهجوم فى مختلف الجبهات.

٣-إن الصمود الفرنسى - الإنجليزى وعجز الألمان عن كسب الحرب كان قد حدث قبل وصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال ومن ثم ستقوم هذه الجيوش الأمريكية لا بإنقاذ جيوش فرنسا وبريطانيا من الجيوش الألمانية وإنما لاستكمال هزيمة هذه الجيوش الألمانية.

أعدت قيادة الحلفاء خططا لسلسلة من الهجمات - فى أكثر من جبهة - على الجيوش الألمانية المتعبة. ولم يعد فوش يفكر فى خطط دفاعية بعد وصول العديد من الفرق العسكرية الأمريكية، وبعد أن تفوقت جيوش الحلفاء بما أصبح لديها من عدد كبير من الدبابات التى لم تكن لدى الألمان منها إلا قدرا يسيرا.

وبعد أم سبرغوز المقاومة الألمانية فى عدة هجمات محدودة النتائج شن (فوش) هجومه العام فى سبتمبر ١٩١٨ فى الوقت الذى تحركت فيه الجيوش المتحالفة على طول الجبهات الأخرى فى اليونان وبلغاريا والشام والعراق. وتهاوت

المقاومة فى الجبهات البلغارية والتركية والنمساوية والألمانية. واتجهت دول الوسط إلى طلب الهدنة الواحدة بعد الأخرى.

فلقد اصبح من الخير لهذه الدول أن تتصل بأعدائها للوصول إلى هدنه وتسوية إن أمكن وكان إصدار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون لنقاطه الأربعة عشر للتسوية المنتظرة من أكبر العوامل التى شجعت دول الوسط على إلقاء السلاح حيث أن هذه النقاط الأربعة عشر كفيلة - كما تصور زعماء الدول المهزومة بان تحافظ على كيان الدول على الأقل.

ولأهمية هذه النقاط الأربعة عشر التى أعلنها ويلسون فى رسالته المشهورة إلى الكونجرس الأمريكى فى الثامن من أكتوبر ١٩١٨ نشير إلى أهم مضمونها:

١- نبذ المعاهدات السرية الدولية. وهذا يجعل حكومة الولايات المتحدة حرة فى مناقشة كافة الموضوعات التى تتعلق بخريطة أوروبا والعالم فى المستقبل بعيدا عن تطورات فرنسا وبريطانيا وإيطاليا فيما عقدوه من اتفاقيات سرية على حساب الخصوم والحلفاء – مثل الصرب – فى آن واحد.

٢- ضمان حرية الملاحة، وكان هذا يتلاءم مع مصالح الولايات المتحدة التى أصبحت من أكبر الدول الكبرى حجمًا فى التجارة الدولية، وأصبحت قادرة على التفوق عند المنافسة الحرة الدولية، ولهذا نجدها كذلك تطالب بإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول، والمساواة فى الفرص التجارية على اعتبار أنها هى الرابحة فى مثل هذه المجالات.

٣- دعا إلى عصبة أمم تتولى الإشراف على المصالح الدولية والعلاقات الدولية بما يكفل عدم وقوع حرب دموية كهذه مرة أخرى.

٤- طالب بخفض السلاح، وكان هذا المطلب مقدمًا دون أية تفاصيل تشير إلى مدى التخفيض الذى يمكن أن يجريه ويلسون على قوات الولايات المتحدة الأمريكية

نفسها وحتى لو أجرى تخفيض متساو فستكون الكلمة العليا كذلك للدول الكبرى على اعتبار أن نسبة تسليحها ستظل مرتفعة ومتفوقة.

٥- وطالب بأن تنظر الدول الاستعمارية إلى مستعمراتها بعين العدل وأن تراعى مصالح أهل المستعمرات. وعلى ما كان عليه هذا المبدأ من لفتة إنسانية رائعة فهو أقرب إلى الفكر المثالى الذى تعوزه قوة الحق. وكان كالسراب جرى نحوه زعماء البلاد المستعمرة لعلهم يحققون عدلا لبلادهم، ولكن دون جدوى لأن قعقعة السلاح بعد الحرب كانت أشد تهديدًا عنها خلالها بالنسبة للمستعمرات. ولكن ويلسون كان لا يستطيع أن يفرض رأيه على شركائه الاستعماريين: فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

٦- بالنسبة للدول المهزومة فقد وضع عدة مبادئ تقضى بالجلاء عن بلجيكا وفرنسا واستعادتها الألزاس واللورين، وعن رومانيا والصرب والجبل الأسود ومراعاة حقوق القوميات عن تسوية مشكلات البلقان، وضم المناطق الإيطالية الواقعة تحت يد النمسا إلى إيطاليا، ومنح حق تقرير المصير للقوميات التى تتكون منها المملكة الثنائية والدولة العثمانية، وحرية المرور فى المضايق وأوصى بإنشاء دولة بولندا.

وكانت مبادئ "حق تقرير المصير" وتسوية مشكلات أوروبا على أساس احترام "القوميات" من أكبر الدوافع التى أقنعت حكومات دول الوسط أن الهدنة والتسوية ستكونا شريفتين، وأن الخصوم سيكونون معتدلين غير متعنتين. خاصة وأنه كانت انتشرت شائعات قوية جدًا فى الدوائر الدبلوماسية الأوروبية أن الهدنة لن تكون أساس معاهدة الصلح، وإنما ستوضع هذه بعد مجادلات ومفاوضات جديدة على أساس مبادئ ويلسون الأربع عشر.

على أن التدهور العسكرى النهائى لدول الوسط هو الذى دفعها إلى طلب الهدنة، فكيف تم ذلك؟

١- بلغاريا:

كانت المشكلة الرئيسية التى واجهت بلغاريا هى أنها كانت مكروهة فى البلقان، وكانت القوات الإنجليزية والفرنسية قد اتخذت من سالونيك قاعدة لها ولتجميع القوى البلقانية المناهضة لبلغاريا. ومع أن رومانيا - التى كانت تهدد بلغاريا من الخلف سحقت فى ١٩١٨/١٩١٧ إلا أن كفاءة الجيش البلغارى حالت دون بقاء الجيش الإنجليزى فى البلقان. وكانت ١٩١٧/ ١٩١٨ عاما لا يستطيع فيه حلفاء بلغاريا أن يقدموا معونة مجدية لها عندما يتحرج موقفها مثلما حدث من قبل.

ثم أن كفاءة القيادة فى جانب الحلفاء وقدرتها على تنفيذ خطط جريئة ولكن سليمة كان له أكبر الأثر فى القيام بهجوم مفاجئ - وضع خطته فرانشيه ديسبيريه - على الجيش البلغارى أفقده القدرة على الصمود.

وكانت فى صفوف القيادة العامة البلغارية دعوة قوية نحو التوصل إلى صلح منفرد مع دول الحلفاء بعد أن ثبت أن النصر أصبح بعيدا، على أن يكون الحلفاء كرماء فى معاملة بلغاريا مكافأة لها على الخروج عن حليفاتها ومما شجع المسئولين فى بلغاريا تلك الاتصالات التى أجراها القنصل الأمريكى فى صوفيا.

وبعد اتصالات قصيرة وقعت الهدنة مع بلغاريا فى ٢٩ سبتمبر ١٩١٨، ولكن شروطها كانت قاسية لا كرم فيها من جانب الحلفاء حيث اشترطت على البلغار:

أ- تسريح الجيش البلغارى وتخليه عن عتاده ومعداته.

ب- طرد الألمان من بلغاريا.

جـ- احتلال قوات الحلفاء للمواقع الاستراتيجية الهامة باستثناء العاصمة.

أدى استسلام بلغاريا على هذا النحو إلى تعريض كلا من تركيا والمملكة الثنائية إلى أخطار داهمة جديدة ساعدت على تفويضهما بسرعة أكبر. كما أن خروج بلغاريا من الحرب قضى على البقية الباقية من الآمال التى كانت لدى القيادة الألمانية فى الحصول على صمود أشد فى مختلف جبهات القتال، الأمر الذى ساعد على تحطيم معنويات القيادة الألمانية.

٢- تركيا:

كانت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية في جبهتي (العراق الجنوبي) و (فلسطين) محدودة، وكان نشوب الثورة بقيادة الشريف حسين بن علي في ١٩١٦ وتعاونها مع الإنجليز قد أدى إلى أن تصبح الأرض التي يعمل عليها الأتراك معادية، وفصلت بين القوات التركية في اليمن والقوات الرئيسية في الحجاز والشام.

وإذا كان عام ١٩١٧ عام استعدادات من جانب الإنجليز لشن هجوم شامل في جبهتي العراق والشام.كانت محاولات الأتراك لإخراج العرب من الحرب إلى جانب الإنجليز غير مجدية على الإطلاق رغم نشر نصوص معاهدة سايكس - بيكو التي تقسم الولايات العثمانية العربية بين فرنسا وبريطانيا، ورغم صدور وعد بلفور.

ونجحت الحملات الإنجليزية في الشام وفي العراق فبينما سقطت العقبة في ١٩١٧/٧/٦ والقدس في ١٩١٧/١٢/٩، نجد دمشق تسقط في أول أكتوبر ١٩١٨ وتليهاً بيروت وتتراجع القوات التركية من بعد في إضطراب كبير حتى الأراضي التركية سقطت بغداد مارس ١٩١٧ وزحفت القوات حتى اقتربت من الموصل، وكانت بلغاريا قد استسلمت وأصبحت الأستانة نفسها مهددة فطلبت حكومتها الهدنة ووقعتها في نوفمبر ١٩١٨، وبعد توقعتها في نوفمبر ١٩١٨، استولت القوات الإنجليزية على الموصل الأمر الذى أدى إلى إثارة مشاكل عديدة حولها.

٣- المملكة الثنائية:

كانت إمبراطورية النمسا والمجر منذ هزيمة جيوشها في موقعة فينيتو قد اعتورها الكثير من الوهن ولجأت إلى الحرب الدفاعية في الوقت تحول فيه الحلفاء إلى الهجوم، وفت استسلام بلغاريا في عضد المملكة الثنائية، حيث أنها أصبحت مضطرة لأن تحارب في أكثر من وجهة، وكان ذلك الفرصة الذهبية التي كانت تنتظرها القوميات المهضومة فشرعت مراكز الثورة فيها في التجمع وشجعها على التحرك إعلان الحكومة الأمريكية عن رغبتها في رؤية هذه القوميات وقد استقلت

فتناثرت المملكة إلى أشلاء، وخارت قوى جيوشها التى كان السلاف يكونون جزءا مهما فيها، واضطر الإمبراطور إلى طلب الهدنة التى وقعت فى ٣ نوفمبر ١٩١٨.

٤- استسلام ألمانيا:

كانت القوى الهجومية الألمانية قد أصبحت عاجزة عن القيام بضربة شاملة، ولم يعد أمام الجيوش الألمانية سوى الدفاع والتراجع أمام القوى الهجومية المتزايدة لدى الحلفاء. وزاد من اضطراب القيادة الألمانية أن الجبهة الداخلية بدأت تتداعى فالتذمر كان يشمل رجال البحرية الذين أمضوا الوقت منذ معركة جتلاند (١٩١٦) دون عمل، والمتنفدين اليهود حركوا قوى العصيان، وانتشر التذمر فى المدن الكبرى بسبب النقص الشديد فى المواد الغذائية. واتجهت القيادة العسكرية إلى طلب الهدنة بوساطة الرئيس الأمريكى ويلسون تعلقا بمبادىء الأربع عشر، وخاصة مبدأ "حق تقرير المصير".

كانت القيادة العسكرية الألمانية تعتقد أن الهدنة ستوقع مع احتفاظ ألمانيا على الأقل بقواتها المسلحة وحكومتها، ولكن ويلسون وضع شروطا قاسية على الألمان كان عليهم أن يقبلوها إن أرادوا عقد الهدنة. وكانت وهذه الشروط تفرض على الإمبراطور والقيادات التى تولت أمر ألمانيا خلال الحرب أن تعتزل مناصبها وأن تفسح الطريق أمام حكومة ديمقراطية تتولى التفاهم على الصلح مع الديمقراطيات الغربية المنتصرة. وتم لويلسون ما أراد وتنازل الإمبراطور وفر من البلاد، واستقالت القيادات العسكرية والسياسية وعقدت الهدنة فعلا فى نوفمبر ١٩١٨.

أما ما ستكون عليه خريطة أوروبا بعد توقف القتال واتجاه زعماء الدول المنتصرة إلى عقد مؤتمر، فهذا ما سنتناوله بالدراسة بعد ذلك.

نتائج الحرب العالمية الأولى

مؤتمر الصلح ١٩١٩:

اختيرت باريس لتكون مقرا لمؤتمر الصلح. وكانت هناك دلالات سياسية معينة لهذا الاختيار وعلى رأسها:

١-كانت هناك دعوات إلى اتخاذ جينيف مقرا لمؤتمر الصلح على اعتبار أن سويسرا دولة محايدة، ولكن الرئيس ويلسون كان يفضل باريس التى كانت حينذاك تعج بالقوات الأمريكية.

٢-كانت فرنسا هى أكثر الدول المتحالفة خسائرا فى الأرواح والمساكن فحجم التخريب المروع الذى تعرضت له مناجم ومصانع ومدن شمال فرنسا التى كانت تصاب بالتدمير لا خلال العمليات العسكرية فقط بل كذلك بسبب التدمير الذى كان يتم على يد القوات الألمانية وهى تنسحب من موقع لآخر. فهى بذلك أحق بأن يعقد المؤتمر فيها على اعتبار أنها أكبر المضحين فى سبيل (العدالة).

٣-كان اختيار باريس مقرا للمؤتمر يمكن كلمنصو (العجوز) من تولى رئاسة المؤتمر دون إثارة مشكلات معقدة حول موضوعات الرئاسة.

٤-إن وجود المؤتمر فى باريس يجعل كلمة الشعب الفرنسى مسموعة بقوة أكثر داخل أروقة المؤتمر.

وقد تأخر انعقاد المؤتمر لبعض الوقت بسبب إصرار الرئيس ويلسون على إلقاء خطابه فى الكونجرس فى ديسمبر ١٩١٨، وكانت ظروف بريطانيا السياسية قد ساهمت - هى الأخرى - فى تعطيل انعقاد المؤتمر بعض الوقت.

كان (لويد جورج) يصر على أن تجرى انتخابات جديدة فى بريطانيا حتى إذا ما نجحت برامجه ذهب إلى مؤتمر الصلح مسلحا بتأييد شعبى وبرلمانى كاملين.

وخاصة أنه كانت قد مرت حوالى ثمانى سنوات على بريطانيا دون إجراء انتخابات. وفعلا أجريت هذه الانتخابات فى منتصف ديسمبر.

وخلال هذه الانتخابات ترددت الدعوة إلى "شنق القيصر" الألمانى، وعلى إرغام ألمانيا على دفع تعويضات مناسبة، وكان من سوء حظ ألمانيا أن الفترة الأخيرة من الحرب شهدت أحداثا إنسانية محزنة، وبوجه خاص إغراق الغواصات الألمانية لباخرة البريد الأيرلندية (لنستر) بمن فيها من رجال ونساء وأطفال بلغ عددهم ٤٥٠ نفسا، وكان وقع هذه الكارثة شديدا على نفوس الإنجليز الأمر الذى عمق من كراهيتهم للألمان، وزاد من حدة مطالباتهم لحكومتهم بالقصاص من ألمانيا.

وكان أول انعقاد للمؤتمر فى ١٨ يناير ١٩١٩، ووقعت معاهدة فرساى مع ألمانيا فى ٢٨ يونيو ١٩١٩ وهو الذكرى الخامسة لحادثة سيراييفو، وكان آخر انعقاد للمؤتمر فى ٢١ يناير ١٩٢٠، وبعد ذلك وقعت معاهدات الصلح مع كل من المجر وتركيا، ولم تستكمل الولايات المتحدة معاهدتها المنفردة مع ألمانيا إلا فى ٢٥ أغسطس ١٩٢١، ومع تركيا توضع معاهدة لوزان - المعقودة فى يوليو ١٩٢٣ - موضع التنفيذ إلا فى أغسطس ١٩٢٤.

حقيقة طالت مدة انعقاد المؤتمر، كما طالت الفترة التى أنجز خلالها توقيع وإبرام المعاهدات النهائية، وذلك لتعدد وتشعب الموضوعات التى عرضت على مائدة المؤتمر. وكانت الغالبية العظمى لهذه الموضوعات شائكة وذات حساسيات متعددة الجوانب الأمر الذى كان يتطلب إجراء مشاورات مطولة للوصول إلى حل بشأنها. أضف إلى هذا أن عدد مندوبى الدول فى المؤتمر كان حوالى السبعين مما كان يزيد من وقت المباحثات وتعقيدها أيضا.

وكان المؤتمر مكونا أساسا من دول الحلفاء والدول المشاركة وقبلت عضوية دول جديدة وهى تشيكوسلوفاكيا وبولنده، كما حضر مندوبون عن هيئات وقوى ذات أثر فى الحرب مثل العرب واللبنانيين والمصريين والأكراد والأرمن والصهيونيين والكوريين والروس البيض والأيرلنديين.

أما الدول التى فرض عليها عدم المشاركة فى مؤتمر الصلح فكانت على أنواع:

١-الدول المهزومة.

٢-روسيا.

٣-الدول المحايدة.

ولا شك أن غياب الدول المحايدة عن المؤتمر يشكل نقصا خطيرا فى بنائه، حيث أن هذه الدول عانت كذلك من ويلات الحرب، وكان يجدر أن يكون لها رأى مسموع فيما ستكون عليه خريطة أوروبا الجديدة.

أما استبعاد روسيا فكان لخروجها من الحرب من تلقاء نفسها، وهذا أفاد الحلفاء فى رسم خريطة أوروبا الشرقية بحيث يضرب حول روسيا حزام يمنع من انتشار الشيوعية منها إلى بقية أجزاء أوروبا.

أما غياب ألمانيا. وفرض معاهدة فرساى فرضا على حكومة الجمهورية الألمانية الجديدة، فقد أعطى للزعامات الألمانية فيما بعد الفرصة للتنصل من معاهدة لم يكن لهم رأى فى إعدادها.

ووضعت طريقة معقدة لتوزيع عدد المندوبين فى المؤتمر على كل دولة. وكان من المفروض أن تحتفظ الدول الكبرى المنتصرة بعدد كبير نسبيا من الأعضاء، ولهذا خصص لكل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ولليابان وإيطاليا خمسة

مندوبين، وأعطيت لبلجيكا والبرازيل وصربيا ثلاثة مندوبين أما بقية الدول الأخرى فلكل واحدة مندوب فقط.

وحيث أن كل هؤلاء المندوبين كانوا يمثلوا حوالى٣ /٤ سكان العالم، فيمكن أن نقول أن مؤتمر صلح باريس كان أول مؤتمر صلح عالمى، مع مراعاة أن مقدرات هذا المؤتمر كانت مركزة فى مندوبى الخمس الكبرى وعندما دارت عجلة العمل فى المؤتمر كان المتحكم فى مستقبل الدول المهزومة وفى أوضاع الدول المحايدة، وفى تحقيق مكاسب الدول المنتصرة ثلاثة فقط هم:

١-كلمنصو.

٢-لويد جورج.

٣-وودرو ويلسون.

حقيقة كانت إيطاليا واليابان تكملان عقد "الخمسة الكبار" ولكن دور اليابان فى مؤتمر الصلح كان قصيرا وصغيرا جدا.

ونظرا لقيمة الأدوار الشخصية والدولية التى لعبها هؤلاء الكبار يجدر بنا أن نقدم تحليلا لكل واحدة منها يكشف عن كوامن قدرته واتجاهاته ولنبدأ بأضعف هذه الشخصيات.

أورلاندو:

كان أورلاندو قد تولى رئاسة الوزارة الإيطالية. فى أصعب الظروف وأدقها فى أعقاب نكبة كابوريتو. واستطاع أن يدير دفة الأمور حتى النصر النهائى، ولكن الأمور فى داخل إيطاليا كانت لا تمكنه من أن يكون طليق اليد فى مناورات مؤتمر الصلح بسبب الخلافات الجوهرية التى كانت بين الأحزاب الإيطالية. وكانت إيطاليا أكثر البلاد الأوروبية تأثرا بنكبات الحرب بسبب ضعفها فى مجالات الصناعة ونقص المواد الأولية بها. وكان برلمانها غير قادر على اتخاذ مواقف حاسمة إزاء القضايا

الكبرى، وتعرضت الحكومة الإيطالية لهجمات اليمين واليسار على السواء، وانتشرت الإضرابات في معظم البلاد.

وكانت تطلعات الشعب الإيطالى إلى مكاسب بلاده من الحرب بعيدة جدا وكانت ذكريات الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أقوى من أن يكتشف الإيطاليون حينذاك حقيقة قدراتهم إزاء الدول الكبرى المنتصرة. وكان أورلاندو يشعر بضعف موقفه داخل مؤتمر الصلح، ويعانى جدا من ثقل الضغوط الشعبية والسياسية عليه من أجل الحصول على مكاسب عظمى فى مؤتمر الصلح.

ثم أن علاقته برفقائه (ويلسون وكلمنصو ولويد جورج) غير طيبة، خاصة من جانب الأمريكى والفرنسى. فقد كان كلمنصو يحتقر إيطاليا والدور الهزيل الذى لعبته فى الحرب، وكان ويلسون مزورا عنها لا يعطيها قدرها المناسب وكان جورج يعطف عليها عطفا إنجليزيا خاليا من الوعود والسب فى هذه المواقف ليس وليدة العاطفة والهوى وإنما وليد متطلبات الأمن للدولتين الفرنسية والإنجليزية.

فإيطاليا قبيل الحرب العالمية الأولى أصبحت إمبراطورية تجاور مستعمراتها مستعمرات كل من فرنسا وبريطانيا فى شمال إفريقية وفى شرق إفريقية، وهى إلى جانب هذا أصبحت بعد هزيمة ألمانيا والمملكة الثائية - الدولة الأوروبية التالية لفرنسا فى داخل القارة الأوروبية. ولها الكثير من الميزة الاستراتيجية فهى تستطيع أن تمد إحدى يدها إلى قلب القارة وأن تمد الأخرى إلى شمال إفريقية وفوق هذا وذاك فالريفييرا الفرنسية امتداداً للإيطالية، وصقلية على الطريق بين فرنسا والشام الذى كان من نصيب فرنسا بمقتضى اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦.

ومن هذا كله نستطيع أن نفسر موقف كلمنصو العنيد إزاء (أورلاندو) ونائبه فى المؤتمر (سونينو).

وزادت من حدة الأزمات بين ممثل إيطاليا والكبار الثلاث أن الاتفاقات السرية المعقودة بين دول الوفاق وإيطاليا خلال الحرب لاقت معارضة شديدة من جانب الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون في مؤتمر الصلح وأن بعض هذه الاتفاقيات السرية كان لا يحترم الحقوق القومية. ومن ذلك أن اتفاقياتها مع دول الوفاق كانت تهدف إلى التوسع في الأرض البلقانية بغض النظر عن جنسية السكان. ولهذا لقيت معارضة شديدة من جانب ويلسون وكلمنصو حتى اضطر (أولاندو) إلى مغادرة المؤتمر تاركًا (سونينو) ممثلاً لبلاده فيه.

كلمنصو:

كان أقوى الأربعة الكبار، وأشدهم ذكاءا، كان يقترب من الثمانين، دون أن تكل قواه عن المعارضة التى عاش حياته فى خضمها، قوى الأسلوب عميقة، لاذع الكلم، شديد الوطأة على معارضيه، لا تفتر همته حتى ولو كان خصمه قوى الشكيمه رائع البيان مثل ويلسون أو داهية فى السياسة الأوروبية مثل لويد جورج. كانت تجاربه فى الحياة الخاصة والحياة العامة والسياسة الأوروبية والدولية كثيرة ومتزاحمة بل ومتناقضة قاسية. شهد مذلة فرنسا فى ١٨٧٠ – ١٨٧١، والضياع الذى خيم على الشعب الفرنسى فى السبعينات والجهود المضنية الحثيثة الخطرة التى سارت فيها فرنسا حتى وقفت على قدميها أمام العملاق الألمانى، وروعة الصمود الفرنسى أمام الهجوم الخاطف الألمانى فى مطلع الحرب، وصبر الشعب أرضه المحتلة وفى تضحياته وتفوقه على آلامه والمصائب التى نزلت بمدنه وأرضه الزراعية وأبنائه من عسكريين ومدنيين.

وكان ينظر بألم دفين إلى كون الامبراطورية البريطانية أوسع وأكبر وأضخم ثروة من الامبراطورية الفرنسية فضلا عن أن الحرب لم تدر رحاها على الأرض البريطانية، وأن خسائر بريطانيا وامبراطوريتها لا تكاد تعادل نصف ما خسرته فرنسا

أرواحًا وعتادًا وثروات. ومع هذا كله كان يرى في أفق السياسة الدولية خطرين عظيمين على فرنسا، وهذه المرة من جانب أخوة لفرنسا في السلاح: بريطانيا والولايات المتحدة. في الوقت الذي لا يزال فيه الخطر الألماني على فرنسا غير بعيد، خاصة – من وجهة نظره – إذا أهملت فرنسا فرض القيود الشديدة عليها. ولقد كان كلمنصو يدرك إلى حد بعيد كم كان ويلسون مثاليًا لا يقدر مخاوف فرنسا وآلامها حق قدرها، ويدرك أن لويد جورج يريد أن يلعب اللعبة البريطانية التقليدية، وهي أن تظل فرنسا خائفة من ألمانيا حتى تنفرد بريطانيا بالإستيلاء على أكبر قسم من مستعمرات ألمانيا وولايات الدولة العثمانية. وتستطيع أن تتلاعب بكافة الأطراف بما يضمن لها أكثر المكاسب بأرخص التكاليف.

كان (كلمنصو) ضليعًا في المشكلات الأوروبية وخفاياها، وكان يدرك بسرعة كل معاني المناورات السياسة التي مر فيها سياسيو بريطانيا. وساعده على ذلك إتقانه للغة الإنجليزية، بل كان الوحيد من بين الثلاثة الكبار الذي يتقن اللغات الثلاث الفرنسية والإنجليزية والألمانية. وكانت واقعيته توقع مثالية ويلسون في تخبطات مربكة قللت من هيبة الرئيس الأمريكي، وساهمت في أن يصبح كلمنصو ولويد جورج راسمًا خريطة أوروبا والشرق الأدنى بعد الحرب العالمية الأولى.

لهذا كان كلمنصو شديد اللهجة في مجادلاته مع ويلسون ولويد جورج، وضاعف من ذلك ثقل السنون عليه، وخيبة أمله في الإنسانية، وتفوق الفكر الأناني الفرنسي عليه تفوقًا لا حدود له.

وهناك ناحية شخصية أثرت في توجيه المؤتمر إلى سياسات معينة، فقد كان (كلمنصو) يرغب في أن يختتم حياته ببطولة قومية عظمى في مؤتمر الصلح، وكان يعتقد – وكان اعتقاده صحيحًا – أن الرأى العالمي يقف إلى جانبه ضد ألمانيا، وأن الفرصة قد حانت لتصبح فرنسا صاحبة حدود آمنة، وليس هناك من دولة أوروبية في

داخل القارة تهددها بالغزو. وكان يرى أنه قد مر على فرنسا زمن طويل وهى تحت خوف الغزو من أكثر من جهة وأنه آن الوقت الذى تضع فيه فرنسا أسس سلام دائم يبعد عن فرنسا هذه المخاوف نهائيًا إن أمكن.

كانت فرنسا تطالب بالكثير، ولكن دون إسراف. وتركزت أهدافها فى:

١- السار:

بحيث تعود حدوده إلى عام ١٨١٤/ ١٨١٥، وكان ذلك مثار جدل عنيف بين كلمنصو ولويد جورج الذى حذر زميله من خلق مشكلة الزاس ولورين جديدة، ومن وجهة النظر الأمريكية كان هذا يعتبر تجاوزًا لمبادئ ويلسون الأربعة عشر حيث أن السار كان ألمانيا بلا شك، ويجب - وفقًا لمبدأ تسوية المشكلات على أساس قومى - أن يظل ضمن الدولة الألمانية.

٢- الإشراف على الضفة اليسرى لنهر الراين:

كانت فرنسا تهدف من وراء ذلك إلى خلق حاجز بينها وبين ألمانيا يكون على الأقل مجردا من السلاح إن لم يكن تحت إشرافها أو يكون دولة منفصلة عن ألمانيا. ويمثل هذه الخطة تفقد ألمانيا الكثير من المصادر الصناعية اللازمة لاستعادتها قوتها العسكرية.

٣- المستعمرات:

كانت تريد مساحات واسعة جدًا من مستعمرات الدولة الألمانية وولايات الدولة العثمانية. وكانت هناك اتفاقات نظمت إلى حد ما توزيع العراق والشام بين فرنسا وبريطانيا (اتفاقية سايكس - بيكو) ولكن بريطانيا بعد الحرب أخذت فى المماطلة مستندة إلى أنها هى التى تسيطر بجندها على كل تلك المناطق وأخذت تساوم فرنسا على تنازلات جديدة.

ومن هذا كله يتبين لنا كم كانت المناقشات معقدة بين كلمنصو وزميله الاستعمارى لويد جروج والمثالى الأمريكى ويلسون.

لويد جورج:

كان سياسيا بارعا، تكونت لديه ملكة الجدل لسابق خبرته فى مجال المحاماة، وتفوق فى المناقشات السياسية لخبراته خلال عمله فى البرلمان والوزارة وإطلاعه الواسع على الشئون العالمية. ولم يعش، كسياسى فى خط واحد تقريبًا مثل كلمنصو الذى كان فى الغالبية العظمى من حياته معارضًا شديد اللسان على خصومه، أما لويد جورج فقد مارس الطرفين النقيضين المعارضة والموالاة.

كانت حكومته ملكية ومستقرة، بينما كانت فرنسا جمهورية متأججة كانت بريطانيا هادئة الأعصاب بعد هذا النصر الكبير، لأنه لم يكن أول نصر كبير نهائى فهناك اوترخت (١٧١٣) وصلح باريس (١٧٦٣) ومؤتمر فيينا (١٨١٥) وصلح باريس (١٨٥٦). أما فرنسا فكان هذا النصر بمثابة تخطيم الأغلال التى ضربت حول المارد الفرنسى منذ قرون وليس منذ ١٨٧٠/ ١٨٧١ فقط.

كانت سلطاته تستند إلى سلطات تستند إلى تشجيع الملك وتأييد الشعب. وكان هو يدرك أن الشعوب قد تطالب بأكثر مما يجب، بينما كانت هناك ضرورات سياسية تفرض على لويد الشعب الذى أولاه ثقته. وبدت هذه الأزمة بوضوح عن التعرض لمشكلة التعويضات وتقليم أظافر ألمانيا، إذ كان لويد جورج يرى أنه يجب الإبقاء على ألمانيا كقوة رادعة للتفوق الفرنسى. ويجب وضع تقديرات غير مبالغ فيها للتعويضات التى تفرض على ألمانيا. وهنا واجه لويد جورج ضغوطًا شديدة من جانب زعماء بريطانيا بل وكذلك تعرض لنقد شديد من جانب كلمنصو فى هذه المسألة، وكذلك بسبب مطالبة لويد جورج بأن لا يطبقا التجريد من السلاح على ألمانيا وحدها، وإنما طالب بأن يطبق على الجميع إذا أريد السلام أن يستتب.

وكانت المطالب البريطانية مركزة فى خارج أوروبا. أما بالنسبة لخريطة أوروبا الجديدة فكان لويد جورج فى حقيقة الأمر هو المخطط لها وهو المسئول مع كلمنصو، وإلى حد ما مع ويلسون، عن رسمها على النحو الذى ظهرت عليه فى ١٩١٩ – ١٩٢٠. ذلك الشكل الذى ساعد على وقوع الحرب العالمية الثانية.

ويلسون:

الغالبية العظمى من المؤرخين يضفون عليه لقب الرجل المثالى فى مؤتمر الصلح. فمبادرة الأربع عشر هى التى جعلته يأخذ هذا الطابع، ولكن مثاليته كانت موجهة نحو أوروبا أما سياسته فى أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية فكانت تتهم بأنها "سياسة الدولار" وهى سياسة واقعية جدا تستهدف حكومة واشنجتن فى إقتصاديات – وبالتالى فى سياسات – دول أمريكا اللاتينية وتنقل ويلسون بين هذه الواقعية المثالية هو الذى جعله يفقد اتزانه أمام كلمنصو – الشديد الواقعية – ولويد جورج المرن.

كان ويلسون قد اشتهر بقدراته الخطابية، إلا أنه لم يتمتع بدقة القانونى عند وضع الكلمات فى نصوص المعاهدات، ولعل هذا كان راجعًا إلى تركيزه على المبادئ لا على المشكلات الواقعية نفسها. إلا أن بعد نظره فى الشئون العالمية أعطاه مركزا عالميًا كسياسى قدير، وبوجه خاص دعوته إلى "عصبة للأمم" التى جاءت نتيجة لتخصصه فى العلوم السياسية وذلك أيضًا لأن السياسى الأمريكى ينظر إلى المشكلات الدولية بصفة عامة. والمشكلات الأوروبية بصفة خاصة. من بعيد بشكل يجعله يرى النظريات أكثر وضوحًا من المشكلات الملحة، ومن هنا اهتزت مبادئه الأربع عشر أمام مشكلات أوروبا المعقدة. وكان هو مسئولاً عن تعلق الشعوب المهضومة بمبدأ تقرير المصير، وعن خيانته لهذه الشعوب وتركها فى مواجهة عملاقين استعماريين كبيرين منتصرين لا رادع لهما إلا ما بينهما من خلافات.

وحيث أن ويلسون كان يمثل بلدا يتبع الديمقراطية البرلمانية، فإنه كان عرضة لفقد منصبه عقب فوز الحزب المنافس له، وفعلاً عندما أجريت انتخابات الكونجرس في نوفمبر ١٩١٨ ربحها الحزب الجمهوري، فأصبح مركز ويلسون دقيقًا حيث أن زميليه (لويد جورج وكلمنصو) كل منهما كانت تسنده أغلبية برلمانية وأغلبية في الرأى العام.

ويفسر بعض المؤرخين مبالغة ويلسون في إبراز أهمية نظريته الخاصة بعصبة الأمم، وبذله الجهود الكبيرة جدًا من أجل الحصول على موافقة زميليه عليها، فإنها نتيجة لذلك الخزلان الذى منى به في الانتخابات، إذ أراد أن يعود إلى بلاده وفي الوفاض شيئًا. ويذهب بعض هؤلاء المؤرخين إلى أن ويسلون بلغت به اللهفة على ظهور "عصبة الأمم" إلى عالم الحقيقة أن ضحى ببعض من مبادئه السامية حتى يحصل على موافقة كل من بريطانيا وفرنسا على تكوين هذه العصبة.

كانت المشكلات التى تقرر أن ينظر فيها مؤتمر الصلح عديدة للغاية، وكانت أشد هذه المشكلات دقة تلك المتعلقة بخريطة أوروبا الجديدة والمطالب المضادة التى كانت تدور حول هذه القطعة من الأرض أو تلك. ولهذا تشكلت عدة لجان لدراسة المشكلات المعروضة. ولكن الحقيقة التى رسخت بمرور الوقت – خلال انعقاد المؤتمر – أن الثلاثة الكبار هم الذين كانت لهم الكلمة الأخيرة في رسم خريطة أوروبا الجديدة، متوخين في ذلك مصالح بلادهم أولا وتم لهم ذلك في سلسلة من المعاهدات فرضوها على الدول المهزومة، وهذه المعاهدات هى:

١- معاهدة فرساى مع ألمانيا (٢٨ يونيو ١٩١٩).

٢- معاهدة سان جرمان مع النمسا.

٣- معاهدة تريانون مع المجر.

٤- معاهدة نايى مع بلغاريا.

٥- معاهدة سيفر مع تركيا ولكن عدلت بمعاهدة لوزان.

كانت تسوية المسائل المتعلقة بألمانيا هى الأكثر أهمية، رغم أن العديد منها لم يتطلب سوى القليل من الوقت للوصول إلى قرار نهائى بشأنها. فقد استعادت فرنسا الالزاس واللورين، وحصلت على استغلال فحم السار لمدة خمسة عشر عاما تدير عصبة الأمم خلالها هذه الإقليم عن أن يتحدد مصيره باستفتاء عام يجرى فى ١٩٣٥.

أما فيما يتعلق برغبة فرنسا فى السيطرة المباشرة على أراضى الضفة اليسرى لنهر الراين، فكانت دواعى الأمن العسكرى تدعو كلمنصو إلى الإلحاح على تحقيق هذا المطلب، إلا أن ويلسون ولويد جورج رفضا الموافقة على ذلك واكتفوا بتجريد منطقة الراين إلى عمق خمسين كيلو مترا من السلاح، ولم يقبل كلمنصو بهذا إلى بعد أن وعده ويلسون ولويد جورج بتقديم مساعدة انجليزية أمريكية مشتركة لفرنسا فى حالة وقوع هجوم ألمانى عليها واكتفى كلمنصو بهذا الوعد الدبلوماسى. إلا أن تطورات أفقدت هذا الوعد قيمته وبسرعة غير منتظرة، فقد رفض السناتور الأميركى إبرام معاهدة الصلح، وبالتالى لم تعد حكومة الولايات المتحدة مسئولة عن ذلك الوعد، وانتهزت بريطانيا هذا الحادث وأعلنت أن عدم تمسك حكومة الولايات المتحدة بوعد ويلسون لكلمنصو يجعلها هى الأخرى - فى حل من تعاهدها سالف الذكر. وبدا وكأن فرنسا خدعت خديعة مروعة ستؤثر فى توجيه سياستها الخارجية بعد ذلك.

أما الحدود الدنمركية - الألمانية فقد تقرر تعديلها[1] عن طريق إستفتاء فى شلزويج يحدد مصيرها وقد أجرى الإستفتاء وأدى إلى إنضمام الجزء الشمالى منها فقط إلى الدنمرك وظل الباقى جزءا من ألمانيا.

فقدت ألمانيا لصالح بلجيكا:

١- اوين.

٢- مالميدى.

وحصلت بولندا على مساحات من الأرض الألمانية ذات قيمة اقتصادية كبيرة على النحو التالي:

١- الممر البولندى المنتحى على البلطيق بمدينة دانزيج الألمانية تمامًا، والتى أصبحت ميناء حرا تديره عصبة الأمم. وبذلك تكون بولنده قد أوجدت لنفسها منفذا على البلطيق، ولكنها فى سبيل ذلك أضرت بألمانيا ضررا بليغا للغاية، حيث أن الممر البولندى هذا قسم ألمانيا إلى قسمين هما بروسيا الشرقية وألمانيا. ومن الناحية الثانية كانت مدينة دانتزج ألمانية شعبًا واقتصادًا وتاريخًا، ويتعارض فصلها عن ألمانيا مع مبدأ وحدة القوميات. كذلك تقرر إجراء إستفتاء فى سلزيا لتحديد تابعيتها، وبعد إجراءه إنضمت سلزيا العليا (جنوب سلزيا) إلى بولنده بما فيها من مناجم فحم عالية الإنتاج، بينما احتفظت ألمانيا بثلثي سلزيا. وبصفة عامة كانت مكاسب هولنده على حساب ألمانيا تضر بالأخيرة ضررا بليغًا فلا غرو أن كانت المنازعات بين ألمانيا وبولنده هى السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الثانية.

وحصلت تشيكوسلوفاكيا-الدولة الجديدة- من ألمانيا على منطقة صغيرة قرب تروبو.

وكان ميناء مميل- الألمانى السكان- عرضة لمطالبات لتوانيه شديدة حتى لقد نفذ الليتوانيون- الذين يعتبرون مميل منفذا لدولتهم الجديدة - خطة للإستيلاء عليه عنوة فى ١٩٢٣، وحتى لا تتسع المشكلة قرر الحلفاء وضع نظام دولى (المميل). كان واحدًا من النظم المعقدة التى ظهرت فى بعض المدن الهامة بعد الحرب العالمية الأولى.

أما فيما يتعلق بالمستعمرات، فقد جردت ألمانيا منها. واقتسمتها فرنسا وبريطانيا بصفة أساسية وشاركت فى الأسلاب - ولكن بدرجات أقل - كل من بلجيكا واتحاد جنوب أفريقية واستراليا ونيوزيلنده واليابان على النحو التالي:

١- اقتسمت فرنسا وبريطانيا الكمرون.

٢- حصلت بريطانيا على الإنتداب على تنجانيقا وتوجولاند.

٣- تولي اتحاد جنوب أفريقية الانتداب على جنوب أفريقية.

٤- حصلت اليابان على جزر المحيط الهادئ الواقعة تحت السيطرة الألمانية وهي جزر مارشال وكارولينا وماريان، وورثت المناطق الألمانية في الصين (كياو – تشاو في شبه جزيرة شانتونج).

٥- وورثت استراليا منطقة غينيه الجديدة بجزرها. وأنتدبت نيوزيلنده على جزر ساموا.

٦- سحبت من ألمانيا كافة الإمتيازات التي كانت لها في المغرب والصين وسيام وأفريقيه الإستوائية.

٧- نزع سلاح قناة كيبل وتقرر حيادها.

وحيث أن الضمان الحقيقي – بالنسبة لدول الحلفاء لاستمرار تنفيذ هذه الشروط هو منع ألمانيا من معاودة الانتقام – والإبقاء عليها ضعيفة من الناحية العسكرية فرضت على ألمانيا:

١- أن لا يزيد تعداد جيشها عن مائة ألف مقاتل يجمعون بالتطوع حيث أن التجنيد الإجباري أصبح محرمًا على ألمانيا.

٢- أن لا تستخدم القوات المسلحة الألمانية الدبابات أو الطائرات الحربية.

٣- تسليم أسطولها الحربي وأن لا يزيد أسطولها الحربي في المستقبل عن ست قطع لا تزيد حمولتها عن عشرة آلاف طن، وإلي جانبها عدد محدود من القطع الصغيرة الحربية.

٤- تدمير القاعدة البحرية الألمانية في هليجولاند وبذلك تكون بريطانيا قد ضمنت عدم قدرة البحرية الألمانية على استعادة قوتها.

وفرضت على ألمانيا تعويضات غير محدودة تدفع لدول الحلفاء عما أصابها من تخريب وخسائر وألقيت تبعة كل هذا على ألمانيا، وحتى ترغم ألمانيا على دفع هذه التعويضات تقرر إحتلال أراضى الراين لحين تسديدها.

وكانت مشكلة التعويضات واحدة من أعقدها ما جادل فيه الكبار الثلاث كانت فرنسا مسرفة فى مطالبها وكانت بريطانيا – رغم إعتدال لويد جورج – تطالب بالحصول على قدر كبير من التعويضات، وكان ويلسون يرعى عدم شرعية هذا الإسراف فى المطالبة بالتعويضات عن الخسائر المدنية والعسكرية على السواء.

وبلغ التهور فى المطالبة عندما وضع بعض خبراء المال تقريرًا طالبوا فيه ألمانيا بدفع ٢٤ ألف مليون جنيه استرلينى مؤكدين قدرتها على ذلك، ورد الاقتصادى المالى الكبير البريطانى (كينز) بأن قدرات ألمانيا لا تتعدى ألفى مليون فقط.

وأدرك كل من لويد جورج وويلسون أنه لابد من إبعاد قضية التعويضات عن تأثير الرأى العام المتطرف فى كل من فرنسا وبريطانيا. ونجح فى إحالة الموضوع إلى لجنة، وفهم الرأى العام أن وراء هذه اللجنة جهودًا لزيادة قيمة التعويضات بينما كان ويلسون ولويد جورج يهدفان إلى إنقاصها.

وعلى أى حال فقدت ألمانيا الكثير من قدرتها العسكرية ومنعت من تطويرها، وفقدت عشر سكانها وجانبًا كبيرًا من مناجم الفحم والحديد، وأصبحت مدينة للحلفاء بتعويضات ضخمة لا تدرى إلى أى مدى خيالى ستصل إليها الأرقام الفرنسية

بالذات.

كانت الدعوة إلى استقلال القوميات تعنى تفكك امبراطورية النمسا والمجر تفككا كبيرًا. وكأن أول مظهر له هو انفصال النمسا عن المجر. ثم ثورة كل قومية

وعملها على الاستقلال بنفسها. فكان أن ظهرت يوغوسلافيا التى أصبحت مؤلفة جغرافيا من الصرب والبوسنه والهرسك ودلماشيا والجبل الأسود وكرواتيا حتى أعالى نهرى الساف والدواف، وعنصرياً كانت تتكون من ثلاث عناصر: الصرب والكرواتيون والسلوفين. والأخيران كاثوليكيان بينما الصرب أرثوذكسية.

وظهرت تشكوسلوفاكيا وتعدادها ١٣ مليون بسلخ بوهيميا ومورافيا وسيليزيا النمساوية وأجزاء من النمسا السفلى، ولكنها لم تكن دولة متجانسة العنصر وإنما كانت تضم أقليات عديدة على النحو التالى:

٣مليون نسمة يتكلمون الألمانية، خاصة فى السوديت الألمانى و ٧٠٠ألف نسمة من المجريين.

وإلى جانب ذلك مئات الألوف من البولنديين ومن الروتينيين.

واتسعت رومانيا على حساب جارتها المجر وروسيا والنمسا. فاستولت من الأولى على ترانسلفانيا ومن الثانية على بسارابيا ومن الأخيرة على بوكوفينا.

وتنازلت النمسا لإيطاليا عن تريستا وإيستريا والتيرول وممر برنر الاستراتيجى بما فيه من ألمان فى الأديج الأعلى وكان إيطاليا تطالب بميناء (فيومى) الذى احتله الشاعر الإيطالى دانونزيو عنوة حتى سويت المشكلة مع يوغسلافيا.

وهكذا أصبحت النمسا واحدة من دول شرق أوروبا الصغيرة، إذ فقدت مساحتها ووضعها، وحتى لا تضمها ألمانيا نص على منع اندماجها فى ألمانيا.

وهكذا فقدت النمسا تلك المناطق الشاسعة جدا من إمبراطوريتها فى معاهدة سان جرمان، وكانت خسائر المجر بمقتضى معاهدة تريانون أقل فداحة وإن اشتركت مع النمسا فى أنهما أصبحتا دولتين لا منافذ لهما على البحار الدول المهزومة الوحيدة التى لم تفقد الكثير من أراضيها هى بلغاريا، حيث أعيدت إلى

حدودها التي كانت عليها في ١٩١٤، على اعتبار أنها خسرت الكثير من الأراضي في حرب البلقان الثانية (١٩١٣). وكانت الخسارة الرئيسية التي منيت بها مركزة في تنازلها عن تراقيا الغربية لليونان. وأكدت معاهدة نابي هذه التسويات مع بلغاريا (٢٧ نوفمبر ١٩١٩).

أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية فقد أصبحت قاصرة على تركيا بعد أن احتلت الجيوش البريطانية العراق حتى الموصل والشام حتى حلب. وسيطرت قوات الحلفاء على المضايق وأعادت إعلاقها في وجه السفن الحربية على نشق ما طبق منذ ١٨٤١، وفرضت على تركيا معاهدة سيفر (أغسطس ١٩٢٠) وبمقتضاها تنازلت لليونان على ما لديها في أوروبا فيما عدا القسطنطينية ومنطقة صغيرة على طول المضايق وبحر مرمرة بعمق يحول دون إطلالة يونانية على المضايق، واستقلت أرمينية، وتولت اليونان – *التي حصلت من تركيا على جزر بحر إيجا* – أمر الإشراف على منطقة أزمير وما حولها ووضعت منطقة أضاليا تحت الإشراف الإيطالي كما وضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الإنجليزي.

على أن الذي وقع معاهدة سيفر هو السلطان العثماني، بينما كانت الوطنية التركية بزعامة مصطفى كمال (أتاتورك) ترفضها وترفض التفريط على أي شبر من الأراضي التركية، وأعاد تكوين القوات التركية، وقاتل اليونانيين حتى دحرهم، وظل وراء الفرنسيين والإيطاليين حتى تخلوا عما كان تحت يدهم من أرض تركية، وأخيرا توصلا إلى معاهدة لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٣) التي أنهت حالة الحرب مع تركيا وحددت الحدود مع بلغاريا واليونان، ودعت إلى تحديد للحدود التركية – العراقية، والتركية – السورية – وأعلنت تركيا تنازلها عن سيادتها على البلاد العربية – ووافق الحلفاء من جانبهم على إلغاء الامتيازات الأجنبية. وفي نفس اليوم وقع (ميثاق

المضايق) الذى يضمن حرية المرور فيها زمن السلم والحرب ونظم مرور القوات والبحرية المسلحة عبرها زمن السلم والحرب، وتألفت لجنة دولية للإشراف على سير العمل فى المضايق طبقا للميثاق الخاص بها.

وبمقتضى هذه المعاهدة أيضا جلت القوات الفرنسية والبريطانية والإيطالية عن الأراضى التى كانت تحتلها من الجمهوريات التركية الجديدة.

إلى أى مدى كانت هذه التسويات عادلة؟ لقد دار جدل طويل حول هذه المسألة، وتضاربت الأحكام، وسيطرت هذه المناقشات فى كثير من الأحيان الأهداف القومية الخاصة. وبصفة عامة يمكن أن نضع الملاحظات التالية عن هذه التسويات:

١-اعتبر الألمان أن الحلفاء غرروا بهم، فما أن ألقوا السلاح حتى ظهر لهم أن الحلفاء سيعاملون معاملة المغلوب، وهذا ما حدث فعلا بل اشد منه حيث كان من المتعارف عليه أن يتفاوض المنتصر مع المهزوم ويعرض عليه شروطه ويناقشه فيها أما الحلفاء فقد تدارسوا ما يجب أن يفرض على ألمانيا ثم طلبوا منهم توقيع معاهدة فرساى ومن هذا وصف الألمان هذا العمل بأن المعاهدة عليهم إملاء من جانب الحلفاء واتخذوا من ذلك ذريعة للتخلص من قيودها كلما أمكنهم ذلك. وبذلك يكون هذا العمل مسئولا إلى حد كبير عن تعميق الرغبة فى الانتقام لدى الألمان. فقد قلمت معاهدة فرساى من أظافر ألمانيا، ووضعت بذور الحرب العالمية الثانية مثلما وضعت معاهدة فرانكفورت (١٨٧١) بذور الحرب العالمية الأولى. فحق تقرير المصير الذى كان أمل الألمان فى استمرار وحدة بلادهم لم يطبق عليهم وتوزع كثير من الألمان تحت حكم تشكوسلوفاكيا وبولنده وفرنسا، وشطرت ألمانيا شطرين (بروسيا الشرقية – ألمانيا). وكانت محاولات استعادة هؤلاء تعنى وقوع حرب عالمية جديدة.

٢-لم تتبع الدول المنتصرة أية خطة لنزع السلاح الدولى، وبالتالى كان ذلك المشروع – فى نظر الألمان – مجرد خدعة لتجريد ألمانيا من السلاح دون نزع سلاح بقية الدول الكبرى.

٣-كانت روسيا غائبة عن هذه المعاهدات ومن ثم لم تراع مصالحها عند وضعها بل كانت هذه المعاهدات تميل إلى ما يضر روسيا أكثر مما يفيدها.

وكان من أسباب ذلك انتشار الحكم الاشتراكى فى روسيا بسرعة، ومخاوف الدول الرأسمالية من النظرية الشيوعية ولتعاونها عسكريا ضد الحكم الاشتراكى اللينينى هناك.

٤-بدت الولايات المتحدة وكأنها تدافع عن الدول التى وضع لها نظام الانتداب وبعثت بلجنة كنج كراين إلى الشرق العربى، وعادت هذه اللجنة لتضع توصيات رائعة، ولكن ضربت فرنسا وبريطانيا بها عرض الحائط، وعندما حصلت الولايات المتحدة على نصيب من بترول (الموصل) فى شمال العراق، أوصدت بابها دون الحركات الوطنية التحررية فى المنطقة.

وعلى أى حال وضعت هذه المعاهدات باسم استقرار العالم، وكان ويلسون يرى أنه لابد من منظمة دولية تعمل على المحافظة على استمرار هذا السلام وكانت هذه هى المهمة الأولى لعصبة الأمم.

الموضوع	من ص	إلى ص
الفصل الثانى:	٤٣	٨٩
الثورة الفرنسية فى مراحلها المختلفة من ١٧٨٩ – ١٧٩٩.		
-الجمعية الوطنية.	٤٥	٤٨
-سقوط الباستيل.	٤٩	٥١
-قرارات ٤ أغسطس.	٥١	٥٢
-نتائج سقوط الباستيل.	٥٢	٥٦
-حوادث أكتوبر.	٥٦	٥٩
-دستور ١٧٩١.	٦٠	٦٢
-الثورة والكنيسة.	٦٢	٦٤
-التضخم المالى.	٦٤	٦٦
-حل الجمعية الوطنية.	٦٦	٧٠
-إعلان بلنتيز.	٧٠	٧١
-حروب الثورة الفرنسية.	٧١	٧٤
-دستور ١٧٩٥ أو دستور حكومة الإدارة.	٧٥	٨٩
الفصل الثالث:		
عهدى القنصلية والإمبراطورية.	٨٩	١٢٦
-عهد القنصلية ١٧٩٩ – ١٨٠٤.	٩١	٩٤
-دستور القنصلية.	٩٥	٩٩

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

الفصل العاشر:

الفصل الحادى عشر:

Inv:22
Date:4/10/2012

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة
تليفاكس : ٥٣٥٤٤٣٨ - إسكندرية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب تاريخ أوروبا الحديث ، فى الفترة من عام ١٧٨٩ م حتى عام ١٩١٤ م ، ففى عام ١٧٨٩ م ، شهدت فرنسا أحداث الثورة الفرنسية وقيامها ، كما يتناول أثر ذلك على الأحداث فى أوروبا ، وخاصة منذ قيام الثورة وما شهدته أوروبا من ذلك من تطورات أدت الى قيام الحروب ، وعقد المؤتمرات لتسوية هذه المشاكل ، وأدت إلى ظهور بعض الحركات فى أوروبا ... ج ذلك مثل الوحدة الإيطالية والألمانية ، وقيام التحالف ... لك والتى أدت لقيام الحرب العالمية الأولى وما يترتب ... ك .

المؤلف

Bibliotheca Alexandrina
11126366